ديوان الإنشاء

أَوْ

أُسلوب الحكيم في مَنهج الإنشاء القويم

تأليف
السيد أحمد الهاشمي
مدير مدارس فؤاد الأول ومراقب مدارس فكتوريا الإنجليزية سابقاً
وصاحب كتابي جواهر الأدب وجواهر البلاغة

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية

الطبعة الثانية
٢٠٠٤م - ١٤٢٤هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3268-7
9782745132680 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نتلو آيات الحمد والثناء على من أنشأ آدم وعلمه الأسماء. وأنطق بنيه باللغات البينات. في عموم الأنحاء والجهات. ونروي أحاديث الصلاة والتسليم على سيدنا محمد المنزل عليه القرآن الكريم، والمرسل بدينه القويم. ذي (الأسلوب الحكيم) صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الهادي إلى الصراط المستقيم.

أما بعد: فإن العلوم وإن كثرت رياضها وتدفقت بالفوائد حياضها، فأبهجها حديقة سقيت أدواحها بماء الكمال، وأينعت أزهارها فانبتت مكارم الأخلاق وحميد الخلال علم الإنشاء الذي هو غريزة فطرية تفرزها ملكة اكتسابية، ولما عنيت بتدريس هذا العلم في المدارس الثانوية وضعت هذا الكتاب وسميته في الطبعات السابقة.

(أسلوب الحكيم في منهج الإنشاء القويم) بيد أني دعوته في هذه الطبعة الجديدة «ديوان الإنشاء».

وأمتنُّ سلفاً لكل أديب مخلص النية على ما يتحفني به من ملاحظاته – وأسأل الله تعالى أن يمنحني توفيقه وهو المستعان.

المؤلف

السيد أحمد الهاشمي

١ - توحيد وتمجيد المولى سبحانه وتعالى

سبحان الذي توحد بوجوب الوجود ودوام البقاء، وتفرد بامتناع العدم واستحالة الفناء. دل على وجوده خلق الأرض والسماوات العلى، وشهد بوحدانيته انتفاء الفساد عن الأرض والسماء، تنزه عن مشابهة الأمثال والأكفاء، وتقدس عن الحدوث والانقسام والتأليف والأجزاء، أحاط علمه بدبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء. في دياجير الظلماء، وأبدع المواد بقدرة قديمة ممتنعة عن الانتهاء. له الإعادة ومنه الإبداء، دبر الكائنات، وأحصى المخلوقات، وأحاط علمه بما لا يتناهى عدُّه وإحصاؤه، جلّت قدرته وتباركت أسماؤه وعظمت نعمته، وعمت آلاؤه، وقصرت عن إدراك ذاته أفكار العقلاء. وتحيرت في بيداء ألوهيته أنظار العلماء.

وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ ... تدلُّ على أنَّهُ الواحدُ

وقال ﷺ: «تفكّروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا» فالنظر في الخلق يهدي بالضرورة إلى المنافع الدنيوية، ويضيء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره. وعليها تجلت أنواره وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام.

كيفيةُ المرءِ ليسَ المرءُ يدركُها ... فكيفَ كيفيةُ الجبَّارِ في القِدمِ
هو الذي أنشأ الأشياءَ مبتدعاً ... فكيف يدركهُ مستحدثُ النَّسمِ

وكلما رق الوجدان ولطفت الأذهان ونفذت البصائر ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة، واهتدى إلى أنها كمال قدرة واجب الوجود ونهاية عظمته.

كلُّ ما يرتقي إليه بوهمٍ ... من جلالٍ وقدرةٍ وسناءْ
فالذي أبدعَ البريَّةَ أعلى ... منه سبحانَ مبدعُ الأشياءْ

٢ - الآثار العجيبة التي أبدعها مبدع الكائنات

﴿إنَّ في خَلقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [البقرة: ١٦٤].

إن من أجال فكره في هذه الموجودات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسماوات، وما فيهما من العجائب والغرائب، ومن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان،

والمجيء والذهاب مع تعاقبهما على ذلك بحالة منتظمة لا يتغيران مهما تعاقبت الفصول وتوالت الأعوام. ومن السفن التي تجري على الماء لينتفع الناس بها في أُمور معاشهم ومن أنزل الماء من السماء فتنبت به الأرض بعد يبسها وتنتشر فيها الدواب بما تأكله من ذلك النبات. ومن تصريف الرياح وتقلبها جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً حارة وباردة، ومن الغيم المسخر بين السماء والأرض بلا علاقة تمنعه من السقوط ولا ممسك يمسكه يسير حيث شاء اللّه تعالى لاستدلَّ على كمال قدرته ونهاية عظمته.

انظر إلى السماوات وما اشتملت عليه من الكواكب وعجائبها ودورانها، في أفلاكها بهذه الحركات المنتظمة مع اختلافها في الصغر والكبر والنور والظلمة – وغير ذلك.

وانظر إلى الأرض وما اشتملت عليه من البحار والجبال والأودية والكهوف والسهول والمعادن وخواصها ومنافعها.

وانظر إلى الحيوان الذي بلغ في الصنع أعلى منازل الغرابة وأسمى درجات الإحكام لو تأمل العاقل ما انطوى عليه من غريب التكوين وبديع الصنع وما اشتمل عليه من الأعضاء الظاهرة والباطنة ووظيفة كل عضو منها واختلاف ابنيتها ودقائق صنعها لانبهر عقله وتحيَّر لبه، لا سيما وقد اختلفت أصنافه – فمنه ما يعيش في الهواء وما يعيش في الماء، وما يعيش على سطح الأرض وما يعيش في اثنين من ذلك ومنه ما يمشي على أربع، ومنه ما يمشي على بطنه. فسبحانه تعالت قدرته.

وانظر إلى النبات وتباينه في الأشكال والأزهار والأوراق والثمار والبذور والروائح والطعوم والألوان والمنافع والمضار، قال اللّه تعالى: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق اللّه السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ [الروم:٨]. وقال تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نُصبت، وإلى الأرض كيف سُطحتْ﴾ [الغاشية:١٧–٢٠].

فلا جرم أن من أوجد هذه الموجودات المتقدمة وأحكمها وأبدع إيجادها على غاية الإحكام والإتقان يكون موجوداً وقادراً اتم القدرة فسبحان من لا يقدر قدر قدرته إلا هو ولا يحيط بعظمته سواه.

مليكٌ عزيزٌ لا يُرَدُّ قضاؤهُ   حكيمٌ عليمٌ نافذُ الأمرِ قاهرُ

٣- رأس الحكمة مخافة اللّه

مخافة اللّه هي الشعور بالقرب المعزَّز بالخشية من الذات العلية يبعثنا ذلك الشعور إلى فعل المامور به وترك المنهي عنه في الاجتماع والعزلة وإلى التسلي والرضا عند وقوع

البلاء بينما الإنسان لا ساعد له سواه جل شأنه – وباشتراط القرب يعلم الفرق بين الخوف من اللّه والخوف من غيره، فإن خوف الإنسان من غيره يستدعي بعداً لا قرباً، وأما مخافة اللّه فتستدعي قرباً يجده الإنسان من نفسه شاء أم أبى، ولذلك قال أبو القاسم القشيري: من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف اللّه هرب إليه. ويختلف خوف الناس منه سبحانه وتعالى.

فمنهم من يخافه هرباً من العقاب والعذاب وطلباً للأجر والثواب، وذلك حاصل بأصل الإيمان وعليه عامة الخلق قال عز شأنه: ﴿وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ومنهم من يخافه لذاته ولجلاله، ويراد من الخوف هنا الخشية وعليه العارفون باللّه، قال وهو أصدق القائلين: ﴿إنما يخشى اللّه من عباده العلماء﴾ [فاطر:٢٨] أي: العارفون بذاته وبجلاله. وقال عليه الصلاة والسلام: «أنا أخوفكم إلى اللّه جل جلاله».

وكذلك يختلف حب الناس له تبارك وتعالى مقداراً وكيفية فمنهم من يحبه لإحسانه وللنعيم.

ومنهم من يحبه لكونه تعالى مظهر الجمال والكمال، وهذا هو الحب الحقيقي الذي هام به أهلوه الألى أشرقت عليهم شمس الحكمة فطربوا لها.

وبالجملة فالتعرف بالألوهية لا يحتاج إلى مرشد خارجي بل هو حاصل بالفطرة والطبيعة – وتعيين المعبود الحق جل شأنه هو المحتاج لا محالة إلى الإرشاد ولم يكن ذلك إلا بهدايته سبحانه على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام ليتمموا معرفة الإنسان به عز وجل فيهتدي بهديه وينتهي بنهيه كي يحظى بالنعيم الأبدي المقيم – وأهم ما هدتنا إليه الرسل لا سيما المصطفى ﷺ هو محبة اللّه تعالى. وقد جعلها الشارع شرطاً في الإيمان بقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما»، وقال تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حباً للّه﴾ [البقرة:١٦٥] فمحبتنا للّه سبحانه وتعالى لذاته ولكونه محسناً منعماً متفضلاً على جميع عباده بجلائل النعم.

وخوفنا منه تبارك وتعالى لجلالته وعظمته، ولكونه مصدر الخير والكمال نأتمر بأمره وننتهي بنهيه حباً فيه لا خوفاً من عقابه ولا طلباً لثوابه، فإن الخير كله فيما أمر اللّه به تعالى والشر كله فيما نهى عنه.

٤- فوائد إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام

خلق اللّه سبحانه وتعالى الخلق وطبعهم على أخلاق حسنة تساعدهم على انتظام حالهم، وأخلاق تخالفها لأجل أن يتسابقوا بها في عمارة هذا الكون الذي قدر وجودهم فيه إلى أجل معلوم – لكن لما كان تحديد الرغبة في السبق يوجب وقوف كل راغب عند

حده ويأسه من مجاوزته وبذلك تتعطل حركة المسابقة لم تعدل الأخلاق في أصل الفطرة فصارت تلك الأخلاق السيئة في معرض الطغيان والوصول إلى حد يصبح به ضرها أكبر من نفعها – لذلك اقتضت رحمة اللّه بعباده بمحض اختياره أن يرسل لهم إنساناً منهم فطرهم على الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة، وأطلعهم على مكامن الأخلاق وأسرارها وكيفية علاجها ودرجة الاعتدال منها ليهدوهم ويرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم وتقويم أخلاقهم أو تهذيب نفوسهم، ويبينوا لهم الخير ليتبعوه والشر ليجتنبوه، ويردوهم إلى حد الاعتدال في مثل هذه الأخلاق، قال تعالى: ﴿لقد منَّ اللّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران:١٦٤]. وقد بين اللّه تعالى وظيفة هؤلاء الرسل وحكمة إرسالهم في قوله: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على اللّه حجة بعد الرسل وكان اللّه عزيزاً حكيماً﴾ [النساء:١٦٥]. وقد اقتضت حكمة اللّه تعالى أن يجعل لهؤلاء الرسل من الآيات والعلامات الواضحات والحجج القاطعة والبراهين الساطعة ما يلجئ خصومهم إلى الإذعان والتصديق بكل ما جاؤوا به من عنده جلَّ وعلا، ويتركون ما هم عليه من العناد والحسد والتقليد، قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم اللّه إنه قوي شديد العقاب﴾ [غافر:٢٢]. فهؤلاء الرسل والأنبياء مهدوا طرق الهدى وأوضحوا منار الحقيقة وطمسوا أعلام الجهالة فانتقلت الخليقة من الخشونة إلى النعومة ومن حضيض الهمجية إلى ذروة المدنية، ونادى منادي الخير في أهل الأرض أن أبشروا فقد غرست البركة «وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

وبالجملة إن نوع الإنسان يحتاج إلى المصالح الضرورية الكثيرة التي لا بقاء له بدونها مثل الغذاء واللباس والمسكن والآلات وغيرها، وإن الإنسان الواحد لا يقدر أن يقوم بجميع هذه المصالح الضرورية، بل لا بدَّ أن يكون معه آخرون من بني نوعه حتى يطحن هذا لذلك ويخبز ذاك لهذا، ويزرع لهما ثالث وهكذا الحال في البناء وغيره من الصناعات فهو يحتاج في تعيشه إلى اجتماعه مع بني نوعه للتعاون والتشارك في تحصيل تلك المصالح الضرورية لذلك قيل: (الإنسان مدني بالطبع) فإن التمدن هو هذا الاجتماع وذلك التعاون والتشارك لا يتمان بدون المعاملات والمعاوضات التي تجري بينهم، ويقع فيها غالباً التنازع المؤدي إلى الاختلاف والقتل واختلال أمور الدين والدنيا فلا بدّ لهم من قانون متفق عليه مبني على العدل والإنصاف بعيد عن الجور والاعتساف مشتمل على نظام أمور معاشهم.

والعناية الأزلية وإن عمَّت جميع الحيوانات بحيث أعطت كل حيوان ما يليق من الآلات وهدته إلى ما فيه بقاؤه وبه قوامه، لكنها في الإنسان أشد لأنه أشرف الأنواع

الحيوانية وما عداه من تلك الأنواع مسخَّر له فكيف يتصور أن اللّه مع تلك العناية الأزلية الشديدة في حقه لا يهديه إلى قانون من قِبَله لينقاد له العوام والخواص، ويحصل به انتظام أمور المعاش والمعاد – ذلك القانون هو (الشرع).

ولما كانت ذات اللّه في غاية التقدس، وذواتنا في غاية التدنس، فلا يمكن وصول هذا الشرع بلا واسطة – ولا بدَّ أن تكون هذه الواسطة ذات جهتين تكون لها مناسبة باللّه بجهة – وبنا بجهة أُخرى، ولهذا يلزم أن يكون الوسيط إنساناً مقدساً متميزاً عن الآخرين بخصوصية فيه من اللّه، مختصاً بأمر يدل على تصديقه حتى يطاع وينقاد الناس إليه.

٥– ما هي الحاجة الماسّة إلى الأديان

إن الدين أقوى أساس تشاد عليه دعائم الروابط الاجتماعية بين أفراد أمم النوع الإنساني مهما تباينت مشاربهم واختلفت أغراضهم وافترقت أهواؤهم وتعددت لغاتهم، فرابطة الدين أقوى مؤثر في النفوس لأنها أحرزت الشرفين، وهما اتصال سندها بمبدع الكائنات ودوامها إلى آخر العمر، فهي أجمع من الجامعات الأخرى كالجنسية والوطن واللغة – وذلك لأن رابطة الجنس وإن دامت بدوام سببها وهي القرابة فمصدرها وهم الآباء أقل مرتبة من الربوبية – قال تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم ﴾ [الحجرات:١٣]. ولهذا نرى الرجل يقطع أقاربه برابطة الدين مهما تمكنت في قلبه، وهذا معلوم في كل زمان ومكان، وكم في الحوادث من شواهد على ذلك، وإذا كانت الوحدة الجنسية بهذه المثابة من الضعف، فمن باب أولى ما هو أضعف منها وهو الوطن واللغة التي تترجم عن تلك النفوس المودعة في تلك اللطيفة فهي ترجمان عنها، فرع لها، تابعة لإشارتها.

فرابطة الدين إذا تمكنت من القلوب كانت حصناً حصيناً يلجأ إليه الخائفون عند الدفاع عن أوطانهم والذب عن حياضهم – كما أرهب سيدنا معاوية رضي اللّه تعالى عنه قيصر الروم (وقد انتهز فرصة التشاجر بينه وبين سيدنا علي فكتب إليه يهدده بالحرب أو دفع الجزية). يقول له: (إن لم تكف عن هذا وإلا سلمت الأمر لصاحبي وكنت أول سهم من سهامه يرمي به إليك) فكانما ألجم فاه بهذا الخطاب بما أوقع في قلبه من الرعب مع اشتداد الأمر بينه وبين سيدنا علي رضي اللّه عنه – كيف لا وإن الرابطة الدينية هي السبب في تقدم الفتح الإسلامي وانتشاره في بقاع الأرض في أقرب زمن.

انظر إلى ألفة الأوس والخزرج في زمن النبوة مع ما كان بينهم من شقاق وحروب دامت أعواماً كثيرة فالف اللّه بين قلوبهم بوحدة الإسلام.

وهؤلاء ملوك الغربيين أعمالهم شاهدة على ذلك باتحادهم على الشرقيين خصوصاً الصينيين وتألبهم أيام حروب اليونان واقتسامهم بلاد أفريقيا وغير ذلك مما لا يحصى في الحرب العالمية الكبرى سنة ١٩١٤م.

وبالجملة فالدين هدى وعقل، من أحسن في استعماله والأخذ بما أرشده إليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه، وقد جرب علاج الاجتماع الإنساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى إنكاراً، ولا الأصم إعراضاً ولم يدع هذا الدين أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا أمّاً من الأمهات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية الفكر واستقلال العقل في النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها في سبيل السعي.

٦- فوائد الاتحاد ومضار التنازع

إنما الأمةُ الوحيدةُ كالجسـ ـم وأفرادُها كالأعضاءِ
كلٌّ عضو له وظيفةُ صُنْعٍ لا ترَى الجسمَ عنهُ في استغناءِ

من أعظم الأسباب والزم الوسائل لسعادة الأمة هو وحدتها التي تجعلها كالجسم الواحد، إذا شكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء، قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ [الحجرات: ١٠] وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى».

ومن المعلوم أن الناس مدنيون بالطبع (أي: لا بدَّ لهم من الاجتماع والمخالطة) لأن الفرد الواحد لا يمكن أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة إلى الاجتماع الذي يجلب إلى أمته الخير ويدفع عنها الشر والضر.

الناسُ للنَّاسِ من بدوٍ وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإنْ لم يشعروا خدمُ

فالاتحاد وارتباط القلوب ببعضها وتضافرها على أمر واحد واجتماعها على كلمة واحدة من أهم أسباب السعادة وأقوى دواعي المودة والمحبة فكم به عمرت بلاد، وسادت عباد، وانتشر عمران وتقدمت أوطان واسست ممالك، وسهلت مسالك، وقويت شوكة وأمنت غوائل وكثر تواصل - إلى غير ذلك من فوائد الاتحاد الذي هو أعظم الفضائل وأمتن الأسباب والوسائل - فمن تمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى وفاز بالسبب الأقوى فهنيئاً لأمة اتحدت. وعلى الخيرات اجتمعت، فتفوز على الأمم الأخرى فوزاً عظيماً وتبلغ

شأواً جليلاً وتخلد لها ذكراً جميلاً على صفحات التاريخ بكرةً وأصيلاً. وقد آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه كان أحدهم يرث الآخر دون قراباته وذوي رحمه، وبذلك كانت نصرتهم على عدوهم مع قلة عددهم فدوخوا الممالك وافتتحوا البلاد ومصروا الأمصار ومدوا ظلال العمران وشيدوا الممالك وسهلوا المسالك، قال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وأما التنازع والتفرق في الكلمة والرأي فهو سبب الضعف والخذلان والفشل في جميع الأزمان، بل هو مجلبة الفساد ومطية الكساد وداعية الخراب والدمار وداهية العار والشنار، فكم شاهدنا من عائلات كبيرة كانت في رغد من العيش وبيوت كثيرة كانت آهلة بأهلها حتى إذا دبت فيهم عقارب التنازع وسرى سمعها في قلوبهم وأخذ منهم الشيطان مأخذه تفرقوا شذر مذر، وأصبحت بيوتهم خاوية على عروشها - وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦].

وبالجملة فمن نظر في مرآة التاريخ وتصفح غير قليل من أحوال الأمم وتقلبات الدهور وما حصل لها حتى آلت إلى هذه الدثور رأى أن عزها الذي كانت مغموسة فيه وفخرها الذي تلفعت بحواشيه ومجدها الذي تقنعت به وتحلت بسرباله إنما هو نتيجة ما تمسكوا به وتعلقوا بأهدابه حتى شربوا من العمر سائغه ولبسوا من الدهر سابغه، وذلك لأنهم قد اتحدت أهواؤهم واجتمعت كلمتهم واتفقت وجهتهم وتواطأت أفكارهم، فكان هذا أقوى عامل في رفع شؤونهم وأشد ساعد في إعلاء سطوتهم وأكبر نصير لنصرتهم وحصن حصين لحفظ شوكتهم لا تنال أعداؤهم منهم مراماً بل يطأطئون رؤوسهم لهيبتهم إكراماً، ويخرون للأذقان لهم تعظيماً واحتراماً ويبلغون في الحضارة والمدنية شأواً عظيماً.

تلك أمة لا غيَّب الله لها شمساً مشرقة ولا بلَّغ الله عدوها أنوارها - والويل والثبور لأمة دبت بينهم عقارب الخلاف فتسري فيهم ريح الشقاق، حتى قضى عليهم بالتشتت والفراق.

٧- فوائد التعاون والمساعدة

التعاون صفة تبعث الإنسان إلى مساعدة أبناء جنسه وإلى الاتحاد معهم قولاً وفعلاً للحصول على المنفعة العامة. وبعبارة أُخرى: هو تأثير الشعور بالوحدة الوطنية.

والمنفعة العامة كامنة ضمن المنفعة الخاصة إذا نحا نحوها الأفراد وأخذ كل بيد

الآخر وحافظوا على أسباب الائتلاف، وتوطدت بينهم دعائم المحبة، وكانوا كبنيان واحد يشد بعضه بعضاً. قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»، وأما إذا تفرقت قلوبهم ولعبت بهم الأهواء فلا ترى للمنفعة العامة لديهم محلاً، ولا يكونون أمة بل آحاداً، مجتمعين أجساماً مفترقين قلوباً وأهواء، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، تستحكم فيها الميول فتتمكن في طباعهم العداوة والنفرة.

إنَّ القداحَ إذا اجتمعْنَ فَرامَها ... بالكسر ذو حنقٍ وبطشٍ أيّدِ
عزّتْ فلمْ تُكسَرْ وإنْ هي بدّدتْ ... فالوهنُ والتكسيرُ للمتبدّدِ

ويصيرون كما قيل: (غنماً متبددة في صحراء قد أحاطت بها أصناف السباع فبقاؤها مدة سالمة، إما لأن السباع لم تصل إليها بعد «ولا بدّ أن تصل إليها يوماً ما» وإما لأن السباع أدتها المزاحمة إلى القتال وتمنعها شدة الجوع من المضي مع الغضب الذي ربما أذهبته شدة الجوع بالكلية أو يغلب فريق فريقاً فيصير الغالب غاصباً ويصير المغلوب سارقاً فتقع الغنم بين غاصب وسارق).

ولا سبيل إلى التعاون على المنفعة العامة إلا إذا أشرب في قلوب الأفراد (حب الوطن) وصار لديهم الوطن كمنزل واحد هم أهلوه وأعضاؤه – وقد جعله المشرع الأول عليه الصلاة والسلام من الخصال الدينية فقال: (حب الوطن من الإيمان) والآثار الصادرة عن الحكماء والسياسيين مؤذنة بطلبه – وقد قصدوا بذلك بعث الأفراد إلى محبوب واحد وهو الوطن حتى تتفق أهواؤهم فتتألف قلوبهم فيعم الصلاح بينهم. قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا اللّه إن اللّه شديد العقاب﴾ [المائدة:٢]، فالتعاون عليه مدار نظام الأمم وملاكها وحياتها والاحتياج إليه أمر فطري في الإنسان إذ لا يمكنه أن يقوم بمفرده بسائر وظائف الحياة البشرية فهو مضطر إلى الاجتماع بطبيعته – ولما كان الاجتماع لا يخلو من المنازعات المفضية إلى تغالب القوى المتنازعة كانت الحاجة ماسة، ولا بدّ إلى منع ذلك التغالب – ومن أهم الوسائط في منعه وأعظم الوسائل في دفعه التعاون والتناصر والتآلف والتضافر، فبالتعاون تدفع عوادي الطبيعة وتتقى مخاطر الوحدة ويتسابق في ميدان الحياة فيدعوه ذلك إلى المثابرة على العمل فيزرع ويستثمر ويعمر ويخترع ويبتدع ويتفيأ ظلال العمران إلى غير ذلك مما تدعو إليه الطبيعة البشرية – ولولا التعاون لثبطت همته وقعدت به عزيمته، حيث يعتقد من نفسه العجز عن مطاردة العوادي، ولا يقدر بمفرده على اتقاء مخاطر الحياة البشرية فيكتفي من العيش بنزره، ومن الحياة بقدر ما تقتضيه الطبيعة، وهذا منافٍ للحكمة الإلهية التي أودع اللّه من أجلها في الإنسان العقل.

وبالجملة يجب التعاون على فعل الخيرات بحيث يقضي البعض للبعض ما هو محتاج إليه ولا يمكنه الحصول عليه - وكذا التعاون على ترك المنهيات يرضى الله عنهم فيمنحهم خيره ويكفيهم شره، فمن جمع التعاون بقسميه فقد كملت سعادته وطابت حياته وهنأت عيشته.

وقد نهى المولى تبارك وتعالى عن التعاون على فعل الشر والضر، فإن في التعاون على ذلك مفاسد كثيرة ومنكرات فظيعة كبيرة وراءها عذاب أليم وعقاب شديد.

٨- العقل وفوائده

وأفضلُ قسَمِ الله للمرءِ عقلهُ ... فليسَ من الخيراتِ شيءٌ يقاربُهْ
إذا أكملَ الرَّحمنُ للمرءِ عقلَهُ ... فقد كملت أخلاقُه ومآربُهْ

غير خافٍ أن أشرف الخواص التي تميَّز بها الإنسان عن الحيوان (العقل) الذي هو سلطان القرائح ومصباح السوائح ومفتاح المصالح ورأس العلوم، وسبب إدراك المعلوم، ومادة الفهم وينبوع الحكمة وهو الموصل إلى صلاح الدين والدنيا لا تستقيم الحياة إلا به ولا تدور الأمور إلا عليه، وهو نور موضوع في القلب كنور البصر في العين ينقص ويزيد ويذهب ويعود، وكما يفقد نور البصر من العين ولا يتغير من أشكالها شيء كذلك إذا عدم العقل من القلب لا يتغير له صفة، وكما تدرك بنور البصر شواهد الأمور. كذلك يدرك بنور العقل كثير من المحجوب والمستور، فعمى البصر كعمى القلب.

وكيف لا يكون العقل أجل موجود في البرية، وأشرف موضوع في هذه الخليقة الآدمية. وقد خصه الله تعالى بالإنسان لشرفه وكماله وعزته وجلاله: ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ [طه: ٥٤].

قال بعض الحكماء: العقل أمير والخصال رعية، فإن قوي عليها أطاعته وإن ضعف عنها خالفته. والجسم مدينة والعقل ملك يديرها وقواه وحواسه جنوده، وأعوانه وجوارحه رعيته. والنفس الأمارة بالسوء عبد ينازعه في مملكته ويسعى في هلاك رعيته، له شيعة وأتباع من الشهوات، فصار الجسد كثغر وموضع جهاد ورباط، فإن هو ضيَّع ثغره وأهمل رعيته غلبته النفس وقويت عليه بجنود شهواتها فأهلكته وأهلكت جنوده، وإن هو جاهدها حق جهادها وأحال بينها وبين شهواتها ومرادها كان ذلك سبباً لبقاء ملكه وعمارة حصونه هذا - والعقل ينقسم إلى طبيعي معتاد ومكتسب مستفاد، فالأول: ما سبق الكلام عليه. والثاني: ما تحصل بكثرة التجارب، ومرور الأيام والليالي بالمواهب والنوائب. وليس المكتسب بمنفصل عن الغريزي، بل هو نتيجته يزيده قوة وينميه، ويشيد أركان مبانيه.

وبالجملة فالعقل يعقل صاحبه من شهواته لأنه نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل، ومن آيات وفور العقل في الإنسان تدبر العواقب والأخذ بالحزم في كل الأمور وترك الأماني والتودد إلى الناس ومداراتهم والحياء وحسن الخلق وصدق الفراسة ومخالفة هوى النفس والاعتبار بحوادث الزمان - وقد روي عن جبرائيل أنه أتى آدم عليهما السلام وقال له: أتيتك بثلاث فاختر واحدة. قال: وما هي؟ قال: العقل والحياء والدين. قال آدم: اخترت العقل. فقال جبرائيل إلى الحياء والدين راجعاً: فقد اختار العقل عليكما، فقالا: أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان.

٩- فوائد العلم ومضار الجهل

لا يخفى أن العلم أفضل مكتسب، وأشرف منتسب، وأنفس ذخيرة تقتنى، وأطيب ثمرة تجتنى، به يتوصل إلى معرفة الحقائق ويتوسل إلى نيل رضا الخالق وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها وأكرم فروعه وأزكاها، لا يضيع أبداً صاحبه ولا يفتقر كاسبه ولا يخيب مطالبه، ولا تنحطُّ مراتبه. والعلم لا يوصل إلى معرفة فضله وجلالة قدره إلا بالعلم، كما لا يجهل شرف مكانه وعلوَّ شانه إلا أهل الجهل، لقصور أفهامهم عن عظيم منافعه وكريم مواقعه، وهو اسم من أسماء اللّه عز وجل وصفة من صفاته - وهو عظيم في نفسه وحامله عزيز في قومه، إن قال فكلامه مرفوع، وإن أمر فأمره مسموع، فهو وسيلة لكل فضيلة وذريعة لكل شريعة، ونور زاهر لمن استضاء به، وقُوت هنيء لمن تقوَّت به، ترتاح به الأنفس إذا هو غذاها وتفرح به الأفئدة إذا هو قواها، والدليل على الخير، والعون على المروءة والصاحب في الغربة، والمؤنس في الخلوة والشرف في النسب - قال اللّه تعالى: ﴿ يرفع اللّه الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ شهد اللّه أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقال عليه الصلاة والسلام: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد» وقال أيضاً: «كونوا للعلم وعاة ولا تكونوا له رواة». وقال أيضاً: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم». - بخلاف الجهل فإنه رأس الفضائح ومعدن القبائح، ومضمار العثار، ومعيار الشنار، وسبب الخمول، ودليل التخلف وداعية المقت - إن نطق صاحبه تعرض للخزي والذم، وإن تصرف صاحبه في حال سقط لليدين والفم، وهو دليل على غلظ الطبع وجمود الخاطر وفساد التركيب واعتلال الذهن وكدر النفس، وقد عصم اللّه تعالى منه أنبياءه وحذر منه أولياءه فقال: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا فقر أشد من الجهل» وقال أيضاً: «الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما». وقال ابن المعتز: نعمة الجاهل كروضة على مزبلة.

وبالجملة: فالعلوم كثيرة والمعارف جمة، وأنواعها مختلفة وبعضها أشرف من بعض والإحاطة بجميعها محال. فحينئذٍ يختار من العلم أرفعه، ويستعمل منه أنفعه، وما زال العلم من الإنسان بمنزلة الروح من الجسد فكما يحيا الجسد بالروح كذلك يحيا صاحب العلم في الناس بعلمه.

وقد أبان اللّه عز وجل فضل العلم عن الجهل بقوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر:٩] وسئل رسول اللّه ﷺ عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد، فقال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً».

وقال المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام: عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما، وعالجت الجاهل فأعياني - ألم تر أن الإنسان بالعلم استخدم أنواع الموجودات وانتفع بأصناف الكائنات، وأظهر غرائب الأعمال، وأخضع شوامخ الأثقال وطار على البخار، واختصر مطولات البحار والقفار، واستخدم البرق رسول أخباره، والنور مصور آثاره، وجعل الكون بأجمعه تحت طوعه. ومادة فكره وصنعه فاستنبط واستخرج واستظهر واستنتج، وأبدع وصوّر وأحكم وقدّر، وبدّل وغيّر، وأمسك وطيّر، وحلّل وركّب، وأحضر وغيّب، وبخّر وصعّد، وجسّم وشكّل، واختصر وطوّل، وصعّب وسهّل، وأكثر وقلّل.

فالعلم هو الكنز الذي يقينني، والثروة التي لا تفند ولا تفنى.

أجلُّ ما يُبتغى دوماً ويكتسبْ ... ويقتنى من حُلى الدنيا ويُنتخبْ
علمٌ شريفٌ عميمُ النَّفعِ قدْ رفعتْ ... لمَنْ يُزاولـه بينَ الملا رُتَـبْ
إن عاشَ عاشَ سعيداً سائداً أبداً ... لا يُستضامُ ولا يُشْنا فَيُجتنبْ
وإن يَمُـتْ فثناءٌ شـائعٌ حسـنٌ ... وبعـدهُ رحمـةٌ ترجـى وتُرتقبْ

فبالعلم تستنير الأفكار وتبصر الأبصار وتظهر الأسرار وتسمو المقاصد وتصفو الموارد، وبه ارتقى الإنسان ونجح وكدّ، وكدح وأدلى ومتح وأخذ ومنح وغرس وفلح وطار وسبح. فما العلم إلا كمال الإنسان وحلية العقول والأذهان وسور الشرائع والأديان.

١٠- المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه

هذا الحديث النبوي من جوامع الكلم ونوابغ الحكم أفاد أن المسلم الذي يعتد بإسلامه (بحيث يكون سبيلاً لصلاح دينه ودنياه) هو من لا يصدر عنه أذى ولا سوء لأحد بقول ولا فعل ومن لا يصدر عنه السوء والأذى، فإنما يصدر عنه الخير والنفع ضرورة أن الإنسان إما نافع أو ضار فنفي أحد الوصفين عنه يستلزم ثبوت الآخر له.

إذا أنتَ لم تنفعْ فضرّ فإنّما ... يُرجى الفتى كيما يضرّ وينفعَ

فمن لم يكن له من إسلامه ما يمنعه عن أذى إخوانه فهو جدير أن لا يسمى مسلماً فضلاً عما يلحقه من المذام، وآثر اليد واللسان بالذكر لكونهما أقوى آلات الجسم وأكثرها نفوذاً في الأعمال، ولما كانت آلات البدن خادمة للإرادة منفذة لأوامرها فأينما وجهتها توجهت كان الإنسان عبارة عن قوتين إحداهما آمرة والأخرى مأمورة، فالآمرة معنوية لطيفة لا ترى لها عملاً، وإن كنا نشعر بها بخلاف المأمورة فإن أعمالها مرئية محسوسة، مثلاً إذا تذكرت أن لك صديقاً تود أن تزوره فإنك تجد من ذلك في نفسك تأثراً وانفعالاً يبعث أعضاءك على السعي إلى ذلك الصديق لزيارته، فهذا الانفعال الذي وجدته ليس شيئاً محسوساً بل الذي تحس به حركة أعضائك في السعي إليه، ومعلوم أن الإرادة النفسية هي كغيرها من اللطائف المودعة في الإنسان ساذجة في مبدأ نشأتها قاصرة عن الجولان في الأشياء فهي لذلك محتاجة لأن تربى حتى لا تأمر إلا بما ينفع، ولا تمضي إلا في ما ينبغي المضي فيه، ولو تركت على سذاجتها وقصورها لم تهتد إلى ذلك إذ هي قوة روحانية والقوة الإرادية كأنها محصلة لعدة قوى كلها مثلها في أنها خلقية في الإنسان، أو تتولد فيه بالاختلاط والتدريب.

وبالجملة كان نبينا ﷺ يتفرس في أحوال الناس ويرى من أمراض قلوبهم وآفات نفوسهم ما لا يرون هم من أنفسهم فيرشد الإنسان إلى ما يراه أنجع في علاجه ويصف له دواء دائه فقط مع الرفق والتلطف به.

١١ - اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً

خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان وقوّمه في أحسن تقويم وجعل له فضلاً على سائر المخلوقات في نفسه وجسمه.

أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأي. وأما في جسمه فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم، وأما بالنسبة لقواه الجسمية فهو فيها أقل من كثير من الحيوانات - وأما القوى العقلية فهو متفرد بها، ولذا كان له السلطان العام والتصرف التام في كل ما أوجد في هذا العالم فلا تغادر أوامره ما يطير في جو السماء، ولا ما يسبح في لجج الماء، ولا ما يدب على وجه البسيطة، ولا ما استكنّ فيها.

ثم إن الإنسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان، ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار - ما فضله إلا العقل واللسان.

فمن صرف همته كلها إلى تربية الفكر بالعلم والعمل فجدير بأن يسمى إنساناً ومن

دعته وحكمت عليه نفسه الشريرة بصرف همته إلى تربية القوة الشهوية التي تعود منفعتها على الجسم، فحقيق بأن يلحق بأفق البهائم ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾ [الفرقان: ٤٤]. ثم إن الحكيم العليم جلت قدرته حكم على الإنسان بالسعي والعمل للحصول على ما به يقوِّم وجوده ويطيب عيشه، ويدفع عنه عوادي الحوادث.

ولما حكم سبحانه وتعالى على تلك المقومات بالخفاء تحت أستار حكمه وجب على الإنسان أن يستخدم عقله وأعماله الجسمية في كشف الغطاء عن تلك المقومات فينتفع بها في قوام حياته ودوام لذاته، ويحصل ما به تزجية المعاش له ولغيره لأجل بقاء بني نوعه.

ولما عرف أنه غير قادر على الوصول إلى تلك الغاية بنفسه، بل لا بدَّ من وسائط توصله إلى ما استكنَّ تحت طيِّ الفكر عمد إلى استعمال القوة العاقلة واستمال الخليقة واستعان بها فتوصل إلى ما كمن بفكرته، وأخضع بعض العوالم لخدمته، فنال مقصوده وحصل على مرغوبه.

ومن البحث والتنقيب وأعمال الفكر وقياس المجهول على المعلوم انكشف له ما انكشف – لأنه كلما ارتقى في معارج التمدين والحضارة تزداد رغبته في استجلاء غوامض الأمور واستطلاع حقائقها وما استتر تحت حجب الحكمة فهو إلى الآن مجد في طلبه كثير السعي، والاجتهاد في استخراج غوامض أسراره وهذا مصداق قوله ﷺ: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال». وحيث قصد الإنسان إفراغ عمل نافع يلزمه أن يتفرغ له بقلبه وقالبه، وذلك لأجل أن لا تتوزع قواه إلى غيره فيطول زمن العمل، بل ربما تسارع إلى العامل الملل والكسل، ويدخل في العمل الخلل، وحينئذٍ يتعوَّد الإنسان الضجر والكسل ويميل إلى حب الراحة والهوينا فلم يؤد حقاً ولم يصبر على عمل ولم يتوصل إلا إلى الفقر والفاقة كما قيل:

رأيتُ التَّواني زوَّج العجزَ بنتهُ   وساقَ إليها حينَ زوَّجَها مهرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لها اتكي   رويدَكما لا شكَّ أن تلدَا فقرا

فمن ترك العمل، أو عمل ولم يتقن، عاد وبال ضرره على نفسه وعلى الهيئة الإنسانية لأنه عضو منها، وكل عضو ترك ما لأجله أوجد يبطل نفعه – فحق الإنسان أن لا يُذهب عامة أوقاته إلا في إصلاح أمر دينه ودنياه، وفي موصلاته إلى غاياته، وذلك لا يكون إلا بالعمل وإتقانه لتتم الفائدة ويعم النفع ويرضى الخالق عليه.

ولما كان عمر الإنسان ولو طال كزيارة ضيف، أو سحابة صيف ولا يعلم في أي

وقت يكون منتهاه، ولا مبلغ مداه. لزمه في كل لحظة من لحظات الحياة. أن يقرن عمله بتذكار لقاء مولاه، فإنه هو الذي منحه القوة والقدرة على العمل والتمتع بنتيجة ما أتمه ونواه فيعمل العمل الدنيوي، مع ملاحظة أمره الأخروي وبذلك يكون في الزمن الواحد قد عمل عملين وفاز بمرتبتين فيكون في الدُّنيا منعماً بمحاسن أعماله المأثورة وبعد موته بحسن السيرة.

ما أحسنَ الدِّين والدُّنيا إذا اجتمعَا   وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرَّجلِ

وهذه مرتبة عالية ومنقبة سامية لا ينالها إلا الذين صرفوا أوقاتهم في تهذيب النفس وتربية العقل فتخلوا عما يشين من الرذائل وتحلوا بما يزين من الفضائل.

١٢- فوائد تعميم المنافع

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

هي ولا مداجاة في الحق قوام العمران، وسر نظام الاجتماع الإنساني وطريق تقدم المدنية لا تقوم بدونها سعادة ولا تتم مع عدمها حضارة - ترتقي الأمم بتمسك أفرادها بها، وتنحط بإعراضهم عنها أرأيت لو أهمل الإنسان جانبها وصرف عنان عنايته عنها مكتفياً بالاشتغال بمصلحته الذاتية ومنفعته الشخصية لا يهمه غير نفسه ولا يعنيه سوى أمره إن سلم فعلى الدنيا السلام أو مرض فلا برئ أحد من الأنام، هل تبقى بين الناس صلات، أو يقوم اتحادها على عمل مفيد ومشروع حميد، هل يمكن أن يكون لأمة جند منظم يرد عنها طوارئ الأعداء ويبذل روحه في مواقف الكفاح صوناً لشرفها وحياطة لحوزتها ويفتتح لها البلدان ويقوم بكبح جماح أهل العصيان طلباً لتأييد منعتها وتقوية شوكتها وإعلاء كلمتها لو لم تكن قلوبهم مُشربة حب المنفعة العمومية، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

أم هل يمكن أن يكون لها من أمرائها ووزرائها ومجالس نوابها سياسة يدبرون أمرها ويرفعون قدرها يجهدون أفكارهم في تحسين مستقبلها، ويكدحون في توسيع نطاقها مع أنهم يتيقنون أنهم ربما لن يتمتعوا باجتناء ثمار تدبيرهم لبعد أجله عنهم وكان يمكنهم لو كانت المنفعة الشخصية عنايتهم أن يتفرغوا لإدارتهم الخاصة واستيفاء لذائذهم وإدراك أوطارهم - ولا سيما أصحاب الثروة الواسعة منهم.

أم هل يمكن إذا لم تكن للمنفعة العامة حقيقة تقصد أن تعاني العلماء مشاق الأسفار وتقتحم الأخطار في البحث على أثرٍ يشاهدونه أو خبر يروونه أو علاجٍ يجرّبونه أو مظنون يحققونه، وقد يتوقعون على أموالهم وأنفسهم إتلافاً في غضون أبحاثهم واختباراتهم ويقدمون بعد ذلك عليه طمعاً في حقيقة تنكشف للخالفين ومخبوء يظهر للتالين:

تلكَ آثارُنا تدلُّ علينا　　فانظروا بعدَنا إلى الآثارِ

وبالجملة: حب المنفعة العمومية رأس الفضائل، وأسُّ الخلال الحميدة ولو ربِّي الناشئون منا عليه وتعوّدوه من الصغر لما تعاقبت علينا الصروف الفادحة وألمت بنا النوائب الموهنة التي منها انتشار السرقة في البلاد والعبث بين العباد، ومنها ظهور داء الرشوة، ومنها التكاسل في الأعمال الخطيرة والتهاون في الأمور العظيمة وتفرُّق قلوب الرجال، وذهاب كل في مجال وفقد عروة الارتباط وسوء الإدارة كل ذلك لم ينشأ إلا من حب المنفعة الخاصة والوقوف عند حدها.

ولـو أنـي حُبيتُ الخُلْدَ فرداً　　لما أحببتُ بالخلدِ انفـرادا
فـلا هطلتْ علـيَّ ولا بأرضـي　　سحائب ليس تنتظمَ البـلادا

فالمرء المشغف بذاته، العامل على لذّاته، أي مجد له إذا لم تتعد آثاره، وأي خير فيه إذا اقتصرت مزاياه على نفسه ولم ينتفع به بنو جنسه، وأي فضل له في حبس آثاره في صحن داره.

إذا ما قضيتُمْ ليلَكم بمنامكم　　وأفنيتُمـو أيامَكـم بمــدامِ
فمنْ ذا الذي يغشاكُمو في ملمّةٍ　　ومـن الـذي يلقاكُمو بسـلامِ

فإذا أُوتي المرء حكمة لقمان وفصاحة داود ومال هارون وجمال يوسف وقوة عوج وعمر نوح ولم يشركه في هذه النعم أحد، فأي فائدة للدنيا من وجوده ،وأي ذكر له يبقى له بعد مماته:

خُلقـوا ومـا خُلقـوا لمكرُمـةٍ　　فكأنَّهم خُلقـوا ومـا خُلقـوا
رُزقـوا ومـا رُزقوا سـماحَ يـدٍ　　فكأنَّهـم رُزقـوا ومـا رُزقوا

فمن جعل غايته مصلحته الذاتية ثارت فيه الشرور وهاجت عنده الشهوات، وإنما تستر عن العيون بستار العجز، وحجاب الضعف بخلاف من اتجه وجهة المنفعة العامة، فإن الفضائل تمتزج بلحمه ودمه ويحلو له مصافحة الحسنات ومكافحة السيئات ولو نافرته الأيام وعانده الزمان (وكل ميسر لما خلق له).

١٣- لكل امرئٍ من دهره ما تعوّدا

وينشأُ ناشِـئُ الفتيـانِ منَّـا　　على ما كـانَ عـوّده أبُـوهُ

من المعلوم أن الطفل يولد مجرداً من كل الوسائل خالياً عن معرفة الأشياء عديم البصيرة، فارغ السريرة عارياً عن الوظائف العقلية لا يرى إلا ما يقع عليه بصره ولا يشعر إلا

بما يؤثر في جسمه ولا يسمع ضوضاء العالم ولا ينظر إلى أشباح الكائنات إلا بمرآة خيالية، وهو حينئذٍ محاط من أهله بالشفقة والحنان فيربو جسمه، وتنمو قواه حتى يستقبل الحياة الإنسانية وتنتشر فيه مبادئ القوة العقلية فينظر إلى العالم فيراه مشهداً غريب الأحوال، ومسرحاً تلعب فيه الآمال، فتشمله شمول هذا الظهور وتلعب برأسه نشوة تلك الأمور فيبيت بها مشغوفاً ويصبح إليها ملهوفاً - فإن لم توجّه قواه من مبدأ هذا الظهور الذي يكون فيه كقطعة الشمع المرنة القابلة إفراغها في أي قالب، وتشكيلها بأية صورة إلى وجهة حسنة وغاية نافعة استعملها كيفما توجهه بهيمته، فينشأ ضائعاً في مفازة العمر، حائراً لا يلبث حتى يرى نفسه قائماً في وسط هذه الدنيا مغموراً بأمواج هذا العالم تلطمه ضرباته وتأخذه ضجاته مع تزاحم حاجاته وتوالي حسراته فيندفع بخيالاته الكاذبة إلى مطامع خاسرة خائبة، ويصير مضغة بين أضراس الأماني الخاطئة ومسقطاً لنوائب الزمان، فيمكث يصارع الحال، ويأسف على الماضي ويرتعد من المستقبل - ولو وجه أهله قواه من أول نشأته على التدريج إلى سبيل نفعه ونفعهم ونفع وطنهم لسار من مبدأ أمره في هذه الطريق المفيدة حتى يعتاد الأعمال النافعة، ويصير عضواً عاملاً في أُمته، فيعيش وقد حصل على مزايا نفعه، وعلم خاصة نفسه، فينظر في أفراد الكائنات نظر حكمة وتدبير، ويسعى خلف اجتناء ثمراتها، حتى يمد عليها ظلال رايته، ويخضع الصعاب تحت رياسته، ويسعى في طرق المكاسب فيحسن لديه المسعى، ويطيب له المربع وما ذلك إلا لتربيته وتعويده من مبدأ نشأته سلوك طرق المنفعة والخير - فالمرء ابن عادته (ولكل امرئ من دهره ما تعوّدا) ومن شبّ على شيء شاب عليه - ألا ترى أن أولاد الفلاحين بتعويدهم مباشرة الأعمال ومعاناة الكدّ ينشؤون مولعين بفلح الأرض وزراعتها والعمل فيها كآبائهم، وكذلك الكاتب والخياط - وغيرهم.

وبالجملة الطفل يشبّ ويكبر على الشكل الذي أفرغ في قالبه والصورة التي منحها له أهله، والعادة التي صادفها في طريق تربيته إن خيراً فخير - وإن شراً فشر.

والابنُ ينشأُ على ما كانَ والــدُه ... إنَّ الأصولَ عليها ينبتُ الشَّجرُ

فيجب على الآباء وولاة أُمور الأحداث أن يقوموا بتربيتهم وتعليمهم على الوجه الأكمل حتى يخرجوا من ربقة السؤال ويسلموا من تبعة التقصير وتوجه الإثم إليهم لو أهملوهم من ذلك وهم تحت تصرفهم وفي رعايتهم و(كل راع مسؤول عن رعيته) فضلاً عن أن يكونوا لهم عوناً على المعيشة ونوال السعادة وأثراً حسناً يذكرون به، ونعمة جليلة يغبطون عليها:

نِعَمُ الإلهِ على العبادِ كثيرةٌ ... وأجلّهــنَّ نجَابــةُ الأولاد

وقال آخر:

لكلِّ امرئٍ في الخير والشرِّ عادَة　　وكلُّ امرئٍ جارٍ على ما تعوَّدا

ولو سلكت كل عائلة ذلك المنهج القويم، وقامت بحقوق التربية والتعليم، لم تلبث أن تؤلف أُمة سامية القدر. جليلة الذكر، لا يشق غبارها، ولا يضام جوارها، ولا يقوم لها عنيد، ولا يسطو عليها سليط، بل ينهض بها الوفاق وينحط دونها الشقاق، وتكون أسّ حضارة، ورأس عمارة - ومن نظر إلى الأمم وتامل أحوالها وعلم مبدأها ومآلها، يرى العجب العجاب في التقدم والانقلاب نشأ ذلك من اعتنائهم بالتربية، فنرى كثيراً من الأمم حلّوا أرضاً مجدبة قحلة ومفاوز يابسة محلة بتربيتهم وعلمهم وحسن تدبيرهم وجودة تصرفهم أصبحت لهم جنة مثمرة، وروضة مزهرة، وأغدقت عليهم بصنوف النعم، واظهرت شانهم بين الأمم، حتى عوّضوا الكهوف بالقصور، والكلأ بالزهور، والجلود بالحرير والحصباء بالسرير، إلى غير ذلك من أنواع التقدم والرفاهية.

رأيتُ صلاحَ المرءِ يصلحُ أهلَهُ　　ويهديهمْ عندَ الفسادِ إذا فسدَ

يعظُم في الدنيا لفضلِ صلاحِهِ　　ويحفظُ بعد الموتِ في الأهلِ والولدِ

فيجب علينا معشر الأمة المصرية أن نباريهم ونبذل أنفس ما لدينا حتى نجدد شرفنا التالد، ونجلب حظنا الشارد، ويستقيم الأود وتصلح البلد.

فلله الحمد ها هي المدارس قد قام سوقها وانتظم سيرها وأحكم أمرها مفتحة أبوابها مستوفاة أسبابها تنادي طالبيها وتمنح محبيها.

١٤- فوائد المدارس

المدرسة دار التربية والتأديب والتمدين والتهذيب تصلح شأن المرء بما يتلقاه فيها من المعارف وما يكتسبه فيها من العلوم المفيدة التي تجعل عنده استعداداً لأن يكون في المستقبل رجلاً قديراً على القيام بما يوصله إلى مطلوبه من الواجبات أحسن قيام وتبث في روحه حب الوطن وأهله وتزيد عنده قوة الإدراك، وتربي له العقل وتجعل عنده من الخصال أحسنها ومن اللطائف أحمدها، وترشده إلى الطريقة التي يجب اتباعها والوسائط التي ينبغي اتخاذها للحصول على الشرف والكمال ومستقبل الآمال.

وبالجملة فالمدرسة مطلع شموس العلوم والمعارف ومشرق أنوار الفوز والسعادة ترضع الناشئ فوائد الأدب من صغره وتقوّم ما اعوجَّ من أخلاقه وعاداته حتى ينشأ كاملاً مهذباً عالماً بحقوقه عارفاً ما يجب له وعليه وتعدّ له مستقبلاً يضمن له الرفاهية والسعادة

وتصونه من طوارئ العلل والآفات وتحفظه من أسباب الأمراض والعاهات وتعلمه كيف يطلب الثروة من حسن مواردها وأشرف طرقها وتهديه إلى الطريق الذي يرقى به أوج الكمال.

١٥ - فوائد المعارض العمومية

المعرض مدرسة رجال التجارة وأرباب الصناعة فيه تخلع الناس ثياب الكسل، وتتزين بحلل الجد والعمل، فهو ميدان تتسابق فيه الصناع وتتنافس فيه الزرّاع فيشمر كل منهم عن ساعد الجدّ والعزم ويطلق عنان العناية والحزم، فيه تعرض نتائج الآراء السديدة والأفكار المفيدة - فمن حاز قصب السبق في هذا الميدان يمنح وساماً دلالة بشرفه وعلامة بنشر اجتهاده وتنشيطاً له وتنافساً لغيره فكل يتسابق في إتقان عمله وإبراز مخترعه وإظهار ما اكتشفه من الآثار وما جناه من الثمار.

تلكَ آثارُنا تـدلُّ علينا فانظروا بعدَنا إلى الآثارِ

فبذلك يكون الإنسان ادى ما خلق لاجله وهو العمل وطرح التقاعس والكسل. فإذا نظرنا إلى معرض باريس وما احتوى عليه من الصنائع المتنوعة والفنون المختلفة التي تدهش الأبصار، وتحتار في كيفيتها الأفكار نستدل دلالة واضحة على تمدين الأمم الاوروبية واتّساع دائرة علومها وصنائعها وزيادة ثروتها.

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهمْ إن التشبُّه بالرِّجـال فـلاحُ

فالمعرض مدرسة علمية صناعية تجارية زراعية لجميع الأمم ومصباح يستضاء به في تقدم الصنائع والفنون ومفتاح به تظهر جميع الخبايا ودقائق المعقول والمنطوق فهو ميدان تتسابق فيه الأفهام وتتجلى فيه كفاءة الرجال، والرجال بالاعمال.

وبالجملة فالمعارض مظاهر اعمال الأمم، وبراهين تفاوت الهمم ومشارق أنوار الاختراع ومجمع أحاسن المصنوعات ونظام نفائس المبتكرات وتختلف باختلاف الممالك، وتباين حاجاتهم وحاصلاتهم، ومبلغ علومهم وقوة مداركهم، ومبلغ إلى جليل الأعمال وعظيم الآمال.

١٦ - اي الأمرين أكثر نفعاً للمتعلم
(أتعليمه بالرغبة أم تعليمه بالرهبة)

لا خلاف في أن الطباع ليست سواء في أفراد النوع الإنساني فهذا حاد الذكاء سهل الانقياد، شغوفٌ بالتحصيل، لا يطلب سوى هديه إلى طريق التحصيل والتهذيب، إلا أنه لا ينبغي إرسال لجامه كيلا ينتج قبل أوانه فتضعف قواه فيما بعد.

وذاك يكون حاد الذكاء، ولكنه بطيء، وهذا لا يلزمه سوى استعمال المهماز وحثه على صرف الجهد.

وآخر يكون حاد الذكاء مشغوفاً بالتحصيل ولكنه عنيد صعب المراس فيؤخذ بتلطيف طباعه وتهذيب أخلاقه.

وآخر يكون سهل الانقياد شغوفاً بالتحصيل ولكنه كاسد الفكر بطيء الفهم، وهذا يحتاج إلى رقة المعاملة والتنهيض تارة والمساعدة أُخرى كيلا يضعف جأشه أو ينبعث يأسه فيقعد الدهر ملوماً محسوراً – وربما وصل إلى الغاية المطلوبة.

وآخر يكون كاسد الفكر بطيء الفهم كسولاً عن العمل، وهذا يمكن تقويمه مع الصبر وتوالي الزمن.

وآخر يكون مع كسادة فكره وبلادة فهمه خبيث الطبع شرير النفس – ومثل هذا لا ينبغي اليأس منه بادئ بدء، بل يحسن أخذه بالإصلاح والتقويم والتهذيب إلى أن تضيع فيه الحيل.

ومرتبة الاضطرار والرهبة – ومرتبة الاختيار والرغبة، تختلف باختلاف استعداد القوى العقلية.

فالنفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة، لا يستغني محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضيِّ منها عن التهذيب، لأن لمحمودها أضداداً مقابلة يسعدها هوى مطاع، وشهوة غالبة فإن من أغفل تربيتها تفويضاً إلى العقل، أو توكلاً على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلاً وفي صورة الجهل داخلاً، لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة. ولكل قوم مواضعة، وذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد إلى الطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة وبالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه حاكماً وزكي الطبع إليه مسلماً.

وإن أوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى، فإن الناشئ بجوهره خُلق قابلاً للخير والشر جميعاً. وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين.

قال بعض الحكماء: (اقذعوا – ادفعوا – نفوس أبنائكم فإنها طلعة وحادثوها بالحكمة فإنها سريعة الدثور فإنكم إذا لم ترعوها تنزع بهم إلى شر غاية). وهذه مرتبة الاضطرار والرهبة، بخلاف مرتبة الاختيار والرغبة ففيها تقوى إرادة الناشئ بحكمة ما حصل عليه من التجارب والتأمل في الأسباب والنتائج، فيرى أن اضطراره إلى طاعة البواعث النفسية والجسمية قد صار اختيارياً.

وبالجملة: يحسن بالعالم أن يتعرف كل ناشئ ليعلم أطباعه وأخلاقه واستعداداته الجسمية والعقلية كي يعامله بحسبها فلا يعامل الكل باللطف، كما لا يسوق الجميع بعصى الخشونة. فإن منهم من تصلحه القساوة، بينما الآخر يصلحه المعروف، ومن ينفعه الإحسان بينما يسوء الآخر، ومن يؤثر فيه النظر بينما الآخر يحتاج إلى العصا كما قيل:

البعضُ يضربُ بالعصا والبعضُ تكفيهِ الإشارةُ

ومنهم من يسوقه المهماز بينما الآخر يلزمه اللجام. ولكن التعليم بالرغبة المبنية على أساس متين من العظمة العالية والحكمة البالغة أولى وأفيد من التعليم بالرهبة التي لا تجلب إلا الخبل والقنوط والملل، بل تورث الخوف والجبن وتعوّد الناشئ على العمل في الجهر والكسل في السر - فإذاً سياسة الرفق واللطف قد تفعل ما لا تفعله سياسة الشدة والعنف، ومن لم يكن له من نفسه زاجر - فهيهات أن تؤثر فيه الزواجر.

١٧- ما هي الحاجة الماسة إلى بناء المستشفيات للفقراء

الإنسان في هذه الدنيا عرضة للأمراض والعلل. غير أن الناس منهم الغني والفقير، فالغني بماله من الثروة قادر على دواء نفسه متى شعر بألم في جسمه فهو يحضر من أمهر الأطباء وأحذقهم من يرجو الشفاء على يديه. أما الفقير فإن المرض إذا ألمّ به لم يجد ما ينفقه على دوائه وشفائه، فيمكث أسير الأدواء حليف العلل. لا جهلاً بالطب وفوائده، ولكن خلت يداه وأعوزته الحاجة وقعد به الدهر عن ذلك - لهذا تدعو الشفقة والإنسانية أن يقوم أغنياء الأمة وحكومتها بإنشاء المستشفيات لهذه الطبقة يلجأ إليها مريضهم فيمد بالدواء ومساعدة الأطباء.

ولقد اعتنت الحكومات المتمدنة بالحيوان الأعجم، وعرفت الحاجة إلى إنشاء جمعيات للرفق به - وحينئذٍ الإنسان أولى بهذه الشفقة وأحق بتلك المرحمة - ولا يخفى أن الفقراء هم السواد الأعظم من الأمة فمتى اعتنت بهم ولاحظتهم في أمراضهم كثر أفرادها وصارت مهيبة قوية. على أن الأغنياء في أشد الحاجة إلى هؤلاء الناس أهل البؤس والفاقة، فهم القائمون بالأعمال العظيمة التي لا يباشرها الغني بنفسه - كيف لا وإن لبناء هذه المستشفيات أكبر فائدة وهي منع انتشار العدوى بين أفراد الناس. فليخش الأغنياء من ذلك وليعلموا أن في أموالهم حقاً للفقراء والبؤساء فيجب السعي في إزالة ما يعتريهم من الأمراض والآلام التي تذهب بحياتهم. واحترام هؤلاء الأقوياء في جسم الهيئة الاجتماعية وجلب الصحة إليهم حتى تكتسب البلاد منهم حياة جديدة وقوة عظيمة بفضل ساعدهم وتحملهم المشاق ومثابرتهم على العمل حتى إذا أصيب أحدهم بمرض لا يبيت يتقلب

على فراش الشقاء بين أولاده وأهله الضعفاء بعد أن كان يواصل ليله بنهاره في الجد والعمل ليصون نفسه عن ذل السؤال.

وبالجملة: فالمستشفيات من أهم ما تحتاج إليه الأمم لحفظ صحة أفرادها من غوائل الأمراض وطوارئ العلل المعرض إليها الإنسان بطبيعة جسمه وحوادث الجو فهي التي حفظت النفوس في أجسامها وردَّت جيوش الأدواء على أعقابها كيف لا وقد ثبت (أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان). وفي الحديث عن الرسول ﷺ انه قال: «داووا مرضاكم بالصدقة» وقال أيضاً: «اللهم أعط منفقاً خلفاً وممسكاً تلفاً». وإن اللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

١٨- الجبال وفوائدها

الجبال هي تلك الأجرام والأجسام الشامخة التي لها أعظم مِنَّة وأكبر نعمة على الإنسان في كل زمان ومكان فهي التي يُتخذ منها مواد البناء على اختلاف أنواعها فتشيد منها المنازل والقصور التي تقينا قيظ الحر وزمهرير البرد ويتخذ منها بناء القلاع والحصون التي بها نداف عن أوطاننا وأنفسنا وأولادنا وأموالنا وأعراضنا، بل هي قد تكون في الواقع الحدود الطبيعية أو الحصون المنيعة للبلاد المحاطة بها الحافظة لاستقلالها كجبال الحبشة في إفريقيا وسويسرة في أوروبا.

وهي التي تستخرج منها المعادن الثمينة كالحديد والنحاس والقصدير ونحوها من الجواهر ذات القيم الكبيرة التي نقلت الإنسان من الأعصر الهمجية إلى نور العرفان والاستكشاف والاختراع فكلما تقدمت الأمم في الحضارة والمدنية كانت الحاجة ماسة في عدم الاستغناء عن منفعة تلك الجبال التي لها أيضاً دخل عظيم في تحسين حالة الجو وفي تنظيم انحدار المياه من قممها وفوقها بقوة في المجاري والأنهار. فنشأ إحياء موات الأراضي وري الشراقي منها فأخصبت وأصلحت البلاد وأروت العباد. على أنها واقيات للأرض من طغيان البحار عليها. قال تعالى: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ [الأنبياء:٣١]، ﴿والجبال أوتاداً﴾ [النبأ:٧]. وقال تعالى: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً﴾ [الشعراء:١٤٩].

وبالجملة: خلق اللّه سبحانه وتعالى الجبال لمنافع وفوائد متعددة لا يحيط بجميعها إلا هو. فمن ذلك أن اللّه تعالى أنزل من السماء ماء ليحيي به العباد والبلاد وجعل الجبال لتستقر في بطونها المياه ويخرج أولاً فأولاً بقدر معلوم. ومن الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها إلى أن يحله حر الشمس فيكون منها أنهاراً «صنع اللّه الذي أتقن كل شيء».

ومن منافع الجبال ما ينبت فيها من أنواع العشب والعقاقير التي لا توجد إلا فيها، وما ينبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن، وما ينبت فيها من مزارع للأنعام ومزارع لبني آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجناح النحل.

ومن فوائدها أن جعلت أعلاماً يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض، ويستدلُّ بها المسافرون في البحار على المين والسواحل.

ومن فوائدها أن الفئة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا تطيقه تتخذ عليهم ما يحصنهم ويؤمنهم ويمنع عنها من تخافه فتطمئن لذلك.

١٩- البراكين والزلازل

إن جوف الأرض حارٌ بطبيعته. فإذا حفر الإنسان وجد الحرارة تزداد - وهكذا كلما نزل إلى أسفل حتى إذا وصل إلى عمق بعيد ألفى حرارة كافية لتبخير المياه بسرعة مدهشة، فإن صادف هذا البخار أرضاً سهلة تصاعد من مسامها بدون أن تحدث براكين ولا تفجر - وإن صادف جبالاً فلا يسعه إلا أن يخترق تلك الصخور العظيمة القاسية ويتخذ معه ما يجده في سبيله من طبقات الأرض كالحديد والكبريت والنحاس والقصدير ونحوها ويقذفه للناس ينتفعون به. وهذا مشاهد كثيراً في الجبال التي على شواطئ البحار والمحيطات، أو القريبة منها كشواطئ آسيا الشرقية وأمريكا الغربية وجزر اليابان وجزيرة ايسلندة وكثير من البلدان في أوروبا - ومن المعلوم أن الأرض طبقات بعضها فوق بعض وكلها تسمح للمياه بأن تتخللها فتدخل فيها فتبخرها الحرارة، والبخار من طبعه يتصاعد، ولكنما الجبال تمنعه فيتراكم تحتها ويتزايد وهو شديد وخصوصاً عند ما يمتزج مع ما يقابله مما في جوف الأرض فيحدث الانفجار في باطنها على أثر تراكم تلك الأبخرة المائية بدرجة تمدد عظيمة فينشأ عنه انكماش الطبقة السطحية. وتتدحرج الصخور التي في باطنها بعضها على بعض فيحدث من انفصال أجزاء الجبل بعضها من بعض تمزق ورجّة عظيمة، واضطراب لسطح الأرض يشعر به غالب العالم لأن القارات يتصل بعضها ببعض، وكذا الجزائر بواسطة سلاسل عظيمة تخترق البحار والمحيطات.

وهذا الاهتزاز هو الزلازل التي تنشأ غالباً من البراكين. وقد لا ينشأ من ذلك كجهات الألب - وكما تحدث الزلازل براً تحدث بحراً ويحصل لمائه مدّ فيغرق البلدان ويدمرها وتعلو أمواجه نحو خمسين متراً فيحدث ما تقشعر له الأبدان ولا يخف سمعه على الآذان.

وبالجملة: إن سبب اشتعال البراكين نفوذ الماء الذي على سطح الأرض إلى المواد

التي في جوف الأرض فيولد مقداراً من البخار فيدفع ما يكون أمامه بقوة غريبة وبعض هذه البراكين هائج أبداً كبركان إسترمبولي الذي يبلغ ارتفاعه ٢١٧٥ قدماً، وبعضها يهيج أحياناً وأحياناً يسكن كبركان فيزوف بالقرب من نابولي، وفي العالم ستمائة واثنان وسبعون جبلاً نارياً تتولد منها البراكين وتنشأ لأجلها الزلازل التي يخوف اللّه بها عباده في مشارق الأرض ومغاربها.

٢٠- أبو مسلم الخراساني

هو عبد الرحمن بن سالم الخراساني، مقيم الدولة العباسية، ومبيد الدولة الأموية، وُلد بقرية (مارانه من قرى خراسان سنة ١٠٠ للهجرة، في خلافة عمر بن عبد العزيز، ومات أبوه وهو حدث فتولى تربيته عيسى وإدريس ابنا معقل العجلي، وأحبه عيسى كولده لما عرف من لقانته وأدبه، فلما اعتقل عيسى بواسط بتهمة التشيع للعباسيين، والدعوة للإمام محمد بن علي العباسي رأى أبو مسلم أن يكون قريباً منه ليخدمه في بعض شؤونه فاشتغل خرازاً بالكوفة وكان يختلف إلى مربيه في (واسط).

ولما علم الدعاة للعباسيين صلته بعيسى عادوا إلى الإمام فوصفوا له حال أبي مسلم، فطلبه من عيسى فاشخصه إليه، ولما رآه أعجبه سمته ورجا أن يكون الفتح على يديه، ثم مات الإمام محمد، فاتصل بابنه إبراهيم، وعليه تخرج في الفقه والأدب والحديث وفصح في العربية مجوداً كأحسن أبنائها، ثم أراد أن يوجه إلى خراسان زعيماً للدعاة مع صغر سنه، فخطبه في وفد من وجوه خراسان، خشية أن يعودوا فينفسوا على أبي مسلم منزلته فيفسد تدبيره. قال: (إني قد رأيت أن أولي الأمر هناك أبا مسلم لما جربت من عقله، وبلوت من أمانته وأنا موجهه معكم فاسمعوا له وأطيعوا، وقد رجوت أن يكون هو الذي يسوق لنا الملك فعاونوه وكاتفوه، وانتهوا إلى رأيه).

ولما وصل إلى خراسان شمر للدعوة، موصياً أصحابه بالتنكر والتزيي بزي التجار، فجاب البلاد سهلها وحزنها، وكلما رحل من بلد أو كورة ترك فيها نقيباً يحذو حذوه أمراً ونهياً، وكان في دعوته حذراً. أخوف ما يخافه أن تعلم به عيون الأمويين فيأخذوا عليه الطريق، ولكن حزمه وكتمانه قد بلغاه ما أمل، فاجتمع له خلق يسمعون قوله فيتبعونه، ويرونه فيعظمونه، حتى بلغ من حبهم إيَّاه أن كانوا يتحالفون به فلا يحنثون؟ ويذكرونه فلا يملون.

ولما وثق بقوة أتباعه صدع بالدعوة في مفنون (قرية قريبة من مرو). وفي ذلك الحين سمي بالإمام إبراهيم، فاعتقله مروان آخر أُمراء بني أُمية بحران، ثم دسّ له السم في السجن فقتله، فاستشاط أبو مسلم، وصمم على أخذ مرو وهي أكبر كور خراسان وقبل أن

يهاجمها علم أن بين أميرها نصر بن سيار، وهو من هو شجاعة وبأساً، وبين جديع بن علي المعروف بالكرماني زعيم اليمانية في خراسان تخاصماً وتدابراً، فرأى أن يضرب هذا بذاك ويدافع الحرب مستبقياً جيشه، حتى إذا جازت حيلته قضى على الغالب، أو أدخله في أمره، وقد تم له ما رأى، فقتل الكرماني واستأمن نصر حين رأى جنوداً أولي قوة وبأس شديد لا قبل له بها ثم فر على غفلة من أبي مسلم في ولده وحاشيته ليلاً.

ولما تم لأبي مسلم ملك خراسان وجه قواده غرباً وجنوباً ليقتفوا أشياع بني أُمية، وانتشر جنده ينتقصون ملكهم من أطرافه، فتقابل قحطبة بن شبيب وأبو عون العكلي مع مروان على نهر الزاب فاقتتلوا وانهزم مروان إلى الشام، ثم إلى مصر، وتقفاه أبو عون حتى قتله بها – وبذلك أزال أبو مسلم دولة بني أُمية وأقام دولة بني العباس.

وكان أبو العباس السفاح وأخوه المنصور وأولاد عمهما علي قد هربوا إلى الكوفة حينما قتل إبراهيم الإمام، واختفوا في دار أبي سلمة الخلال، فجاء أبو مسلم إليهم بعد أن طهر خراسان من أتباع بني أُمية ودخل عليهم معزياً مبايعاً أبا العباس، آخذاً بيده إلى مسجد الكوفة ليصلي بالناس ويخطبهم فيبايعوه بالخلافة.

وتولى أبو مسلم خراسان عن السفاح، فنظم شؤونها، وعظمت مهابته، حتى لم يتوجه لإخماد ثورة إلا انضم الثائرون إليه من غير أن يُصلت سيفاً أو يشرع رمحاً.

مات السفاح فخرج عمه عبد الله بن علي على المنصور داعياً لنفسه بالخلافة، زاعماً أن أبا العباس عهد إليه بها، واستمال الناس حتى اجتمع له جند كالسيل، فقال أبو جعفر لأبي مسلم: أيها الرجل إنما هو أنا أو أنت لهذه العظيمة! فقال: بل أنا أيها الأمير، وفصل في اثني عشر ألفاً من جند خراسان، حتى إذا تراءى الجمعان انحاز إلى أبي مسلم من كان مع عم الخليفة، وبقي وحده إلى أن استأمن أبا مسلم، فأمنه وعفا عنه.

وكلما تقدم الزمان بأبي مسلم حسنت أحدوثته، وطار في الآفاق صيته، وشعر بعظمة وجلال لم يحرزهما خليفة، من أجل ذلك توجس المنصور منه خيفة وقال في نفسه: (إن من أقعد دولة كان أحد ملوكها ينطق بالكلمة في دمشق فيسمع صداها فيما بين الصين وجبال أطلس، لجدير أن يسلبنا الخلافة، ويقضي عليها في مهدها) واستشار بعض بطانته في أمره، فأوغر صدره عليه، وحذَّره غوائله.

ولما استقدمه المنصور لمناظرته في شؤون الدولة، أدرك أبو مسلم نيته، فأتمر أهل الرأي من قواده في إجابة الخليفة. فأباها بعضهم خشية أن يفتك به، ورضيها آخرون على أن يحتاط، ففصل أبو مسلم ببعض جنوده متمثلاً:

(ما للرِّجالِ مع القضاءِ مَحَالة ذهبَ القضاءُ بحيلةِ الأقوامِ)

ولما وصل إلى المنصور احتفى به، وتلقاه بالأشراف وكبار القواد مترجلين حتى إذا ما اطمأن أبو مسلم، وحسب الأمر لا يعدو البحث في أمور الدولة، بيَّت له أبو جعفر ليأخذه بغتة، وفي اليوم الثالث من قدومه أمر الخليفة حاجبه أن يجرد أبا مسلم من سيفه إذا استأذن عليه، وأعد له كميناً خلف الستار.

دخل أبو مسلم بعد أن جرد فالتقى الدهاء بالدهاء، وتقابلت القوة بالقوة، وظهر تنكر المنصور له، فأيقن بالهلكة، ثم تضرع واستكان، وهو يقبل اليد والرجل، وترجى البقاء، مستشفعاً بسالف إحسانه، ومشكور بلائه، ولكن حمَّ القضاء، فصفق الخليفة، وخرج الكمين، فاخترطوه بسيوفهم، وبضعوه تبضيعاً ولفوه في بساط، ثم دفنوه برومية (مدائن كسرى على نهر دجلة) سنة ١٣٧هـ.

ولما بلغ منعاه جنده هاجوا، واستلوا السيوف، واعتزموا الأخذ بثأر وليهم، ولكن المنصور استرضاهم بالمال، وأقنعهم بخيانة أبي مسلم، وفساد طويته، فانصرفوا راضين.

وكان أبو مسلم جميلاً حسن التقاسيم، قصيراً أسمر اللون، نقي البشرة، أحور العين، عريض الجبهة، كثيف الشعر، طويل الظهر، قصير الساق، وكان شديد البطش والفتك، يقتل بالظنة، ويأخذ بالكلمة، لا يحفل بالحوادث الجسام، تأتيه من أي النواحي، أما الدهاء فقد بلغ فيه الغاية، وحسبك منه أنه عمل للدولة العباسية وأقامها بين أسماع بني أُمية وأبصارهم، يمر بهم فيحسبونه صديقاً وولياً، وما يمر بهم إلا ليسنى الطريق لأمته، ويمهدها لدولته، وهو جدير أن يفخر بما نال وأن يرفع الصوت بما قال:

(أدركتُ بالحزمِ والكتمانِ ما عجزتْ عنهُ ملوكُ بني مروانَ إذْ حشَدُوا)

في أبيات مشهورة.

ومن عجيب دهائه أنه لما وجدت الدعوة في خراسان، وظهرت المسودة على بني أُمية، حار مروان، وطلب إلى شيخ الكتاب عبد الحميد أن يرسل إلى أبي مسلم كتاباً يخلب اللب، علَّه يتلهى به، فيفسد صنيعه، ويحبط عمله. فمضى عبد الحميد يكتب حتى سطر وقر بعير وأنفذه إلى أبي مسلم، فادرك الحيلة، وتسلم الكتاب فمزقه، وكتب على جذاذة منه:

محَا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتحى عليكَ ليوثُ الغابِ من كلِّ جانبِ

ولعل لنشأته مع الدعاة المتكتمين، وصلته بالأئمة المتسترين، أثراً في دهائه وتكتمه، حتى بلغ ما بلغ.

وكان أبو مسلم كبير النفس أبياً طموحاً إلى المعالي، يرى السعادة في نيل السلطان،

قيل له ما السرور؟ قال: (ركوب الهمالجة وقتل الجبابرة، وإقبال الزمان، وعزة السلطان)، ومن أجل ذلك كان يعمل يرجع الملك إلى الفرس طامعاً أن ينال مآربه بالدعوة العباسية، ولكن مصارع الرجال تحت برق الأطماع.

٢١- أسباب ونتائج نهضة أوروبا

هي الحركة العقلية العظيمة، التي انتظمت أوروبا منذ القرن الخامس عشر، فايقظتها من سباتها، وابتعثت فيها حياة أدبية فنية، مكنتها أن تقبض على صولجان السيادة والعزة، وأن تبسط سلطانها، وتمد نفوذها، وتوسع ثروتها، وترأب ما أساءته يد الجهل في القرون الخالية.

لهذه النهضة عوامل قوية أزاحت غشاوة الجهل عن أعين القوم، بعد أن لبثوا يضربون في بيداء الجهالة، ويرسفون في قيود الأوهام حقباً طوالاً، وكان ذلك الجهل الشامل مبدأ العلم، والسكون السائد أول الحركة، ولا غرو فالظلام الحالك يسبق نور الفجر.

كان من أعظم العوامل في ظهور تلك النهضة (الجامعات) التي كانت منتشرة في أوروبا منذ قامت دولة شارلمان، وكانت وقفاً على التعليم الديني حتى القرن الثالث عشر ثم لما لاحت تباشير الإصلاح والنهضة اتسعت دائرة التعليم فيها بما أُضيف إلى علومها، فخرّجت لأوروبا رجالاً من أولي الرأي والعمل، حملوا ألوية النهضة، وعبَّدوا السبل لمن تلا تلوهم من قواد الآراء وذوي العزائم القوية.

وكان لاختراع (البارود) تأثير هام فيها إذ كان نظام الفروسية يقضي بحماية الضعفاء والانتصار للمظلومين، وفي ذلك إخضاع لهم وذهاب بالنخوة والبأس من نفوسهم، فلما ظهر هذا الاختراع استطاع الضعفاء أن يدافعوا عن أنفسهم، واستغنوا عن حماية الفرسان والأمراء، كان ذلك مبدأ استقلال الإرادة والفكر اللذين قامت عليهما قوة الابتداع والابتكار فيما بعد.

أضف إلى ذلك تأثير الحروب الصليبية، التي نشبت بين أوروبا والشرق من (١٠٩٦ – ١٢٧٨) في إيقاظ العقول وتنبيه العزائم وشحذ القرائح، بما قبسه أهل أوروبا من آثار الحضارة العباسية في المشرق، فنظموا مدارسهم، ونبغ من بينهم شعراء وعلماء وفلاسفة قلما تجد في تاريخ أوروبا من يدانيهم قبل تلك الحروب، وكان لها أثر آخر أعظم شأناً، هو جمع كلمة الأوروبيين، واستلال سخائمهم وتناسي أحقادهم، وتألبهم على الشرق، لمدافعة أهله، بل مهاجمتهم في ديارهم.

ولما فتح الأتراك قسطنطينية هاجر كثير من علمائها وطلابها يحملون معهم أنفس

الذخائر العلمية، وأقدم الرقوق التي تحوي بحوث العصور الخالية، مما كانت مدارسته وقفاً على الخواص في دولة الروم الشرقية رحلوا بها إلى أقطار أوروبا الغربية فرحبت بهم وخاصة أهل إيطاليا، وانتشرت اللغة الإغريقية، فقرأ الناس أشعار هوميروس، وأفكار أفلاطون وغيره من فلاسفة اليونان، بعد أن درست في أوروبا، فانطلق العقل من قيود الوهم، ورجال الفكر في ميادين الحقائق، وحبب إلى الناس أن يتركوا الخرافات التي منعت عقولهم عن التفكير وغلت أيديهم عن العمل.

نعم، كان للحروب الصليبية ودخول الأتراك أوروبا أثر قوي في توحيد الكلمة، وظهور الحمية القومية، والنعرة الجنسية والدينية والعمل على تنمية القوى الحربية حتى إذا أحس الأوروبيون خطر الأتراك يتهددهم، ظهر الروح القومي، وبرزت القوة الكامنة التي كسبوها بمجالدة المسلمين نحو قرنين، وعملوا على إخراج العرب من إسبانيا، وضايقوا الأتراك في المشرق حتى فقدوا قوتهم تدريجاً، فقام الغرب يجدد حملاته على الشرق بدعوى تعمير أراضيه المهملة، وتعليم شعوبه الجاهلة، وكان في ذلك القضاء على استقلال الشرقيين وامتداد نفوذ أوروبا وعظمتها.

وقد أتاح اللّه وقتئذٍ للعالم اختراعاً كان له من عجيب الأثر في امتداد النهضة وشمول أثرها، ما لا يعهد إلا للقوى السحرية، ذلك هو اختراع (المطبعة) التي جعلت تداول الكتب يسيراً، فأوقدت سراج الآداب في أوروبا، وأحيت موات العقول، فظهر النبوغ في طبقات كثيرة، ومال الناس إلى البحث، وشاركوا أصحاب العقول الراجحة في العصور المختلفة. ووقفوا على المذاهب والآراء المتباينة لم يركبوا لذلك صعباً، ولا تجشموا عناء.

ثم ظهر الكشافون البحريون (دي جاما وكلمبُ وماجلان) فقاموا بأعمال جليلة. فتحت لأوروبا أبواباً للعمل والرزق فانتشرت التجارة وارتقت الثروة رقياً لم تحلم به أُمة ولا أُمم من قبل.

وكان للإصلاح الديني الذي وضع أساسه (لوثير) في ذلك العهد أكبر الآثار في تحرير العقول من ربقة التقليد، وتلك الحرية هي مفخرة التاريخ الحديث، وعليها قامت المدنية الأوروبية، وبها استطاعوا الافتنان في الأعمال المدهشة، والإتيان بالاختراعات العجيبة، كما نظمت الحياة الأدبية والاجتماعية، ونبه الناس إلى التفتيش عن صحة ما يعلمون وما يعتقدون، فقام دعاة الإصلاح والتجديد فيما بينهم يغيرون نظم التربية والتعليم ويدعون إلى التجديد فكثر التأليف وأنشئت المدارس وتقدمت الصحف. ولم يبقَ باب من أبواب الأدب والفن إلا سار فيه الإصلاح والتجديد سيراً حثيثاً.

وإن ما يظهر اليوم في أوروبا من مظاهر الحضارة الزاهية، من نشر الآداب السامية

وحرية الفكر والميل إلى البحث والاستقصاء في طلب الحقائق واتساع العقل وتغير نظم التعليم وأساليبه ورقيِ آداب الاجتماع وبسطة السلطان وضخامة الثروة، كل أولئك من ثمار تلك العوامل التي ساعدت على نهوض أوروبا.

بدأت النهضة في إيطاليا التي أوت طلاب العلم والمهاجرين من أهل قسطنطينية ثم سرت منها إلى فرنسا وجرمانيا وهولندة وإنكلترة. وكان أساس الدعوة في إيطاليا وفرنسا إحياء العلوم والفنون والآداب، أما في جرمانيا وهولندة وإنكلترة، فقد كان أساسها الإصلاح الديني، وإن شملت الدعوة إلى طلب العلم والأدب ضمن ذلك.

ولقد درجت النهضة الأوروبية إلى الكمال منذ القرن الخامس عشر، غير أنها أوسعت الخطى في القرنين التاسع عشر والعشرين ولا تعلم الغاية التي يقف عندها مجهود العقل البشري.

٢٢- وصف سفينة تحترق ليلاً

قصدنا إلى طلب العلم في أوروبا فحزمنا أمتعتنا، ولحقنا بالسفينة (فكتوريا) وهي سفينة كبيرة يجد المسافر فيها من أسباب الراحة والرفاهية، ما يجده في المدن العظيمة والأمصار الواسعة، فسارت باسم اللّه مجراها تمخر عباب البحر الأبيض تتهادى على صفحة الماء كما تتهادى العروس، فقضينا فيها خمسة أيام بأحسن حال وأنعم بال، كان البحر فيها هادئاً والجو دافئاً، والسفّر يمرحون في أمن وبلهنية، وكنت وصحبي نتجاذب أطراف الأحاديث فيما نكون عليه في الغربة مغتبطين بما هيأ اللّه لنا من الاستمتاع بعجائب الطبيعة ومحاسن الكون.

وبينا نحن في اليوم السادس، وقد اجتازت السفينة مضيق جبل طارق إلى المحيط الأخضر إذ أحسسنا انقلاباً في الجو لم نعهده قبلاً، فهبت علينا ريح باردة شديدة عكرت علينا صفونا فغادرنا سطح السفينة إلى بهوها الأعظم نلهو ونتسامر ولما أرخى الليل سدوله أخذنا مضاجعنا ونمنا هزيعاً من الليل، ثم استيقظ بعض السفّر بدخان سد المعاطس وضايق الأنفاس، ثم اشتد وتكاثف فرأينا البحارة في هياط ومياط، وإذا أجراس الخطر تنذرنا بالحريق.

يا لهول تلك الساعة لم يكد القوم يستريحون حتى هبوا من نومهم مذعورين مروعين، لا يدرون ما يأتون ولا ما يذرون، ملك قلوبهم الجزع وطار بأحلامهم الفزع فوقفوا مبهوتين حائرين يصيحون وقد عزَّ عليهم البكاء، وينادون ولا من يجيب النداء.

استحوذ اليأس على المسافرين وفقدوا الأمل وهو سراج النفوس، ولولا ما قام به

البحارة والمهندسون من المعاونة على إنقاذ السفينة فاقتحم بعضهم النيران وساعدهم بعض المتطوعين الأبطال لإلقاء ما اشتعل في اليم فخنقهم الدخان ونكصوا على أعقابهم خاسرين، وقد أسرع آخرون إلى المضخات فأداروها، ولكن ضاعت جهودهم بمناوأة الريح وحبط ما صنعوا فيها.

ظلت النار تمتد في السفينة شيئاً فشيئاً والملاحون عاجزون عن مغالبتها، فلم يسع الربان إلى أن استصرخ السفن القريبة منه بالبرق الأثيري وأمر أن تلقى زوارق النجاة في الماء ونادى الركاب أن اهرعوا إليها إن كنتم ناجين.

لم يكد المسافرون يسمعون هذا النداء حتى طارت نفوسهم شعاعاً وأيقنوا أن الموت مدركهم لا محالة، بالماء أو بالنار.

في وسط تلك المناظر المحزنة ترى رجالاً مستبسلين لا يهابون الموت يجودون بحياتهم لإنقاذ السفينة وركابها، أولئك هم البحارة الذين لم يدخروا وسعاً في مكافحة النيران إلا بذلوه، ثم لم ينالوا منها مأرباً ولا شفوا نفساً.

ووقف الضباط وسط القوم يحملونهم على النظام كرهاً وينزلون الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة قبل الشبان والكهول والقادرين فخفقت القلوب ووجمت النفوس وسالت العيون تذرف الدمع الهتون، وصاحوا جميعاً إلى اللقاء، إن أذن الله بالبقاء.

أما السفينة فقد أتت النيران على أكثرها ولم يبقَ من خشبها إلا دكان صغير وقف عليه المهندسون والبحارة ينظرون إلى عروس البحار وهي تصعد زفراتها، ونادوا بإبعاد الزوارق عنها حتى لا تجتذبها إليها وهي تهوي إلى مستقرها، وما هي إلا هنيهة حتى سمعنا صوتاً أصم الآذان، حسبناه رعداً قاصفاً، فإذا مراجلها قد انفجرت، وإذا الربان وبحارته آخر من يغادرونها.

اشتعلت السفينة كلها وصارت كجبل من نار، فكان لها منظر عجيب في ذلك الليل البهيم، ولم تلبث أن هوت إلى قرار المحيط وساد الظلام والسكون.

أخذت الزوارق تخبط في هذا الظلام الحالك حتى أودى كثير ممن بها جوعاً وبرداً وإشفاقاً ووجداً، ولما استيأسنا من النجاة وأيقنا بالهلاك آنسنا ناراً من بعيد، تقترب منا شيئاً فشيئاً، فعلمنا أنها سفينة آتية لإنجائنا فأحيت ميت آمالنا، وانتشلتنا من أهوال البحر، وواسانا ركابها وهنّؤونا بنجاتنا، وسارت حتى ألقت مراسيها وبلغتنا مأمننا فحمدنا الله على سلامتنا.

٢٣- وصف البرتقال

هي فاكهة من الفصيلة الليمونية، حلوة الطعم، عبقة الرائحة، والبرتقالة في حجم جمع اليد أو أكبر منه قليلاً، كروية الشكل صفراء اللون غزيرة الماء، ظاهرها قشرة خشنة

طرية، ثخينة أو رقيقة وباطنها فصوص متراصة متضامة كالأهلة، يتالف من جملتها اللب، ويختلف عدد هذه الفصوص بين سبعة واثني عشر فصاً، ولكل منها غلاف رقيق شفاف يحتوي أكياساً صغاراً مستطيلة بها ماء أصفر حلو، وفي بعض الفصوص بذور إلى خمس وبعضها لا بذور فيه.

وموطنه الأصلي شمالي الهند وغربها وجنوب الصين، ولا يزال ينمو في هذه الجهات برياً. ثم نقل إلى فارس بعيد المسيح، ولم يذكر في الكتب المقدسة، ولا عرفه العرب إلا بعد فتحهم فارس، ونقل من فارس إلى أوروبا في القرن التاسع الميلادي، وإلى أمريكا في القرن السادس عشر ويزرع الآن في المناطق المعتدلة إلى الدرجة ٤٤ شمالاً و٣٥ جنوباً، وأشهر جهاته ممالك بحر الروم، وما في عرضها من الأمريكتين وجزائر الهند الشرقية والغربية.

وشجرة البرتقال جميلة معتدلة الساق، كثيرة الأغصان مورقة، نضرة، لامعة، يبلغ ارتفاعها إلى أربعين قدماً وتثمر بعد سبع سنين، وقد تُعمّرُ طويلاً ففي إسبانيا أشجار مضى عليها نحو ستة قرون، ولا تزال تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وأزهارها صغيرة عبقة إلى البياض، تظهر في مارس وإبريل ثم تكون ثمراً يجنى في أكتوبر أو نوفمبر، ويبقى نحو ستة أشهر، وقد يبقى أكثر من ذلك، لوروده من بلاد يتأخر نضجه فيها. وإذا أريد إصداره إلى ممالك بعيدة جمع من أشجاره قبل أن يتمَّ ينعهُ حتى لا يعطب، وقد يشاهد في الشجرة أكمام وأزهار وثمار يانعة وغير يانعة في وقت واحد.

وأنواع البرتقال كثيرة وأسماؤه مختلفة، حسب اختلاف منابته، وأكثرها شيوعاً في مصر البرتقال البلدي واليوسفي واليافوي، أما الأول فيمتاز باستدارته ورقة قشرته وملاستها وكثرة مائه وشدة حلاوته، ومنه نوع يمتاز بعصارة حمراء قانئة، يسمى البرتقال الدموي. وأما اليوسفي فهو أصغر من سابقه حجماً وأظهر انبعاجاً وأرق ماء وأضوع شذى وقشرته خشنة، تحتوي كثيراً من زيت عطر، وتكاد تكون مفصولة من اللب، لولا خيوط واهنة تصل بينهما، وأما اليافي فهو أضخم حجماً من البلدي وأغلظ قشراً وأشد حلاوة وأقل بذراً، وأجود أنواع البرتقال عامة اليافي والمالطي[1] وما يخرج في جزائر الهند الغربية.

والنارنج نوع من البرتقال، أصله من إشبيلية، ولا يختلف عنه إلا في الطعم، فهو شديد الحموضة والمرارة. والليمون من هذه الفصيلة أيضاً، وهو نوعان: حلو وحامض، وهو أصغر من البرتقال.

والبرتقال فاكهة تنقي الدم وتنعش الجسم، وقد ينتبذ أو يضاف إلى الكعك ويعمل

---

(١) كان هذا قبل ظهور (أبو سرة) الأمريكي والمصري والمغربي أجود أنواع البرتقال. وكتبه مصححه عبد الوصيف محمد.

من قشره رُبٌّ (مربى)، ويعمل النارنج مربى ويخلل ويعصر على بعض الأطعمة كالليمون ليكسبه طعماً مقبولاً، أما زهره فيستقطر منه ماء عطر، وتزدان العرائس به ويتخذ من شجره أثاث نفيس متين، وقد تطعم به مصنوعات من خشب آخر لنفاسته.

٢٤- وصف يوم قائظ

أصبحنا يوم الخميس السادس عشر من شهر يوليه، والشمس ساطعة، والسماء صافية الأديم، ورقّة أنفاس النسيم، تذكرنا بمحاسن أيام الربيع، ولم نزل كذلك حتى كانت الشمس في رابعة النهار، فإذا الجو قد اكفهر وجهه، وتغيرت خلائقه، فعبث وبسر ثم احتدم وزفر، فكان له حر ينضج الجلود، ويذيب الجلمود.

ما كادت الشمس تستوي في كبد السماء حتى أوقدت نارها، وأذكت أوارها وأرسلت إلينا أشعة حامية، كشواظ من نار فعادت البسيطة من وقدة الحر بساطاً من الجمر، ينبعث الفيح منها ومن كل ما عليها.

خمدت قوة الإنسان وضعفت حيلته، جنح إلى الدعة والكسل وجفت شفاهه ونضب ريقه وتصبب عرقه واحمرَّ وجهه من وهج الشمس، ووهنت مفاصله من ألم الحر، فكان لا يطيق عملاً ولا يجد راحة ولا تهنوه حركة ولا سكون:

(وأصابتْ نبتَ الرباعين شمسٌ ... أورثتــهُ مــذلــةً واصفــرَارا
كلَّما جالَ طـرفُهـا تـركَ النا ... سَ سُكارى وما هم بسكارى)

ونام بعض التجار والصناع في حوانيتهم، وأوى بعض العمال إلى الأشجار فناموا تحتها، وتفيؤوا ظلالها، وجالت عجلات الماء ترش الأرض لتكسر من شدة الحر، فلم تجد نفعاً:

وَهاجرة صَادق حـرّها ... تكادُ الثِّيابُ بها تلهـبُ
كأنَّ الحرَّ أبى من حرِّها ... تلوّح بالنارِ أو تصلبُ

ولم تكن البيوت أحسن من الشوارع حالاً، فقد أغلقت منافذها فصارت أشبه بالسجون: لا ضياء ولا هواء.

لم يستمرئ الناس في ذلك اليوم طعاماً ولا أطاقوا عملاً، لكن حبب إليهم البارد من كل شيء ينقعون به الغلة ويبرئون العلة، فلم يزدهم إلا كرباً وتحرقاً:

يعلو به الكربُ ويشتدُّ القلقُ ... وتنضحُ الأبدانُ فيـه بالعرقِ

وكانت الريح تركد أحياناً فتضيق الأنفاس، وتحرج الصدور وتثور أحياناً فتلفح الوجوه، وتسفي التراب من التلال، فاغبرَّ الجو، واكفهر وجه السماء، وفسد الهواء، وقذيت العيون، وشجيت الحلوق، ولم يبق في قوس الصبر منزع.

ولما فاح الحر واشتدت الهاجرة، أضحت الشوارع خلاء، وخشعت الأصوات فلا تسمع إلا همساً. وكنت ترى الحيوان قد تتابعت زفراته وتوالى نهيجه وأخرج لسانه من فمه، وحاول قطع الرباق وخلع القيود ليأوي إلى حظائره. وعادت الطيور إلى أوكارها وجثمت في مقارها، واختفت الهوام في أجحارها وإن تعجب فعجب أن يجمع الحر بين ضدين، ويؤلف بين متعاديين فترى العصفور يستظل كرهاً مع الضب، والقط ينسى عداوة الكلب.

أما الأشجار فقد صوحت وتساقطت ثمارها وذبلت أوراقها والتوت أغصانها وحالت نضرتها وضاعت بهجتها.

في زمانٍ يشوي الوجوهَ بحرٌّ ويذيبُ الجسومَ لو كنَّ صخْرا
لا تطيرُ النُّسورُ فيه إذا ما وقفتْ شمسُه وقاربَ ظهرا
ويودُّ الغصنُ النضيرُ به لو أنه من لحائه يتعرَّى

ونصلت ألوان الثياب وقل رواؤها وتقفعت أطرافها وأصيب خلق كثير بضربة الشمس، ومرض أطفال بالحمى من شدة الحر، ولم يبق حيوان ولا نبات ولا جماد إلا مسه أذاه.

ولما حان الأصيل خرج الناس من بيوتهم، وكأنما نشروا من قبورهم يطلبون الخلاء والمفازة وضفاف الأنهار، وكانت الليلة راكدة الريح والأرض تتنفس أنفاساً حارة ثقيلة.

(فعادتْ كتنورِ الإماءِ سجرتْه والقينَ فيه الجزلَ حتى تَضرّما)

فلم يطب لهم مغدى ولا مراح، وآبوا إلى بيوتهم حائرين، وصعد كثير إلى سطوح المنازل ينامون عليها، وهاجت دواب الأرض وهوامها، وضاق الناس بها ذرعاً حتى بلغت الروح الحلقوم.

(من عقربٍ تسعى كسعي اللِّص سلاحُها في أثره كالشصِّ
وحيةٍ تنفثُ سماً قاتلا تزود الملسوعَ حتفاً عاجلا)

وأصبح الناس يتحدثون بما لاقوا في أمسهم من هول، ويضرعون إلى الله تبارك وتعالى ألا يصيبهم بمثل ذلك اليوم.

٢٥- الإحسان جند منصور بين يدي المصلح

الإحسان هو إسداء المعروف لبني الإنسان، ويظهر في بذل المال للمحرومين وفي الجاه يستشفع به ذوو الحاجات، والإرشاد إلى الخير ينقذ به الجاهل المغمور، وفي القوة تبذل في إغاثة الملهوف وحماية الضعيف وهو من أوضح الأدلة على شفقة الإنسان وتقديره نعمة المنعم عليه.

وإذا كان الناس متفاوتين في طبائعهم وقدرهم، فمنهم الخامل والعامل والغبي والذكي والضعيف والقوي، حق على غنيهم أن يسعف فقيرهم، فليس من الإنسانية أن يرى الرجل أخاه مجدوداً يتضور جوعاً، وتقضقض عظامه برداً، وينظر إليه بعين جامدة وقلب كالحجر أو أشد قسوة.

(وحسبُكَ داءً أن تبيتَ ببطنةٍ وحولُكَ أكبادٌ تحنُّ إلى القد)

ولا من الدين أن ترى صاحب الحاجة معذباً حائراً، وفي طاقتك أن تشفع له فيما لا يضر بالدين أو المروءة، وتتركه يحرق الأرم ويبكي نفسه وأهله ولو أسعفته لوجدت منه عبداً يدين بالمعروف ورجلاً نافعاً أُمته، عاملاً في رقيها.

الإحسان بجميع مذاهبه ووجوهه مفيد للمجتمع أيما فائدة، فهو ينقي أدرانه، ويقيه العلل الاجتماعية المدمرة، فإذا تواصى الناس بالمعروف وأغاثوا ذا الحاجة الملهوف، نجحوا مما تجره الفاقة والزمانة وفراغ الأيدي من العمل من الأمراض الفاتكة بالأرواح والجرائم المقلقة للنفوس.

ارجع بصرك إلى أهل الغرب تجد بلادهم خالية من تلك المناظر التي تقذى بها العيون، وتحرج الصدور، فلا ترى جيوش السالبين يلبسون الظلام ويكمنون في الأحجار والأشجار! ولا جماعات المتكففين يناكبون السابلة، ويأخذون عليها الطريق، ولا أهل الزمانة والأمراض القتالة يخالطون الصحاح، ويلابسونهم في الغدو والرواح.

تأمل حكمة الزكاة في الإسلام تجد فيها ترفيهاً للمحروم وتخفيفاً لآلامه وتطهيراً للنفس من رذيلة الشح والحرص، ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة: ١٠٣] وتداركاً لما عساه أن يحدث في قلب الفقير من الضغينة والحقد على أخيه المليء فيتنازعان ويؤول أمرهما إلى قتال يهلكهما معاً، ورغبة أن يتآلفا ويتعاونا على البر والتقوى.

وما خزائن الغني تفيض بالنضار، وبيادره تجتمع فيها الغلال والأثمار وسلعة تجوب الأقطار، إلا عرق العامل سال فأخصب وأجدى، وجهده بذل فأنمى وأذكى. فإذا لم يكافئه أولو النعمة ذهبت قوته وشلت يده فوقف دولاب الأعمال وغاض معين المال.

الزكاة وقاية من المذاهب الاشتراكية الجائرة التي تفسد على الجاد تدبيره وتأخذ على العاقل تفكيره وتريد أن تجعل من الناس أُمة واحدة. وجنة من التخاصم بين الموسرين والمعسرين وما نبتت المذاهب الاشتراكية إلا حيث تمكنت الأثرة من نفوس الأغنياء فغلوا أيديهم عن بني قومهم وضنوا عليهم بما يخفف عنهم نكد العيش وآلام الحياة.

وليس الإحسان إلى كل الناس مثمراً، ولا في كل المواضع جائزاً فقد تنعكس آثاره فينقلب نفعه ضراً كالإحسان إلى المتكاسلين، ومن يتصنعون الأمراض حباً في الراحة واستدراراً للمال من أسهل طريق واللئام الذين يجحدون آلام المنعم وينكرون فضله بل يناصبونه العداء، ويقاتلونه بما أعطاهم إن أمكنتهم الفرصة «اتق شر من أحسنت إليه»، والمحسن الحازم من يتخير لمعروفه منبتاً حسناً، وقلباً كريماً، من ذوي الحاجات والآلام الواضحة، ومن أذلهم الزمان بعد العزة ووضعهم بعد الرفعة.

(إنَّ الصنيعةَ لا تكـونُ صنيعةً حتى تصيبَ بها مكانَ المصنعِ)

وخير وجوه الإحسان إنشاء المدارس لنشر التعليم والتربية وإقامة الملاجئ الناهضة بأعباء العجزة والمستضعفين، وتأسيس دور العلاج للمرضى والمعتلين، وبناء المصانع والمعامل للمتعطلين وإعانة الجيوش الزائدة عن بيضة البلاد، وغير ذلك من أعمال البر العامة.

وللإحسان تأثير عظيم في النفوس فهو يبعث على ائتلاف القلوب وتضافرها للمصلحة العامة، ويدعو إلى الوئام ونبذ الخصام وينشر لواء الهدوء والسكينة، وإذا ما شعر المحسن إليه أن غيره يفيض عليه من خيره امتنع عن اجتراح السيئات، وحافظ على المحسن ودمه، كما يحافظ على نفسه، واثر ذلك فيه فاعطى مما أخذ من هو أشد منه بؤساً، واخلى منه يداً.

(يجـودُ علينا الخيرونَ بمالِهمْ ونحـنُ بمـالِ الخيرينَ نجـودُ)

والإحسان دليل على كمال الإيمان وحسن الظن بالله، وعدم الركون إلى الشيطان الذي يعد الناس الفقر ويأمرهم بالبخل، وعلامة على الشجاعة إذ يقدم المحسنون بلا مبالاة، فيؤثرون الناس على انفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ولا يخلو بلد من محسنين يعشقون المعروف، وينفقون في سبيله التالد والطريف، ولكن نظام الإحسان يختلف باختلاف البلاد تقدماً وتأخراً، فسيل الإحسان في بلاد الغربيين والمدارس والملاجئ، ودور العلاج وتشجيع الباحثين والكاشفين، وإقامة المعامل، وبناء البيوت للعمال، إلى غير ذلك. أما نحن في مصر فلا نسلك السبيل السوي فيه مع سخائنا وكثرة برّنا، وإلا فما هذه الطرق الغاصة بالعجزة والمتكففين؟ وما أولئك الصبية الذين تعافهم النفوس يجوبون الطرقات والقهوات، ويلتقطون فضلات اللفائف وإلا تعجب فعجب أن تجد من بين المتكففين قوماً يلبسون الأسمال والمرقعات، ويتعامون أو يتبالهون، حتى إذا جن الليل خلعوا شباك نصبهم واحتيالهم، وارتدوا أُخرى فعاثوا في الأرض فساداً وأهلكوا الحرث والنسل، وهم يستمرئون ذلك المرعى الوبيل، ويخرجون أولادهم في مهنتهم فيقعدون عن العمل، ويكونون عالة تعم بهم البلوى ويزيد الفساد.

لو أحسنا لأنفسنا وأُمتنا، لاصطفينا لمبراتنا أبواباً أحسن أثراً وأعم نفعاً، واحتذينا الغربيين فنظمنا جماعات للإحسان تصرفه في وجوهه، واكتتبنا في مصانع وشركات تؤوي القادرين على العمل، فتنتفع مصر بمجهودهم، ويعيشون بمنحى عن الصَّغار والهوان وحق على أولي الأمر أن يضربوا على أيدي الملحفين في السؤال وهم في غنى لتصان كرامة الأمة وتزيد فيها الأيدي العاملة لرفاهيتها.

ومن سعدِ حظٌّ المرءِ وجدانُ زوجهِ　　تطيبُ بها هذي الحياة وتعذبُ

التربية هي إيصال الأحياء إلى ما يمكن من كمال، وقد عالج الإنسان فنونها منذ نشأته، إذ عرف حاجته إلى النبات فاستنبته وإلى الحيوان فاستأنسه واتخذ منهما غذاءه وكساءه، وكنه وعونه بضروب من الصناعات ابتدعها، وربى ذراريه ليخلفوه في الأرض فورثهم تجاربه في سبيل الحصول على القوت ومدافعة عدوه من الحيوان.

ثم لما تألفت الجماعات، واتسع العمران، انقسمت تربية الإنسان أقساماً ثلاثة هي تقويم الجسم بالغذاء، وتثقيف العقل بالمعارف، وتهذيب الخلق بحب الخير والعمل به.

كان الإنسان يقوم بتربية أولاده في المنزل، فلما انتظمت المجتمعات أعانه على التربية عوامل أُخرى قللت من عنائه تلك هي المدرسة والمجتمع والدين والحكومة، والمنزل أهم تلك العوامل وأوضحها أثراً في إنماء القوى الجسمية وتربية الملكات العقلية والخلقية، لأنه الأساس الذي تقوم عليه العوامل الأخرى إذ يتعهد الأطفال إبان المرونة واللدونة، فتكون نفوسهم مستعدة لقبول ما يعرض عليها من صور الخير والشر، وأقبل للتأديب والزجر لعدم رسوخ الملكات وتمكن العادات.

إن الغصونَ إذا قوّمتَها اعتدلتْ　　ولا يلينُ إذا قومته الخشبُ

فإذا أخذهم المربي وقتئذٍ بالحسن ألفوه ودرجوا عليه، حتى يصير لهم عادة وطبعاً.

وينشأُ ناشِئ الفتيان منّا　　على ما كان عوّده أبوهُ

ويقتضي نظام الحياة أن يقوم رب الأسرة بالعمل لجلب الرزق وأن تتفرغ ربة الأسرة لإدارة البيت وتربية الأبناء، إذ التربية أهم أعمالها، بل وظيفتها التي خلقت لها، وسعادة الأسرة وشقاؤها متوقفتان على قيام الأم بوظيفتها، فهي إن شاءت جعلت منزلها جنة يمرح فيها ولدانها أصحاء الأجسام، مهذبي العقول، يفيضون بشراً وسروراً ويأوي إليها زوجها، فيجد نعيماً مقيماً، وسعادة تذهب بمتاعبه وآلامه، وإن شاءت جعلته جحيماً يأوي إليه شياطين الإنس الذي يقوضون بنيان المجتمع، ويفسدون كيانه.

وما الأمة إلا أُسرة كبيرة – أعضاؤها الأسر الصغيرة، فإذا فسد عضو منها تداعى له

سائر الأعضاء، وشقيت الأمة، فرأيت في أبنائها عجزة لا يستطيعون عملاً، وجهالاً لا يغنون فتيلاً، وأشراراً لا يعرفون إلى الخير سبيلاً.

قلب نظرك في التاريخ تجد أمثلة كثيرة، تنبئ بما للأمهات من أثر في صعود الأمم وهبوطها، وإليك مثل من تاريخ الأمة العربية المجيدة التي كانت المرأة فيها من أكبر العوامل على ما بلغته في جاهليتها وإسلامها من عزة قعساء وهمة شماء، أحدثتا في العالم انقلاباً لم يعرف له التاريخ مثله.

وقفت الخنساء بنت عمر بن الشريد يوم القادسية تشد إزر بنيها الأربعة، ليصدقوا القتال وينصروا دين الله، ولما حميت المعركة استشهدوا جميعاً، فلم تذرف عليهم دمعة، ولا أسالت عبرة وهي التي علمت النساء من قبل كيف يبكين الأعزاء، ويندبن النصراء، وكان لتلك التضحية الغالية وأشباهها أعظم الآثار في ارتفاع كلمة الإسلام وخفوق أعلامه على ممالك كسرى وقيصر، ولا غرو فالتي تهز المهد بإحدى يديها تهز العالم بالأخرى.

عرفت الأمم أثر المرأة في تربية أبنائها، وفي إسعاد العالم فأقبلوا عليها يعلون من شأنها، ونادوا بتعليمها وتهذيبها لتؤدي وظيفتها حق أدائها، ووضعت كل أمة خطة لتعليم المرأة تلائم حاجتها وعوائدها، وخير ما يناسب المرأة عندنا تعليمها العلوم المعينة على النجاح في ترقية الأسرة وترقية حالها.

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعدَدتْها　　　أعددتَ شعباً طيِّب الأعراقِ

وأول ما ينبغي أن تعلمه البنت فن تدبير الصحة، لتحافظ على صحتها وأبنائها، فتخرج للمجتمع رجالاً أقوياء أصحاء، يضطلعون بالأعمال المثمرة كالزراعة والصناعة والذود عن حياض الوطن، وما تتطلبه الحياة من جهد وقوة. وإن الأمهات الجاهلات ليقتلن بجهلهن من الأطفال كل عام ما يربو على قتلى الحروب الطاحنة. ثم لا بدّ من تعلم (الحساب) لتضبط الدخل والخرج، وتدبر ثروتها وثروة بعلها، فتستغني عن غيرها، وكذلك فن (تدبير المنزل) لتقتصد في النفقة فتعيش آمنة على مستقبلها، ولا ترهق الزوج بسرفها وينبغي أن تعلم من الجغرافية ما تعرف به علاقة بلادها بغيرها، وتقف على مختلف الحاصلات، وما بين الأمم من منافع متبادلة. وحاجة المرأة إلى معرفة التاريخ والدين ماسة شديدة. ففي التاريخ المثل الصالح تضربه لأبنائها، ليشبوا على حب الوطن. أما الدين فهو منبع الأخلاق الفاضلة التي ينبغي أن تأخذهم بها منذ نعومة أظفارهم وهو يرعها ويحصنها من نزعات الشيطان.

وأساس ذلك كله أن تعرف القراءة والكتابة لأنهما من الأدوات التي لا غنى عنها، فإن شاءت أن تتوسع في بعض العلوم كالتاريخ والجغرافيا واللغات، أو حذق الفنون كالتصوير والموسيقى والشعر، فلا ضير إلا إذا شغلتها عن تربية الولد أو أضرت بحال الزوج.

وصفوة القول أنه لا بدّ أن تعلم المرأة كل ما تنمو به قواها الجسمية والعقلية والخُلقية لتسعد في حياتها ويسعد بها أبناؤها وزوجها، وتزول عوامل الحزن والهم وأسباب الخلاف والشقاق التي يجلبها رأس فارغ ويد متعطلة.

ولقد تنبه الرأي العام في مصر إلى تعليم البنت، وأخذت الحكومة تبث المدارس المختلفة في المدن والقرى، وإنا لنرقب هذه النهضة المباركة بعين الأمل في صلاح المستقبل، فإن تعليم البنت وتربيتها لخير ما تعالج به أمراض الشرق وآفاته.

٢٦- الألعاب الرياضية وما ينجم عنها

اللعب من الغرائز القوية في الحيوان يظهر فيها منذ نشأته فترى صغاره تعدو يمنة ويسرة تقفز وتطفر، وتستخفي في حظائرها وتظهر، وتناغي أمهاتها في عملها وراحتها وترى الطفل يركب القصب خيلاً ويجمع الأحجار بيتاً ويخط الأرض حقلاً ولا تخمد حركته أو يجن الليل فيخاف الظلام.

ويكاد اللعب يكون مميز الحياة الأولى وقوامها، وأشد ضروراتها وهو مقدمة حياة العمل وصورة المستقبل، ولا يستطيع مربٌ أن يحول بين الصغار وبينه.

وكلما كبرت الأطفال ترقت ألعابهم وتغير نظامها، فمن حركة لا قصد لها، وعبث بكل ما يقع تحت الحس، إلى نظام يجمعهم في سلك واحد، ويحسون فيه ضرورة التآزر.

والألعاب جسمية وعقلية، فالجسمية كالسباحة والتجديف وركوب الخيل والسبق والرمي والمبارزة والمصارعة ورفع الأثقال والقفز والقلة وانزلاج الجسم والجري بالقبقاب والكرة تدهده بالرأس أو تدفع بالأيدي والأرجل والصوالجة وهي أكثرها ذيوعاً.

والعقلية: كالشطرنج والنرد والورق، وهي بنوعيها أقل الأشياء تغيراً، فاللاعبون اليوم يتناولون ألعاب اليونان والرومان والهند والفرس والعرب دون أن يحدثوا فيها تغييراً يذكر.

ويرى بعض الناس أن اللعب مضيعة للزمن، مجلبة للشر عقبة في سبيل التربية حائل دون العمل لكسب الرزق، ولكنهم واهمون، لأن اللعب من ضروريات الحياة، ومن أقوى عوامل التربية والإصلاح.

اللعب ينفس عن الجسم، يخرج القوة الزائدة على الحاجة، ولو بقيت لآدت الجسم وآذته، ويقوي العضلات ويفتلها، ويمرّن الأعضاء فتصلب وتشتد، وينقي الدم من خبث الأطعمة والفضلات السامة فتنشط دورته، ويقوي على درء الجراثيم الفتاكة، والأمراض المنهكة، وفي صحة الجسم سلامة العقل، إذ إنهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، فكلما صح الجسم ازداد العقل قوة ونشاطاً.

واللعب مظهر للميول الكامنة في نفوس الأحداث: من طاعة أو عناد، وهمة أو خمول، باعث للغرائز الدافعة إلى العمل في أطوار الحياة الأولى: كالحركة وحب الاستطلاع وما إليهما، ولو لم يقوها اللعب لخمدت جذوتها، فخرج الطفل بليداً هزيلاً، وإنا لنرى المعاقبين بين اللعب والعمل، والجاعلين للجد ساعة، وللهو أُخرى، يفيدون من أوقاتهم وأعمالهم أضعاف ما يفيده المنبتون (فإن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى) ويجدون في أجسامهم نشاطاً وقوة على درء الضعف والعلل.

واللعب مقوم للأخلاق مهذب للطباع، ولقد عنيت الأمم الحديثة به إذا كانت الحياة تحتاج إلى جهاد وكفاح مستمر - وذلك يتطلب العقل المدبر، والرأس المفكر، والجسم الأيد فافسحت لها مجالاً واسعاً، وشجعت القائمين بها وكذا يعنى المصريون الآن بالألعاب لما لها من الفوائد التي لا تحصى، ولكن ينبغي الا تشغل الألعاب المرء عن العمل لأنها وسيلة لا غاية.

(كلُّ من في الوجود يطلبُ صيداً غـيرَ أن الشـباكَ مختلفات)

قضت إرادته جل وعلا اختلاف الأعمال والآمال بين الرجال، فالملك والسوقة والعالم والجاهل والزارع والصانع والتاجر وغير أولئك لهم أماني في هذه الحياة ومطامع ينظرون إليها ويجاهدون ويجالدون وراءها، فهذا يطلب ملكاً أو جاهاً او صيتاً أو ربحاً أو لباساً أو انتقاماً أو سرقة إلى غير ذلك من أغراض النفوس وميولها.

كلٌّ لـه غرضٌ يسعى ليدركَـهُ والحرُّ يجعل إدراكَ العُلا غرضا

والناس شتى في المسعى واتخاذ الوسائل فقد يتخذ بعض الناس القوة وإنفاق المال لنيل وطره، والآخر يأخذ حرفة الذكاء والفطنة وإتقان العمل وجودته مع الإخلاص لله سبحانه وتعالى ولهذا الواجب القائم به، وغير هذين يتخذ النفاق وسوء الأخلاق وبذاءة الأقوال والمكر والمهارة في الاحتيال وسلب الأموال. فهذا يستخرج السمك من البحار وغيره يقتنص الطيور من الهواء ويصيد المفترس من الغابات، أو يتخذ من الزرع مأكله وملبسه ومسكنه، أو يستخرج المعادن ويستخلصها بثقاب فكره ويستخدم البخار والكهرباء ويسبر غور البحار وينتزع الإسفنج واللؤلؤ والمرجان، أو ينشر سطوته وسلطانه بالقوة والرجال والسياسة وبذل المال أو يطمح إلى الرقي بجده وأمانته سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

٢٧- اتَّقِ شرَّ من أحسنت إليه

اتخاذ الأصدقاء محمود ومحبوب والإحسان إلى الإنسان مأمور به وجميل. والعاقل يحترس مهما أعطى وأجاد فيحفظ سره ولا يودعه لمن لا يستحقه ولا يعقله ولا يوقفه على

دخائله (فأي الرجال المهذب) وكم من صديق حميم انقلب عدواً فيكون عالماً بالأسرار واقفاً على الدخائل، عارفاً بأماكن الضعف - وقد قيل حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة والثقة نكبة.

احــذرْ عــدوَّك مــرةً   واحذر صديقَك ألفَ مرَّة
فلربَّما انقلبَ الصديـ   ـقُ فكان أعرفَ بالمضرَّة

وإذا كاشف العدو ببغضائه اتخذت له العدة اللازمة للوقاية من ضرره واضر الأعداء من أظهر لك الصداقة ليستدر بمعروفك ويتمتع بخيراتك وانت غفل عن مكايده. واللبيب من أخذ الحيطة من الناس وعاملهم بالحسنى وقدم لهم الخير مع الاحتراس من شرورهم ولم أرَ أحسن عاقبة وألذ مغبة من اتخاذ الأصدقاء، وكسب محبة الناس مع اتقاء شرورهم وتحمل هفواتهم، والغض عن سيئاتهم والعفو عن سقطاتهم وعدم إفشاء السر لهم، إفشاء يؤدي إلى إظهاره في يوم ما، ولا يبقى على حال إلا اللّه سبحانه وتعالى، وما أقرب نسيان المعروف من الإنسان، فينقلب الصديق عدواً، ويعلن الحرب العوان على أخدانه، ويضربهم في حصونهم الكامنة، ويعرف الداء الخفي، وقد قال رسول اللّه ﷺ: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما».

كنْ بذئبٍ صائدٍ مستأنساً   وإذا أبصرتَ إنساناً ففر
واجعلِ النَّاسِ كشخصٍ واحدٍ   ثم كنْ من ذلك الشخصِ حذر

٢٨- المثابرة والصبر سر النجاح

قد ينال المرء ما يتمنى إذا عمل بجد وثبات وصحبه الحزم والعزم وإجادة الرأي وقوة العقل وصواب الفكر! ومشى بحكمة وتؤدة وتأنّ وقوة عزيمة وأخلص للّه في عمله وأتقنه بقدر ما يمكن، لأن اجتناء ثمار الأعمال يأتي بالثبات ولا يحصل على الفائدة العظيمة إلا بالروية والتحلي بمكارم الأخلاق! وأكثر الناس ثباتاً ونجاحاً ورقياً أهل العزم والصبر.

وقـلَّ من جدّ في أمرٍ يحاولـه   واستصحبَ الصَّبرَ إلا فاز بالظفرِ

إن الذين نالوا المراكز العالية، وتربعوا على دست الوظائف السامية، هم الذين تحملوا آلام الحياة، وتكلفوا مشاقها؟ وقابلوها بعزيمة تهدّ الجبال هدّاً وتدك العوالي دكاً، حتى صعدوا إلى قمة السعادة، وبلغوا ذروة المعالي وفازوا بالنعيم والمدنية وتمتعوا بالحضارة والخيرات الجمة.

أخلق بذي الصَّبر أن يحظَى بحاجتهِ   ومُدمِن القـرْعِ للأبـوابِ أن يلِجَا

وأما اليأس فهلاك وتأخر وضعف، وسوس ينخر في عظام الرقي، ومن استسلم إليه هوى وساء حاله ونكد عيشه ولا خير في حياته، لأنه ما أتم عملاً ولا أدرك مطلباً ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ [يوسف:٨٧] فاليأس أقبح شيمة، ومن صبر ظفر أو كاد ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ [النحل:١٢٧]. ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ [الأحقاف:٣٥] ﴿إن الله مع الصابرين﴾ [البقرة:١٥٣].

٢٩- فوائد التاريخ

التاريخ عزيز المذهب، جم الفوائد، كثير الفرائد، شريف الغاية، يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء بهم، في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج لمآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، وينظر إلى الأعمال الصادرة من أبطال ذوي النفوس الزاكية والقلوب الصافية ويرى دقائق سياستهم وطرق كياستهم، وكيف ارتفعوا إلى منصة الرياسة والقيادة، فلا يشق غبارهم ولا يدرك مجدهم، إلا من عمل مثلهم، وسبر غور أخلاقهم ليتحلى بها.

ليسَ بإنسانٍ ولا عاقلٍ   من لم يعِ التاريخَ في صدره
ومن درى أحوالَ من قد مضى   أضافَ أعماراً إلى عمره

والتاريخ رسول السلف إلى الخلف، ومدرسة الغافل وموعظة العاقل ومعلم الملوك والرعايا وميدان تجارب ومجلٍ عبر.

نبني كما كانت أوائلُنا   تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا

وقال الإمام علي كرم الله وجهه: «أي بُنيَّ، إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وتبصرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره».

٣٠- ما هي الطرق الموصلة إلى نجاح التلميذ

إذا شاء التلميذ أن ينجح في أعماله ويبرز على أقرانه، فعليه أن يصغي إلى ما يلقى عليه من الدروس والنصائح. وألا يدعها عرضة للنسيان والإهمال.

وأن يؤدي أعماله في أوقاتها المعينة لها، ولا يتركها حتى يتراكم بعضها على بعض فتثقل عليه، ويعجز عن القيام بها، فتنصرف نفسه عن أدائها ويضيع وقته سدى.

وأن يعتمد على نفسه في الأعمال التي لا يصح أن يكلها إلى غيره، فإن كل إنسان مشغول بعمله الخاص به، ولا تنتظر من أحد أن يقوم بأعمالك تمام القيام.

ما حكَّ جلدكَ مثلُ ظفرِكَ   فتولّ أنت جميعَ أمرِكَ

«ولا تكل إلى غيرك ما يختص بمباشرتك».

وإنما رجلُ الدنيا وواحدُها   ممن لا يُعوِّل في الدنيا على رجلِ

وكيف تنتظر ممن ينافسك في ميدان المباراة أن يعطيك من النصح وإتقان أعمالك ما يريد أن يسبقك فيه.

وعليه أن يقسّم أوقات المذاكرة، ويجعل لكل علم وقتاً معيناً يتعهد فيه ما أخذه من دروسه.

فإذا خفي عليه شيء منها سأل عنه أستاذه في الوقت المناسب ولا ينبغي له أن يدع دروسه بلا مذاكرة إلى قُبيل الامتحان بأيام معدودة ثم يكد ذهنه في مراجعتها بحال قد تؤدي به إلى ضعف الجسم عن أداء الامتحان، كما يحب لنفسه ويحب له أولياء أُموره.

وأن يأخذ نفسه وقت الامتحان بالروية وإنعام النظر فيما يلقى عليه من الأسئلة، ولا يبتدئ في جواب حتى يعلم علم اليقين أنه هو المراد من السؤال، وألا يدع للوهم والجزع واليأس على نفسه سبيلاً. فإن جمع تلميذ كل ما سبق فبشره بعد ذلك بالنجاح والفوز المبين.

٣١- فوائد المطالعة

إنك لن تستطيع أن تكون أديباً أو كاتباً مجيداً طلق اللسان سلس البيان، إلا إذا كنت واسع الاطلاع على أساليب اللغة، متضلعاً من فنونها، فتختار من جزل الألفاظ وروائع العبارات ما تملك به على المخاطب سمعه وعلى القارئ فؤاده ولبه، فتستميل القلوب والنفوس بسحر لفظك، وتسترق العاصي وتستدني القاصي بآيات وعظك، فتنتبه الغافل وتهز الخامل إلى مراقي السؤدد والكمال.

تشرف بالمطالعة على ما أودع في بطون الكتب من ثمرات العقول والأفكار، ونتائج العلوم والأنظار، وديعة السلف إلى الخلف، وميراث الآخرين من الأولين بها تستعرض أمام عينيك بدائع المخلوقات وخواص الكائنات، وما تجشمت الأخطار، ولا ترامت بك الفيافي والقفار، فتقيس الأشباه والنظائر بعضها ببعض فيصح منك الاستنتاج ويشحذ فكرك ويكمل عقلك ويصيب حكمك.

واعتبر ذلك بحال طالبين أحدهما أمعن في الاطلاع على خبايا الكتب وتحلى بما فيها من علم وأدب، والآخر حجب نفسه عن أسرار الحكمة - تجد الأول ارتفع به فضله إلى أعلى عليين، والآخر هوى به نقصه إلى أسفل سافلين، وحرم ميزة الإنسان وكأنه ما كان.

٣٢- البحار وفوائدها

المراد بالبحار ما يشمل تلك المحيطات التي تغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية بالماء وما أودع فيها من بدائع المخلوقات وأحاسن الموجودات خلقها جل شانه وجعلها مصدر الحياة ومنشأ الغيث وقوام المعيشة ونظام العمران وسبل التراسل وحلية الكون.

فإذا سطعت عليها أشعة الشمس تصاعد من مائها بخار ينعقد في أعالي الجو سُحباً تحملها الرياح إلى حيث منابع الأنهار التي يزول بها الجدب، وتنشر بها بشائر الخصب، ويحيا بها الإنسان والحيوان والنبات ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ [الحج:٥].

وعليها تسير الجواري المنشآت فيها كالأعلام، مترسلة بين الممالك والقارات حاملة أنواع البضائع وأصناف المصنوعات ونتائج العلوم وثمرات الأفكار.

وفيها تسبح الأسماك المختلفة الأنواع التي نتغذى بلحومها ونتداوى بزيوتها. ويستخرج منها اللؤلؤ والمرجان المستعملان في الحلية والزينة، ويستخرج منها أيضاً الإسفنج المستعمل في نظافة الأعضاء والأدوات، وقد يستخرج من مائها أيضاً الملح بواسطة أحواض صناعية كما في ملاحات رشيد، ولا يخفى ما له في إصلاح الأغذية التي هي قوام الجسم وسبب بقائه ونمائه.

وإن الجهات التي حرمت من البحار لا تتوفر لها كل تلك الفوائد ولا تكاد تصلح للإقامة فيها.

واعتبر ذلك بالصحراء الكبرى وجهاتها الشاسعة، فلما أن خلت من البحار كانت مهب رياح السموم وخلواً من الحيوان والنبات، اللهم إلا في قليل من جهاتها صلح بواسطة جواري العيون فيه.

وقد نبهنا جلت حكمته على جماع فوائدها بقوله تعالى: ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ [النحل:١٤].

٣٣- الشوارع وتنظيمها وتجميلها

الشوارع طرق عامة يسلكها الناس مُشاة وركباناً بين مبكر لتجارته وغاد لصناعته، وطاوٍ مديدها في بطون المركبات وسريع المخترعات، إلى حيث جليل الأعمال ومعاهد التعليم والعرفان، ومتردد فيها ذهاباً وجيئة لحمل الأثقال وأنواع البضائع ونفائس الأموال، وهكذا تظل الطرق جمع النهار، وناشئة من الليل، مزدحمة بالمارين وغاصة بالمترددين.

وإن سُبلاً هذا شانها لجديرة بالاتساع والتمهيد، ورصفها بدقاق الحصى ومتهدم الأحجار، فلا تضيق بأهلها، ولا تتسخ بانسكاب الأمطار فيها، وأن تنظف بالرش والكنس

تخفيفاً لوطأة الحر وإخماداً لما يثور على الأعين والأفئدة من الأتربة المحملة بجراثيم الأمراض، وأن توشى جوانبها بباسقات الأشجار وتزين ميادينها (ساحاتها) ببدائع الأزهار استجلاباً للظل وترويحاً للنفوس وتنقية لما فسد من الهواء بتنفس الإنسان والحيوان، وأن تنار ليلاً تعميماً للانتفاع بها، ودفعاً لما عساه يحصل من الأخطار وشرور أهل العدوان، وأن يقوم عليها من رجال الشرطة من يصد هجمات المغيرين ويدفع أخطار المجرمين ويميز ذوي الشمال من أهل اليمين.

وعلى الجملة: انتظام الشوارع شان من شؤون الأمم الراقية فكمال تنسيقها وتمام ترتيبها تابع لكمال ترقيتهم وتقدم حضارتهم.

٣٤- كيف يختار الإنسان لنفسه صديقاً

يميل الإنسان إلى معاشرة بني جنسه ويحن إلى وطنه ويشتاق إلى إخوانه ويكره الوحدة ويسأم العزلة وخير صاحب يركن إليه بعد الخبرة، من يوافق الطبع، ويبعث على إخائه حسن الخلال، فيتوسم فيه الطباع الكريمة، والصفات الطيبة، ويتجلى فيه كمال المروءة وحب الخير والإنصاف والشهامة والصراحة في الرأي والصدق في القول ورجاحة العقل وقوة الرأي مع فكر ثاقب وسماحة النفس وكرم العاطفة، ولطف الذوق والإخلاص في العمل وإتقانه، وأداء الواجب واستقامته وسيرته الطيبة.

والشدائد مسبار الإخاء، فالصديق الصدوق من ساعد في الشدة وعاون وقت الحاجة ودافع بالنفس والمال.

جـزى اللّهُ الشَّدائدَ كـلّ خيرٍ عرفتُ بها عدوِّي من صدِيقِي

فاختر أيها العاقل أخاً كرُمَت أخلاقه وطهُرت أعراقه وحسنت آدابه واستمسك بوده وحافظ على إخائه، وإن بدت لك منه هفوة فاسترها، وإن وقعت زلة فاغتفرها وعامله الحسنى وساوره وقدّم له المحبة والإجلال وأطع أوامره واهجر أعداءه وتخلق بأخلاقه وارض له ما ترضاه لنفسك.

٣٥- مقارنة بين المتعلم والكسلان في الهيئة الاجتماعية

المتعلم له درجة عالية ومستقبل حسن يسود على قومه، ويبلغ المنزلة السامية في نفوسهم ويشرف، وكم متعلماً اتسع أمامه ميدان الرزق الواسع، وأغدق اللّه عليه بالخيرات والبركات، وابتسم له الثغر وانفتحت له أبواب الخير والسعادة، ورفرف عليه العز فيربح في تجارته بعلو همته وحسن تدبيره، وينجح في صناعته بثاقب فكره وقوة عقله وثبات عزمه،

وإنه ممتلئ نشاطاً وغيرة وذو مكانة وتجلة واحترام، على أن المتعلمين هم عماد الحكو- وقضاتها وولاة أُمورها وساستها وزعماؤها. وأما الكسلان الذي فترت همته عن طلب العلم فجهول خاب مسعاه وساء حاله، وارتمى في بحار الشقاء والمسكنة وعيشه رديء وحالته بؤس ويتجرع كأس الآلام، ويتفتت كبده أسفاً على حرمانه من معاهد التربية، ويسكب الدمع ندماً على ما ضيع ولات ساعة مندم.

والعلم طلابه فضلاء - امر اللّه به النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾ [طه: ١١٤].

وقال حكيم: «تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم أو وسطاً سدتم».

العلمُ يرفعُ بيتاً لا عمـادَ لـه والجهلُ يهدمُ بيت العزِّ والشرفِ

٣٦- العوم والسباحة من لوازم الحياة

العوم والسباحة من أنواع الرياضة البدنية التي تقوي العضلات وتنمي الجسم وتزيد الفكر قوة ونشاطاً، وقد اعتنت الأمم الراقية بالسباحة وعلمت أبناءها فنّها ليكون لهم دراية بضروبها فيركبون البحر ويعبرون النهر بقلب مطمئن فلا يخشون غرقاً أو خطراً، وتمخر السفينة عباب الماء وركابها في سلام وأمان، وإذا طرأ حادث الغرق سبحوا إلى شاطئ السلامة ونجوا - والعوم من حيل صائدي الأسماك وحرفة الملاحين، فيساعدهم على أداء مهنتهم ويزيدهم قوة ونجاة وكسباً حلالاً - فكم من غريق تقاذفت به الأمواج ونجاه الماهر في السباحة وأزال عنه الخطر الداهم، وكم من سفينة جاءها ريح عاصف وأدركها الغرق، فنجا من يعرف السباحة ومات الآخرون الذين لا يعومون، والسباحة تمكّن صاحبها من الفرار من حريق أو حيوان مفترس أو عدو كامن له، وقد وجد عبور البحار نجاة له فيصل إلى الشاطئ الآخر بحسن سباحته - والماهر في السباحة يغوص البحر لاستخراج نفائسه ودرره وانتشال ما وقع فيه من متاع وحلي ثمين ويخرجه بصدر رحب منشرح بلا تعب.

وإن من واجب الحكومات أن تدرّب جنودها على العوم حتى إذا قذف بهم العدو (والحرب خدعة) إلى ساحل بحر أو ضفة نهر سبحوا في هذا البحر أو النهر واطمأنت نفوسهم وقويت عند الدفاع قلوبهم وتحققت سلامتهم بمعرفة السباحة - وللسباحة عظيم المزايا في الصحة، وفي النجاة للقاطنين بجوار البحار الساكنين على شواطئ الأنهار.

٣٧- كيف تختار لنفسك بيتاً صحياً تسكنه

البيت الصحي هو البيت المقام على جفاف الأرض وصلابتها بعيداً عن المستنقعات والمراحيض والمعامل والمستشفيات والإصطبلات تدخله أشعة الشمس ويتجدد هواؤه

الطلق النقي وفيه النوافذ الكافية والحديقة الغناء، ومرافقه مستوفاة وجواره حسن، وتنظف حجراته وأثاثه، وجدرانه وسقفه بالمحسات اللازمة لإزالة ما علق بها وتكنس أرضه وتخرج القمامة منه ويزال ما على أبوابه ونوافذه من الأتربة، ويكون على نهر جار أو طريق متسع أو شارع كبير ليسهل الوصول إليه.

٣٨- الغد ليس في اليد

الغد أقدارٌ مكتوبة وغيوب يعلمها اللّه سبحانه وتعالى، وأعمار موهومة أو منهوبة، وأرزاق مقدرة أو مسلوبة، وآجال محدودة، وموعده أول النهار وقبيل الأسحار، فترى فيه الفجاءات والأخبار ويقضي المحتوم ويظهر المكتوم وينفجر المختوم، وهو مصدر الآمال ومظهر الأعمال ومصرف الأموال وميدان سباق الرجال يدأبون ويسرحون ويمرحون في نوره الساطع وبهائه وجماله، فالغد اليوم الثاني وفيه المخبآت - قال تعالى: ﴿وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال الشاعر:

وأعلمُ علمَ اليومِ والأمس قبلهُ ... ولكنّني عن علمِ ما في غدٍ عمي

٣٩- وصف طيارة

الطيارة سفينة الهواء وقاطرة الفضاء تسمو إلى العلا وتصعد إلى العلياء، وتسير في الرياح كالطائر الذي يحلق في الجو وتئز أزيزاً وهي طائرة، وتجتاز الأفق بآلة يدفعها ربانها كما يشاء ولها جناحان يساعدان على الطيران، وعدة كالصندوق مخزن السائل الذي يولد الحرارة ويدير آلتها ويحرك عدتها فترفرف بجناحيها ولها في المؤخر ما يشبه ذيل الطائر لتركن إليه عند الهبوط وتنزل من أعلى بلا ضرر وقد أغنت الإنسان عن السفر في البر والبحر، ووفرت عليه المشقات التي كان يتكبدها، والأموال الطائلة التي كان ينفقها هذا إلى سرعة الوصول وراحة البال والتنزه في الهواء النقي، وقد تكون نقمة في الحرب ومصيبة على الأعداء، بما ترسل عليهم شواظاً من نيران قنابلها وقذائفها، فتبيد الجيوش وتهدم المنازل والمدائن وتغرق السفن وتعطل القطارات، وتوقف حركةَ الأعمال وتتلف الزرع وأول من فكر في الطيران (عباس بن فرناس) الأندلسي فإنه صنع لنفسه جناحين وغطاهما بالريش وطار.

ولكنه لم يحترس فسقط على مؤخره فتهشم، ثم صنع (ريت وأخوه) طيارتهما وطارا بها مائتين وخمسين ميلاً سنة ألف وتسعمائة وخمس م، وقد ارتفع (غارو) الفرنسي نحو خمسة آلاف وأربعمائة متر.

٤٠- وصف سيارة

السيارة مركبة جميلة تسير بقوة الدفع ذلولة المركب حسنة المنظر سريعة العدو،

توصل الإنسان إلى غرضه بأقرب زمن وتقرب البعيد وتقصي القريب، يجلس فيها السائق وخلفه الراكب متكئاً على النمارق ذات بوق ينفخه السائق فيظهر صوت يعلم المار في الشارع فيخليه ويتجنب طريقها لتمر مرّ السحاب أو البرق اللامع ولها أربع عجلات لكل واحدة إطار من منفوخ المطاط على شكل المحيط لتكون سريعة السير والجولان، ولها عدة في صدرها يوضع بجوارها السائل الذي يولد الحرارة في علبة ثانية لتنشأ القوة الكامنة التي تحرك هذه العجلات وفائدتها سهولة المواصلات وربط بعض الجهات ببعض وانتهاز الفرصة لأصحاب الأعمال ونجدة المستغيث وعون على الأمن والنظام في البلاد.

هذا، وقد أفادت فائدة جليلة في البلاد التي لا يمر فيها القطار فتنتقل الركاب بأجر قليل إلى الجهات النائية بلا مشقة.

٤١- وصف مصر

تقع مصر في الشمال الشرقي من قارة إفريقية - أرضها زراعية مخصبة نباتها حسن وخيراتها جمة وماؤها عذب وهواؤها جيد وسكانها هادئون كرماء لضيوفهم يحبون الغريب ويقدمون له صنوف النعيم والاحترام ويحسنون وفادته ويبذلون قصارى جهدهم في قضاء مآربه ويعطفون عليه بصدر منشرح وثغر بسام وطيب خاطر وحسن نية - ولذا يؤمها من البلاد النائية ألوف من الزوار والسياح ينظرون إلى مناظرها البديعة وآثارها الخالدة وعاديات ملوكها القدماء كالأهرام العظيمة والتماثيل وبقايا الفراعنة والصور والنقوش والمباني والمساجد والكنائس من آثار العرب وتماثيل اليونان والرومان السابقين - وحاضرتها القاهرة ومن ثغورها الإسكندرية وبور سعيد وفيها أربع عشرة مديرية، ويزيد عدد سكانها عن أربعة عشر ألفاً، يشتغل أغلبهم بالزراعة وللصناعة فيها نصيب وافر - ولكن لا تقوم بحاجات أهلها وتجارتها واسعة ونيلها حياتها عليه أنشئت القناطر والجسور، ومنها فتحت فوهات الترع والمصارف لسهولة ري الأرض وسقي الحيوان وفيها السكك الحديدية تربط جهاتها ببعض وتقرب بعيدها والأسلاك البرقية والمسرة والمركبات الكهربائية بالقاهرة والإسكندرية.

وهي من أقدم البلاد حضارة وتقدماً دخلها كثير من الأنبياء والعلماء والحكماء كسيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام، وكثير من أصحاب سيدنا محمد ﷺ وهي كنانة الله في أرضه ومحط رحال العلماء وكعبة الفضلاء وفيها أكبر جامعة هي الأزهر الشريف بناه جوهر الصقلي أحد قواد المعز لدين الله الفاطمي ثالث خلفاء الفواطم سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من هجرة الرسول ﷺ. وسميت بالقاهرة نسبة إلى القاهر (المريخ) برج الطالع السعيد الذي اختاره جوهر الصقلي لمبدأ بنائها وتخطيطها.

٤٢- وصف الأهرام

بنى ملوك مصر القدماء الأهرامات العديدة وجعلوها حصناً حصيناً متيناً لتحفظ جثثهم بعد الموت من عبث العابثين، اعتقاداً أن حفظ الجسم بعد الموت على صورته يبقي الروح متمتعاً بالحياة. وهي تدل على دقة البناء وفخامته وجمال التماثيل، وإنه لبناء معجز ومنظر غريب ووضع عجيب وشكل بديع وآية من آيات البراعة والتقدم في فنون الهندسة والمعمار والنقش والتصوير، بني من أعظم الحجارة والصخور وهو بناء بديع الإلصاق مربع القاعدة مخروط الشكل تحيط به مثلثات أربعة أضلاعها متساوية وأطرافها محدودة تنتهي بنقطة واحدة يمكن الصعود إليها بتعب وعناء - بناء لا يتأثر بهبوب الرياح وهطل الأمطار وزعزعة الزلازل مع إحكام الصنعة وإتقان الهندام وحسن الوضع - منها الهرمان العظيمان بالجيزة، يقال منقوش عليها: «إني بنيتهما فمن يدعي قوة في ملكه فليهدمهما، فإن الهدم أيسر من البناء». وقد فتح بعض الملوك مدخليهما بعد مشقة وكد فوجدوا ممراً طويلاً يقطعه الإنسان منحنياً تعظيماً للملك بعد موته كما كان يعظم في حياته، وفي منتهى الممر مرقى إلى حجرتين على اليمين منهما حوض عظيم هو قبر الملك عليه كثير من النقوش والتصاوير، وقد احتمل الملوك تماثيل من ذهب وفضة وزينوا بها المتاحف، وبنى الملك خوفو هرم الجيزة الأكبر الذي يقرب منه صورة من صخر رأسها رأس إنسان وجسمها جسم أسد وهذا رمزٌ للعقل والقوة ويسمى (أبا الهول).

٤٣- وصف ليلة عرس

اجتمع صفوة الأحباب وخيرة الأخدان وعلية القوم وزينة الخلان والأصدقاء في ليلة أنس وسرور وفرح وحبور، فأخذ حسنها بمجامع القلوب وقد سطع نورها وتم بهاؤها وطلع بدرها على أعلام منشورة وثريات منثورة ورحبة فسيحة واسعة الأرجاء حوت الجمال والرونق والصفاء في أرض صفراء فوقها نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وعين جارية وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة وكراسي صفت صفاً محكماً للزائرين المشرفين، ومنسوجات هذه المقاعد مزركشة وحللها بديعة قد نصبت عليها موائد الكرم والطعام الشهي ليتناوله أهل الود والوفاء وإخوان الصفا.

٤٤- من عمل صالحاً فلنفسه

آية كريمة تدل على أن العمل الصالح يكسب صاحبه السعادة التامة والنعمة العامة في الدنيا ويجعل له النعيم الدائم في الآخرة.

والحياة الطيبة والعمل الصالح هو المتقن الذي يجلب رضا الله تعالى والناس -

والقول الطيب والأخلاق الحميدة وحسن المعاشرة والذكر الحسن والسيرة الطيبة – وعمل النافع المفيد الخالد الأثر مثل إنشاء المستشفيات ومعاهد العلم وإطعام الفقير وتشجيع العاملين.

وكلُّ امرئٍ يولي الجميلَ محبّبُ وكلُّ مكانٍ ينبتُ العزّ طيبُ

أما من أنفق حياته في اللهو واللعب وصرف ماله في شهواته وزينته أو جاد به تفاخراً فهو من الأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وباؤوا بكره الناس لهم، ومات وهو مذموم في الدنيا والآخرة – وأما العاملون المجدون الصالحون فنضرب به الأمثال في حسن الأعمال والهدى والنور والعلم والعرفان بما تركوه مدى الدهر.

من يفعلِ الخيرَ لا يُعدمْ جَوازيه لا يذهبُ العرفُ بينَ اللّه والنَّاسِ
ومـا للمـرءِ خـيرٌ فـي حيـاةٍ إذا مـا عُـدَّ مـن سقط المتاعِ

ولنا قدوة بخير الخلق ﷺ، فحياته كلها عمل صالح وفضل وخير، وحذا حذوه الخلفاء الراشدون والعاملون المتقون.

تدولُ أحاديثُ الرِّجال وتنقضي ويبقَى حديثُ الفضْلِ والحسنات
رأيتُ النـاسَ قـدْ مـالـوا إلـى مـن عـندهُ مـالَ

المال مجلب الفضائل وسبب مكارم الأخلاق وزينة العقلاء ومصدر الكرم والإحسان يكثر الإخوان ويدعو إلى الأصدقاء والخلان، وبه ينقلب العدو حبيباً والبعيد قريباً ويصير الصعب سهلاً.

وإن قلَّ مالُ المرءِ أقصاهُ أهلُه وأعرضَ عنه كلُّ إلفٍ وصاحبِ
وكذّبهُ الأقوامُ في كل منطقٍ وإن كانَ فيهم صادقاً غير كاذبِ

المال يقضي الحاجات ويجلب اليسر والرخاء ويكسب الثناء والحمد بمواساة الفقراء وتربية اليتامى وإعانة المساكين وبناء دور العلم والمستشفيات، وبه البذخ والترف والإسراف والعجب والبخل وكسب الرذائل والقبائح، وهنا تضيع منه الفائدة، لأن الخير لا يأتي إلا بالخير كما قال النبي ﷺ. وصاحب المال إن أنفقه في وجوه الخير سبب له الخير والمدح والذكر الحسن والسيرة الطيبة وكان ذخيرة عند اللّه سبحانه وتعالى ينفعه في الآخرة: ﴿ما عندكم ينفد وما عند اللّه باقٍ﴾ [النحل:٩٦]

أما إذا أنفقه في الموبقات فوبال عليه لأنه يهوي به إلى الهلاك والدمار ويقوده إلى الضياع والمذمة ويسبب له العذاب الأليم.

فالمال نعمة كبرى لمن حافظ عليه وأنفقه في طلب المحامد وأعمال البر وتشييد

معاهد التربية ودور الصناعة، وجاد به على الفقراء وتحلى بالمكارم والكرم، وأرضى اللّه سبحانه وتعالى والناس أجمعين.

خيرٌ للصّانع في الأنام صِنَاعة تنبـو بحـاملِها عـن الإزلالِ

الصناعة في اليد أمان وسلامة من الفقر وباب التقدم وعامل النجاح وينبوع الفلاح ومصدر الثروة وطريق الغنى وهي عماد الأمم وحضارتها وسبب رخائها ويسرها وسعادتها. والصناع هم الذين يوصلون أُمتهم إلى الراحة وذرا الحضارة، وهم العضو العامل في جسم الشعب، إذ الطعام والأثاث والمصابيح والآلات البخارية، وغير ذلك صنع النجار أو البناء أو الحداد أو الفلاح أو النحاس أو صانع الأدوات التي تسد حاجتنا الضرورية وتسهل علينا سبل المعيشة والحياة الرغدة. ولقد اعتنى بالصناعة الأمم الراقية وانشؤوا لها معاهد التعليم للنبوغ والاختراع والابتداء، وأوجدوا لها ما يرقيها من المعادن والوقود، وأغدقوا على العمال الأجر الوافر والرزق الواسع، فيصنع العامل إلى بلاده ما يلزم لها ويرفع مقامها إلى العلا ويبعد عنها المشقات ليكون لها الحظ الأوفر، وتصبح ذات نفوذ عظيم وسلطان وملك كبير، ولا تفتقر إلى غيرها، وبذلك يزيد مالها وتعظم ثروتها ويضحي أفرادها أغنياء قادرين على الأعمال الجسيمة وإبرازها في أسواق العالم ليعيشوا عيشة راضية متمتعين باليسر والرخاء والسعادة الكاملة والنعمة الشاملة.

٤٥- فوائد إنشاء المتنزهات في المدن

المدن أحوج البلاد إلى حدائق زاهرة ورياض نضيرة ومتنزهات أنيقة، وجنات غناء ذات أشجار فيحاء تهدي أريجها إلى الأفق فتعطر النسيم وتنقي الهواء وتكون مستراضاً لأصحاب الأعمال العقلية يهرعون إليها بعد انتهاء أشغالهم فينعمون النظر ويمتعون البصر ويستنشقون الهواء الجيد وعليل النسيم فيشفي منهم العليل ويبرأ السقيم وتزول عنه الأكدار، وتنصرف الهموم ووساوس الأفكار ويشحذ ذهنه وتصفو قريحته وينعم باله ويحسن حاله - وذلك لأن المدينة مملوءة بالسيارات والمركبات، ويمنع ارتفاع مبانيها تخلل الهواء النقي في أرجائها - لهذا وجب مراعاة للصحة وجود هذه البساتين في المدينة لتزيل الأضرار والهواء الفاسد فتحيا الناس حياة طيبة وتحفظ صحتهم من الجراثيم التي تؤذي أجسامهم وتكاد تهلك ابدانهم على أنها تشرح الصدر وتبسط النفس وتجلب الأفراح بحسن منظرها وجمال طبيعتها.

٤٦- فوائد الخيالة (السينما توغراف)

تظهر الخيالة صوراً متحركة تمثل الوقائع أيما تمثيل وترسم الأشباح مرات عديدة في أوضاع مختلفة ليتجلى منظرها ويعظم وقعها في النفوس لتكشف عما وراءها من

الأخلاق والعادات والأفعال - وتمثل جيشاً جراراً وجنوداً زاحفة على الأعداء لتحث على الشجاعة وتثير الهمم العالية لاقتحام الأخطار بلا وجل، وهكذا ترسم كبار الأعمال وقواد الجنود والملوك والأمراء وغيرهم ليرى الشعب المنزلة العالية التي نالوها والدرجة السامية التي وصلوا إليها بأعمالهم، هذا إلى رسم الرذيلة وإظهارها بمظهر الدناءة والقبح وبعض مرتكبيها، وهي تمثل الصور غالباً بحجمها الطبيعي. وإذا أُريد تكبيرها وضعت بلورات مكبرة أمام المصباح فتظهر بحجم كبير يسر الناظرين وهي تمثل الحوادث والوقائع الحربية لتكون عظات وعبراً يتخلى عنها العقلاء المفكرون وهي تبهر اللب وتستوقف البصر برسم صور على الآلة كأنها أشخاص حية تروح وتغدو وتصعد وتهبط وتشير وتأكل وتشرب وتفرح وتحزن وتكر وتفر وترسم صور الأبطال والمغنين وعظماء الرجال والفاتحين والمخترعين والمؤلفين الأفاضل.

٤٧- فوائد دور التمثيل عند الأمم الراقية

دور التمثيل الحق معاهد للتربية الصحيحة لأنها تمثل الأخلاق الفاضلة بأجلى معانيها، وتبعث على حب الخير والميل إلى الفعل الجميل إذا كان الممثلون علماء في الأخلاق منزهين عن الدنايا والقبائح وهي درس عظة بالغة وذكرى حميدة وحكم رشيدة ومنبع سرور معين يشرح الصدور ويبسط النفوس بما يتلى فيه - ويرى من المشاهد البهيجة والمناظر النضيرة، عظة تتلوها عظات وعبرة إثر عبرة فيتأمل الفكر وتسمع الأذن وترى العين حوادث الأقدمين وشجاعة القادة العظماء وأفعال الملوك والأمراء وحكم الشعراء ونثر الأدباء.

التمثيل مرآة العصور الغابرة ينعكس على أشعتها التاريخ الماضي والتمثيل أستاذ ماهر يقوّم المعوج ويرد الضال ويرشد الخاطئ ويلقي على شباب المستقبل صحفاً من أخلاق آبائهم وأجدادهم وآرائهم ليسير بهم إلى مستوى الكمال وقمة العلا وذرا السعادة والمجد والعز والفخار إذا كان القائمون به أهل فضل وأدب وعلم وتأثير عظيم.

نبني كما كانتْ أوائلُنا   تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا

وبالجملة - فالتمثيل يهذّب العواطف ويرقي الوجدان ويطهر الأخلاق من الأدران، ويشذّب الذاكرة من الأذى والقذى وينقي النفوس والضمائر، وإنه لتاريخ صادق يهدي إلى الحق وإلى الصراط السوي.

٤٨- مدنية الشرق لها التقدم والسبق على مدنية الغرب

إذا ما خلا المرء بنفسه وحاسب ضميره قال: إن مصر خاصة والشرق عامة لهما اليد الطولى في رقي الأمم الأجنبية، ولا تزال المدنية الشرقية ذات القدح المعلى والتأثير الفعال

في مدنية الغربيين من الوجهة المعنوية والأخلاقية - فالسيد المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام شرقي وشريعته شرقية، وهو الذي أعطى مثلاً أعلى للرقي وإقامة العدل المؤسس على دعائم الحق مع حسن الشمائل وكمال الآداب ومكارم الأخلاق.

٤٩- من فتح مدرسة أغلق سجناً

المدرسة تهذّب أبناء الأمة وتربيهم تربية شريفة بعيدة عن الإجرام وتطهّر أخلاقهم من جراثيم الشرور وأدران القبائح وتتعهد هذه الأغصان الغضة فتنميها على نزاهة النفس ونقاوتها من اللؤم والمكر، فتترعرع على الفضائل والكمال وتنمو على حسن الخلال وتزهو بالآداب في إبان عمرها وفي عنفوان شبابها وتقوّم معوج الأخلاق وتنهى عن ارتكاب الخطايا وتزودهم بالنصائح الغالية وتعلمهم الشرائع السماوية والوضعية والصنائع المختلفة - فيجد الأبناء حياة جديدة فيها الأخلاق الحميدة والمعاملة الحسنة والأمانة والصدق والوفاء وحب الخير وعدم الأذى، وهكذا من الصفات المحبوبة وتضم المدرسة آلافاً من الأبناء المتعلمين فينشؤون على التربية المكتسبة وجمال الآداب بعيدين عن الرذائل والشرور، وحينئذٍ تغلق السجون إذ لا جرائم تقع ولا حوادث ترتكب تخلُّ بالأمن، وبذلك تأمن الحكومة جانب الأشرار ويطمئن الناس على أرواحهم وأموالهم فرحين مستبشرين.

٥٠- القطن المصري

من نعم اللّه جل شانه أن جعل أرض مصر بلاداً زراعية يجود فيها كثير من الحاصلات النباتية وأهمها القطن الذي هو روح الحركة الاقتصادية فيها، وعليه يتوقف غالب شؤونها سعداً وشقاء وشدة ورخاء، ومنه يتخذ كثير من أنواع الملابس والفرش، ويستخرج من بزره زيت يستعمل في بعض لوازم الإنسان.

ولهذا يجب علينا معشر المصريين على اختلاف درجاتنا أن نبذل كل ما في طاقتنا في تنمية محصوله وتحسين نوعه لكي تنمو ثروة القطن - وذلك بنشر التجارب والآراء المفيدة في اختيار الوقت الملائم لزرعه وتعهده بالسقيا والخدمة - وقد دلت التجارب أن أولى الأزمان بزرعه هو شهر مارس، وأن ما يلائمه من مرات السقيا سبع قبل فيضان للنيل وثلاث بعدئذٍ، ومن الواجب أن نتعهد أرضه بالعزق والتقليب وموالاة الخدمة إلى أن يبتدأ في جمعه - أواخر شهر سبتمبر وأوائل شهر أكتوبر - فهو إذا راعى الزراعة هذه الأمور وسلم من الآفات السماوية در على القطر الخير والبركة، وإن أُصيب بأدهى آفاته وهي الدودة وجب على الزراع المبادرة بإبادتها وهي في صورة بويضات لئلا تطغى وتصير ديداناً غلاظاً لا تبقي ولا تذر، ثم تصير فراشاً يبيض ويتضاعف. كما انه يجب على ولاة الأمور وأولي التجارب أن يساعدوا الزراع في استئصال هاته الآفة.

وقصارى القول - أن القطن أهم مورد لثروة المصريين عامة فقد يبلغ ثمنه كل عام خمسين مليوناً من الجنيهات فيكاد يكون قطب رحى الدولة المصرية، فإذا أصيب أو تدهور ثمنه ساء حال الأمة والحكومة.

٥١- وصف الأمم الراقية

لان لها الحديد على صلابته وشدة بأسه، فاتخذت منه سجناً حصيناً لعدوين متضادين هما الماء والنار، فكان من كفاحهما في ذلك السجن أن تصعدت زافرات الماء وغلت مراجل غيظه فالتمس الخلاص منه فلم يستطع لذلك سبيلاً فطار بسجنه في الفضاء - فاستعمل الإنسان تلك القوة الفائقة (قوة البخار) في طي المسافات السحيقة وتقريب الأمم المتنائية وكسر نخوة البحار بامتطاء ظهورها وشق أحشائها، وفي تحريك دواليب الصناعات المختلفة تحريكاً خفف من أوصاب الصنَّاع ومتاعب العمال، وغمر أسواق التجارة بضروب المصنوعات البديعة، فاصبح الفقير شريكاً للغني في الاستمتاع بها بعد أن كان محروماً منها، واتخذت لها من الحديد قاذفات ترد هجمات الأعداء ولا تقف أمامها شجاعة الشجعان، ولا تغني عنها مصاولة الفرسان فملكتها نواصي الأعزاء وبسطت لها السلطان في جميع الأرجاء لفتها قصيف الرعد ووميض البرق وغيرهما من آثار القوى الكونية التي طالما مرت على من غبروا من أجيال الأمم وهم عنها معرضون فحدست أن فيها قوة عظيمة لم تخلق سدى وانها لو ملكت تصريف زمامها لاستفادت منها ما استفادته من البخار - فانبرى طلاب الحقائق من أبنائها الذين أثمرت فيهم التربية الصحيحة للبحث عنها في مكامنها، وما زالوا يصلون الليل بالنهار في تتبعها حتى اهتدوا إلى ينابيعها وحاصروها في مجار ضيقة لا قبل لها بتعديها، ثم القوا مقاليدها إلى الأمة فكان من تصريفها في مرافق الحياة ما ترى من الآيات الكبرى على كمال قدرة الخالق وسعة إمكان عقل المخلوق وعدة تحيل الماء هواء وتقلب الليل نهاراً، ونبض أقرب من لمح البصر يصير تارة مناجاة كتابية مطوحين في مطارح الغربة تستنجز بها الأمور وتقضى بها المآرب. وطوراً تكون مخاطبة شفهية تميز فيها أصوات المتخاطبين على ما بينهما من بعد الشقة.

وكرّة تدفع جاريات تطير طيراناً على سطح الأرض مقلّة ما شاءت أن تقل من الناس والمتاع.

٥٢- وصف الأمة العربية

رباها مرشدها الأكبر رسول الله ﷺ بسيرته السنية على حب العدل والإيفاء بالعهود وإنفاق الأموال في وجوه الخير والتآخي في نصرة الحق والترفع عن سفساف الأمور، وأوجب طلب العلم من المهد إلى اللحد على أفرادها نساء ورجالاً غير مخصص علماً بعينه فنبغ

فيها رجال لم تسمح الأيام بنظائرهم ولن تلد الوالدات أمثالهم. منهم من ساسوا الرعية أفضل سياسة لم يعهدها التاريخ في غيرهم من السواس، حرموا أنفسهم فيها ملاذ العيش وصيروها على مصلحة الناس وحاسبوها على القيام بها أشد محاسبة، ومنهم من قادوا الجيوش وفتحوا البلاد ودوخوا أكبر دول الأرض لعهدهم مع تمام العدل في معاملة المغلوبين وبذل الأمن للمستأمنين ومنهم العلماء والحكماء الذين صدقت عزائمهم في طلب الحقائق فلم يدعوا باباً من أبواب العلم إلا دخلوه على ما كانوا يلاقونه في ذلك من صعوبة التحصيل لندرة الكتب وتباعد معاهد التعليم - يشهد لهم بذلك ما خلفوه من آثارهم التي تزدان بها دور الكتب في معظم البلدان، ومنهم مهرة الصناع الذين أقاموا من معالم الحضارة ما يحكم لهم بالتبريز على أقرانهم ويوجب لإخوانهم حق المفاخرة بهم.

٥٣- وصف الشرف للإمام المرحوم الشيخ محمد عبده

الشرف بهاء للشخص يحوم عليه بالأنظار ويوجه إليه الخواطر والأفكار، وجمال يروق حسنه في البصائر والأنظار - ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن في أُمته أو بني ملته أو في النوع الإنساني عامة كإنقاذ من تهلكة أو كشف لجهالة أو إنهاض من عثرة أو إيقاظ من غفلة أو إرشاد لخير يعم أو تحذير من شر يغم أو تهذيب أخلاق أو تثقيف عقول أو جمع كلمة وتجديد رابطة.

من أتى عملاً من مثل هذه الأعمال له أثر من تلك الآثار فهو الشريف وإن كان يسكن الخصاص والأكواخ ويلبس الدلوق والأسمال ويقتات بنبات البر ويبيت على تراب القفر، هذا له حلية من عمله وزينة من فضله وبهاء من كماله وضياء من جده يهدي إليه ضالة الألباب وتائهة الأفئدة تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره وتكتنفه ذرات القلوب المتطايرة إليه ولا تنفصل عنه، له من روحه قصور شاهقة وغرفات شائقة ومناظر رائقة وجمال باهر ونور ظاهر لا يكاد يخفى حتى يظهر ولا يكاد يستر حتى يبصر إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه إلى أعلى عليين حياة طيبة في القلوب وغرة مشرقة في جبهة الزمان - ولمثل هذا فليعمل العاملون.

٥٤- ليس الرجل بماله وإنما الرجل بأعماله

الأعمال كثيرة متفاوتة في أهميتها وكثرة فائدتها، وبحسبها تتفاوت العمال في الفضل والمقام إذ الفرق بين رجل يجري في الطرق أمام العجلات، ورجل يرشد الخلق ويهذبهم ويعلمهم ما يفيدهم في دينهم ودنياهم، كالفرق بين ذرة من الكائنات والكون كله فمشهورو الرجال الذي قادوا الأمم إلى ما فيه نجاحهم وثروتهم وراحتهم وسعادتهم لم

ينتشر صوتهم في الدنيا إلا بما يبينوه للناس من المعارف التامة والفوائد العامة حتى استنار بهم الكون، فمنهم هداة الخلق إلى خالقهم، ورجال السياسة الذين ساسوا الناس إلى طرق الخير وضبطوا أعمالهم وأحوالهم، ورجال العلم الذين رفعوا مناره وأظهروا عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات، فكثرت الأرزاق واتسعت أبواب المعيشة، واستقام الناس وانتظمت أحوالهم.

فهؤلاء هم رجال الأعمال الذين أفادوا البلاد، ونفعوا العباد فسعدت بهم الأوطان وافتخر بهم الزمان والمكان، ولئن كان في العمل التعب والمشقة ففيه اللذة والشرف.

اصرفْ حياتَك في جدٍّ وفي عملِ   تعدُّ حيّاً ولا تركنْ إلى الكسلِ

والعمل هو الدليل إلى حاجات الإنسان وعلى نسبته إلى الطبيعة، ولولاه ما كان الإنسان ولا كان العمران، وكان عظيم مما يملكه الإنسان جاء به العمل العقلي والجسدي.

فالاكتشافات والاختراعات والمبتكرات والشرائع والنواميس والقوانين كلها نتيجة العمل والتعب. وأتعب الناس وأشقاهم من لا عمل له فإنه لا يرجى منه نفع لنفسه ولا لغيره - والذين أوصلوا العمران إلى حالته الحاضرة هم أصحاب الحرف ورجال العمل والتعب سواء أكانت أعمالهم جسدية أو عقلية - والعمل وإن كان لا يقوم بلا مال، بل هو الذي يدير دولاب الأعمال ويوسع نطاق العمران، ولكن المال وحده لا يجعل للرجال أثراً يذكر ولا تاريخاً يؤثر ولا صيتاً يشهر، فكم من ذوي كنوز لا يعرف اسمه جاره، وكم من فقير عامل له صوت في أُمته، وكم من ذي فاقة يشار إليه بالبنان وتلهج بذكره الألسنة في كل زمان ومكان.

هؤلاء الأنبياء والخلفاء والعلماء والملوك والأمراء هل كان تخليد أعمالهم لوفرة أموالهم كلا ثم كلا. فإنما العمل هو الذي أوجب على التاريخ ألا ينكر ما لهم من الفضل والعمل الصالح.

وبالجملة - لم نرَ أديباً من الأدباء ولا حكيماً من الحكماء يحث الناس على جمع المال لذاته كما أنه لم يقع نظرنا على عاقل يفتخر بماله، وإنما المأثور عن الفلاسفة الحث على العمل والمثابرة عليه، وما ذاك إلا لأن العمل هو الذي له قيمة في الحياة وشأن عظيم في رفع الرجال.

نعم إن المال قد يرفع، ولكن مركزه مركز المساعد الذي يمكن الاستغناء عنه، ولا شك في ذلك فإن التاريخ لم يخلد ذكرى الناس لوفرة مالهم - ولكن لما قاموا به من جليل أعمالهم.

هؤلاء الأمم الغربية التي لها القدح المعلى في مضمار الحضارة والعمران قد انبعثت منها أنوار العرفان فأفاضت على بني الإنسان بما لم يكن في الحسبان، ذللت الأرض بالبخار والكهرباء، وسيرت الجواري المنشآت على سطح الماء، وطيرت نسور المناطيد في الهواء استجلاباً للرزق وتوفيراً للسعادة والهناء، وهي مع ذلك لا تزال تدأب وتستطلع من الأسرار المودعة في الكون ما يجلي القدرة الإلهية في أجلى مظاهرها ويبرز العمل الإنساني في أكمل معانيه – وربما في المستقبل يتعلق الإمكان بأبدع مما كان – ويخلق ما لا تعلمون.

٥٥- أساس نجاح المرء في حياته اعتماده على نفسه وعدم الثقة بغيره

أفضل ما يتحلى به العاقل اعتماده على نفسه في جميع أُموره وقيامه بحاجاته في عموم شؤونه بدون أن يتكل على صاحب أو يعتمد على مساعد.

وإنّما رجـلُ الدُّنيـا وواحدها   من لا يعوِّلُ في الدُّنيا على رجلِ

كيف لا – وإن طبيعة العمران وزَّعت الأعمال على الناس فأصاب كلاً منها على قدر طاقته – فإذا اتكل زيد على بكر فكأنه أضاف حمله إلى حمل بكر، وهذا لا يستطيع أن يحمل أكثر من حمله – وإذا كان الناس كلهم متكلين فمن هو المتكل عليه منهم – فإذاً قاعدة الاتكال فاسدة طبعاً – على أن الإنسان له مطالب خاصة ومكلف بأداء أشياء يباشرها بنفسه إن اعتمد على غيره فيها تعسر قضاؤها وباء بالحرمان والخسران، وكم من مقاصد للمرء ترك حبلها على كاهل غيره فضاعت وولت الأدبار وقضي عليها بالهلاك والدمار. مع أنه لا يتيسر للمرء أن يجد في كل وقت من يساعده في أعماله، كما أن بعض الأمور لا ينبغي أن يتولى شأنها سوى صاحبها والمطالب بها – ورب امرئ يعتمد عليه الإنسان وحينما يفتش ضميره ويرى ما أبطنه وأسره يظهر له جلياً ما يسوءه، ويعلم أن خذلانه أحب إليه من نصره.

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ   وإن خالهَا تخفَى على النَّاس تُعلم

فيجب على العاقل ألا يعتمد في قضاء مآربه إلا على نفسه ولا يظن أن غيره يهمه أمره فيثق به فإن ذلك دليل على ضعف عقله وعلى كسله وخموله، فلا يلبث أويقات ولا تمر عليه سويعات إلا ويكون عالة على غيره واضعاً نفسه موضع المسكنة والمذلة والاحتقار.

إذا أنتَ لم تعرفْ لنفسكَ حقّها   هواناً بها كانت على النَّاس أهونا

وأيضاً يكون من اعتمد على غيره جاهلاً حكمة خلقه جهولاً بقول الشاعر العربي الحكيم:

ما حكَّ جلدَك غير ظفركَ فتولَّ انتَ جميعَ أمرِكَ

نعم إن في الاتحاد والتعاون مزايا شريفة غير أن ذلك يكون في الأعمال العامة العظيمة التي تحتاج إلى المساعدة، ولا يقوى الفرد بنفسه على القيام بها، فما أشد حاجة الأمة إلى أفراد يعتمدون على انفسهم، ويقوم كل منهم بتأدية ما كلف به فإذا دعاهم داعي التعاون والتعاضد لبوا نداءه وأجابوا دعاءه.

نعم – ليس للإنسان إلا ما سعى إليه بجده وبحثه معتمداً في عمله وأداء شؤونه على نفسه. فمن باشر أعماله وأشرف على أشغاله وشمر عن ساعد جده، ودأب في عمله واعتمد على كده وتعبه وعول على يده ولسانه فاز ونجح وكسب وربح – فلا بر إلا ما كسبته يداك ولا خير إلا ما سعت إليه قدماك، ولا نفع إلا ما دبره رأيك، ولا ثمرة إلا ما غرس أصولها عقلك، ولا نجاة من غمرات هذه الدنيا إلا بسفينة عملك التي توصلك إلى شاطئ السلامة وترفعك فوق سماء العرفان.

وقصارى القول: إن الاعتماد على النفس ملكة فطرية في النفوس يعتادها المرء منذ نعومة أظفاره إن وجد مقوماً قديراً ومرشداً حكيماً وهي تنمو بالتعهد وحسن الرعاية، وتقف بالترك وعدم العناية. وكما تكون في الأفراد تكون في العائلات ثم في الأمم.

أما في الأفراد: فإن نشؤوا عليها شبوا على النفس وكبر الهمة وقوة الإرادة يبتعدون عن الدنيا ترفعاً واستنكاراً ويعملون الخير لذاته حباً واختياراً. فهي جماع خصال الخير تكسب صاحبها الشجاعة والإقدام وتجعله سيداً مطاعاً في قومه وعشيرته عزيزاً نفسه وأمته لا يرهبه في الحق صولة صائل ولا يخشى فيه لومة لائم.

ومن نظر نظرة صادقة في سبب رقي بعض الأفراد الذين ذاع صيتهم في أقطاب الأرض شرقاً وغرباً، وجد أنه هو الاعتماد على النفس في الأمور التي لا يليق فيها إلا الاستقلال – وكلما تشعبت الأفكار بأن قيام المجتمع الإنساني متوقف على عمل كل فرد أحس كل واحد منهم بوجوب التعويل على نفسه وعدم الاتكال على غيره، ومال إلى استعمال ما أُوتيه من الهمة والإرادة والاجتهاد. و﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩].

وليسَ للإنسانِ إلا ما سَعى نَعم وإن سعْيَه سوف يُرى
قليلُ المالِ تصلحُه فيبقى ولا يبقَى الكثيرُ مع الفسادِ

المال ثمرة الأشغال العقلية والأعمال الجسدية، وهو قوام العمران والتمثال الذي تتجلى به الحكمة والقوة – والاكتساب أصل المال والاقتصاد سوره. قال الإمام عمر رضي الله عنه: «إن الله يحب القصد والتقدير ويكره السرف والتبذير» وقال أيضاً: «أصلحوا

أموالكم التي رزقكم الله فإن إقلالاً في رفق، خير من إكثار في خرق». وقال معاوية: «حسن التقدير نصف الكسب» وهو قوام المعيشة - فالرجل المكتسب المقتصد هو الغني القوي والأمة التي يتعود أبناؤها حب الاكتساب والاقتصاد والادخار هي الأمة الغنية الراقية مراقي الفلاح، ومن يكتسب ويقتصد يسعى في خير أُمته، ومن لا يكتسب أو لا يقتصد يسعى في خرابها - والاقتصاد ليس غريزة فطرية في الإنسان، بل هو خلق اكتسبه بالاختبار وتمكن منه بالتربية والممارسة - ومعلوم أن الناس مراتب ودرجات فمنهم اغنياء يعيشون بالراحة والرخاء، ومنهم فقراء يعيشون بالتعب والعناء، وليس اختلافهم في الغنى والفقر ناشئاً من اختلافهم في الاجتهاد والمقدرة على الاكتساب - بل الحقيقة ونفس الواقع أن منشأ هذا الاختلاف اختلافهم في حسن التقدير والاقتصاد.

فكم من رجل يعيش بالراحة والرفاهية ويربي عائلة كبيرة ودخله قليل جداً. وكم من رجل يعيش بالتعب والعناء وتظهر عليه علامات الفقر المدقع ودخله وفير وكثير جداً.

وطرق الاكتساب على أنواعها هي من لوازم الحياة ومن مسراتها.

كلُّ منْ في الوجودِ يطلبُ صيداً غــيرَ انَّ الشِّــباكَ مختـلفات

فالإنسان لا يحيا ما لم يصارع الطبيعة من جهة ويستعين بها من جهة أُخرى، فهي تدعو إلى العمل والكدح لأجل تحصيل المعيشة ودفع الحر والبرد، وهي التي تعيننا بإنماء الحبوب والأثمار والأصواف والأقطان لأجل الغذاء والدفء - والناس متعاونون في الاكتساب فهذا يحرث الأرض وذاك ينسج الصوف وذلك يخيط الثياب أو يبني البيت أو يمهد الطرق أو يفتح الخلجان أو يعمل غير ذلك من الأعمال ولولا الاكتساب لنفد المال الذي في أيدي البشر، وبارت الأرض وهلك الناس جوعاً - فالاستعداد للمستقبل هو الحكمة العملية، ولكن كثيرين من الناس لا يهتمون بالمستقبل ولا يعتبرون بالماضي، بل هم أبناء يومهم فإذا اكتسبوا الكثير انفقوه كله وإذا اكتسبوا القليل اكتفوا به وإذا أحنى عليهم الدهر بكلكله أحنوا له ظهورهم وتوسدوا التراب، وإذا وافاهم الموت وأولادهم صغار تركوهم عالة على الناس ليربوا في الفقر والشقاء - وهؤلاء لو أنصفوا أنفسهم وأولادهم لعاشوا بالكفاف والاقتصاد وذخروا إلى وقت الحاجة - وما يصدق على آحاد الناس يصدق على عامتهم. فالأمة التي أبناؤها مجتهدون مقتصدون في نفقاتهم هي الأمة الغنية التي لا تهمها تقلبات الأيام والأمة التي يعيش أفرادها بالكسل والإسراف تبقى فقيرة لا صولة لها ولا قوة.

وبالجملة: إن الإنسان مهما كثر ماله لا يضمن بقاءه إلى آخر حياته، بل ربما افتقر ومدَّ يده إلى السؤال أو انحط عن درجته وصار مادحه هاجياً وصديقه له معادياً فيلزم والحالة هذه كل قادر على التكسب أن يقتصد من ماله جزءاً ينفعه وقت الحاجة وينفقه وقت الضيق فإن آفات الدهر كثيرة.

والادخار والتوفير أمر حسن ما لم يصل إلى درجة الشح والبخل والتقتير فيكون مذموماً - كذلك إنفاق المال في سبله يكون حميداً ما لم يصل إلى درجة التبذير فيكون مرذولاً (وخير الأمور الوسط).

ولا تغلُ في شيءٍ من الأمرِ واقتصدْ كلا طرفي قصد الأمورِ ذميمُ

٥٦- الدين أشد أنواع الفقر

إن تستدنْ تمشِ حقيـ ـراً والمـداينُ كالأميرْ
من ليسَ يكفيهِ القليـ ـلُ فليس يكفيه الكثيرْ

الاجتماع الإنساني جسم حي نام متحرك وهو عرضة للقوة والضعف والراحة والتعب والصحة والمرض، ويعتري بعض أعضائه داء عضال يذهب براحتهم ورفاهيتهم ويغل أيديهم عن العمل ويغادرهم عبيداً وهم من أهل السيادة وهم داء الدين الذي خربت به بيوت كثيرة وتورطت فيه بعض الممالك فاستنزفت ثروتها وزالت قوتها وهو كغيره من الأدواء الكبيرة يصيب أهل الجاه والوجاهة أكثر مما يصيب الفقراء والصعاليك.

وإن منشأ الدين وأساسه غالباً الترف الذي هو من شر ملمات هذا الزمان وأقوى مقوضات دعائم العمران - والأغنياء والفقراء متهافتون عليه تهافت الفراش على السراج - والمال إله معبود وعباده قد حادوا عن جادة الحق، وساروا في الترهات فيطلبون الغنى بالمقامرة والسعة بالمخادعة، ويتظاهرون أنهم أغنياء ولو كانوا فقراء لا يملكون شروى نقير - ويزعمون أن الإنسان بحسن بزته وكثرة ولائمه، وأن الاعتبار والإكرام لمن يكرم الأنام.

والدين خِدن الترف ومعاونه على فساد شؤون الناس وتبذير أموالهم وهو البلية الشديدة التي أصابت الرؤساء والمرؤوسين والحمل الثقيل الذي يئن منه دول الأرض العظيمة كما يئن منه صغار الفلاحين.

والناس طبقات: وكل طبقة تانف من الامتزاج بالطبقة التي تحتها وتتوخى الصعود إلي الطبقة التي فوقها وتبذل النفس والنفيس في طلب الوجاهة التي ليست مذمومة ولا عاراً - ولكن العار في استعمال الوسائط غير المحللة لنوالها - ومن العجيب أن الناس يحسبون الغنى فضيلة وكياسة، وعندهم أن الفاضل الكيس هو الغني أو المتظاهر بزي الأغنياء.

ولقد أخطؤوا في زعمهم هذا لأن الفقر بلا دين هو الغنى التام، فليس الفقر عاراً ولا منقصة إذا كان الفقير حراً شريف النفس، بل كثيراً ما يكون الفقر شرطاً للنجاح والشهرة والراحة.

وتاريخ الناس أصدق شاهد على صحة ذلك فإن أبسل الناس وأصدقهم عزيمة وأكملهم مروءة أكثرهم من الفقراء – ولا يعاب الفقير إلا إذا أبطل الكدح وقصد التعيش بأموال الصدقة أو التسوّل.

وبالجملة: إذا تمكن الدين من صاحبه لم يقف في طريقه مال قارون ولا ينجو منه إلا بالمنون. وفي الخبر الصحيح: «لا وجع كوجع العين ولا غم كغم الدين» وقال ﷺ: «الدين شين الدين» ولهذا يقال: «صاحب الدين ذليل بالنهار ومهموم بالليل» وقال بعض السلف: «الدين غل الله في أرضه وإذا أراد الله ان يذل عبداً جعل منه طوقاً في عنقه». وقال العتبي: الدين عقله الشريف، وقال ابن المعتز: كثرة الدين تصير الصادق كاذباً والمنجز مخلفاً – وقال الشاعر:

إذا استثقلتَ أو ابغضتَ شخصاً وسرَّك بعده حتى التنادي
فشرِّده بقرضٍ دريهماتٍ فإن القرضَ مقراضُ الودادِ

٥٧- حب الوطن من الإيمان

الوطن طينة المرء التي نبت فيها أصله ونما فرعه ونشأت حياته التي تغدت بهوائه واستظلت بكنفه ودوائه ومقره الذي تتجاذبه عوامل الشفقة عليه والحنين إليه إذا شط به مزاره وبعدت عنه داره، وركنه الذي يأوي إليه إذا نبَتْ به البلاد ويتوسع فيه إذا ضاقت عليه الأرباض.

إن حب الوطن شعور نفساني وإحساس وجداني، ليس بسلعة يباع ويشرى فهو أشرف خلق يتحلى به الإنسان وأحسن شيمة ينطوي عليها الجنان، وهو من أخلاق الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام. وقد كان النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة يحن إلى وطنه (مكة) حنيناً كثيراً مع أنه خرج منها وهو غير راضٍ عن أهلها لمعاداتهم له وإيصالهم الأذية إليه حتى وعده الله سبحانه وتعالى بأن يريه إياها ويرده إليها – وذلك في قوله تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ [القصص:٨٥]. ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «حب الوطن من الإيمان». ولذا قال الشاعر:

بلادي وإن جارتْ عليَّ عزيزةٌ ولو أنّني أعْرَى بها وأجُوع

فمن جعل نُصب عينيه محبة وطنه العزيز والعكوف على خدمته فقد رفع عماد أُمته وشيد ركن دولته.

وما المرءُ إلا حيثُ يقضي حياتَه لنفع بلادٍ قد تربَّى بخيرها

فحب الأوطان سلطان فوق كل سلطان، وأثره لا ينمحي عن صفحات الجنان، فكم بيعت في سبيله النفوس بيع السماح، وكم رخصت دونه أرواح وغلت أرواح – بل كم يرفع لرجال ذكراً كان خاملاً وشيد لأعمالهم أثراً ماتوا وظل باقياً.

ولـي وطـنٌ آليتُ الا ابيعـهُ   والا أرَى غيري لهُ الدَّهر مَالكا

فسعادة الإنسان مرتبطة بسعادة بلاده، والإنسان العامل في وطنه هو الأمة لأن الأمة هي العمل، ومن لم يعمل في وطنه فعدمه خير من حياته، ومجد الوطن وسعادته ببنيه وبنوه بالتضحية والعمل حتى يبلغوا الأمل.

فيَا وطني إن فاتَني بك سابقٌ   من الدَّهر فلينعمْ بساكنكَ البالُ

أجل: إن الوطن أبٌ رحيم شفيق نتقلب في نعمه، فهو أعز عزيز تسفك لأجله الدماء وتخضب السيوف وتخاض المعارك وتشعل الحروب وتباع النفوس وتقاد الجحافل وتدكّ الحصون وتنسف المعاقل. فارق شعور وأجمل إحساس يثير النفوس حمية تحل بالقلب هزة وتنزل به خفقاناً هو حب الوطن – شعور يستصرخ اللب ويناجي الفؤاد فيردد نداءه من أعماق القلوب وأقاصي الأذهان – صوت وجداني خافت لكنه يرد النفوس مرهفات أو أشد قطعاً – والعزائم مهندات أو أكبر وقعاً.

كفاني فخراً أن أموتَ مجاهداً   وحبٌّ بلادي قائدي منذُ نشأتي

الوطن عائلة إذا حل بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعاً، وإذا نزل بهم بلاء اقتسموه (الواحد للجماعة والجماعة للواحد، والفرد يفدي الأمة والأمة تحمي الفرد).

والوطنية أعظم سياج لاستقلال الأمة التي تصبح بدونها تحت رحمة العدو وسلطانه فالوطني الحق لا يرى بلاده مهما أجدبت إلا جامعة للخير العام ولمنابع سعادته يشعر نحوه بكل انعطاف وحنو، إذ يرى فيه ذكرى حياته الماضية كما يتمثل فيه آمال المستقبل.

بلادي هواها في لساني وفي دمي   يمجدُها قلبي ويدعُو لها فمي
ولا خيرَ في من لا يحبُّ بلادَه   ولا في حليفِ الحبِّ إن لم يُتَيَّم

٥٨- العاديات والآثار القديمة

إنما تصل الأمم إلى ذرا الحضارة وتتسع مداركها في الصناعة وتبلغ شأواً بعيداً في الارتقاء وتنهض من الهمجية إلى المدنية وتحصل على الرفاهية والنعيم بما تظهره من المصنوعات المختلفة وما تبتدعه من المخترعات المتنوعة وما تخلفه من الآثار المحكمة الصنع وما تتركه من المتاحف المتينة الوضع – وبديهي أنه كلما كان أساس الصناعة قائماً

بين أيدي الصناع أمكنهم زيادة الإتقان وإحكام العمل وتسهيل الانتفاع، لهذا ترك السلف للخلف آثاراً شهدت ببراعتهم وحسن اختراعهم فكانت كمرآة رأى المتأخرون فيها تمدينهم ورفاهتهم ورغد عيشهم، وكان لسان حالهم في أجداثهم يقول:

مضوا والدُّورُ باقيةٌ وأودَوا ... وليس شخوصُهم بالمودياتِ
فما ذهبوا ولكنْ في اغترابٍ ... وما ماتوا ولكن في ثباتِ

حقاً إن الآثار خير مرشد للصانعين وخير معلم للمتعلمين وخير دليل للمبتدعين.

تلك آثارُنا تـدلُّ علينا ... فانظروا بعدَنا إلى الآثارِ

ولهذا اعتنت الحكومة المصرية بجمع شتاتها وتجديد ما درس من معالمها لتكون مرشداً للمسترشدين ومصباحاً للمتفننين ونموذجاً للمخترعين ينسج على منوالها الناسجون ويحذو حذوها اللاحقون، وقد أدرك هذا السر العدد الكثير من الناس فخرجوا من ديارهم يؤمون دور الآثار ليستفيدوا من دقة الصنع وإحكام الوضع وحسن الاختراع وجمال المبنى ورونق المعنى ما لم يستفيدوه من قبل.

وبالجملة: فالمقياس الوحيد لتقدم الأمة ومبلغ رقيها هو مبلغ اهتمامها بآثار من سبقها من الآباء والأجداد - كيف لا - وإن الناس الذين يبحثون في آثار آبائهم وأجدادهم هم بلا شك المتشعبون بمبادئ المدنية.

٥٩- لا خير في علمٍ بلا عملْ

العلم مناط الحياة الاجتماعية، وأس الحضارة والعمران وأول المقومات التي لا تقوم إلا بها حياة المجتمعات فهو طريق السعادة للدارين ومحور مجد الأمم وينبوع ثروة الشعوب، وما أذل المشرق بعد العز وأفقر سكانه بعد الغنى وأفقر أوطانه بعد أن كانت آهلة بالعلم مزدحمة بطلابه إلا إهمال أهله للعلوم واسترسالهم في الشهوات فلا تستقيم أعمال الإنسان إلا بالعلم اليقيني الذي هو ترقي العقل إلى درجة الإحاطة بما يكتنف الإنسان من أسباب السعادة والشقاء أو تنازع البقاء الذي هو حياة القوي بموت الضعيف، وإنما يتيسر أُصول العقل إلى هذه الدرجة من العلم بالتعلم والتهذيب إذا روعي فيها جانب الفضيلة على وجه يشعر منه المتعلم أنه إنما يتعلم ليعمل فينفع نفسه وبني جنسه بالعلم.

وكاي من عالم لم يبلغ علمه درجة اليقين الداعية للشعور بوجوب العمل، فهذا عالم ولكنه لم يعمل بما علم، فعلمه وجهله سيان. لأنه ما الفائدة ممن يتعلم ويقول أنا عالم ولا يتبع القول بالعمل، فيعمل بما رزقه الله من العلم، وأولى بمثل هذا العالم أن

يخشى الله بكذبه على العلم، فإن الله تعالى يقول: ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ [الصف: ٣].

فالعلم هو الميزان الذي تتكافأ به قوى الشعوب المتنازعة في مضمار الحياة المدنية، ما دام العمل به متبادلاً بين المتنازعين، ومتى وقف أحدهما عن العمل واستمر الآخر في عمله رجح هذا على ذاك بالضرورة فنازعه البقاء وغلبه عليه.

فالعلم بلا عمل لا يغني عن الحياة شيئاً، بل لا يكون العمل علماً إلا إذا ظهرت آثاره في الخارج، وإنما تظهر آثاره بالعمل، وإلا فاي فائدة من علم المرء أن الزراعة مثلاً من أسباب الحياة البشرية ولم يعمل بالزراعة مع علمه بها وبفنونها - ومن وجه نظره إلى الآثار العملية الصادرة عن العلم التي تفيضها على أرجاء المشرق الأمم الأوروبية الآن يحكم حكماً جازماً، أن لا حياة لأمة ولا بقاء لشعب بإزاء تلك الأمم المتمدنة ما لم يجارها في ميدان العمل مجاراة لا يعتري صاحبها الوهن ولا الكلل ولا يطرأ عليها الخمول والكسل.

لا خيرَ في العلم إن لم يرقَ صاحبهُ ... على أساسٍ من الأخلاقِ في الصغرِ
كم من عالمٍ فاسدٍ ضلّت مذاهبهُ ... وقد غدا علمهُ شراً على البشرِ
إبليسُ أعلمُ أهلِ الأرض قاطبةً ... والناسُ تلعنهُ في البدو والحضرِ
العلمُ كالغيثِ والأخلاقُ مزرعةٌ ... إن تخبثِ الأرضُ تذهبْ نعمةُ المطرِ
والنفسُ تأبى ورودَ الماءِ إن وجدت ... في الماء رجساً ولو كانت على نهرِ
والجهلُ أفضلُ من علمٍ يدنسهُ ... نضحُ الرذيلةِ من أخلاقِ مقتدرِ

وبالجملة: إن الأعمال هي قطب دائرة الحياة الدنيا ومدارج مرقاة العلا إلى المراتب العليا وسبيل الوصول إلى السعادة الأبدية، ودليل الحصول على الشرف والسيادة وبها تدرك الغايات وتملك النهايات وهي ثمرة العلوم ونتيجة المنطوق والمفهوم، فالعلم بغير العمل فاسد والعمل بغير علم باطل، والمجرد منهما عاطل - هل رأى أحد صلاح عمل بغير علم ينشر أو سمع بفلاح رجل من غير عمل يذكر - كلا - هذا الحاكي (الفونغراف) الجامد نطق بالقرآن والأذان والغناء والإنشاد - ما ذاك إلا من ثمرات العمل بالعلوم والمعارف.

٦٠- لا تصحب من لا يحمد حاله ولا يدلك على الخير مقاله

الصحبة نسبة بين صديقين، منشؤها ميل طبيعي أو كسبي - وهي حالة مطلوبة مستحسنة، ودليل على كمال فطرة الإنسان وأصله من اندفاعه بالطبع إلى التعارف - وبواسطتها يكون الأُنس وتحيا النفوس وتتصافى فيها القلوب.

فإن حصلت الصحبة عن الميل الطبيعي سميت صحبة اتفاقية وسببها التجانس

والتشاكل، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». وقال الشاعر:

ولا يألفِ الإنسانُ إلا نظيره وكلّ امرئٍ يصبو إلى من يُشاكله

وقال آخر:

وقائلٍ كيف تفارقتمُا فقلتُ قولاً فيه إنصافُ
لم يكن منْ شكلي ففارقتهُ والنَّاسُ أشكالٌ وآلافُ

وإن حصلت الصحبة عن القصد والإرادة سميت صحبة اكتسابية - وينبغي لمن يريدها الكمال بحيث لا يلقي بنفسه إلى المهالك بصحبة الأشرار أو ذميمي الأخلاق والطباع، بل يجب الاختبار والاختيار. فالقرين يقتدي بمقارنه، والصاحب تنسب إليه أعمال صاحبه، فإن كانت حسنة شرف بها الصاحبان، وإن كانت قبيحة أفهمت الناس أنهما على ضلال.

عن المرءِ لا تسأل وسلْ عن قرينهِ فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يقتدي

فمن تبصر في العواقب وانتقى لنفسه خير صاحب يعين على دفع الشدائد ويغفر الذلة ويقبل العثرة صديق صدوق في السعة والضيق فلا مراء في أنه يعيش مع صديقه هذا عيشة راضية.

ومن اتخذ صاحباً من غير تجربة واختبار واختيار حسب ما شاء كما شاء فقد كتب على نفسه العناء والشقاء.

لا تركَننَّ إلى ذي منظَرٍ حسَنٍ فربَّ رائقةٍ قد ساءَ مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته صفر العقاربِ أرداها وأنكرها

وقال بعض الحكماء: «اصحب من الإخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسي جمائله وبقي شاكراً ناشراً ذاكراً لجميلتك يوليك عليها الإحسان الجميل، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل».

فالوافر العقل هو الذي لا يصادق إلا من أجمع الناس على أنه من أهل الخير والاستقامة حسن الطباع جميل النوايا.

ويبتعد عن اللئيم الذي أجمعت العامة على خبثه وعدم صلاحيته للمؤاخاة ولا يغتر بما يبديه ذلك الخائن من البشر والبشاشة.

لا تغتررْ بالهشِّ والبشر من فتى وحفظ ولين مثل مسّ الأفاعيا

وقال آخر:

لا تثقْ من آدمي بوداد أو صفاءِ كيفَ ترجو منهُ صفواً وهو من طينٍ وماءِ

وبالجملة: إن الصحبة الكاملة تستلزم التعاون والتناصر على الخير والصداقة وخلوص النية وكتم السر وحسن المعاشرة وإعظام القدر في الحضرة والغيبة والبر في القرب والبعد والعفو عن بعض الزلات.

إذا أنتَ لم تتركْ أخاكَ وزلة إذا زلّها أوشكتُما أن تفرّقا

٦١- ما يجب أن يكون عليه المعلم بين تلاميذه

وعلاجُ الأبدانِ أيسر خطباً حين تعتلُّ من علاج العقول

المربي هو إنسان يحاول أن ينقل صورته ونظام أحواله إلى غيره وهو من المسترشدين بمنزلة العود من الظل فلا يستقيم الظل والعود أعوج - فالمربي لا يؤثر بأمره بل يفعله - ومثل الذي يعظ ويفعل كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكالمسك يطيب غيره وهو طيب - ومثل الذي يعظ ولا يفعل كالقمر يضيء ولا يدفئ، فربما سطع القمر والليلة صقعاء - أو هو مثل هذا المسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع - والإبرة تكسو غيرها وهي عارية وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق.

ما هي إلا ذبالة نصبتْ تضيء للنّاس وهي تحترقُ

قال سبحانه وتعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ [البقرة:٤٤]. وقال أيضاً: ﴿كبر مقتاً عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف:٣]. وقال بعض الحكماء: إذا كان الرجل طاهر الأثواب كثير الآداب حسن المذهب تأدّب بأدبه وصلح بصلاحه جميع أهله وولده. وقال الشاعر:

رأيتُ صلاحَ المرءِ يصلحُ أهلهُ ويفسدُهم ربّ الفساد إذا فسدَ
فيعظم في الدنيا لفضْلِ صلاحهِ ويحفظ بعد الموتِ في الأهلِ والولدِ

ولذا وجب على المعلم أن يكون فعله مطابقاً لقوله: فليكن كما يحب أن تكون تلاميذه وليفعل ما يلزم أن يفعلوه وليلزم ما يلزم أن يتركوه، وليبدأ بإصلاح نفسه قبل إصلاح تلاميذه، فإذا عظم قويت رغبتهم فيه وانقيادهم لأوامره والعكس بالعكس - ولا بدّ أن يكون المعلم مائلاً بجانبه إلى تلاميذه محباً لهم شفيقاً عليهم شغوفاً بتكميلهم كالوالد لولده اقتداءاً بمعلم الأنام عليه الصلاة والسلام حيث قال: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» ويتبع الميل القلبي لطف الجانب وبشاشة الوجه ولين القول والإحسان إليهم، قال بعض الحكماء: «البشاشة مفتاح القلوب» ومتى فقد الميل القلبي خاب الأمل وضلَّ المسعى

فإن المعلم العبوس الوجه القاسي القلب لا يكسب الناشئ علماً ولا أدباً بسبب نفورهم عنه وعدم ميلهم إلى جانبه ويتطرق ذلك إلى أخلاقهم فتسوء وتخبث. قال الله تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال تعالى: ﴿لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن﴾ [فصلت: ٣٤].

وينبغي أن يكون المعلم ثابت الجاش حازم الرأي نافذ الحكم قوي الإرادة، لا يريد هذا تارة وذاك أُخرى، فلا يأمر تلاميذه بأمر يتساهل عن تنفيذه أو يقول قولاً يرده.

القولُ كاللَّبن المحلوبِ ليسَ لهُ ردٌّ وكيف يـردّ الحلب اللبنا

أو ينذرهم بعقاب لا يقيمه أو يأمرهم اليوم بأمر ينهاهم عنه غداً وبالعكس - لأن للناشئة شعوراً دقيقاً بإرادة المعلم، فمتى كان ثابت الإرادة أسلموه أزمتهم وأعنتهم، ومتى تقلبت شردوا عنه ونبذوا طاعته وراءهم ظهرياً ولم يكترثوا بأمره أو نهيه.

فيجب أن يكون المعلم حكيماً متبصراً يضع الأمور في مواضعها عارفاً كيف يأخذ المتعلمين حتى يبلغ بهم إلى الضالة المنشودة والغاية المقصودة عالماً بوسائط التربية والتأديب، فلا يعاقب قبل تهديد، ولا يهدد قبل إنذار، ولا ينذر قبل تذكير.

قال بعضهم: (العتاب قبل العقاب فليكن إيقاعك بعد وعيدك ووعيدك بعد وعدك).

ولا يعامل الكل باللطف كما لا يسوق الجميع بالعنف.

فإن منهم من تصلحه القساوة بينما الآخر يصلحه المعروف ومن ينفعه الإحسان بينما يسوء الآخر. ومن يؤثر فيه النظر بينما الآخر يحتاج إلى العصا - كما قيل:

البعضُ يضربُ بالعصا والبعضُ تكفيه الإشارة

ومنهم من يسوقه المهماز، بينما الآخر يلزمه اللجام.

وقصارى القول: إن من تلقى إليه أعنة الأبناء الذين هم ثمرات الأفئدة والمستحق لثناء الأمة ورضا الآباء، هو الذي عرف واجباته فقام بأعبائها وترقب نفسه ففاز بمعرفتها واستفاد فأفاد واستهدى فهدي وبلغ فأبلغ وتأدب فأدب، ونال النهاية فأنال الغاية حتى يكون مصباح الظلمات ووارث الأنبياء.

٦٢- على من تلقى مسؤولية التربية أعلى الوالدين أم على المدارس

من المعلوم أن الإنسان مخلوق أدبي لا يمكن نموُّ قواه الأدبية إلا بفعل متميز عن الفعل الذي يؤثر في بنيته بخلاف الحيوانات فلا تطلب سوى نمو جسمها - ومن ثم لا يكتفي الإنسان في تربيته بالأحوال الطبيعية المكملة لتربية الحيوانات، بل نراه مضطراً إلى

أحد من جنسه يعرفه الغاية الإنسانية ليأخذه بتربية روحه وعقله – ولذلك ألقى الحكيم جل شأنه في قلوب الآباء رأفة طبيعية ومحبة فطرية إلى أبنائهم، ومن هنا يعلم أن الوالدين هما أول مرب للإنسان – والعائلة هي أول مقامات التربية.

ولما كانت الهيئة الوطنية بما لها من التعارف والاجتماع تطلب من الأفراد الطاعة لناموس الوطن والتعاون على الأحوال المعيشية حاجيتها وكماليتها حتى تمكن حفظ بقاء الأمة وسرورها بالحياة، يعلم بالضرورة أن العائلة مدينة للهيئة الوطنية – وبحكمة أن الحكومة هي المهيمنة على الهيئة الوطنية والناظرة في شأن الأفراد من جهة الخصوص وفي أحوال المجموع من جهة العموم طلباً لحفظ التناسب بينهما حتى تكون الحكومة مدينة أيضاً للعائلة والأمة بحيث يجب عليها تمهيد سبل التربية والتعليم وتنبيه الأفراد إلى واجباتهم ولا يحصل ذلك إلا بوجود عدد كافٍ من المدارس تتخرج بها الأبناء علماً وعملاً وعقلاً وأدباً.

ومن ذلك ينتج أن المدرسة هي الواسطة لجمع دائرتي العائلة والحكومة، وهي مع ذلك ليست إلا مكملة لنقص التربية في العائلات ضرورة أن للعائلة المقام الأول من مقامات التربية، كما لها النفوذ الأعظم على الأبناء – بصلاحها تصلح الناشئة وبفسادها يفسدون وهي الجو الأول الذي يتنفس فيه الناشئ، فمتى كان الجو خالص الهواء تربى الناشئ سليم البدن والعقل والعكس بالعكس. والحكمة في أن للعائلة التأثير الأعظم في تربية الناشئة إن خيراً وإن شراً – أمور:

منها: سلطة محبة الوالدين لأبنائهما فإنها تورث في الأبناء المحبة إلى الوالدين، ويتطرق ذلك إلى محبة غيرهما، وتلك المحبة المشتركة تعتبر أول أساس للتربية العمومية والحصول على الفضائل.

ومنها: سلطان التقليد حيث يؤثر في تربية الأبناء ضرورة أنهم يصرفون عامة أزمانهم في العائلة، فمن كان أبواه مشغوفين بالنظام والترتيب محبين للوطن متكملين بالفضائل كالكرم ورقة الجانب والرأفة ونحو ذلك خرج متطبعاً بتلك الخصال والعكس بالعكس.

ومنها: الأحوال العائلية التي هي المدرسة الأولية الأساسية للناشئ فيقف بها عند حد محدود.

ويجب أن يكون المنزل والمدرسة سائرين في طريق واحد هي غاية الحصول على المقصود من التربية العامة – والمدرسة لها النفوذ الأعظم بالنسبة إلى التعليم، بينما المنزل له التسلط الأكبر بالنسبة إلى التربية ضرورة أن بالمدرسة وسائط للتعليم يفقدها المنزل كما أن المنزل أقدر على التربية بحكمة تصرف الآباء.

ولكل من المدرسة والمنزل حقوق يجب القيام بها:

فأما حقوق المدرسة على المنزل: فهي أن ترسل الآباء أبناءهم إلى المدرسة في المكان والزمان المقرر لهم بالضبط، وأن يمدوهم بما يلزمهم مادياً وأدبياً وأن يساعدوا المدرسة بالقول والفعل.

وأما حقوق المنزل على المدرسة فهي أن يلاحظ المعلمون الأحوال العائلية، وما يلزم أن تقوم به أبناؤهم لهم من الفضائل ومكارم الأخلاق.

ومن حقوق الحكومة على المدرسة أن تثبت في نفوس الأبناء الطاعة لقانون الوطن وحبه والتعاون وتشريف العوائد والآداب الوطنية وحب الراعي والرعية وغير ذلك.

ولذا ينبغي أن يختار لوظيفة التعليم العلماء المؤدبون المستكملون لمكارم الأخلاق الذين يقدرون على ضبط إرادتهم وحفظ أميالهم خصوصاً الذين يميلون إلى حب الوطن وتربية أبنائه تربية وطنية.

٦٣- الحرية وأثرها في الهيئة الاجتماعية

الحرية كلمة: لها معنى جليل يسحر العقول ويدهش الألباب تصبو إليها النفوس من أحقر وحشي إلى أرقى مدني - يبذل كل في سبيلها ما ملكت يداه، إذ هي تنير قلب الطفل حين ولادته كما تملأ فكر الكهل، وتشغل ذهنه على وسادة موته.

والحرية للبشر ركن السعادة وروح الكمال - فلا جمال في حياة لا نتمتع فيها كما نريد ونختار، ولا خير في جسم يريد أن يعمل فيركض، ولا خير في ذهن يريد أن يتفكر فيضغط، ولا خير في قلب يريد أن يشعر فيجرح - وما فائدة كل هذه المواهب إذا سلبناها عنوة وإكراهاً.

إن الإنسان لم يخلق لأن يثقل بالسلاسل والأغلال، وإنما كان كماله النوعي في إطلاق مداركه وقواه للعمل والحركة.

فالحرية، هي القدرة، هي الحركة، هي الحياة، هي العدل، هي الإخاء، هي المساواة، بل هي السبيل للوصول إلى أرقى مطالبنا، والحرية ليست مطلقة إذ لا مطلق في هذا العالم، بل كل ناموس له حدود ومستثنيات، فهي مقيدة بهذا المبدأ وهو (أنه لا يجوز أن تكون حرية شخص مجحفة بحرية آخر) هذا هو المبدأ الذي يجب أن يكون أساساً لتعامل الناس وأصلاً للروابط فيما بينهم.

والحرية حق يقابله واجب وهو المسؤولية، فإذا أساء شخص استعمال حريته بهضم

حقوق الغير يكون مداناً ومطالباً بإصلاح ما أفسد كما أن الغير مسؤول عما يلحق به من الضرر.

ولا ينكر أحد أن منح الحرية لأمة هو من الأمور التي تحتاج لدقة المراقبة وإطالة النظر لأنه يجب التدرج فيها والتدرب عليها شيئاً فشيئاً - ولذا يقال: إن عنوان الحرية التي تمنح لأمة بحيث لا تنذر بضرر أو سوء هو درجتها من التربية ونصيبها من المعارف التي تضيء سبيل الحرية وتحيي الشعور بالمسؤولية - فالرجل الذي لا يقدر نتائج أعماله ولا يدري حقيقة حاله نحكم بانه لا يحسن استعمال الحرية.

لهذا: كان أهم واجب على الحكومة هو أن تدرب الأمة تدريجياً على الارتقاء في الحرية عملاً بقول الحكماء (ازدد نوراً أزدك حرية) وقال آخر: (أحسن الدرجة التي أنت بها أرفعك لغيرها).

فالحرية تشبه السلاح - إن مسكته يد حازم كان فيها ماضياً وإن تناولته يد جهول كان عليها قاضياً - وأنواع الحرية كثيرة:

منها: حرية الفكر وهي أجل حرية فطر عليها الإنسان ولا يمكن إعدامها أصلاً، فالفكر لا يقتل أبداً والمذاهب الصحيحة والآراء القويمة لا تعدم حتماً.

ومنها: حرية العمل لأن الإنسان محتاج للسعي وراء الرزق طلباً لقوته وملبسه ومسكنه فيجب الا يمنع ولا يحرم من قواه ومزاياه الشخصية، بل يترك حراً في عمله ما دام لا يمتهن حرية الغير وما دام عمله ليس من الأعمال المحرمة حفظاً للأمن وحرصاً على الآداب العمومية.

ومنها: حرية الاجتماع فلا تتم حرية الفكر ولا تقيد حرية البدن إذا لم يمنح الإنسان حق الاجتماع بإخوانه على مرأى من الأمة والحكومة مبادلة للأفكار في الشؤون العمومية حتى يتبين صحيح الأفكار من سقيمها أو طلباً لحاجاته حتى يتيسر لمن لا يجد في نفسه القدرة على القيام بعمل وحده أن يجد مّن أخيه ومواطنه نصيراً وظهيراً، فحرية الاجتماع ضرورية لأن (الإنسان مدني بالطبع).

ومنها: حرية الاعتقاد وهي من أقدس الحريات إذ يتوجه الدين لأخلص شعور في الإنسان فيخاطب اللب ويناجي القلب ويستصرخ العقل وهو المنقي للنفس من الشوائب والأدران وهو الذي يرفع لأرقى الفضائل حيث يجد الإنسان لذة واطمئناناً - يجد تسلية وتعزية في الحياة الحالية وأملاً وهناء في الحياة الأخرى - وإنما تقيد هذه الحرية بالا يجبر أرباب دين أهل دين آخر على اتباعهم (لا إكراه في الدين).

ومنها: حرية اللسان أو الخطابة وحرية القلم أو الصحافة، وهذان النوعان من الحرية يرتبطان ارتباطاً تاماً بحرية الفكر والاجتماع فليس للإنسان فقط عقل يفكر به بل له لسان يعبر عن تلك الأفكار ويفصح عما يكنه الضمير - لهذا وجب أن يكون من حقه التكلم والمراسلة وكتابة ما يعن له من كتب وصحف إظهاراً لآرائه ونشراً لأفكاره إذ كل هذه صور للكلام البشري، وليس من حد لهذا سوى احترام حقوق الغير - فإذا أضرّ شخص جاره بكلامه أو أحدث هياجاً عاماً بخطابه فهو مسؤول عن خطئه معرّض للجزاء عليه.

وليس ثَمَّ أشد استبداداً وأكثر اعتسافاً مما وصلت به الحكومة لمحاربة الأفكار ومكافحتها والتضييق عليها بهذا الحد من الظلم وبهذه الدرجة من القساوة حيث لا تسوّي بين الأفراد بل تفرق بين الجمع - فلهذا قامت الحكومات الجمهورية والديموقراطية تناضل عن حرية الصحافة والخطابة أمام المحاكم لما فيها من النفع متى حسن استعمالها.

ومما لا شك فيه ولا مراء أن الحرية من أجل النعم التي وهبها الخالق لنا ولا يجوز أن تقام في وجهها الحدود إلا لباعث وضرورة، فكلما زادت الأمة عرفاناً بحقوقها وواجباتها (بالتربية الوطنية) كلما خفت قيودها وقربت من الحرية الصحيحة. فعنوان درجة الأمة من التهذيب هو ما تتمتع به من الحرية فقد قال (نومادروز) فقيد سويسرة: (إن من الدلائل الصادقة أن تقاس درجة الأمة في التقدم والارتقاء أو التأخر والانحطاط بمقدار نصيبها من الحرية التي يتمتع بها أبناؤها).

فالأمة التي لها الحظ الأوفر من الحرية ولها أبناء يحسنون استعماله هي أرقى الجميع بلا خلاف مهما صغر اتساع أراضيها وقلّ عدد سكانها - فإن في ذلك قوة أدبية عظيمة تسمو بها فوق الممالك الأخرى وتضمن لها حياة طيبة وسعادة مرضية، بل تحميها وتذود عن استقلالها أكثر من قوة المدافع والنيران.

وبالجملة: إن الحرية (من حيث هي) استقلال العقل والإرادة وانطلاق اللسان من قيد العبودية لأي شيء إلا الله سبحانه وتعالى فهي واجبة له تبارك وتعالى لأنه خالق الإنسان وواهب له العقل وتنقسم الحرية بالتعريف الأعم إلى حرية عمومية وحرية شخصية.

فالحرية العمومية تكافؤ الأمة بالحق في مشاركة الحكومة بالرأي وتكافلها على قيام الشرائع والقوانين حتى لا يعبث بها عابث أو تصرف على غير وجهها المقصود تبعاً لأغراض النفوس وغلبة الشهوات عند الحكام، وقد قررتها الشريعة الإسلامية ولها من الأثر العظيم في ترقي الأمم ونشر لواء العمران ما يشاهد عند الحكومات الأوروبية المعتدلة الآن

- وما بلغ من المسلمين في الصدر الأول مبلغاً من القوة والمدنية والمجد يقف دونه النظر حائراً والإنسان مقراً بفضل شريعة وضعت هذه القاعدة منذ ثلاثة عشر قرناً للمسلمين.

ولم يتوصل إليها غيرهم من الامم إلا في القرون الأخيرة بعد مكافحات شابت لها نواصي الولدان وانصبغت هامة المغرب بنجيع الإنسان.

والحرية الشخصية أمن الإنسان على نفسه وعرضه وماله وتمتعه بسائر حقوقه الشخصية التي تخولها له طبيعة الاجتماع باعتبار كونه عضواً عاملاً فيه.

٦٤- الحرية الشرقية والحرية الغربية هل يستويان؟

أجل: إن الحرية هي استقلال العقل وانطلاق اللسان من قيود الاستعباد المطلق ومتى أخذت الحرية من ذلك وسطاً بين طرفي الإفراط والتفريط حملت النفوس على الغيرة وبهت فيها حب العزة والكرامة.

والنفس الكريمة تأبى الإحجام وتنشأ على الإقدام فتطلب جلائل الأعمال وتنبذ طرق الدنايا وتطرح راحة الإخلاد إلى المسكنة والذل ولا يصدر عنها أثر من آثار الحرية إلا مسبوقاً بالروية مقروناً بالفضيلة دالاً على الثبات لما تأصل فيها من الرزانة الناشئة عن عزة نفس، إذ من توابع العزة الرزانة والثبات وهما حياة الأمم ومبعث مجد الإنسان وعكسهما الرعونة والطيش.

وهذان الخلقان يلازمان طرف الإفراط في الحرية كما يلازم طرفه الآخر وهو التفريط في الذل والمسكنة - والوسط بينهما هو الرزانة والثبات.

انظر إلى بعض الشعوب الأوروبية التي تناهى عندهم الآن الإفراط في الحرية الذي دعا إلى التفريط بالفضيلة حتى انطلقت النفوس في ميدان الشرور وانغمست في الرذائل تحت اسم الحرية وأيضاً ما يصدر عنهم من الضوضاء والجلبة عند كل حادث سياسي وكل هذه أمراض وبائية ليس أسرع من تفشي ضررها في ربوع المدنية وفتكه فتكاً ذريعاً في الإنسان - ولقد أحس الغربيون ببلاء الإفراط بهذه الحرية وما تأتي عنها من المضار التي أقلها انتشار الفوضى والاشتراكية في ربوع المدنية وتهديدها لها بالخراب والتدمير.

وأما المفرطون في الحرية فمثلهم مثل الأمم الشرقية التي فقدت مزايا الاستقلال العقلي وسيقت بعصا القهر سوق الانعام وناهيك به ذلاً قاتلاً للنفوس مميتاً للهمم مفقداً للإقدام نشاهد الآن بالعيان - لهذا جاء الإسلام هادماً لأركان الاستبداد ومرشداً لحرية العقل ليحمل المؤمنين على عزة النفس الداعية إلى الرزانة والثبات الباعثين على العمل الممهد لسبل المجد والسؤدد - وقد نال المؤمنون من ذلك حظاً لم تنله أُمة من الأمم

حتى بلغوا من العزة مكاناً رفيعاً، وإنما انحطوا الآن إلى درك الضعة لما علم من أن العزة ملازمة للحرية وقد فرطوا بها وخضعوا للاستعباد فاتخذوا أولياءهم أرباباً من دون اللّه ومن يدع مع اللّه إلهاً آخر فحسابه على ربه ﴿ولن يجد له من دون اللّه ولياً ولا نصيراً﴾ [النساء:١٢٣].

وبالجملة: فالحرية حياة الأمم ودعامة التمدين وأساس الرقي العقلي في هذا الوجود البشري - وشرطها الاعتدال، وبه جاء الإسلام وبهما عمل المسلمون زماناً قامت لهم به الدول وشيدوا دعائم العمران ونشروا راية العلم وأخذوا بجماع القوة فهدموا بها بنيان الاستعباد وحطموا صروح الاستبداد فملكوا قلوب البشر واجتمع تحت رايتهم الشعوب على اختلاف عناصرهم وتباين مشاربهم، قال عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

والعيان أعظم شاهد وبرهان على أن الحرية الشرقية والحرية الغربية لا يستويان: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ [الرعد:١٦]. وحرية الغربيين الآن يفرق فيها بين الشرقي والغربي والمسلم والنصراني، بل والبروستانتي والكاثوليكي - والحق فيها القوة يسحق القوي بقوته الضعيف ويستهين بحقوق من عداه فمثل هذه الحرية تقابل بالسخرية والنبذ والاستهجان لأنها استعباد تأباه الإنسانية والإنسان ولا ينطبق على قانون الحرية في كل عصر وزمان.

٦٥- المساواة وأثرها في الحضارة

إذا كانت الحرية عزيزة على الإنسان فالمساواة لا تقل عنها معزة، ولكن وجوه مساواة كاملة تامة مطلقة في هذا العالم مستحيل إذ إن قوانين الفطرة ونواميس الكون أشد وأقوى من أن تذعن لسلطان إرادتنا ورغباتنا - فليس في قدرتنا ما يجعل أفراد البشر في مرتبة واحدة، وليس فينا ما يمنع وجود أناس أشد بأساً من غيرهم وأعظم قوة وأحد ذكاء، إذ الناس رجلان - رجل عرف كيف يسلك أحسن سبيل في الحياة ويتقن عمله فيه بحرصه على النظام ومحافظته على الاقتصاد - ورجل ضعيف صعب عليه جهاد الحياة والمزاحمة فيها فضلٌ عن السعادة «وما كان من المهتدين».

وهذه الاختلافات التي لا محيص عنها الواقعة بين الرجال واقعة بعينها بين الأمم، فلا تتمتع جميعها بالنعم الوافرة والخيرات العميمة.

منها من تسكن الأقاليم المعتدلة فتنهض للعمل والسعي وراء الرزق فتنال أعظم نصيب من خيرات تتدفق ونعم تتوالى.

ومنها من تقطن الأقاليم المثلجة فلا تنعم لها حياة ولا يرغد لها عيش إذ قد تكون أكثر نصباً وتعباً وأكبر بلاء وعناء وأنقص كسباً ورزقاً وأقل جزاء وأجراً.

ومنها من تعيش في البلاد الحارة وليس عليها إلا أن تتمتع وتعيش - فالحاجات مقضية والأرزاق قريبة واسعة.

وهكذا في الإقليم الواحد كلما تباينت الأوضاع اتسع نطاق الخلاف - فالأمم الجبلية وأمم الصحارى أكثر قناعة وأعظم بأساً وبطشاً من أهل البلاد المستوية أهل السهول والوديان - وكلها اختلافات اقتضتها إرادته تعالى ليس للإنسان أن يعارضها ولا أن يقف أمامها - فما دام القطبان ما دام خط الاستواء ما دامت الشمس والظل والحرارة والبرودة ما دامت أرض خصبة وأُخرى قحلة.

فإن الاختلافات تبقى بين الرجال والأمم كالاختلافات الواقعة بين الحيوان والنبات.

وحينئذٍ فالمساواة الحقة هي التي يتيسر للإنسان الحصول عليها هي الكافلة لحاجات الجميع جهد المستطاع - هي المساواة في الحقوق وتتنوع إلى أنواع:

منها: المساواة أمام القانون (لا فرق بين فقير وغني) بحيث يكون القانون واحداً للجميع. والمتأمل يجد أن الشريعة الإسلامية وضعت المساواة أساساً في العبادات والمعاملات.

وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري يقول له: «سوِّ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا ييأس ضعيف من عدلك ولا يطمع شريف في حيفك». ولكن من ألقى نظره للعهد القريب لا يجد أثراً لها في بلادنا.

فقد عرف عندنا المماليك مرة والشراكسة أُخرى، كان الحاكم مفهم أُمة بتمامها. وكانت الأبناء منهم تتولى أُمور الناس وراثة عن الآباء فلم يحتاجوا لأن يبرهنوا على كفاءتهم وسعة معارفهم حيث ميزهم القانون ورفعهم فلا تمسهم نوائب الحدثان ولا طوارئ الأزمان.

ولا شك أن كل هذه المؤلمات المبكيات مما يناقض العدالة وينافي المساواة - ولذا وجب على كل ذي شعور حي أن يعمل لإزالة هذه الفروق والامتيازات ومحو هاته الدرجات.

ومنها: المساواة في التعليم فبعد أن تمنح الأمة أبناءها المساواة في الحقوق يجب عليها أن تبعث: ١- روحاً تعدد لديهم المطالب وتزيد آمالهم اتساعاً. ٢- روحاً تمكنهم من الوصول إلى مساواة أرقى. ٣- روحاً تمحو كل امتياز اجتماعي غير عدل وتلك الروح هي (التربية) فالفقير يحسن مستقبله بها كما يسوء حال الغني إذا عدل عنها.

ولكن المساواة المطلقة في التربية متعذرة حيث تتفاوت المدة التي يخصصها كل فريق للتعليم – إنما تكون المساواة في العلوم والمعارف الضرورية التي يلزم كل وطني الإلمام بها.

ومنها: المساواة في العمل وهي جعل كافة الوظائف مفتوحة للعموم – فلا احتكار ولا التزام، فالغني والفقير سواء في حرية العمل اللهم إلا حدوداً مفروضة حرصاً على الآداب أو الأمن العام، وأما وظائف الحكومة فلا تعطى إلا لكل ذي أهلية واستحقاق.

ومنها: المساواة السياسية وهي تخويل الحق لكل فرد أن يعطي رأيه في تدبير الحكومة ويرفع صوته في جل المسائل العامة.

فالصوت العام وإن كان له عيوب وأوجه نقص إنما هو أفضل نموذج وأحسن أسلوب تهتدي به الحكومات لسلوك أحسن سبيل في السعادة، فالمستقبل في الحكومات له وحده.

ومنها: المساواة في الواجبات – فكل وطني عليه واجبات نحو عائلته ووطنه عليه لذويه الغذاء والنفقة والتربية والتعليم، ولا يمكن إعفاء أحد من هذه التكاليف التي تكلفنا بها الطبيعة وتدفعنا إليها الغريزة – وعلى الإنسان لوطنه تكاليف.

ومنها: خدمة العسكرية ودفع الضرائب فكل مطالب بهذا الواجب حسب قوته وثروته.

ويجب أن يكون القانون عادلاً في هذه المسائل نافذاً على كافة الأهالي، إنما يختلف باختلاف أحوال الرعية، فمن كان أوسع إيراداً دفع مبلغاً من الضرائب، ومن كان ضعيفاً أعفي من الخدمة العسكرية، ولكن متى اتحدت أحوال الناس وظروف معاشهم تساوى الجميع أمام القانون.

٦٦- الإخاء ضروري للبشر

إن الناس إخوة تتقاسم الأحزان، فتتعاون عند كل ملمة، ويغرس في القلوب من حسن الشعور وشريف العواطف ما يوجه الأفئدة لمساواة الإخوان ومحاسنتهم ويبين أن الدقة في المعاملة وعدم التساهل والضبط في الحقوق وعدم التسامح يؤديان إلى حب الذات مع أن كمال الإنسان في كرم النفس وطهارة الروح.

هذه المؤاخاة دعت الغني لبذل المال تخفيفاً لآلام الفقير وبعثت القوي لمساعدة الضعيف، والسليم لعيادة المريض وتقوية آماله، ولهذا رأينا الأفراد تتعاون على إقامة دور البر وأماكن الخير (ملاجئ) للفقراء ومستشفيات للمرضى وبيوت لتربية الأطفال ومآوي

للمجانين وغيرها، واستمرت هذه الأعمال الخيرية عدة قرون، ولا نصير لها غير أيدي المحسنين.

ولم تتنبه الحكومات لهذه المسائل إلا في العهد الأخير (ما عدا الحكومات الإسلامية فكان بيت مال المسلمين فيها منشأ لهذا الغرض) فقد اعترفت (بأن عليها واجبات للفرد وله عندها حقوق)، فعلى الحكومة التي ترعى حقوق بنيها وتسعى وراء سعادتهم أن تقبل من يعثر منهم وتواسيه وتشارك المصاب وتؤازره وتأخذ بيد الضعيف وتخفف عنهم ويلات الزمان ونوائب الحدثان بجميل الشفقة والرحمة بطريق الاعتدال.

والذي يستحق المعونة - إما صغير تحفظ ثروته أو كبير متلف لماله أو فقير أو عجوز أو مريض أو عامل ضعيف.

فالصغير، للحكومة الحق في معاقبة أبيه إذا أساء إليه بحرمانه من الحقوق العائلية، ولها أن تنصب القوّام والأوصياء لحفظ أموال الصغير القاصر أو الكبير المبذر السفيه أو المعتوه.

ومساعدة الفقير بأن تفي الحكومة بنفقته متى تحقق لديها عجزه عن أي عمل يؤديه، وإلا إذا أعانت كل فقير تكاسل الناس، وانصرفوا عن أعمالهم إلى (تكاياها) حتى تنفق عليهم وأولادهم، وهذا مما يثبط همم العاملين المقتصدين ويخمد عزائمهم حيث تثقل الحكومة عليهم الضرائب ليتيسر لها الإنفاق على هؤلاء الفقراء وبهذا يحرم العاملون من ثمرة تعبهم فينال العقاب من استحق الثواب.

وعلى الحكومة مساعدة الطفل الذي نبذه أبواه في الطرق بغير ذنب اقترفه، وعليها أيضاً أن تقيم المستشفيات العامة للمرضى والملاجئ للأطفال والمآوي للعجائز الذين أقعدهم الكبر وعائلات الجنود الذين استشهدوا في ميادين الحروب وأن تعتني بإيواء المجانين ومراقبتهم وحمايتهم.

والعامل الضعيف نصرته محتمة على الحكومة التي هي وصية الضعفاء بحيث تتخذ الاحتياطات اللازمة والتدبيرات الضرورية لمنع وقوع الحوادث في المناجم والمعامل وغيرها كالانفجار والحرائق والتهدم، فتلزم (المدير) بما يتلف صحة العملة أو يفقد أحدهم الحياة وتحديد ساعات العمل وتعيينها رفقاً بهم ورحمة.

وبالجملة: إن التسامح والاعتدال يحسمان كثيراً من المنازعات ويفضان أبواباً من المشاكل في الأمة وهما يستلزمان الشعور باحترام حقوق الغير وآرائهم ومعتقداتهم الدينية والسياسية، وإن من أنفس المبادئ الأدبية التي تحث عليها الأديان وترفع صوتها من أجلها الحكماء هي «أحب لأخيك ما تحب لنفسك» و«عامله بما تحب أن يعاملك به».

٦٧- الاجتماع ضروري لنوع الإنسان فما يلزم لصلاح هذا الاجتماع

إن الإنسان لا قدرة له على استيفاء حاجياته الضرورية بمفرده ولا استطاعة له على تكميل لوازمه الذاتية بنفسه، بل لا بدّ له من معاونة ومساعدة قوم كثيري العدد يتمم بهم ما ينقصه ويكمل ما يحتاج إليه في حياته.

فالمعاشرة لازمة بحكم الضرورة فما خلق الإنسان ليعيش وحيداً لأنه بطبعه يمل إذا لم يجد بجانبه أنيساً يحادثه، ولذلك سمي (إنساناً) أو جليساً يبث إليه شكواه أو صديقاً يواسيه ويسليه.

فلا صديقَ إليه مشتَكَى حُزني ... ولا أنيسَ إليه منتهى جزلي

وقد قال بعض حكماء الإفرنج: (ماذا تعمل النفس الوحيدة حتى في الجنة) وذلك مصداق لقول شاعرنا العربي أبي العلاء المعري:

ولو أني حُبيت الخلدَ فرداً ... لما أحببتُ في الخلدِ انفرادا

فالإنسان للإنسان كاليد تتوسل باليد، والعين تستعين بالعين، بل هو ساعد وعضده (وإن الذليل الذي ليست له عضد).

قال ابن مسكويه: إذا كان الإنسان محتاجاً إلى غيره بالطبع فكيف يؤثر الإنسان العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلي ولا يتعاطى ما يرى من الفضيلة في غيره، وقد أخطأ الذين رأوا أن الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس بملازمة المغارات في الجبال وبناء الصوامع في المفاوز، فقال أنه لا تظهر فيه العفة ولا النجدة ولا السخاء إذ القوى تصير باطلة فلا تتوجه لا إلى خير ولا إلى شر وإذن يصيرون بمنزلة الجمادات والموتى من الناس ولذلك هم يظنون أنهم أعفاء وليسوا بأعفاء وأنهم عدول وليسوا بعدول فإنما الفضائل أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومبادلتهم صنوف المعاملات وضروب الاجتماعات.

وبديهي أن في الانفراد إخلالاً للنظام وتحليلاً للمجتمع وتقويضاً لدعائمه، فإنما المجتمع كجسم إنسان كل فرد منه بمنزلة عضو من أعضاء البدن وقوام البدن بتمام أعضائه.

فإذاً الاجتماع ضروري وعن الاجتماع تنشأ المعاملات ويضطر الناس للأخذ والعطاء وتبادل المنافع، ولذلك كان للتكافل أركان هي الألفة بين الناس، والعدالة فيما بينهم.

أما الألفة فوجه لوازمها أنها إذا تمت نشأ عنها التعاضد والتآزر والتضافر والتظافر والتناصر والائتلاف والاتحاد وصار التعامل بينهم على أحسن نهج وأقوم منوال فإنه لا تعامل إلا بين متآلفين، وإذا تآلفوا وتحابوا اتفقت مشاربهم واتحدت أغراضهم وابتعد

عنهم النفاق وانعدم الخلاف الذي هو أصل كل بلاء وأس كل شقاء، وإذ ذاك تنشأ الثقة بينهم ويحصل الأمن في تبادل المنافع فيقوون على نيل الخيرات وينهضون لاستخراج الغوامض وإبراز المخترعات وتستسلم لهم الصعاب وتدين لهم المطالب على اختلاف أنواعها طوعاً أو كرهاً، فإن ما هو عزيز المنال صعب المرام بالتعاون والمساعدة والتناصر يصبح ميسوراً قال سقراط الحكيم اليوناني: (إني لأكثر التعجب ممن يعلم أولاده أخبار الملوك ووقائع بعضهم ببعض وذكر الحروب والضغائن، ومن انتقم أو وثب على صاحبه ولا يخطر ببالهم أمر المودة والألفة وما يحصل من الخيرات العامة لجميع الناس بالمحبة والأمن وأنه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة وإن مالت إليه الدنيا بجميع رغائبها، فإن ظن أحد أن أمر المودة صغير فالصغير من ظن ذلك، وإن قدّر أنه موجود ويسير الخطب يدرك بالهوينا فما أصعبه وما أعسر وجود صداقة يوثق بها عند البلوى).

وأما العدالة فلأنها حياة المجتمع وروح العمران فإذا انعدمت من أُمة أسرع إليها الفناء وحلّ بها الدمار حتماً، فتتقهقر وتتلاشى شيئاً فشيئاً حتى أصبح أثراً بعد عين، ألا ترى أنه إذا ساد العدل استتب الأمن العام وتوطدت أركانه، وإذا ما استتب الأمن العام اطمأنت النفوس وهدأت القلوب وارتاحت الخواطر فأمن كل فرد على نفسه وماله وعرضه، ألا ترى أنه إذا انتشر العدل أمن الضعيف جور القوي والصغير حيف الكبير وعاشوا إخواناً، وحينئذٍ تحيى الآمال وتقوى العزائم وتنهض الأفكار وتنشر الهمم ويكثر العمران.

وينقسم التكافل إلى تكافل عائلي، وتكافل اجتماعي.

فالتكافل العائلي: هو مشاركة ذوي القرابة في الخيرات ومعاونتهم في السراء والضراء وتضافرهم في تدبير أُمورهم المعيشية ولوازم حياتهم فيقوم الرجل بتحصيل الغذاء وتقوم المرأة بتدبير المنزل، ثم يتعاونان الاثنان على تربية أولادهما وتثقيف عقولهم، وأيضاً يجب على كل من كان قادراً على الكسب أن يساعد غير القادر عليه من ذوي لحمته، فعلى الابن مساعدة أبيه الذي أوهنه الكبر والشيب أهرمه أو الذي منعته عاهة وأقعده داء عضال كالمزمن والمقعد والمفلوج وغيره كما أنه يجب على كل فرد مساعدة أقربائه البائسين منهم والفقراء والمعوزين، قال تعالى: ﴿وأُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ [الأنفال: ٧٥]. وقال عليه الصلاة والسلام: «تعلموا من انسابكم ما تصلون به أرحامكم».

والتكافل الاجتماعي: أعم من الأول وهو قيام كل شخص بوظيفة وتأدية كل عمل من الأعمال الدنيوية، يستوي في ذلك الكبير والصغير والأمير والحقير والغني والفقير، فالملك يسوس البلاد بعدله والوزير يدبر شؤون المملكة بحزمه والمتشرع يسن القوانين واللوائح والمهندس ينظم والطبيب يعالج العلل والفلاح يفلح الأرض. وهكذا من أحقر

عامل لأكبر مخلوق تكون بينهما الحركة دائمة متواصلة والعمل مستمراً، ولا يخطر ببال أحد أن هناك عملاً حقيراً وآخر عظيماً فكل ما يؤدي إلى المجتمع فهو نافع لأعضائه، والكبير يترتب على الصغير، إذ المجتمع كجسم إنسان لا يقوم إلا إذا قام كل عضو بوظيفة خاصة به فالعامل البسيط قد يرشد أُمته إلى طريقة جديدة لإتقان أي عمل حقير صغير لا يقل في السعادة والمنفعة عن أعظم رجل أتى بما جعل شهرته تطبق الآفاق لأن كليهما قد أفاد بني نوعه، فسعداً لمن كانوا مفيدين لبني نوعهم فقد أدوا وظيفتهم في الوجود، فماتوا مرتاحي الضمير مطمئني الخاطر مكتسبين ثناء الجميع وعرفانهم بفضلهم، وسحقاً للمتقاعد الذي يعيش عالة على غيره، وما أكفره بالنعم لا يقاسم أبناء جلدته الأتعاب ولا يشاركهم في الأعمال، بل يكون كما قال الإمام علي: «كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد منها».

وبالجملة: إذا أراد الله بأمة خيراً ووفقهم إلى أعمالهم وتم فيهم التكافل تمت لهم بذلك السعادة وارتقوا إلى أسمى ذرا الكمال وبلغوا شأواً لم يبلغه غيرهم في كل آن، أما إذا اتكل كل على غيره وانتظر كل شيء من غيره ولم يعمل لغيره ما استطاع، انحطت مكانتهم وذهبت ريحهم ورموا بانفسهم إلى الهلاك، فإذاً الأمة تتبع في رقيها وانحطاطها مقدار ما تمهدها إليه نفوس أفرادها المكونين لها.

٦٨- الاستقلال، وأثره في نفوس الأمم والشعوب

الاستقلال كلمة غالية ولفظة عالية تهتز لها القلوب فرحاً وسروراً وتميل إليها الأعضاء شفقة وانعطافاً وتطأطئ لها الرؤوس خضوعاً وخشوعاً وتتقبلها الأفواه لثماً وتقبيلاً.

فسعادة الأمة متعلقة بعيشها في بلادها على الوجه الذي تريد وتختار، فلا تقهر على الخضوع لقوانين أجنبية أو على التخلق بعوائد غير وطنية.

والأمة المستقلة هي صاحبة السيادة التامة في بلادها وهي التي تتصرف بحرية في تدبير شؤونها وسن قوانينها، بل هي بيدها حظوظها وبيدها مستقبلها، فلا يسوغ لأجنبي التداخل في شؤون الأمة المستقلة بحال من الأحوال مهما قل عدد السكان فيها أو صغرت مساحة أراضيها، فالأصل إذاً في الأمور أن كل أُمة تستقل في شؤونها استقلالاً داخلياً، يشعر العامي في نفسه بذلك فيقول: (كل واحد أمير في محله)، ولكن من المحزن المؤلم أن نرى كثيراً من الأمم غير مستقل بأموره، تلك أُمم مرت بها ظروف والمت بها حوادث وأسباب أوقعتها في يد الأجنبي وتحت نيره وحملها سوء استبداده.

ومعلوم أن الأمم التي لا نراها اليوم في هذا العالم لم تكن على الدوام بالحالة التي هي عليها الآن، فمنها ما اتسع نطاقها ومنها ما ضاقت أملاكها ومنها ما تلاشى وانتهى أمره

فانقطع شأنه في التاريخ، بتتبع تلك التغيرات ترى الأمة تعمر وتتقدم ما دامت وطيدة الدعائم ما دام فيها الشعور متحداً والمبدأ واحداً، وان الأمة التي تنقرض وتتلاشى هي المتفرقة أفرادها الفاسدة آدابها، وأن تكون الأمم الحالية لم يكن على نسق واحد وعلى وتيرة واحدة، حيث أن بعضها حسن خلقه فكتبت له السعادة، وبعضها بنى على غير أساس متين فكتبت عليه الشقاوة والتعاسة. وإن أشد هذه الأمم عصبية وأطولهم دولة وأعزهم سلطاناً هي التي لا يقتصر في توطيد دعائمها على مصالح الأفراد العامة، بل على المشاعر والخواطر الواحدة، فإن الروابط القلبية العقلية أمتن وأبعد انفصاماً من الروابط المادية إذ يتجه بها حظ الأمة نحو السعادة نحو اليأس والمنفعة والشوكة.

وقصارى القول أن العالم في تغير وتحول متواصل في تقلب وتبدل مستمر، فإن الأمة تبدو صغيرة وتنشط عزائمها للعمل وتتحد مطالبها فيزداد بأسها وتعظم شوكتها وتصبح أُمة عظيمة معززة الجانب، ثم لا تلبث ان يدخلها الغرور ويملأها العجب فتهمل شؤونها ويطأ قدمها باب التنعم والرفاهية فتحيط بها ظلمات تكون بلاء وعناء لا تسلم من مرضه، بل ربما قضى عليها تلك سنة اللّه في الأرض يسميها الحكماء (قانون التاريخ) فما يحصل من التغيرات في قرن واحد ليس بالقليل - فليتيقظ من يقول: (كما مرَّ اليوم يمرُّ الغد - غدي كامسي) وليتعظ بان هناك تغيراً يقوم بالأمة في يوم كشروق الشمس وغروبها. وأنه قد تكون الدقيقة الواحدة سبباً لسعادة أو علة لشقائها.

وبالجملة: إنه لا يسوغ لامة ان تتصرف في أُمة أُخرى بما يخالف اختيارها وإرادتها، فالسيادة الداخلية للأمة محترمة لا يجوز التعدي عليها، اللهم إلا إذا سارت الأمة في طريق ممقوتة طريق تجعلها أبداً مهددة لراحة الأمم واطمئنانها فحينئذٍ يسوغ التداخل في شؤونها فيجوز إخضاع قبيلة وحشية تعيث فساداً في أرض جيرانها من قتل وحرب وسبي ونهب، وكذا إذا اعتادت أُمة السلب في البحار فللجميع الحق في ردعها لأنها تهدد البحر طريقهم العام، إلى غير ذلك مما يخل بالآداب واستتباب الأمن العام.

٦٩- ومعظم النار من مستصغر الشرر

يلزم العناية بصغير الأشياء قبل عظيمها وقبل أن يتسع الخرق على الراقع ويتسرب الإهمال فيصبح الشيء الصغير كبيراً يحتاج إلى عناية ومجهود لإخماده وإزالة ضرره. ورب حادثة صغيرة أثارت حرباً عواناً حمي وطيسها واشتد خطبها وزاد لهبها وطالت أيامها واستحصدت فيها الرؤوس وقصرت الآجال وأهلكت الحرث والنسل، وكان يمكن تدارك إطفائها وإخماد نارها بكلمة طيبة أو إجابة سؤال بالتي هي أحسن.

والأمة إذا أهملت صغار أُمورها تولد من ذلك كبارها واضمحلت وسار الفساد في

بنيها واختلفت كلمتها وانحطت شوكتها وطمع فيها أعداؤها، فالزارع إذا أهمل في سعيه أرضه أعوزته الحاجة وحصد محصولاً قليلاً جزاء تقصيره، والموظف إذا ترك عملاً ضئيلاً ولم ينجزه في وقته تمر عليه الأيام فتتراكم أعماله ويقع تحت مسؤولية التأخير وربما عجز عن تأديتها لكثرتها. وكذا المريض إذا أهمل في إبان سقمه ولم يعالج زاد ألمه وربما استعصى علاجه وبعد برؤه لأن الدواء يكون نفعه قريباً قبل استفحال الداء.

٧٠- الرياء وآثار ضرره في النفوس الكريمة

الرياء خصلة ذميمة تدعو إلى النفاق وسوء الأخلاق ورداءة التمويه والخداع، والمرائي الذي يخادع الناس ويداهنهم هو حقير عندهم أذل سيِّئ المعاملة كثير الخطأ كاذب القول لا يوثق به قبيح الفعال.

ثوبُ الرِّياءِ يشفُّ عما تحته ... فإذا التحفتَ به فإنَّك عاري

وكثير التملق وعابد الوثن مثلان في القبح والضلال وإساءة الأعمال، فإذا كان عابد الوثن يشرك بالله ويعبد من دونه عز وجل ما لا ينفعه ولا يضره كذلك الملاق المنافق يتخذ من الناس إلهاً يظهر له المحبة والنفاق مهما كلفه ذلك من إضاعة الأدب وفساد الأخلاق وسوء التربية والوشاية والغيبة والنميمة والأذى.

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ ... وإن خالَها تخفى على النَّاس تُعلَم

قال الأحنف: «لأن ابتلى بألف جموح لجوج أحب إليَّ من أن أبتلى بمتلون واحد». ذلك لأنه على باطل ومنطوٍ على الأذى، والحق أبلج (يتردد دون أن ينفذ) فينكشف عن ود كاذب وباطن فاسد وضمير سوء فهو صديق عين وعدو غيب.

والنفوس العالية التي تربت تربية حسنة تتنزه عن الرياء وتترفع عن الملق والمداجاة، قال ﷺ: «إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». وقال تعالى في ذم صاحب الرياء: ﴿همّاز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم﴾ [القلم: ١١-١٢].

٧١- أثر المحاباة والرشوة في المجتمع الإنساني

المحاباة خصلة ذميمة وسوس ينخر في عظام العمل وإتمامه على الوجه الأكمل والمحاباة ربما تقدم الجاهل على العالم والعاجز على القادر والكفء المستحق. والمحابي ضار لبلاده خائن لوطنه لأنه يفضل قريبه أو صاحبه أو من يقدم له رشوة على الأكفاء العاملين ويزف إليهم المناصب العالية والرتب السامية ولا يخشى رقيباً أو عقاباً حباً في الذهب والفضة وميلاً إلى اكتساب مودة الأقربين وإن اختل النظام واعتل العمل وتأخر

الوطن. والمحاباة تجلب البغضاء والشقاق في نفوس أبناء الأمة وتبعث على الجبن والكسل إذ يجد العامل المتقن والمجتهد المتفنن محاباة تؤخره وتضعه وتقدم من دونه في العمل والذكاء والمحاباة تجلب سوء العاقبة وتفسد النظام والقوانين، وهي من أخلاق السفلة الذين لا يخافون اللّه ورسله ولا يتقونه في أبناء الأمة المجدين الذين يعملون عملاً صالحاً متقناً بمهارتهم وثاقب فكرهم وعلو مداركهم وهي تجرُّ إلى الظلم وتدعو إلى الخيانة والمذمة وخلف الوعد والذل والاستكانة وتبعد الرئيس عن مرؤوسيه وتخلق الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق.

٧٢- الوقت نقد

حكمة جليلة ترشدنا إلى ان الوقت ثمين وغال يجب أن نحافظ عليه فلا يضيع في اللهو واللعب، بل في الجد والعمل وطلب العلا وإدراك المراد ونيل المطالب فالعاقل اللبيب من ينفق عمره في الصالحات الطيبات والعمل الخالد الذي يكسبه الذكر الحسن والصيت الشريف وإذا أسند إليه عمل قام به خير قيام وأتقنه وأدى واجبه ولم يهمل فيه ولا يؤخر لتحبه رؤساؤه وتحترمه أصدقاؤه.

دقاتُ قلبِ المرء قائلَةٌ لهُ　　　إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثـوانِ

لعمري إن الوقت نفيس، وانفس منه أن توجد فيه أعمال الخير وتكتسب العلوم والمعارف، وتحصل الإفادة والاستفادة وتنتشر التجارة لتربح ربحاً وافراً وترقى الصناعة وتؤلف المؤلفات وتخترع المخترعات وتنجز الأعمال ويتسابق العاملون في ميدان الفخر والعز والمجد، والمحافظة على الوقت من صفات الصداقة والأمانة والوفاء بالوعد وقوة الإرادة والعزيمة والحزم، لأن المهمل ضعيف النكاية وقليل العزم يضر نفسه وغيره بإهماله وكسله، ويذهب وقته بلا فائدة وتحط منزلته عند رؤسائه وتكرهه أتباعه وتعده الناس مخاتلاً جباناً خبيث النفس كسلان وعيشه نكد لا رغد فتراه دائماً في شقاء وبؤس، أما من يحافظ على وقته فنشيط وسعيد وفرح وعيشته راضية.

٧٣- مقارنة بين أيام السلم والحرب

أيام السلم رخاء وسعادة ويمن ويسر وعمل وكد واختراع وجد وتجارة وصناعة وزراعة، ويذهب العامل إلى مقر وظيفته ومعهده وحانوته قرير العين منشرح الصدر ساعياً على معاشه وتحسين حاله وجلب قوته وأداء واجبه. وأما أيام الحرب فشقاء وبؤس وعناء ودماء مسفوكة وأموال ضائعة وأعمال معطلة وثمرات قليلة وتجارة كاسدة وصناعة واقفة وفاسدة وتدمير وتخريب وضنك وفقر ونيران تتأجج ومدافع تدك الحصون وطيارات ترمي

شظايا النار ورصاصات تخترق الصدور وسوائل محرقة وقذائف مخربة وغواصات ونسافات وطرادات وحراقات وبارجات. فالحرب توقع العالم في عسر وضيق وتسبب التعذيب والتنكيل والأسر، لم يسلم من ضررها أحد، وتجلب غلاء الحاجيات وتزيد سعرها أضعافاً مضاعفة وتصرف الناس عن أعمالهم الخيرية إلى قتال بعضهم وتدمير بيوتهم وحرق مصانعهم إلى غير ذلك من المصائب، وقد قال ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية».

٧٤- من لم ينظر في العواقب فليس الدهر له بصاحب

الحازم من نظر في العواقب وتأنى في عمله وفعل بروية وتؤدة وفكر في خواتيم أعمال وعرف المورد والمصدر وعجم عيدان العمل قبل الإقدام عليه والدخول فيه ليأمن المكروه ويضمن النجاة ويقرب من الرشاد وينطق بالحكمة والحق.

وأحزمُ النَّاسِ منْ لو ماتَ من ظمأ لا يقربُ الوردَ حتى يعرفَ الصدرا

ويقولون: «من تأنى نال ما تمنى» لأن الأناة من صفات الكمال وضرب من ضروب رجاحة العقل وحسن التدبير وعلو الآداب وسمو التربية. والقائد الحازم المدبر من يفكر في أمره قبل اقتحامه ويعرف عواقبه قبل اجتيازه ويلتمس طريق النجاة قبل النزال ومقارعة الأبطال، والأمم الراقية دأبها التاني في أعمالها ليعز شأنها ويعظم سلطانها وتقوى حكومتها وتعيش آمنة سالمة من أذى جيرانها سديدة الرأي، والأمة الطائشة يغلط لسانها ويزل جنانها، فلا تحكم الرأي فتنتابها الحوادث ويطمع فيها العدو، والقائد العجل يقتحم غمار الحروب بلا تفكير وتؤدة، ولا يفكر في عواقب إقدامه، ولا يعلم مكامن عدوه وعدته وحصونه فيهزمه عدوه ويصبح أحمق مخذولاً مدحوراً مهما كانت قوته.

٧٥- النظام والترتيب يتوقف عليهما العمران

من أراد أن يكون عمله متقناً فليكن النظام رائده، لأنه يدل على كمال العقل وترتيب الفكر وحسن الرأي وجودة العمل ووراءه الخير واليمن والسعادة وبه تنجز الأعمال، وهو يكون في العمل والمأكل والمشرب والملابس والمنازل والمصانع والمعاهد، فمن ينظم ملابسه يحترمه رؤساؤه وترضى عنه أصدقاؤه، ويكون موسوماً بحسن الخلال وكرم الفعال ومن نظم أكله سلم من جميع الأمراض وبعد عن العلل، ألا ترى أن النفس ترتاح للبيت المنظم أثاثه، وتتقدم المعاهد التي يرفرف عليها شارات النظام وحسن الترتيب، وتروج التجارة وتنشر الصناعة في الحانوت المنظم وكل موظف يرتب أعماله ويحسن أفعاله ويجيد ما أسند إليه ويقوم به خير قيام ساد وارتقى وأحبه الناس وبلغ منزلة عالية. فللنظام دلائل حسية على بلوغ الكمال لمن تحلى به، ومن سار بغير نظام هوى كوكبه

وأفل نجم عمله، وانحط قدره وضاع زمنه بلا ثمرة تجنى وظل عرضة للهزء والسخرية وباء بالخيبة وتحوطه المخاوف وتساوره الهموم لأن فكره معتل وفعله مختل.

فالنظام جميل وأجمل منه أن ترى آثاره بادية تتجلى للناظرين بترتيب أنيق رشيق يبسط النفس ويجلب الأنس.

٧٦- وصف الكتاب

الكتاب نعم الأنيس في الوحدة، والرفيق في الخلوة يمتعك بجميل مواعظه ويهديك بجليل فوائده، ويرشدك إلى طريق الخير ومسالك البر ويبين لك الضار من النافع ويشرح لك أحاديث السالفين وقصص الأولين تستعيد به العصور الماضية والأيام الخالية، وتبعث به رفات الماضين وأجساد الغابرين فتجعل منهم رجالاً يخطبون ويعظون ومرشدين ينطقون بلآلئ الحكم وبديع الكلم وكأنما انت بجانبهم تسمع وترى.

ما تطعمتُ لـذَّةَ العيشِ حتى　　　سرتُ في وحدَتي لكتبي جَليسا

ادخل مكتبك ترَ أصدقاء قد تباينت أعمارهم، وتقادم عهدهم وتبلبلت ألسنتهم العربي منهم إلى جانب العجمي، والرومي بجوار الهندي إن دعوتهم أجابوك وإن أقصيتهم لم يعادوك، تخاطب من تشاء فلا يأبى عليك حديثك ولا تأخذه العزة في مخاطبتك لا يخفي عنك آراءه الثاقبة وأفكاره السامية، ثم أنت لا تتكلف لهؤلاء الأصدقاء إلا حجرة يأوون إليها أو قمطراً يستترون به، فهم في ضيافتك إلى ما تشاء، ترجع إليهم فيما ينوبك وتسترشد بهم في خطوبك.

اجعلْ أنيسَكَ دفتراً فـي نشره　　　للميتِ من حكمِ العلومِ نشورُ
فكتابُ علمٍ للأديب مؤانسٌ　　　ومــؤدِّبٌ ومبشـرٌ ونـذيـــرُ
ومعيدُ آدابٍ ومؤنسُ وحشةٍ　　　وإذا انفردتَ فصاحبٌ وسميرُ

وصفوة القول أن الكتاب معلم ماهر وطبيب بارع وصديق ناصح لا يريد منك جزاء، ولا يكلفك شكراً مع غزير مادته وبالغ حكمته وناجع نصيحته.

أشرُّ مكانٍ في الدنا سرجُ سابحٍ　　　وخيرُ جليسٍ فـي الزّمانِ كتابُ

فتخير الكتاب كما تتخير الصديق فهو قوام أدبك وعماد فضلك وملاك أمرك.

في طيِّه غررُ الآداب قد نُقشَتْ　　　وفـي صحائفه للكون أسـرار
أوفى منَ النَّاسِ عهداً في صحابتهِ　　　نعمَ الرفيقُ على الأيام والجـار
ولـي جُلساءٌ ما أملُّ حديثَهم　　　الباء مامونون غيباً ومشـــهدا

إذا ما اجتمعنا كان حُسْنُ حديثِهم   معيناً على دفعِ الهمومِ مؤيدا
يفيدونني من علمهم علم ما مضى   وعقلاً وتأديباً ورأياً مسددا
فلا رقبة أخشى ولا سوءَ عشرةٍ   ولا أتقي منهم لساناً ولا يدا
فإن قلتَ أحياءٌ فلست بكاذبٍ   وإن قلت أمواتٌ فلست مفندا

٧٧- ما هي الصفات التي تحب أن يتصف بها صديقك

الإنسان في حاجة إلى أصدقاء يعينونه في شدته ويشاطرونه السرور في رخائه، وكلما ازداد عدد أصدقائه أحسَّ بسعادة في الحياة وراحة في النفس.

عاشرْ أخا ثقةٍ تحظَى بصحبته   فالطبعُ مكتَسَبٌ من كلِّ مصحوب
كالرِّيحِ عاصفةً مما تمرُّ بهَ   نتناً من النتن وطيباناً من الطيب

فالأصدقاء هم الأعوان في النائبات والعدة في الملمات، وأولى الناس بالغبطة من عمر ربعه بإخوان الصفا وخلان الوفاء.

ولس كل الناس ممن توفرت فيهم الفضائل وتمكنت في نفوسهم المروءة. فلا بدَّ لمن يتخير منهم الأصدقاء أن ينقدهم نقد الدراهم ويبلوهم في الشدائد فإنها مسبار الرجال، وأن يميز بين وضيعهم وشريفهم، فمن عُرف بين الناس بالمروءة والوفاء والشرف وصدق العهد وكرم الجار فهو الجدير بأن يتخذ صديقاً ويصطفي خليلاً.

إذا كنتَ في قومٍ فصاحبْ خيارَهُمْ   ولا تصحبِ الأردَى فتردى مع الردي

أما من يعرف صاحبه في الرخاء وينكره في الشدائد، فذاك الذي يخدع الناس بظاهر خلاّب ولسان عذب، ولكنه يخفي وراء ظاهره باطناً مظلماً وضميراً خرباً لا تستقر في جوانبه مودة ولا تطمئن إلى البقاء فيه صداقة. ولقد أحسن القائل:

جزى اللّهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ   عرفتُ بها عدوي من صديقي

إن الصديق الحق والأخ الوفي هو من يواسي في الشدة وينفع في الملمات ويسر لسرور صديقه ويحزن لحزنه، وهو كما قال الشاعر:

إن أخاكَ الحقَّ من كانَ معَك   ومن يضرُّ نفسَهُ لينفعَكْ
ومن إذا ريبُ الزّمانِ صدعَك   شتَّتَ شملَ نفسهِ ليجمعَكْ

٧٨- سرك أسيرك

السر هو الخبر الذي تستودعه عند صاحبك وتدخره عند صديقك فأحرر به أن يحله من نفسه مكاناً حصيناً، وأن يحتفظ به فلا تحدثه نفسه يوماً ما بإذاعته ليكون حفيظاً أميناً.

إن إفشاء السر خيانة كبرى وجريمة لا تغتفر فإنه قد يكون سبباً في وقوع مودعه في المخاطر ومهاوي الشقاء، وتكون أنت الذي جنيت عليه بخيانتك وإذاعتك لسره بعد أن لجأ إليك وجعل سره بين يديك ووكل أمره إلى إخلاصك المعهود.

اتحب ان تناجي غيرك بما في نفسك وتطلعه على نواياك وتستودعه خباياك، فلا يلبث أن يبدد أسرارك ويذيع أخبارك وينشر أفكارك، فلا تجد محيصاً من الوقوع في المهالك والشقاء وركوب الصعاب.

كلا، ثم كلا، فكيف بك تكون منزلتك منزلة اللص، بل أسوأ حالاً منه فإنه يختلس المال، وأنت تختلس أسرار الرجال، فكن لإخوانك كما قال الشاعر العربي:

يظلّون شتّى في البلادِ وسرُّهم　　إلى صخرةٍ أعيا الرجال انصداعها

٧٩- الفقير الصابر والغني الشاكر

الفقر سجن النفوس الكريمة ومثبط الهمم العالية وهو مجلبة الذل وقرين الهم وموت الحي وأدوأ الأدواء، يترك العزيز ذليلاً والصحيح سقيماً ويجعل الحياة الدنيا سلسلة شقاء وقرارة أكدار، ولقد كاد الفقر أن يكون كفراً.

الفقر أثقل أحمال الحياة وأمر أوصابها وأشق خطوبها قد ابتلي به قوم فوهنت بحمله عزائمهم وضعفت عن الصبر عليه نفوسهم فراحوا إلى الشكوى ولبثوا ثياب الذلة والمسكنة وأراقوا ماء وجوههم في الاستجداء والسؤال، وتعرضوا لذوي المعروف يبسطون أيديهم في ضعة ويطلقون السنتهم في مسكنة وهؤلاء قد جمعوا إلى ذل الفقر مهانة الاستجداء.

وابتلي به آخرون فاعتصموا بالصبر وتمسكوا بعروة العفاف الذي هو زينة الفقر ولبسوا ثوب التجمل، وعلموا أن الحياة وإن طالت إلى نفاد، فبسطوا إلى اللّه وحده يد الضراعة وكفوا أيديهم عما في أيدي الناس، فلم يدعوا في عنقهم قلادة منة لمخلوق فهم أعزة على الناس بغنى نفوسهم وقناعة قلوبهم ورضاهم بما قسم اللّه لهم يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، قد زانتهم العفة وهي زينة الفقراء وأغنتهم القناعة وهي كنز المقلين.

ومن الناس من هم أسعد من أولئك حظاً وأوفر في الحياة غنماً، قد بسط لهم اللّه الرزق وآتاهم من نعمه وفضله مالاً وافراً وأمدهم بالخير، فهم من النعمة في ثوب سابغ وعز ظاهر، ثم جعل من هؤلاء الشاكر على ما آتاه من فضله المحدث بنعمة ربه الباسط يده للخير المتوج غناه بتاج الشكر، المجملة بجمال البذل وحلية السخاء، يرى أن خير المال ما أكسب حمداً وأورث ذكراً وأعلى قدراً وأيسر عسراً، ثم كان منهم من جمع ماله وعدده، وردّ نفسه عبد الدينار والدرهم، فما يزيده الغنى إلا فقراً ولا يكسبه اليسر إلا عسراً

فهو على وفرة ماله في فقر دائم وذل مقيم، لم يصل بالعفة إلى منازل الفقراء الصابرين، ولا بالثروة إلى مراتب الأغنياء المحسنين.

ومَنْ ينفقُ الساعاتِ في جمعِ مالهِ مخافة فقرٍ فالـذي فعـلَ الفقـر

من الناس من وهنت عزائمهم وصغرت نفوسهم وحببت إليهم الحياة في أي صورة من صورها، لا يبالون بما يمس كرامتهم أو يثلم شرفهم، همهم أن يبيتوا في مساكنهم ملء عيونهم، وإن بعدت الكرامة عن مضاجعهم وقرت المذلة بين جنوبهم، وسامهم الناس الخسف وسوء العذاب، تراهم لا يذودون عن حوضهم ولا يدفعون في صدور أعدائهم مهما مسهم من هوان ولحقهم من صغار.

أولئك قوم منعهم الخوف وغشي على أبصارهم الجبن، فلم تدفعهم نخوة إلى حوط كرامتهم وصون عزتهم ممن نالها بسوء خشية أن ينالهم في سبيل دفاعهم ذل جديد أو عناء طارئ فيرضون بالمهانة حتى لا تتلوها مهانة، وبالذلة حتى لا تلحقها أُخرى، عندئذٍ تنتهك الناس حرماتهم ويستضعفونهم ويستلينون عودهم ويعرفون أنهم من الخوف والذل في رهبة دائمة واستكانة لا تبرح فتتواتر عليهم المهانة وتذهب ريح شرفهم ولا يجدون من أنفسهم لأنفسهم نصيراً. ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وهانوا فما ترى فيهم نخوة ولا تحس لهم ركزاً.

من يهُن يسهلِ الهوانُ عليهِ مـا لجـرحٍ بميِّتٍ إيـلامُ

ولو أنهم غضبوا لحرمتهم وتمسكوا بكرامتهم وعلموا أن الحياة في ذل خير منها الموت في شرف وكرامة، وعرف لهم الناس هذه النفس العالية والعزة الأبية لما وردوا حوضهم واعتدوا على كرامتهم، وإذاً لعاشوا في عز دائم ونعيم مقيم، ولقد أحسن زهير إذ يقول:

ومن لمْ يذُدْ عن حوضهِ بسلاحهِ يهدمْ ومن لم يظلمِ النَّاس يُظلمِ

ومن الناس من أسبغ اللّه عليه نعمه وأولاه من فضله فغلَّ يده إلى عنقه وأمسك نعم اللّه ولم يمتع بها نفسه وآله ولم يبتغ فيها سعادة عاجلة ومثوبة آجلة، إذا دعي إلى مكرمة أعرض ونأى بجانبه، وإذا رأى موضع عرف أعمى عنه بصره وصرف عن الرغبة فيه نفسه يضن بالخير على نفسه خشية الإملاق فهو عبد الدينار والدرهم، كل همه أن يمتع بهما نظره وقد يحرمه من ذلك ضناً بما أكنه من دينار وصانه من درهم أن تقع عليه الأبصار وترمقه الأنظار تكاد نفسه تذوب أذى وحسرة لدرهم ينفد ودينار ينقد، فما أشقاه بماله وما أفقره بغناه.

فاعجب به من غني فقير وثري حقير يتمنى له الموت من يجمل به أن يطلب له الحياة ومن ولد محروم وأخ معدم، وهو من نعمة اللّه فيما لو شاء لجعل حياته وحياة آله

عيشاً رغيداً ونعيماً مقيماً، ولكن نفسه الفقيرة الضنينة تركته يتقلب في فراش الفقر ومهاد الذل، فما أشقى الرجال بعبادة الأموال.

٨٠- كفاءة الإنسان تقاس بما ينجزه من جلائل الأعمال

لا زينةُ المرءِ تُعليه ولا المالُ ... ولا يشـرِّفه عمٌّ ولا خالُ
وإنّما يتسَامى للعُلى رجـلٌ ... ماضي العزيمةِ لا تثنيه أهوالُ

جدير بالإنسان وقد سخر اللّه له ما في هذا العالم ومكّن له في الأرض وجعله سيد مخلوقاته وفطره على أفضل صورة وأحسن تقويم ومنحه عقلاً مرشداً ونفساً تواقة، أن يفسح لنفسه مجال الأمل ويوسع سبيل العمل وأن يعلو بهمته إلى حيث يراجع النجُوم ويطاول الغيوم، فإن الهمة أبعد منها مرتقى وأرفع أفقاً أجل، حقيق به أن يطلب المجد وأن يجري مع همته إلى أبعد مدى وأسمى غاية وألا تثنيه عقبة تعترضه أو مشقة تلحقه، عن درك أمنيته ونيل بغيته.

ومن تكنِ العلياءُ همَّة نفسهِ ... فكلُّ الذي يلقاهُ فيـه محبَّبُ

إن العظيم لا تزيده المشقات إلا مضياً في سبيله وإقداماً في طريقه يتخطاها بعزيمة صادقة وهمة فائقة لا يركن إلى الراحة ولا يأنس بالدعة.

ذلك طريق المجد ومجال العظمة لمن شاء أن يكون عظيماً. قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي اللّه عنه: «لا تصغرن همتك فإني لم أرَ أقعد بالرجل من سقوط همته». وقال الشاعر:

حاولْ جسيمات الأمورِ ولا تقـلْ ... إنَّ المحامـدَ والعُــلا أرزاقُ
وارغبْ بنفسكَ أن تكون مقصِّراً ... عن غايةٍ فيها الطلاب سـباقُ

فمن أراد أن ينال مراتب الكمال ويبلغ ما بلغه أولئك العظماء ذوو النفوس العالية من العلماء الأجلاء والصناع الحاذقين وذوي الثراء الوافر والأقدار السامية فليدفع بنفسه إلى مواطن الجد ومسالك العمل، وليصبر على ما يمسه من عناء أو يناله من نصب، فما أدرك نعيم إلا ببؤس ولا نيل عظيم إلا بجسيم، والمكارم موصولة بالمكاره.

فقلْ لمرجي معالي الأمور ... بغير اجتهادٍ رجوتَ المُحَالا

قال يزيد بن المهلب: «ما يسرني أني كفيت أمر الدنيا لئلا أتعود العجز». وقال الأحنف بن قيس: «إياك والكسل والضجر فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً وإن ضجرت لم تصبر على حق».

لا تضجرَنَّ ولا تدخلك معجزة فالنجحُ يهلكُ بين العجزِ والضَّجرِ

وإذا نحن نظرنا إلى العظماء الذين سجل التاريخ أسماءهم وأبقى ذكرهم مخلداً وجدنا أنهم أضنوا أجسامهم وأفنوا أعمارهم في طلب المجد واقتحموا الأخطار وجابوا الأقطار ورافق حظهم جدهم وأضاءت لهم هممهم مناهجهم فبلغوا الغاية وأدركوا المنى، فمن اقتفى أثرهم أوشك أن يلحقهم، وكل من سار على الدرب وصل.

وأما من خاف المتاعب وتهيبها وزينت له نفسه الرضا بما هو فيه، فليس خليقاً بالمجد ولا جديراً بالشرف، يعيش خامل الذكر ساقط المنزلة.

إذا لم يكنْ للفتى همَّةٌ تبوِّئُهُ فـي العُـلا مقعَـدا
ونفس يعودها المكرمات والمـرءُ يلـزمُ مـا عـوّدا
ولم تعـدْ همَّته نفســهُ فليس ينالُ بهـا السؤددا

٨١ – أكثر من الإخوان فإنك على العدو قادر

الإنسان في أشد الحاجة إلى أصدقاء يشدون أزره حتى يطيب له في هذه الحياة الدنيا مقامه ويعيش عيشة راضية لا تؤلمه الوحدة ولا تكدر صفوه العزلة.

وهو لذلك في حاجة إلى جانب لين ورأي جزل وبصيرة نافذة بأخلاق الناس ليتعرف ما يسرهم فيتقرب به إليهم ويسعى في بذر صالح الكلم وحميد الفعل في قلوبهم، ويتعهده بالمودة والبشاشة حتى تعظم منزلته في نفوسهم، ويكون فيهم كالأخ الشفيق محبة وعطفاً. وقد قيل: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق».

فمن عجز عن ذلك كان عجزه دليلاً على ضعف إرادته وعدم خبرته وتقصيره عن مدى كثير ممن أصابوا كنوز الصداقة بجدهم ووفائهم وصائب رأيهم ومخالطتهم لبني جنسهم.

وأعجز من هذا من فرط في جنب صديقه فلم يرع وده ولم يحفظ صحبته، بل أعرض عنه ونأى بجانبه فغرب نجم صحبته وأفل كوكب سعادته.

وإنما مثل هذا كمثل رجل أصاب كنزاً نفيساً، فلم يلبث أن بدده، فلما أضناه الفقر أخذ يقلب كفيه على تفريطه ويندم حين لا ينفع الندم.

ألا ســامحْ أخــاكَ إذا تعـدَّى وألق إليهِ في الحرب السِّلاحا
فمن يعتبْ على الإخوان يتعب ومن لزم المسامحةَ استراحا

فعلى العاقل أن يسعى في اكتساب الأصدقاء والإخوان، وأن لا يفرط فيمن ظفر به منهم ليحلو له مرّ العيش ويهنأه طعم الحياة.

فما بكثيرٍ الفُ خلٍّ وصاحبٍ وإنَّ عـدواً واحـداً لكثيرُ

٨٢- المروءة راية الهمم العالية

إذا المرءُ أعيتهُ المروءةُ ناشئاً فمطلبُها كهْلاً عليـه شـديدُ

المروءة كلمة تجمع خصال الخير وتدل على الفضل والشرف وهي مطلب النفوس الكريمة وراية الهمم العالية لا تنال عفواً ولا تدرك من كثب فهي غاية محفوفة بالمكاره وأمنية وعثة الطريق، لا بدَّ لطالبها من عزيمة صادقة ونفس طموحة وهمة مواتية.

ولا شيء يعين على نيلها كالشباب إذا اقترن به الحزم وكالفتوة إذا صحبها صدق العزم فالشاب بفطرته طموح إلى العلا واسع المنى عظيم الأمل في حياة سعيدة وعيش رغيد تحفزه همته إلى المجد وتسوقه إلى المنى، فيجد من قوة الشباب دافعاً ومن صدق العزيمة مساعداً، كلما أمسك من المكارم بطرف تجدد نشاطه وعظم أمله، فلا يزال يجمع أطراف المكارم ويجدد عظيم المغانم لا تفتر همته ولا تكل عزيمته حتى يدرك الغاية وينال المنية، وهو في كل ذلك يستعذب مرارة الألم غير هيَّاب ولا وجل حتى تنسيه حلاوة الظفر مرارة الطلب.

فأما من أدركه الكبر فوهن عظمه وتضاءلت قوته وركنت إلى الخمول، فقلما يدرك من المروءة غاية أو ينال من المعالي سبباً، وأين له قدرة الشباب وعزيمة الفتيان وفي جسمه وهن وفي عزمه خور.

إنه لبعيد أن يستطيع سبيلاً إلى بلوغ المجد ودرك المروءة بعد أن نضب معين شبابه وذوت زهرة صباه.

٨٣- ومن لم يذُقْ ذُلَّ التعلُّمِ ساعةً تجرَّعَ كأسَ الجهلِ طولَ حياتهِ

العلم غاية يسعى إليه العقلاء ويبذلون في سبيل تحصيلها نفائس الأموال وزهرة الشباب ويسهرون الليالي الطوال منكبين على الدرس لا همّ لهم إلا الأخذ منه بنصيب وافر يحسبون السعادة كلها في تكميل نفوسهم وترقية مداركهم وإنبات عقولهم نباتاً حسناً، وكثيراً ما يلاقون الأخطار ويتحملون تعب الأسفار في سبيل طلبه والاستزادة منه، ويخضعون لمن تولى تعليمهم خضوع الابن البار لوالده الرحيم، فلا تأخذهم العزة إذا أمروا ولا الحمية إن أهينوا، فكل ذلك هين ما دامت الغاية شريفة والنتيجة سارة.

العلم كلمة تزين صاحبها وتجمل المتصف بها، فهي حلية الإنسان التي يتصف بها بين الناس، وكنزه الذي يربو على الإنفاق ومكانته التي يسامي بها النظراء ويفاخر الأقران

ويسمو بها إلى منازل الأشراف ومراتب الملوك والأمراء، فطالما رفع العلم وضيعاً في نسبه وأغناه أدبه عن حسبه، فلا عجب إذا أكبرت العيون صاحبه إجلالاً وعظمته القلوب رفعة وكمالاً، فقليل ما يبذل في سبيله وما يحتمل في تحصيله فذل طلبه عز وعناء نيله راحة.

والمرءُ ينزعُ منه كلّ ولاية　　　إلا ولايةَ علمهِ لا تنـزعُ

وقد تنحط همة الطالب وتتلاشى عزيمته عن تحمل تلك الصعاب والصبر على ذل الدرس حتى إذا شب جاهلاً اقتحمته الأنظار واستخفت به القلوب، وأنكره عظماء النفوس وتجرع مرارة الجهل وذل الضعة ما دام حياً، وتمنى إن كان صغيراً فبدأ حياته بالعلم ويصطبر على مضض الدرس ويندم على ما فرط في صباه وشبابه يوم لا ينفع الندم ولا تغنيه عما هو فيه من الحسرة.

(وبعد) فإن العز كله في ذل الدرس، والراحة كل الراحة في تعب العلم، والحياة الحقة إنما هي حياة ذوي الألباب! فالعاقل من سلك سبيل الجد، ووطّن نفسه على احتمال المشقات في سبيل إدراك الغايات.

لا يدركُ المجدَ من لمْ يركبِ الخطَرا　　　ولا ينالُ العُلا مَنْ قَدم الحـذرا
ومـن أراد العُـلا عفـواً بـلا تعـبٍ　　　قضى ولم يقضِ من إدراكها وطرا

٨٤- القدوة الحسنة والمثل الأعلى

إذا أعْجَبتْـك خصـالُ امـرئٍ　　　فكنه يكنْ منكَ ما يعجبـك
فليسَ على المجدِ والمكرماتِ　　　إذا جئتهـا حاجـبٌ يحجبك

من الناس من ظهرت فضائلهم وملت خصالهم وتجلت فيهم شيم حميدة وأخلاق طاهرة، فإذا رأيتهم أعجبك فيهم أدب ظاهر وصدق وافر ومروءة بالغة ومنزلة سامية تغبطهم عليها وتود أن تجد في نفسك مثل أخلاقهم وتحلي صدرك بزينة كمالهم.

وليس بعزيز عليك إذا صدق عزمك وصحت إرادتك أن تبلغ ما بلغوا وتدرك ما أدركوا وتعلو كما علوا منزلة وقدراً وسماحة وفضلاً، فادأب في تقليدهم وألزم نفسك مناهجهم وتخلق بصفاتهم الحميدة تعجبك أخلاقك وتحسن في رأيك ورأي غيرك نفسك.

ولا تحسبن المكارم مقصورة على أفراد من الناس لا تتجاوزهم إلى غيرهم، فإن اللّه تعالى قد جعلها سهماً شائعاً وغرضاً منصوباً لكل طالب، فمن أمَّها وسلك سبيلها، فهو لا ريب مدرك أمله ونائل غرضه، فما اتخذت الفضائل حجاباً ولا منعت طلاباً والسعيد من جعل المجد غايته والشرف حليته، فنعم زينة الرجال كرائم الخلال.

٨٥- نعم المؤدّب الدهر

من الأبناء من يشب بين أبوين تحملهما الشفقة عليه والمبالغة في تمهيد أسباب الراحة له على غفران ذنوبه وتهوين سيئاته والتسامح في زلاته يظنان ذلك رأفة وعطفاً ومحبة وكرماً، فيشب الابن وقد ألفت نفسه عادات ممقوتة وأخلاقاً مذمومة تتأصل في نفسه وتخالط لحمه ودمه، فتكون طبعاً لا يغلب وفطرة لا تقاوم.

ولا يزال مغموراً في عطف أبويه يدفع بهما المكروه، ويرد بوادي الدهر حتى إذا ما فقدهما أو فارقهما بدأت يد الدهر تعبث به وحوادث الأيام تعدو عليه ولا نصير له من فضيلة خالصة أو عزيمة صادقة أو إرادة متمكنة فيصير ألعوبة في كف الحوادث وريشة في مهب الأخطار وفريسة للأقدار، لا ملجأ ولا وزر يستدفع به الخطوب ويرد نوب الكروب، كذلك يغالب الأيام وتغالبه ويجالد الحوادث وتجالده.

وَمَنْ غالـبَ الأيامَ لانَ مريـرهُ ... وأسلمهُ طول المراسِ إلى الوهنِ

ثم لا يزال الدهر يردعه بزواجر الخطوب، ومؤلم الحادثات حتى يرده مكرهاً إلى رشده ويدفعه إلى هداه ويبعده عن غوايته ويصده عن هواه، والدهر أعظم مرب وأوعظ مرشد، من عصاه أوقع به ومن خالفه مسه بسوئه لا يلين قلبه ولا يشفق لبه فهو أبو العبر وحامل راية القضاء والقدر، ومن لم يؤدبه والده أدبه الليل والنهار.

ومنْ لمْ يصانعْ فـي أمـورٍ كثيرةٍ ... يضرَّس بانيابٍ ويُوطا بمنْسَم

فطر الناس على حب أنفسهم والذود عن مصالحهم والدفاع عن آرائهم، فهم لذلك يمقتون من خالفهم ويجاهرون بالعدوان من نال منهم في رأي أو منفعة، فطرة اللّه التي فطر الناس عليها ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً.

فجدير بمن شاء أن يكسب مودتهم ويستميل قلوبهم إليه ويدفع أذاهم عنه أن يحتال في معاملتهم ويسلك سبل مودتهم، فلا يجاهرهم بخلاف ولا يباينهم بعزلة، بل يعاملهم بالتي هي أحسن، ويدفع السيئة بالحسنة ويغفر الذلة ويتجاوز عن الهفوة، فعندئذ ترى القلوب له وامقة، والعيون إليه طامحة والنفوس في صداقته راغبة فيسلم من الأذى ويعيش عيشاً رغداً.

فاما ذلك الذي يأبى إلا جماحاً ولا يبالي أساء أم أحسن، فإنه لخليق بصريح العداوة جدير بالاحتقار والامتهان. إن زل زلة لم تغفر وإن كبا كبوة لم ينجح من عثاره ولم يسلم من أذى أعدائه وأنصاره تسلقه ألسنة حداد وتحتقره نفوس العباد، لا يجد خلاً يدانيه ولا رفيقاً ينتشله مما وقع فيه.

وقصارى القول: إن مداراة الناس ومصانعتهم وسيلة للراحة لا تطلب بدونهما ولا تدنو بغيرهما، وقد قيل:

من سالمَ الناسَ يسلمْ من غَوائلهمْ		وعاشَ وهوَ قريرُ العينِ جذلان

٨٦- ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

يشعر المرء أحياناً بسعادة نفسه وصفاء قلبه كما يشعر بصحة بدنه وتمام قوته ويحس آونة بضعف يعتري نفسه وملل يتردد في جوانب قلبه، وقد يكون مع ذلك في صحة من جسمه وقوة من بدنه، ولو أنه أحس في جسمه الضعف، وأدرك في قوته الوهن لوجد من الدواء شافياً ومن الطبيب آسياً، ولكن الأطباء يصلحون الأبدان ويشفون بدوائهم مستعصي أمراض الأجسام، ولم نجد للأرواح مداوياً نصب نفسه لشفائها، وأعمل طبه في استئصال أدوائها، فإن الأرواح أعز وأسمى من أن تنزل عن أوج عظمتها إلى متناول الأدوية والعقاقير أو تترك لنطس الأطباء تدبيرها والنظر في إصلاح أمرها.

إن الأرواح وهي من العالم السماوي وهي سلطان الأجسام ومدبرة العقول وهي الصلة بين الإنسان وخالقه، والنعمة الإلهية التي دونها كل نعمة لأرفع قدراً وأعظم خطراً، من أن تدين لهذا العالم الأرضي فتنزل على رأي أطبائه وتدبير دوائه، إن لها لطباً خليقاً بها لا يعتوره خلط ولا مزج ولا تؤثر فيه حرارة ولا برودة، إن لها لدواء لا يخطئ موقع دائها ولا يعجز عن شفائها ذلك (الحكمة البالغة) والموعظة الحسنة تذهب عن الروح أسقامها وتتقي آلامها وتأسو جراحها وتعود إليها نضرتها وسرورها.

كم من روح سقيمة ونفس مهمومة، وجدت في ثنايا الحكمة شفاء لسقامها ودواء لآلامها، وكم من نفس كادت تذهب حسرة وتفيض أسى وحزناً سكنت لموعظة واعظ وإرشاد مؤدب، وكم من نفس كادت تجمح بصاحبها فتورده موارد الهلكة قد استحكم اليأس في جوفها وتمكن الزيغ من أركانها، عادت بالحكمة إلى مستقر الرضا، وبالنصح إلى روضة الصواب فسعدت بعد شقاء ونعمت بعد عناء.

وكم من روح صدئت بالهموم فأذهب الوعظ همها وجلا صدأها وأعادها نقية لامعة تسر للألم كما تسر بالنعيم، وترى في كل كريهة واعظاً وفي كل نعمة مسعداً تحمد اللّه في الضراء وتشكره في السراء، وتلك هي النفس الكريمة الراضية ربيبة الوعظ وصنيعة الحكمة ومستقر السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

إنَّ في الحكمةِ البليغةِ للرو		حِ غذاءً كالطبِّ للأجسادِ

٨٧- جمعية الإسعاف وأثرها في تخفيف الآلام

تأسست بمصر هذه الجمعية النافعة من جماعة عرفوا معنى الشفقة، وأدركوا واجب المروءة والإنسانية وآمنوا بحق الإنسان على أخيهِ الإنسان.

أسسوا هذه الجمعية بعد أن رأوا تعدد الحوادث وتنوع المخاوف التي تعرّض لها الناس من جراء المدنية الحديثة ذات السيارات المنتشرة والمراكب الكهربائية والعقاقير السامة وغير ذلك مما ترك الناس عرضة لحوادث شتى لم يكونوا معرضين لها من قبل.

وها نحن أولاء نرى أو نسمع كل يوم خطوباً مختلفة وحادثات مؤلمة تصيب بعض الآمنين في غدوهم ورواحهم، فهذا سقط من مركب، وهذا مرت عليه سيارة وآخر أدركه الإغماء، وذلك عامل سقط خلال عمله أو صانع أصيب بعدد صناعته، فلا يلبث ذلك المصاب إلا قليلاً حتى ترى رجال الإسعاف في مراكبهم قد أقبلوا مسرعين لنجدته وتخفيف آلامه يحملونه بأيدٍ قرّت في راحاتها الراحة وتنزلت في أناملها الرحمة، فلا يكاد المصاب يحس بتلك الأيدي الرحيمة تلمسه وبتلك العيون الشفيقة تفحصه حتى يترك نفسه بين أيدي أولئك الرحماء آمناً مطمئناً، فإذا هو بعد آونة يعجل له الإسعاف بأيد نطس كرام بررة ثم يحمل إلى المستشفيات إذا كان في حاجة إلى مداومة العلاج فيبقى بها حتى يتم شفاؤه.

يقوم رجال الإسعاف بعملهم هذا ابتغاء مثوبة الله وتحقيقاً لمعنى الأخوة، لا يبتغون من ذلك جزاء ولا يسألون عليه شكراً لا مورد لهم في تحقيق غرضهم الشريف، إلا ما تجود به أيدي المحسنين وتفيض أكف ذوي النخوة والمروءة، فجزاهم الله عن عملهم المبرور وسعيهم المشكور أوفى الجزاء وأجمل الثناء.

٨٨- البرق (التلغراف) وآثار منافعه لجميع العالم

كثيراً ما يسمع الإنسان في محطات السكك الحديدية ويرى في بعض حجرها آلة ذات دقات متتابعة يختلف إيقاعها اختلافاً طفيفاً لا يدرك مغزاه إلا عمال مختصون بأمرها، تراهم يطرقون بأصابعهم على بعض أجزاء هذه الآلة، فإذا هم بما يسمعون ويطرقون، يتلقون إشارات ويرسلون أُخرى، وإذا كتب مسطورة تنتقل من أيديهم إلى من أريد بها من الناس، دلت على كلماتها تلك الدقات المنسقة فكانت مقاطعها في أطراف البيان لا في جوانب الفم واللسان، هذه الآلة البديعة الصنع المؤسسة على دعائم العلم والفكر هي ما يعرف بالبرق.

وله فوائد جليلة ومنافع جمة فهو الذي نظم سير القطر الحديدية وقلل مضار تصادمها، فلا يقوم القطار من محطة حتى تؤذن بقيامه المحطة التالية، ولا تكاد تخلو بلدة كبيرة من برق يستعمل في نقل الإشارات بينها وبين غيرها من البلاد في أُمور التجارة وشؤون الزراعة والصناعة وسواها، مما يستدعي سرعة التخاطب وكثيراً ما وفر البرق على الناس راحتهم من مشاق الأسفار وجم النفقات وقضى مصالح، لولاه لتعسر قضاؤها وضاعت من طلابها فوائدها.

ويستعمل البرق وحده في المدن التي لم تمتد إليها أسلاك المسرات العامة. وتعنى الحكومة بإرسال الإشارات البرقية إلى أصحابها مع سعاة مخصوصين بذلك لا يتقاضون من المرسَل إليهم أجراً.

وهذا النوع من الرسائل البرقية يدفع المرسل أجره بقدر عدد كلماته وهو في الجملة زهيد، لا يكلف الإنسان في رسالة عدد كلماتها ست أكثر من عشرين مليماً، فإذا زادت الكلمات زاد الأجر نصف قرش لكل كلمة زائدة.

وقصارى القول: إن البرق نعمة من نعم العلم وأثر من آثار النشاط العقلي في عالم الاختراع.

تَجري بأطراف البنان حُروفه　　فتمرُّ مرَّ البرق فـي أسـلاكه
قد أنطقتهُ الكَهرباءُ فَلم تدَعْ　　لغةً قد التَبسَتْ على إدراكـهِ

٨٩- المسرة (التليفون) وتعميم فوائده

من أفضل ما أنتجته عقول المفكرين وجادت به قرائح المخترعين المسرة وهي آلة صغيرة الحجم تعلق أحياناً على الجدران أو توضع على المناضد وتتصل بأسلاك متفرعة عن مركز عام يقوم عمّاله بإعداد أسباب الاتصال بين المتخاطبين.

وللمسرة فوائد جليلة إذ يستطيع الإنسان بواسطتها مخاطبة من يشاء في بلدته أو غيرها من البلاد الداخلية أو الخارجية في أسرع وقت وبأجر زهيد. وبذلك يمكنه قضاء مصالحه المعجلة التي لم يكن يستطيع قضاءها من قبل إلا في زمن مديد، فالتاجر يستطيع مخاطبة محال التجارة في إرسال ما يشاء من أنواع البضاعة والمشتري يستطيع أن يخاطب التاجر - وهو جالس في بيته - ليرسل إليه مطالبه فيجاب طلبه وتصل إليه حاجته، والمريض يستدعي الطبيب في أي وقت شاء من ليل أو نهار إلى منزله أو يصف له مرضه فيصف له الدواء، وكلاهما في مكانه لم يبرحه، والمسافر يستطيع أن يخاطب أهل بيته والقائمين بمصالحه ويتعرف منهم ما يريد معرفته حتى كأنه بينهم يدير شؤونه بنفسه فهو المغيث وقت الشدائد.

وهذه دور الحكومة ومصالحها المختلفة، لا تخلو من المسرات التي يستعان بها على نشر الأمن بين الأهلين وضبط المجرمين الفارين، وعلى تنظيم الأعمال الضرورية التي تدعو الحال إلى سرعة إنجازها.

وقد انتشرت المسرات في أنحاء القطر المصري، فلا تكاد تجد محل تجارة أو صناعة ولا مشرب قهوة أو فندقاً ولا حانوتاً أو منزل ثري يخلو منها لزهادة أجرها السنوي وعظم أثرها في كل مصالح الحياة.

وبالجملة: فالمسرة سر من أسرار الكهرباء وآية من آيات العلم العظيمة النفع يقصر البيان عن عد فوائدها وإدراك مزاياها فجزى الله مبدعها عن الإنسانية الجزاء الأوفى.

٩٠- التصوير الشمسي وفوائده

من أعجب ما ابتدعته أفكار المخترعين وأبرزته قرائح العلماء آلات التصوير الشمسي وهي آلات ذات عدسة بلورية محدبة توضع في جوفها زجاجات خاصة ترتسم عليها صور المرئيات كما ترتسم على حدقة العين ثم تنقل على ورق التصوير.

وللتصوير بهذه الآلة فوائد غزيرة ومنافع كثيرة فيه يحفظ رسم الإنسان وصور النبات والحيوان ومناظر الحدائق الناضرة والبلاد العامرة والبحار الزاخرة، فيراها الإنسان أمامه على صفحات أوراق التصوير كانما شاهدها بعيني رأسه.

وقد ساعد التصوير الشمسي على نشر المعارف وترقية أنواع الفنون والعلوم، فلا تكاد تجد كتاباً نفيساً من كتب المطالعة والتاريخ وما شاكلها خلواً من صور شمسية تقرب للمطالع حقائق الاشياء وتساعده على اجتلاء ما غمض وإدراك ما بعد، وهذه الجرائد المصورة ومناظر الخيالة (السينما) قد ساعدت على نشر الفوائد العلمية، وحببت إلى النشء تتبع أخبار الرقي العلمي في أنحاء العالم بما يبدو فيها من صور العلماء والمخترعين وما كشفوه من آثار نفيسة أو ابتدعوه من مصنوعات جليلة.

وبعد أن كان التصوير قديماً فناً مقصوراً على اليد، لا يحسنه إلا قليل من النوابغ الذين قضوا زهرة الصبا وريعان الشباب في درسه والانكباب على تعلمه ثم لا تجد لهؤلاء إلا صوراً قليلة تقترب من المصورات بقدر ما في يد صانعها من مهارة، وفي عقله من حذق، وقلما تمثل حقيقتها تمثيلاً تاماً، بعد ذلك صار عملاً لا يحتاج في إجادته إلا إلى تمرين لا يستغرق من الراغب فيه إلا قليلاً من أوقات فراغه، ولا يحوجه إلى مهارة أو إلى درس طويل فتراه يرسم بعدة التصوير عشرات من الصور، فلا يكلفه ذلك إلا ثمن زجاج التصوير وورقه. وأخيراً قد صار في قدرة الإنسان أن تجعل منزله معرضاً يجمع فيه إلى صورته وصور أفراد أسرته وأصدقائه ما ترغب فيه نفسه من صور العظماء والأدباء، ممن تزدان بصورهم المجالس وتطيب بذكرهم الأنفاس.

وبالجملة: كان الناس في الأزمان الغابرة يلاقون صعوبات جمة من التصوير بالأدهنة ويضيعون زمناً وفيراً في إخراج صورة قد لا تشبه الأصل المنقولة عنه من كل وجه، ولما ظهرت الآلة الشمسية سهل رسم ما كان النقاش يقضي في رسمه الأيام الطوال، وعم التفاهم وساد التعارف وانجلى الغامض ووضحت الحقيقة واهتدى القضاء به إلى تتبع آثار الجناة والقبض عليهم وحماية الناس من شرهم، وساعد علم الفلك في تصوير أجرام النجوم

والكواكب وبين حركاتها مثل دورانها وأفاد علم الطب في تصوير الصور المكبرة لتصغير الأجسام وتدقيقها. هذا إلى أنها خير معين على توضيح معضلات العلوم وعويصات المسائل وغيرها بتجسيم حوادث القصص في الطروس والكتب والنشاط إلى متابعة المطالعة وكثرة الاطلاع وتتميم القراءة بخاصة النشء السريع الملل، والتصوير سفر كبير لتاريخ الأبطال المخلد ذكر عظماء الرجال، والصورة خير ما ينوب عن وجوه الأقارب والأصدقاء عند غيابهم وتحفظ الصلات بينهم والمودة والمحبة وتهون آلام الفراق عليهم، وأحسن تذكار يبقى إلى الأبد.

وناهيك بالخيالة التي هي صور شمسية تؤخذ عن الشيء بصور متعددة ممثلة إياه في حركاته وسكناته ثم تعرض أمام الأعين.

٩١- السيارات وأثرها في المواصلات العامة

السيارات مراكب تسير بقوة البخار الذي يتولد من سائل خاص يعرف (بالبنزين) فيحرك عدداً تتصل بعجلاتها فتديرها بسرعة، ولها أنواع كثيرة تختلف في جودتها وسرعتها باختلاف أصنافها وتتنوع في سعتها وضيقها ومحال الركوب فيها بتنوع الأغراض التي تقصد بها، فمنها ما يكون لركوب أناس مخصوصين، ومنها ما يكون لركوب من يشاء بأجر خاص، وما هو لنقل البريد أو عروض التجارة وأدوات العمارة، وبعضها أعد لإطفاء الحريق ونقل المرضى ولإسعاف المصابين بحوادث فجائية.

وقد أصبحت السيارة في هذا العصر من أهم أسباب المدنية ونهوضها إلى درجة سامية تجري مسرعة بذوي الأعمال العاجلة وتروح وتغدو بأصحاب الحاجات من تجار وصناع وطلاب وموظفين فتصل بهم إلى محال أعمالهم في أقصر وقت وبأجر زهيد.

وقد وصلت بين أجزاء المدن وضواحيها، فصار في قدرة الإنسان أن يتخذ مسكنه كما يشاء في الأماكن الخلوية حيث الهواء طلق والشمس مشرقة والسماء صافية، أو في جوف المدن أو جوانبها فيبرحه إلى عمله ثم يعود إليه، تقله السيارات في غدوه ورواحه، وقد لا تبعد به عن منزله إلا بضع خطوات.

وقد صارت البلاد والقرى وبخاصة التي لا تمر بها القطر الحديدية ولا تجري بإزائها الأنهار متصلة بالمدن تنقل إليها خيراتها وتأخذ منها حاجاتها بأجر يقل عن السكك الحديدية، وفي أوقات يتخير منها المسافر ما يشاء، لا ما تفرضه جداول القطر الحديدية.

إلى جانب ذلك ترى السيارات الضخمة تسير في المدن وضواحيها تحمل أدوات العمارة من الأماكن القاصية، فإذا أنت بعد أشهر معدودة ترى الأرض البراح تحمل على

ظهرها القصور الشامخة والأبنية الباذخة آهلة بقطانها مشرقة بأنوارها ذلك بعض فوائد السيارات وأثرها العظيم في سهولة المواصلات.

٩٢- مكافأة العمال سر النجاح وداعي التقدم

لا ريب أن العامل هو الدعامة التي ترتكز عليها بناء ثروة مصر الزراعية والصناعية وهي اليد التي تدير دولاب العمل في هذا القطر فتجعل أهله في يسر وسعادة، وينشر في جوانبه النعيم والرخاء.

وليس من ينكر صبر العامل المصري واحتماله الشدائد والأهوال في إنجاز كثير من الأعمال الضرورية لرخاء هذا البلد. لا فرق في التمتع بثمرات عمله بين وطني وأجنبي، وربما كان حظ الأجانب من عمله أسعد وأوفر.

العامل المصري هو ذلك الفلاح الذي توقظه صيحة الديك وتحركه نسمات الأسحار إلى مزاولة عمله في مزرعته أو في مزارع الملاك الآخرين، فلا يزال قرين الشمس من مشرقها إلى مغربها تدور في السماء دورتها ويدور في الأرض دورته، فلا يؤوب إلى منزله حتى تودعه الشمس ويجنه الظلام.

وهو ذلك الصانع الذي يلزم حانوته واقفاً على قدميه، ممسكاً بأدوات صناعته، فلا تزال يده تتحرك وجسمه ينقبض وينبسط وعينه تبحث وتفتش حتى يغيب بياض النهار وضوء الغزالة فيستبدل الضوء الشمسي بمصباح يستضيء بشعاعه الضئيل حتى يرى حاجته إلى النوم شديدة، فيذهب إلى فراشه لا حباً في النوم، ولكن طلباً لتجديد القوة حتى يعود إلى مزاولة عمله من جديد.

العامل المصري هو ذلك الرجل الذي يشق الأنهار ويُعبّد الطرق ويقيم القصور المشيدة، هو ذلك الرجل الذي يحني ظهره ويطوي قامته منكباً على أعماله المتنوعة في المصانع والمعامل والمزارع صابراً مطمئناً قانعاً راضياً بأجره الزهيد الذي لا يكفي لشراء علف حيوان في وجبة من الطعام. فما أصبرك أيها العامل المصري وما أقنعك برزقك حين يغلب الطمع والشره على نفس غيرك من العمال، فلا يرضون بأضعاف مضاعفة لأجرك الزهيد الضئيل.

أفليس جديراً بمن يجنون ثمار عملك وتطمئن نفوسهم بعناء نفسك وتطول راحتهم بدوام تعبك وتلين مضاجعهم بخشونة مضجعك، أن ينظروا في أمرك بعين الشفقة ويمدوا إليك يد المعونة والحنان، بلى إنهم لو فعلوا، وذلك واجب لك في أعناقهم لعدته منهم منة تضاعف لهم بها شكرك وتفني من أجلها في خدمتهم عمرك. إنك أيها العامل لجدير بأجلّ عناية وخليقٌ بأفضل رعاية، فأنت وحدك مدار الخيرات ومنبع الرخاء واليسار،

إنك لتعصر جبينك عرقاً ويعصره غيرك نضاراً وورقاً، إنك أيها العامل جدير بالعناية في طعامك وشرابك في مسكنك ولباسك في شبابك وهرمك في صحتك وسقمك، فعلى الحكومة ورجال الأمة واجب لم ينهضوا به وحق لم يقوموا بأدائه يجب لك عليهم.

أولاً – أن يجعلوا مساكنك على وفق قواعد الصحة فسيحة مضيئة، وأن يتخيروا البقاع الفسيحة الأرجاء الجيدة المواقع لإقامة هذه المساكن، حتى إذا عزّ عليك ثمن الدواء وأجر الطبيب وجدت من نقي الهواء وواضح الضياء ونور ذكاء، أطباء لا يسالونك أجراً ولا يكلفونك شكراً ولا يحرمونك من مزاولة عملك يوماً ولا عشراً.

ثانياً – أن ينشئوا المستشفيات المتنقلة لمداواة المرضى والعناية بأطفال العمال (ولا أطلب تقديم اللبن والزبد بالمجان كما تفعل الأمم المتحضرة) صيانة لأبنائها ورجالها في سعادة أوطانها، فإن مصر وإن عُرفت بإكرام الضيف وحسن قرى الغريب، لم تعرف لأبنائها الأقربين هذا الحق الثابت.

ثالثاً – نشر التعليم بين أبناء هؤلاء الفقراء، فإنه لا خير في أُمة لا تعلم فيها أبناء الفقراء، إن في نشر العلم بين أبناء العمال فوائد جليلة، فإن قدرة المتعلم على العمل أوفر وعنايته بصحته وهي رأس ماله أتم وعامل متعلم خير من عشرة جهلاء، وإذا تم تكوين العمال من طبقات متعلمة وصلت مصر بفضلهم إلى منازل الأمم الراقية التي تنهض بها عمالها المتعلمون إلى أوج السعادة والكمال.

ذلك بعض ما يجب على المصلحين أن يعاهدوا العمال على الوفاء به ليحفظوا أنفسهم بحفظهم ويسعدوا أُمتهم بدوام نشاطهم وجدهم، وما ذلك على همة المصلحين الصادقين بعزيز.

٩٣ – حكمة فرض الله على الأغنياء زكاة أموالهم للفقراء

علم الله أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وإن الناس تتفاوت درجاتهم في الغنى والفقر، فلم يحرم الفقير من عطف الغني ولا المقل من شفقة المكثر، فجعل في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للسائل والمحروم، وفرض عليهم قدراً مخصوصاً من مالهم يصلحون به أحوال هؤلاء البائسين.

لا ريب أن ذلك وسيلة إلى سعادة الناس وصلاح أمرهم ولمِّ شعثهم، فلو ترك الفقير وشأنه لساء حاله واضمحل جسمه وقضى شهيد فقره وضحية عوزه.

ليس الغنى في استطاعة كل مخلوق، فقد يكبو بالمجد حظه وينهض بالمحظوظ جده.

لو كانَ بالحيلِ الغِنَى لوجدْتَني بنجومِ أفلاكِ السماء تعلُّقي

فليس من المروءة أن تترك هؤلاء العجزة الذين لا يستطيعون إلى العمل سبيلاً، يبيتون على الطوى ويمتهدون الصخور ويتروحون إلى القبور على مرأى ومسمع منا.

من العار أن تتمتع بنعم الله ونعمه لا تحصى، وتحرم عبيده من ثمرات هذه النعم. ألا إن شكر النعمة أن نصرفها فيما خلقت له من سبل البر ومناهج التقوى، إن الصدقة تطفئ غضب الرب وتقرب من الجنة ونعيمها. فالعاقل من راقب ذوي الحاجة فسدّ عوزهم وأغنى فقرهم وأصلح شأنهم وواساهم بنفسه وماله حتى لا يكون منهم أولئك المتشردون الذي أزعجوا العالم بالشرور والآثام من السرقة والقتل والسلب والنهب طمعاً في سد حاجتهم وإنقاذ أزواجهم من مخالب الجوع ومهاوي الضنك أو أولئك القانعون الذين يستندون الأكف حتى صار ذلك عادة ألفوها ومهنة أتقنوها أو أولئك الاشتراكيون الذين يدعون الناس إلى إيقاد نار الفتن وإيقاظ العداوة في القلوب فاصبحوا خطراً يهدد السلام ويعكر صفو الأنام.

فالزكاة دعامة من دعائم الدين من أداها حق أدائها فقد خدم نفسه وخدم أُمته ووطنه وخفف عن أولئك الفقراء المعدمين أعباء الحياة وأحيا في نفوسهم ميت الآمال.

٩٤- وبالوالدين إحساناً

إن الله تعالى قد أودع قلوب الآباء خالص الشفقة والعطف على الأبناء فتراهم ينفقون أموالهم وانفسهم في سبيل تربيتهم ويسهرون لسهرهم ويالمون لألمهم وأسعد أوقاتهم أن يروا أبناءهم فرحين مستبشرين ذلك دأبهم يوم يولد الطفل حتى إذا شب وترعرع لم يدخروا وسعاً في تربيته والنظر له في مستقبل أمره وتقويم ما يعوج من خلقه ولا تلهيهم عن شؤونه شواغل الحياة ومتاعب العيش.

لذلك كان الواجب على كل ولد أن يكون باراً بأبويه وأن يؤدي لهما واجب الطاعة ونهاية الاحترام ويلزم في معاملتهما جانب الأدب فإذا بلغا الكبر وصارا عاجزين عن العمل، كان لهما عوناً وأحاطهما بعنايته وأنفق في حاجتهما ما يستطيع إنفاقه جزاء لسالف برهما وعظيم فضلهما.

إن الولد البار لأبويه المخلص لهما في الطاعة، يستقبل من ذريته أبرّ الأبناء وأوفاهم له وأعطفهم عليه جزاء وفاقاً لطاعته السالفة وبره السابق وكما يدين الفتى يدان والجزاء من جنس العمل.

ومهما بالغ الابن في إكرام أبويه فلن يستوفي واجب البر، قال ﷺ: «بروا آباءكم تبرّكم أبناؤكم». وقال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن

عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذُّل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ [الإسراء: ٣٣-٣٤].

٩٥- الإحصاء العام وآثاره في مدنية الأمم

عنيت حكومات الأمم الراقية بإحصاء عدد سكانها ومعرفتها مهنهم والوقوف على مقدار ثروتهم والاطلاع على حالتهم العلمية والصحية مع مقارنة حالهم الحاضرة بما سبقها من الحالات الغابرة يحملها على ذلك الرغبة في الإصلاح والسعي في طريق الرقي والأخذ بأسباب الحضارة والعمران.

تعرف الحكومة من طريق الإحصاء عدد سكان البلاد وما بلغه أهلها في العلم والتربية، وما هم عليه من صحة وضعف وما برعوا فيه من صناعة وتجارة وما يزالون محتاجين إليه من أسباب الرقي والتقدم ومجاراة الأمم الناهضة، فإذا تم لها ذلك بدأت تعمل في مداواة الأمراض ونشر العلوم والفنون وتثقيف العقول وفتح أبواب الرزق للعاطلين وتشجيع المجدين العاملين، فتنتشر المدارس والمصانع حيث تكثر الحاجة إليها وتنشئ المستشفيات حيث تتفشى الأمراض وترقي وسائل الزراعة حيث يطيب الزرع وتكثر الغلات، ثم تنظر في عمارة الأرض وإصلاح ما فسد منها فتزيد في ثروة البلاد وتمهد الطريق لدفع غائلة الحاجة، ولا تدع الأمة عرضة للمصائب وهدفاً للنوائب، ثم تعمل على تكثير سواد الأمة ونمو عددها وحفظ نسلها حتى تجد من أبنائها عوناً لها في الشدائد وحصناً في الملمات.

وبعد: فإن في الإحصاء العام تحليلاً لحالة الأمة وتبييناً لأمراضها الاجتماعية، وبذلك تهيئ الحكومة لكل داء دواء، فتنهض بالأمة إلى مراتب الرقي والكمال وتزيدها حضارة وعمراناً، فهو حسنة من حسنات المدنية وخدمة جليلة لبني الإنسان.

٩٦- الدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود

لا يأمن الإنسان ما يأتي به غده ولا ما ينتهي إليه أمره في مقتبل أيامه ومنتظر أعوامه فقد يكون اليوم غنياً وغداً فقيراً أو صحيحاً فيمسي سقيماً، ثم هو الآن شاب يقوم بحاجة نفسه ولا يفكر في غيره، فإذا تتالت الأعوام صار رب أسرة وكاسب صبية، هذه سنة اللّه ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً.

فإذا تبين الإنسان حقيقة أمره وحقق النظر في مستقبله وقاس ما لم يره في أموره بما يراه من أمر غيره، رأى أن من أول واجباته أن يتخذ الاقتصاد عادة له، وأن يلزم نفسه سلوك

سبيل الحكمة في الإنفاق، فلا يبدد ما يصل إلى يده مما قل أو كثر، بل يجعل مما يكسبه نصيباً لعاجل نفقته ويدخر منه جزءاً لحاجته في مستقبله حتى إذا أدركه المرض أو تعطل من العمل، وجد مما ادخره كنزاً ينفق منه حاجته ويسد به مطالبه، ثم إذا صار رب أسرة أمكنه ان يقوم بتهذيب ابنائه وتثقيف عقولهم ودفع ما يحتاجون إليه من أُجور المدرسة وأثمان الكتب، وغير ذلك مما يتجدد الأعوام وتتابع الأيام.

وكم راينا من غني تركه الإسراف فقيراً، وفقير جعله القصد غنياً.

ومنْ كانَ فيما افادَ مُقتصِداً　　　لم يَفتقرْ بعدَها إلى أحدِ

فعلى العاقل ان يلتزم القصد والادخار في نفقاته، فإنه لا يعول من اقتصد ولا يفتقر إلى احد، وفي الكتاب الكريم: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال الشاعر:

قليلُ المالِ تصلحهُ فيبقْى　　　ولا يبقى الكثيرُ معَ الفسادِ

٩٧- لا تؤخر عمل يومك إلى غدك فلكل يوم عمله

لا بدّ لكل إنسان من مزاولة أعمال كثيرة تتجدد بتجدد الأيام وتدوم حاجته إليها ما دامت الحياة.

فعلى العاقل أن يلزم نفسه تأدية كل عمل في وقته المناسب له، فإنه إذا فعل ذلك أحس من نفسه الراحة واستشعر السرور كلما فرغ من عمله وجنى ثمرة تعبه ووجد من وقته نصيباً للدعة والراحة.

فأما إذا تراخت همته وفترت عزيمته، فإن الأعمال تتراكم عليه فيضعف عن القيام بها جملة واحدة، ولا يستطيع إجادة صنعها وإحكام وضعها.

ومنْ ضيَّعَ الأوقاتَ ضاعتْ حياتهُ　　　وعاشَ فقيراً جاهلاً ليسَ يشكرُ
فــدعْ غائباً مِن فائتٍ ومؤملٍ　　　فوقتكَ سيفٌ قاطعٌ ليسَ يعذرُ

إن من عود نفسه القيام بكل عمل في زمانه يعتاد النشاط والجد وتنشرح نفسه للعمل وتزيد رغبتها فيه كلما جنت ثماره، وأما من اهمل وقصر فإنه يعتاد البطالة والكسل ويكون كلاً على الناس، لا يجد للعيش لذة ولا للحياة سروراً.

وعاجزُ الرأيِّ مضياعٌ لفرصتهِ　　　حتى إذا فاتَ أمر عاتبَ القدَرا

ولا أؤخِّر شغلَ اليومِ عن كسلٍ　　　إلى غدٍ إن يومَ العاجزينَ غدُ

٩٨- ليس الرجل بثيابه وماله وإنما الرجل بآدابه وكماله

ليس من الحكمة أن يحكم الإنسان على أقدار الناس وتفاوتهم في المنزلة بما يشاهد على أجسادهم من الثياب، فرب كريم النفس طاهر العرض قد ارتدى أسمالاً بالية، ولكن له نفساً بين جنبيه كبيرة لم ترتكب إثماً ولم تهم بفاحشة أو منكر، بينا نجد آخر فاخر الحلة حسن البزة، وعرضه قد تناولته سهام الطاعنين والسنة القادحين، فلم تدفع عنه ثيابه لوم اللائمين ولا إهانة المهينين.

لا زينةُ المرءِ تعليه ولا المالُ ولا يُشرِّفه عمٌّ ولا خالُ
وإنَّما يتسَامَى للعُلَى رجلٌ ماضي العزيمةِ لا تثنيه أهوالُ

فإنما الجمال والشرف في طهارة العرض وصون النفس من الدنس وترفعها عن الدنايا، ولقد أحسن من قال:

لئنْ كانَ ثوبي دونَ قيمته الفلسُ فلي فيه نفسٌ دونَ قيمتها الإنسُ
فثوبكَ بدرٌ تحتَ أذيالهِ الدُّجى وثوبي ليلٌ تحتَ أطمارهِ الشمسُ
ليسَ الجمالُ بأثوابٍ تزيننا إن الجمالَ جمالُ العلمِ والأدبِ
لا يمتطي المجدَ منْ لم يَركبِ الخطرا ولا يَنالُ العُلى منْ قدَّم الحذرا

إن للمجد طلاباً وللمكارم خطاباً يبذلون ما يملكون من نفيس، ويضحون بكل ما يضن به من راحة ومسرة في سبيل الغاية التي ينشدونها والعاقبة التي يؤملونها، وأي غاية أسمى من المجد وغرض أكرم من العلا والشرف، تراهم يضعون هذا الغرض الأسمى نصب عيونهم، فلا يتوانون وإن مسهم نصب أو عراهم ألم عن الجد في سبيله والسعي إلى نيله يذللون كل عقبة ويتخطون كل عائق بهمة لا تبالي بالمصاعب وعزيمة تستهين بالنوائب.

وكم يحلو لهم ركوب متن الأخطار وتجشم مشاق الأسفار وامتطاء صهوات البحار ليدركوا أملهم من المجد وغايتهم من الكمال، ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

ألا ترى الرجل الشجاع يجود بنفسه في موطن الحرب ويتقدم غير هياب ولا وجل، وترى الجواد ينفق الطارف والتلاد طمعاً في الحمد ورغبة في الثناء، وكذلك يكون عظماء النفوس وطلاب المجد.

ومنْ تكنِ العلياءُ همَّة نفسهِ فكلُّ الذي يلقاهُ فيها محبَّبُ

٩٩- التمثيل الهزلي وأثر مضاره في أخلاق العامة

مصر بلد العجائب تلد كل عام ما تئن له نفوس العقلاء وتحتار في كنهه أحلام المفكرين، فقد أُنشئت بين ظهرانينا (دور) سموها دور التمثيل وهي أولى بأن تعرف بدور السخرية والهزل.

هذه الدور أمست محط رحال الغوغاء وصغار الأحلام من الشبان الطائشين الذين نسوا الفضائل وتمادوا في الغي بما يسمعون من الأناشيد المخجلة ويرون من صنوف الرذائل حتى إذا فارقوا تلك الدور، نفثوا ذلك السم الزعاف من أفواههم بأصوات منكرة لا يلبث الأطفال حتى يرددوها في الشوارع والمنازل، وفي ذلك مفسدة للأخلاق تذهب بالأمم إلى مهاوي الشقاء ودرك الفناء.

ولقد ترك أيضاً هذا النوع من التمثيل أثراً سيئاً في اللغة، فأخذت الألسن تلوك ألفاظاً لا هي عامية مألوفة ولا عربية صحيحة كادت تغلب اللسان على أمره بما تعود نطقها وألف ترديدها حتى كادت تهدم بناء اللغة العربية وتقوض دعائمها وتأتي على ثمارها الطيبة، ورياضها العامرة فتجعلها قاعاً صفصفاً وصعيداً جرزاً.

كذلك ترك أثراً سيئاً في الأخلاق بما يراه الشبان والشابات في تلك الدور من فحش في القول وحطة في الفعل وبذاءة في اللسان واستهتار بالكمال وتبرج في الزينة وخروج عن قواعد الشرف ومجون مزرٍ بالمروءة وخلاعة تمحق الكرامة والنفس أمارة بالسوء إذا عرفته داعية إلى الفساد ألفته، فإذا جمحت بصاحبها أوردته موارد الهلكة وقلما تنزع عن عاداتها وتروغ عن شهواتها وترتدع عن غيها.

ذلك أثر التمثيل الهزلي الذي يتنافى مع الفضيلة ويتنافر مع الشرف، وقلما تجد منه ما يرمي إلى غاية نبيلة وغرض شريف.

فجدير بالحكومة أن تراقب هذه الدور وأن تعمل يد الشدة في إقفاء القائمين بأمرها حتى تكبهم لوجوههم ولا تدعهم في غيهم يعمهون وفي أودية ضلالهم يهيمون.

١٠٠ - مضار التبغ «الدخان»

من العادات المضرة الكثيرة الانتشار بمصر وغيرها من الأقطار تناول (التبغ) فترى الشاب تنزع به نفسه ويميل به هواه إلى محاكاة غيره في تعاطيه يعده تظرفاً ويحسبه مدنية وترفاً، فإذا قدم له أحد أترابه أول لفافة أوقدها، وبدأ يستنشق دخانها السام ولا يلبث إلا قليلاً حتى يأخذ في الإكثار من تناوله، فيصبح عادة له لا يستطيع إلى تركها سبيلاً.

وإذا طال الزمن واستحكمت في نفسه هذه العادة السيئة بدأت صحته تضعف وقوته تتضاءل ورغبته في الطعام تقل، وإذا ذلك الوجه الناضر والجسم الممتلئ والشباب الغض قد عراه الذبول وتمكن منه النحول، فأصبح بعد الغضارة والنضارة جسداً ذابلاً وجسماً ناحلاً يأخذه سعال مؤلم ويحس بخفقان في قلبه وفتور في قوته ويتمنى لو يقاسمه الطبيب ماله ويحجبه عن عادته ويندم ولات ساعة مندم. ثم هو مع ذلك يفقد بشاشته ويحرم

صفاء نفسه وقوة فكره فتتغير أخلاقه وتتبدل صفاته وتراه إذا أعوزه التبغ أحياناً ذاهل النفس ناكس الرأس كأنما هو في هم ناصب وعناء ممض وقد تتغير سجاياه. فإذا ذلك الحليم الهادئ غضوب جموح وذلك الوادع الساكن هائج ثائر يلجأ إلى تناول التبغ لتسكين غيظه وتهدئة ثائرة نفسه.

فعلى الآباء ورجال التربية أن يتعهدوا أبناءهم وتلاميذهم بالنصح والإرشاد، وأن يرقبوهم في أوقات الفراغ، فلا يدعوا لهم طريقاً إلى اتباع هذه العادة الذميمة ليحفظوا لهم صحتهم وراحتهم ويدفعوا عنهم شر الأمراض ويصونوا أموالهم من الضياع حتى إذا شب هؤلاء الأبناء عرفوا لهم ذلك الفضل وحمدوا تلك العناية. وما ذلك على همة الآباء والمربين بعزيز.

١٠١- ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

إن حاجة الإنسان إلى الصديق ماسة، فإنه عون في الشدة وأنيس في الرخاء ومرجع في السراء والضراء، فعلى الإنسان أن يصطفي كثيراً من الإخوان ليشد بهم أزره ويشرح بقربهم صدره، وإذا بدرت من أحدهم بادرة فلا يقطع لذلك حبل مودتهم ويفصم عرا صحبتهم، فإن لكل سيف نبوة ولكل جواد كبوة.

ومنْ ذا الذي ترضى سجاياهُ كلّها كَفى المرءُ نبلاً أن تعدَّ معايبهْ

وعلى الإنسان أن يتجنب محاسبتهم على تلك الهفوات وتقريعهم على صغائر الزلات فطالما كان العتاب سبباً في القطيعة وطريقاً إلى التفريق، إن عاتب فليكن بلطف ورقة، فإن القلوب كالزجاج صدعها لا يجبر وليتخذ العفو ديدناً ويدفع السيئة بالحسنة، فذلك أدعى إلى دوام الألفة وبقاء المودة وطيب العيش واستدامة الصحبة، وقد أحسن الشاعر إذ يقول:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتباً صديقكَ لمْ تلقَ الذي لا تُعاتبهْ
فعشْ واحداً أو صلْ أخاكَ فإنهُ مقارفٌ ذنباً مرةً ومجانبهْ
ألا سامحْ أخاكَ إذا تعدَّى والقِ إليه في الحربِ السِّلاحا
فمن يعتبْ على الإخوانِ يتعبْ ومن لزمَ المسامحةَ اسْتراحا

١٠٢- غنى المرء في الغربة وطن وفقره في الوطن غربة

الإنسان في الغربة بعيد عن أهله وأخلائه الذين هم ساعده في الشدة وموضع سروره في الرخاء، فإذا كان مثرياً أخذ يرتاد الأصدقاء ويطلب الإخوان بفضل ماله وسابغ بره،

والإنسان عبد الإحسان، فلا يلبث أن يملك النفوس ويسترق القلوب ويستهوي إليه الأفئدة، وعما قليل تكثر حاشيته وتتزايد أتباعه فيكونون منه مكان الأهل يؤازرونه في الضراء ويستروحون إليه في السراء ويكونون له سلوة على ألم الغربة ونصب الفرقة.

فأما إذا كان فقيراً معدماً لا يجد من المال ما يمت به إلى تلك القلوب أو يمتلك به عنان الأفئدة، فإنه لا يجد حراً يواسيه ولا صديقاً يدانيه، فيجمع إلى ألم الغربة ومضض الفقر عناء الوحدة والانفراد.

وكذلك يجعل الفقر صاحبه ذليلاً في اقترابه وحيداً في اغترابه، فما أشقى الفقراء وأسعد الأثرياء الأغنياء.

١٠٣- ربّ أخٍ لك لم تلده أمك

الصداقة بلا ريب لحمة كلحمة النسب تصل بين الصاحبين فتمزج قلبيهما وتسري في نفسيهما سريان الروح في الجسد والماء في العود الخضر فتتشابه بها النفوس وتتشاكل الأميال وتتحد الأغراض، فينشأ عن ذلك كله الألفة والمودة ويتولد العطف والحنان، فترى الصديق يشاطر صديقه سروره ويخفف عنه آلامه وأحزانه، فإذا أصابه الدهر بحدثانه وألمت به ملماته، أخذ يخفف عنه هول مصابه، ويمنيه بالسعادة المستقبلة والراحة المنتظرة، وهو مع ذلك كله يود لو يحمل عنه ما أنقض ظهره وأثقل عاتقه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً:

إنَّ أخاكَ الحقَّ منْ كانَ معكْ ومنْ يضرُّ نفسهُ لينفعكْ
ومنْ إذا ريبُ الزَّمانِ صدّعكْ شتت شمل نفسه ليجمعكْ

فسقياً لك أيتها الصداقة ورعياً لما تلدينه من الإخوان فإنهم عدة لنوائب الزمان ودروع سابغات في النائبات ونجوم لامعة في الليالي المدلهمات.

أما أنت أيها الصديق الذي ارتضع مع صديقه ثدي المودة وتغذيا بلبان الصحبة، فإنك أجدر الناس بالمحبة، وما أنت دون الأخ الشقيق فضلاً ولا ببعيد عنه أصلاً، فخير الأخوين النافع وما نفعك إن عز نفع الشقيق ببعيد.

ما ضاعَ منْ كانَ لهُ صاحبٌ يقدرُ أنْ يرفعَ منْ شأنه
فإنَّما الدُّنيا بسكَّانها وإنَّما المرءُ بإخوانه
أعطِ القليلَ ولا تمنعكَ قلَّتهُ فكلّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

قد يرى الإنسان السائل المسكين والفقير المعدم تكاد تفيض روحه ألماً وتذهب

نفسه حسرات، لا يجد ما يحفظ به الرمق ويدفع به ألم الحاجة، فيود رائيه لو أن له مالاً كثيراً فيواسيه ومعيناً من الثروة فيغنيه ويستحي أن يمد إليه يده بدرهم يراه لا يروي غلة ولا يرفع كربة ولا حق له في هذا الحياء، فإن الأيدي إذا كفت عن معونته بالقليل - وقل أن ينال الكثير - تضور جوعاً وذهب عنه صبره ووهى جلده واستسلم لليأس والجزع وربما طوح بنفسه إلى اللحد.

إن القليل في الخير كثير لا يعدم الإنسان جزاءه ولا يحرم ثوابه. ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة:٧]. الا وإن الإيثار على النفس فضيلة المحسن وشرعة الكريم، وقد أثنى اللّه تعالى في كتابه الكريم على من يؤثر ببره ويمنحه ميسور جوده، فقال تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [الحشر:٩]. وقال الشاعر:

ليسَ العطاءُ منَ الفُضولِ سماحةٌ ... حتى تجودَ وما لديكَ قليلُ

١٠٤ - التقليد في الفضيلة سبيل النجاح

حقاً إن الإنسان بفطرته ميال إلى العلا محب للمجد يتمنى أن تتاح له الفرص التي يبلغ بها غرضه ويدرك بها طلبته يحفزهما ويستحث عزيمته، ما يتردد على ألسنة الناس من حمد كريم وذكر عظيم وإجلال نابه، فيود أن تكون له في نفوس قومه وعشيرته تلك الذكرى الطيبة والشهرة العالية.

وقد يظن أحياناً أنه ليس في مقدوره إدراك منازل العظماء والترقي في مراتب الشرفاء، ولكنه لو علم أن العزيمة الصادقة والهمة العالية تبوِّئ صاحبها عرش المجد وتجلسه على أريكة العز لقلد أولئك الأشراف في صفاتهم وحاكاهم في أعمالهم، فإنه إن فعل ذلك أدرك غايته ونال طلبته، لأن القدوة الصالحة تكون عظماء الرجال. فما اختص قوم بالمجد ولا استأثروا بالشرف وما عليهما حاجب يحجب طالباً ولا مانع يمنع راغباً.

إذا أعجبتكَ خصالُ امرئٍ ... فكُنه يكنْ منكَ ما يُعجبُك
فليسَ على المجدِ والمكرُماتِ ... إذا جئتَها حَاجبٌ يَحجبُك

فذلل بهمتك ما يعترض طريقك من المصاعب واركب متن الأخطار ووطِّن نفسك على الصبر واقف آثار من سبقك إلى العلا غير هياب ولا وانٍ، فإنك لا محالة موفٍ على غايتك وواصل إلى أمنيتك.

وقل من جدَّ في أمرٍ يحاولهُ ... واستعملَ الصبرَ إلاَّ فازَ بالظفرِ

١٠٥- الأدب وسيلة إلى كل فضيلة

الأدب هو التحلي بأحسن صفات الكمال والتخلي عن الرذائل والبعد عن النقائص، بحيث يكون الإنسان في جميع أحواله ومعاملاته في المجتمع الإنساني على مقتضى العقل الكامل والذوق السليم، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم، ولا يقع منه ما يخل بشرفه أو يحط من قدره، فالأدب عنوان الكمال يرفع الوضيع إلى درجة الرفيع ويعلو بالسوقة إلى مرتبة الملوك، ولهذا كان حقاً على كل امرئٍ أن يتخلق به طبقاً لما جاء به النبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ [الحشر:٧].

قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقال عليه الصلاة والسلام: «أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً، ونظري عبرة». وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

وقال علي كرم الله وجهه: «إن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلاً بينه وبينكم، فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها. وقال: غاية الأدب أن يستحي الإنسان من نفسه».

وقال خالد بن صفوان لابنه: يا بني الأدب بهاء الملوك ورياش السوقة والناس بين هاتين فتعلمه تجد نفسك حيث تحب.

وقال ابن المقفع: ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذي هو لقاح عقولنا.

وقال بزرجمهر: ليت شعري - أي شيء أدرك من فاته الأدب وأي شيء فات من أدرك الأدب. وقال لكسرى وعنده أولاده: أي أولادك أحب إليك، قال: أرغبهم في الأدب وأجزعهم من العار وأنظرهم إلى الطبقة التي فوقهم.

وحكى الأصمعي رحمه الله تعالى: أن أعرابياً قال لابنه: يا بني الأدب دعامة أيّد الله بها الألباب، وحلية زين الله بها عواطل الإحسان، فالعاقل لا يستغني وإن صحت غريزته عن الأدب المخرج زهرته، كما لا تستغني الأرض وإن عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها.

وقال بعض الحكماء: الأدب صورة العقل، فصور عقلك كيف شئت، وقال آخر: إذا

كان الرجل طاهر الأثواب كثير الآداب حسن المذهب تأدب بأدبه وصلح بصلاحه جميع أهله وولده، وقال غيره: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان قبل وضيعاً وسد صيته، وإن كان خاملاً وساد وإن كان غريباً وكثرت الحاجة إليه وإن كان مقتراً، وقال غيره: عليك بالأدب فإنه صاحب في السفر ومؤنس في الوحدة وجمال في المحفل وسبب إلى قضاء الحاجة.

وقال بعض الأدباء: زكِّ قلبك بالأدب كما تزكى النار بالحطب، واتخذ الأدب غنماً والحرص عليه حظاً يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويُرجى عدلك، وقال آخر: شبه العالم الشريف العديم الأدب بالبنيان الخرب الذي كلما علا سمكه كان أشد وحشة، وبالنهر اليابس الذي كلما كان أعرض وأعمق كان أشد وعورة، وبالأرض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافاً وصار للهوام مسكناً.

وقال بعض العلماء: العقل بلا أدب كالشجر العاقر، ومع الأدب كالشجر المثمر. وقال آخر: الأدب وسيلة إلى كل فضيلة وذريعة إلى كل مكرمة.

وقال بعض الفصحاء: الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والحسب. وقال غيره: من ساء أدبه ضاع حسبه، ومن قل عقله ضل أصله. وقال غيره: الأدب يستر قبيح النسب.

وقال الشاعر:

لكلِّ شيءٍ زينةٌ في الورى ... وزينةُ المرءِ تمامُ الأدبِ
قدْ يشرفُ المرءُ بآدابهِ ... فينا وإنْ كانَ وضيعَ النسبِ

وقال آخر:

فما خلقَ اللّهُ مثلَ العقولِ ... ولا اكتسبَ الناسُ مثلَ الأدبِ
وما كرم المرءُ إلاَّ التُّقى ... ولا حسب المرءِ إلاَّ النَّسَبِ

وقال غيره:

ما وهبَ اللّهُ لامرئٍ هبةً ... أشرفُ منْ عقلهِ ومنْ أدبهْ
هُما حياةُ الفتى فإنْ عدِما ... فإنَّ فقدَ الحياةِ أجمل بِهْ

وقال غيره:

كُن ابنَ من شئتَ واكتسبْ أدباً ... يُغنيكَ محمودُه عن النَّسبِ
إنَّ الفتى منْ يقولُ ها أنذا ... ليسَ الفتى منْ يقولُ كانَ أبي

١٠٦- الحلم سيد الأخلاق

الحلم هو ضبط النفس عند ثورة الغضب، حال وجود ما يدعو إليه وتملك عنانها حذر الاسترسال في هياجها، فيحدث ما لا تحمد عقباه، فكم جر الغضب من الأضرار على

أناس ما لو ملكوا أنفسهم وكبحوا جماحها لسلموا منه وكانوا إلى السيادة التي حرصوا عليها بما فعلوا أقرب، وإن مما يدعو إلى طول الأسف ما نراه عند شبابنا من الغضب في أدنى الأمور وأوهى الأسباب، ولو علموا أن الحلم سيد الأخلاق، وأنه يكمل صاحبه بجميل الخصال، ويحببه إلى اللّه تعالى، ويرفع قدره عند الناس لما عرفوا للغضب سبيلاً ولا سالكوا له طريقاً.

قال اللّه تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى:٤٣]، وقال عز وجل: ﴿خذ العفو وأُمر بالعرفِ وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف:١٩٩].

وقال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه يحب الحليم الحيي ويبغض الفاحش البذيء» وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»، وقال عليه السلام: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار، تحرم على كل قريب هين لين سهل»، وقال: «ابتغوا الرفعة عند اللّه تحلم عمن جهل عليك وتعطي من حرمك»، وقال: «كاد الحليم أن يكون نبياً»، وروي أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال له: أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مراراً قال: «لا تغضب».

وقال علي كرم اللّه وجهه: «أول ما يعوض الحليم عن حلمه، أن الناس أنصاره».

وقال أبو الدرداء رضي اللّه عنه، لرجل أسمعه كلاماً: يا هذا لا تغرق في سبنا ودع للصلح موضعاً، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيراً فلن أجيئها كبيراً، وإني لا أكافئ من عصى اللّه فيَّ بأكثر من أن أطيع اللّه عز وجل فيه. وشتم رجل الشعبي فقال: إن كنت كما قلت فغفر اللّه لي. وإن لم أكن كما قلت فغفر اللّه لك، واغتاظت عائشة رضي اللّه عنها على خادم لها، ثم رجعت إلى نفسها فقالت: للّه در التقوى ما تركت لذي غيظ شقاء.

وقال الأحنف بن قيس: ما عاداني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه.

وقال بعض الحكماء: احتمال السفيه خير من التحلي بصورته والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته، وقال آخر: إذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جواباً وأوجعته عقاباً، وقال غيره: في إغضائك راحة أعضائك.

وقال بعض الأدباء: من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم، وقال آخر: ما أفحش حليم ولا أوحش كريم.

وقال بعض البلغاء: ما ذب عن الأعراض كالصفح والإعراض، وقال آخر: ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن: لا يعرف الجواد إلا في العسر، والشجاع إلا في الحرب، والحليم إلا في الغضب.

وكان الأحنف مشهوراً بين الناس بالحلم، وبذلك ساد عشيرته فقيل له: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم، كنا نختلف إليه في الحلم كما يختلف إلى الفقهاء في الفقه. ولقد حضرت عنده يوماً وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه فجاؤوا به مكتوفاً، فقال: ذعرتم أخي أطلقوه واحملوا إلى أم ولدي ديته فإنها ليست من قومنا، ثم أنشد:

أقولُ للنفسِ تصبيراً وتعزيةً إحدى يديّ أصابتني ولمْ تردِ
كلاهما خلفُ من فقدَ صاحبهُ هذا أخي حين ادعوه وذا ولدي

وقال الجعدي:

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لمْ يكنْ لهُ بوادرُ تحمي صفوهُ أن يكدرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لمْ يكنْ لهُ حليمٌ إذا ما أوردَ الأمرَ أصْدرا

وقال صلاح الدين الصفدي:

واستشعرِّ الحلمَ في كلِّ الامورِ ولا تُسرعْ ببادرةٍ يوماً إلى رجُلِ
وإن بليتَ بشخصٍ لا خلاقَ لهُ فكنْ كأنكَ لمْ تَسْمَعْ ولمْ يقُلِ

وقال الشاعر:

أحبُّ مكارمَ الأخلاقِ جهدي وأكرهُ أن أعيبَ وأن أُعابا
وأصفحُ عن سبابِ النَّاسِ حلماً وشرُّ النَّاسِ من يهوى السِّبابا
ومنْ هابَ الرِّجالَ تهيّبوهُ ومن حقَّر الرجالَ فلنْ يُهابا

١٠٧- الصدق يرفع أهله والكذب مرتعه وخيم

الصدق هو القول بما يطابق الحقيقة والواقع من غير تبديل ولا زيادة أو نقصان وهو من ضروريات الحياة، ولولاه لانتزعت ثقة الناس بعضهم من بعض ولما وصل إليهم شيء من الحقائق في العلوم والأديان، وليس في الأخلاق خلق أحسن بالإصلاح والنظام من الصدق ولا أفسد لهما من الكذب، فهو رأس الفضائل ورأس المروءة، من تحلى به كملت صفاته وسمت أخلاقه وتحققت معه آماله.

قال اللّه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبياً﴾ [مريم:٥٦]. وقال عز وجل: ﴿ليجزي اللّه الصادقين بصدقهم﴾ [الأحزاب:٢٤]. وقال جل شانه: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [المائدة:١١٩]. وقال تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات اللّه﴾ [النحل:١٠٥].

وقال رسول اللّه ﷺ: «عليكم بالصدق فإنه مع البر، والبر يهدي إلى الجنة وإياكم

والكذب فإنه مع الفجور، والفجور يهدي إلى النار». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «عمل الجنة الصدق، وإذا صدق العبد بر، وإذا بر آمن، وإذا آمن دخل الجنة. وعمل النار الكذب، وإذا كذب العبد فجر، وإذا فجر دخل النار». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «عليكم بالصدق فإنه باب من أبواب الجنة، وإياكم والكذب فإنه باب من أبواب النار». وقال: «رحم الله امرأً أصلح من لسانه واقصر من عنانه والزم طريق مقوله ولم يعود الخطل مفصله»، وقيل للنبي ﷺ: «أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: أفيكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: افيكون كذاباً؟ قال: لا».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن يضعني الصدق وقلما يفعل، أحب إليَّ من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل.

وقال علي كرم الله وجهه: قد يبلغ الصادق بصدقه ما لا يبلغه الكاذب باحتياله.

قال ابن المقفع: لا تتهاون بإرسال الكذبة من الهزل فإنها تسرع إلى إبطال الحق.

وقال علي بن عبيدة: الكذب شعار الخيانة، والصدق ربيع القلب وزكاة الخُلق وثمرة المروءة وشعاع الضمير.

وقال أعرابي لابنه وسمعه يكذب: يا بنيّ إن الكذاب يتعرض للعقاب من ربه إن قال حقاً لم يصدق، وإن أراد خيراً لم يوفق فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدال على فضيحته بمقاله، فما صح من صدقه نسب إلى غيره، وما صح من كذب غيره نسب إليه.

كذبتَ ومنْ يكذبْ فإنَّ جزاءهُ إذا ما أتى بالصِّدقِ الا يصدّقا

وقال أحد الفلاسفة: إياك وحكاية ما يستبعد فيجد عدوك سبيلاً إلى تكذيبك فإن من صفات العاقل أن يحدث بما لا يستطاع تكذيبه.

وقال بعض الحكماء: الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أسُّ السعادة، وقال آخر: الكذاب لص، لأن اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك. وقال غيره: من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله. وقال غيره: نزه سمعك عن سماع الكذب كما تنزه لسانك عن التفوه به.

وقال بعض الأدباء: الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة. وقال آخر: الكذب متهم وإن صدقت لهجته ووضحت حجته. وقال غيره: لا سيف كالحق ولا عون كالصدق.

وقال بعض البلغاء: الصادق مصون جليل، والكاذب مهان ذليل. وقال آخر: ليكن مرجعك إلى الحق ومنزعك إلى الصدق، فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين. وقال

غيره: إذا اتسم المرء بالكذب نسبت إليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت إلى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوباً عليه، فيجمع بين معرة الكذب عنه ومضرة الكذب عليه.

وقال بعض الفضلاء: الصدق منجيك وإن خفته، والكذب مرديك وإن أمنته.

وقال بعض العلماء: من صدق في مقاله زاد في جماله، وقال آخر: تحرّوا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة فإن فيه النجاة، وتجنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة.

وقال الشاعر:

عوِّدْ لسانكَ قولَ الصدقِ تحظَ بـه ... إنَّ اللسـانَ لمَا عـوَّدتَ معتـادُ
موكـلٌ بتقاضيْ ما سننتَ لـهُ ... في الخيرِ والشرِّ فانظرْ كيفَ ترتادُ

وقال آخر:

عليكَ بالصـدقِ ولـو أنَّـهُ ... أحرقكَ الصدقُ بنـارِ الوعـيد
وابـغِ رضا المولى فأغبى الـورى ... من أسخطَ المولى وأرضى العبيدَ

وقال غيره:

عليكَ بالصِّدقِ في كلِّ الأمـورِ ولا ... تكذبْ فأقبحُ ما يزُري بكَ الكـذبُ

وقال غيره:

ما أحسنَ الصدق في الدُّنيا لقائله ... وأقبحَ الكذبَ عـندَ اللّـه والنـاس
لا يكـذبُ المـرءُ إلا منْ مهانتهَ ... أو عادة السوءِ أو خلو مـنَ الأدبِ
وما شـيءٌ إذا فكّـرتَ فيـهِ ... بـأذهـبَ للمـروءةِ والجمــالِ
من الكذبِ الذي لا خـيرَ فيـهِ ... وأبعــدُ بالبهـاءِ مـنَ الرجـالِ

١٠٨- الحياء دليل الخير كله

حياة الوجه بحيائه، كما أن حياة الغرس بمائه

الحياء هو الكف عن كل ما يستقبحه العقل ويمجه الذوق واستنكار كل ما لا يرضى به الخالق والمخلوق، خلق شريف يمنع المرء عن فعل المحرمات والمنكرات ويصونه عن الوقوع في الأوزار والآثام، فمن فقد الحياء فقد ذهبت آدابه أدراج الرياح، وأضحى منبوذاً محروماً من كل خير وفضل.

قال اللّه تعالى: ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى اللّه المصير﴾ [فاطر:١٨].

وقال رسول اللّه ﷺ: «الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار». وقال عليه الصلاة والسلام: «استحيوا من اللّه حق الحياء، من استحيى

من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء». وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

وقال عليه الصلاة والسلام: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان». وقال: «الحياء لا يأتي إلا بخير». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وقال كعب: استحيوا من الله في سرائركم كما تستحيون من الناس في علانيتكم.

وقال حذيفة بن اليمان: لا خير فيمن لا يستحيي من الناس.

وقال بعض الحكماء: من كساه الحياء ثوبه لم يرَ الناس عيبه، وقال آخر: الحياء في الصبي خير من الخوف، لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الجبن.

وقال أحد الأدباء: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك، وقال آخر: من عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية، فليس لنفسه عنده قدر.

وقال آخر: أحيي حياءك بمجالسة من يُستحى منه، وقال غيره: اجعل الحياء حكماً على أفعالك.

وقال أحد الفصحاء: سمة الخير الدعة والحياء، وسمة الشر القحة والبذاء، وكفى بالحياء خيراً أن يكون على الخير دليلاً، وكفى بالقحة والبذاء أن يكونا إلى الشر سبيلاً.

وقال آخر: القناعة دليل الأمانة والأمانة دليل الشكر والشكر دليل الزيادة والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

وقال أحد العقلاء: عليك بالحياء والأنفة، فإنك إن استحييت من الفضاحة اجتنبت الخساسة، وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك أحد في مرتبة، وقيل: لا وفاء لمن ليس له حياء. وقال الشاعر:

إذا قلَّ ماءُ الوجه قلَّ حياؤهُ ... ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤهُ
حياءَكَ فاحفظهُ عليكَ وإنّما ... يدلُّ على فعلِ الكريم حياؤهُ

وقال آخر:

إذا لمْ تخشَ عاقبةَ الليالي ... ولمْ تستحِ فاصنعْ ما تشاءُ
فلا والله ما في العيشِ خيرٌ ... منَ الدنيا إذا ذهبَ الحياءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ... ويبقى العودُ ما بقيَ الحياءُ

وقال غيره:

وحاجةٌ دونَ أُخرى قد سنحتُ بها ... جعلتُها للتي أخفيتُ عُنوانا

وإنني لأرى مَنْ لا حياءَ لَهُ | ولا أمانة وسطَ القوم عريانا
وقال غيره:
وربَّ قبيحةٍ ما حالَ بيني | وبينَ ركوبِها إلا الحياءُ
فكانَ هو الدواءُ لها ولكنْ | إذا ذهبَ الحياءُ فلا دواءُ
وقال غيره:
إذا لمْ تصنْ عرضاً ولم تخشَ خالقاً | وتستح مخلوقاً فما شئت فاصنعِ

١٠٩ - التواضع دليل العلم والكبر دليل الجهل

التواضع هو تحمل النفس بالخضوع ومنعها عن الترفع على الناس والاستخفاف بهم وحملها على احترامهم مهما اختلفت درجاتهم وتباينت مشاربهم وعدم الكبر على أحد سواء في ذلك الوضيع والرفيع والصغير والكبير ليحافظ على منزلته في النفوس، ويأخذ مكانته في القلوب، وهي خصلة محمودة تدعو إلى التوادد والتعاون، وتدل على طهارة النفس وسلامة الذوق، فكم رفع التواضع أقواماً، فكانوا هم الألى فازوا برضا ربهم والفضل العظيم، وكم خفض الكبر آخرين فحل عليهم غضب الرحمن، وباؤوا بالخسران المبين.

قال الله تعالى: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ [الشعراء:٢١٥]. وقال تعالى: ﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ [لقمان:١٨]، وقال عز وجل: ﴿وعباد الرحمن الذي يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ [الفرقان:٦٣]. وقال جل شانه: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين﴾ [القصص:٨٣].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا ولا يبغ بعضكم على بعض». وروى قيس بن حازم أن رجلاً أتي به إلى النبي ﷺ فأصابته رعدة، فقال له ﷺ: «هوِّن عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد»، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر». وقال: «اجتنبوا الكبر فإن العبد لا يزال يتكبر حتى يقول الله تعالى لملائكته اكتبوا عبدي هذا في الجبارين». وقال لعمه العباس: «أنهاك عن الشرك والكبر فإن الله يحتجب منهما».

وقال سعد بن أبي وقاص لابنه: يا بني إياك والكبر وليكن ما تستعين به على تركه علمك بالذي منه كنت والذي إليه تصير.

وقال سفيان: السفلة إذا تعلموا تكبروا، وإذا تمولوا استطالوا والكرام إذا تعلموا تواضعوا، وإذا افتقروا استطالوا.

وقال ابن السماك: تواضعك في شرفك، أشرف لك من شرفك.

وقال بعض الحكماء: من اظهر عيب نفسه فقد زكاها، فإذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبرياء تواضعاً وبالعجب تودداً، وذلك من أوكد أسباب الكرامة واقوى موارد النعم وأبلغ الشفعاء إلى القلوب يعطفها إلى المحبة ويثنيها عن البغض. وقال آخر: من نال منزلة فابطرته دل على رداءة أصله وعنصره. وقال غيره: من تكبر على الناس ذل. وقال غيره: عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله، وليس إلى ما يكسبه الكبر من المقت حد، ولا إلى ما ينتهي إليه العجب غاية، حتى إنه ليطفئ من المحاسن ما اشهر، وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة، وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد. وقال غيره: من برئ من ثلاث، نال ثلاثاً من برئ من السرف نال العز، ومن برئ من البخل نال الشرف، ومن برئ من الكبر نال الكرامة.

وقال أحد الأدباء: من ولد في الفقر أبطره الغنى، ومن ولد في الغنى لم يزده إلا تواضعاً.

وقال أحد العلماء: أجهل الناس من قل صوابه وكثر إعجابه وأبغض الناس ذو عسر يخطر في رداء كبر. وقيل: التواضع من أخلاق الكرام، والكبر من أخلاق اللئام، وقيل: تاج المرء التواضع. وقال الشاعر:

واقبحُ شيءٍ انْ يرى المرءُ نفْسه ... رَفيعاً وعـنـدَ العالمـينَ وضيعُ
تَواضعْ تكنْ كالنَّجم لاحَ لناظرٍ ... على صفحاتِ الماءِ وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدخانِ يعلو بنفسهِ ... على طبقاتِ الجوِّ وهو وضيعُ

١١٠- لن تنالوا ما تحبون إلا بالصبر عما تكرهون

وعاقبةُ الصَّبرِ الجميلِ جميلةٌ ... وافضلُ اخلاقِ الرِّجال التجمُّلُ

الصبر هو تحمل النفس مكاره الحياة وعدم الجزع لنوائب الدهر ونكباته، وهو الدواء الشافي لمن ملك الحزن عليه نفسه والباسم المعافي لمن قبض الجزع على زمام عواطفه، بل هو عين الراحة وينبوع الفرح مبيد الهموم ومزيل الغيوم، ولا سبيل إلى تشتيت ما علق بالمرء من الأحزان إلا التمسك به والتعلق بأهدابه فهو ركن حصين في محاربتها، وعماد قويم على صنعها، وناهيك بعظم ثواب الصابرين وسوء عاقبة الجازعين.

قال الله تعالى: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦]. وقال تعالى: ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل:٩٦]. وقال جل شانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر

والصلاة إن اللّه مع الصابرين ﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال عز وجل: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر:١٠]، وقال تعالى: ﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ [لقمان:١٧]، وقال تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقال رسول اللّه ﷺ: «أفضل الإيمان الصبر والسماحة»، وقال عليه الصلاة والسلام: «الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب». وروي عن أنس أن رسول اللّه ﷺ قال: «قال اللّه تعالى: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو في ولده أو في ماله فاستقبلها بصبر جميل استحييت يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً». وعنه أنه قال: «النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وإن مع العسر يسراً». وقال ﷺ: «من أصيب بمصيبة في ماله أو جسده وكتمها ولم يشكها إلى الناس كان حقاً على اللّه أن يغفر له». وقال: «من أعطي فشكر ومنع فصبر وظُلم فغفر وظَلم فاستغفر، فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون».

وقال علي كرم اللّه وجهه للأشعث بن قيس: إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور، وقال: الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو.

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه: أفضل العدة الصبر على الشدة.

وقال ابن مبارك: المصيبة واحدة، فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان لأن إحداهما المصيبة بعينها، والثاني: ذهاب أجره، وهو أعظم من المصيبة.

وعن أكثم بن صيفي: من صبر ظفر.

وحكى كعب الأحبار، أنه مكتوب في التوراة: من أصابته مصيبة فشكا إلى الناس فإنما يشكو ربه.

وحكي أن أعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخاً في دار، فقالت: ما هذا؟ فقيل لها: مات لهم إنسان، فقالت: ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون.

وقال بعض الحكماء: من أحب البقاء فليعد للمصائب قلباً صبوراً. وقال آخر: بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ.

وقال أحد الصلحاء: اصبر لحكم من لا تجد معولاً إلا عليه ولا مفزعاً إلا إليه.

وقال عثمان بن عفان:

خليليَّ لا واللّه ما من ملمّة ... تدومُ على حيٍّ وإنْ هيَ جلت
فإن نزلتْ يوماً فلا تخضعنَّ لها ... ولا تكثر الشكوى إذا النعلُ زلت
فكمْ من كريمٍ قد بُليَ بنوائبٍ ... فصابرَها حتى مضتْ واضْمَحلت

وكمْ غمرةٍ هاجتْ بأمواجِ غمرةٍ تلقيتها بالصبرِ حتى تجلَّت
وكانتْ على الأيامِ نفسي عزيزةً فلمَّا رأتْ صبري على الذلِّ ذلت
فقلتُ لها يا نفسُ موتي كريمةً فقد كانتْ الدُّنيا لنا ثمَّ ولَّت

وقال إبراهيم بن العباس:

ولـرُبَّ نازلـةٍ يضيقُ بها الفتى ذرعاً وعندَ اللّه منها المخرجُ
ضاقتْ فلمَّا استحكمتْ حلقاتُها فُرجتْ وكانَ بَظنِّه لا تُفرجُ

وقال محمد بن بشير الخارجي:

إن الأمورَ إذا سُدَّتْ مسالُكها فالصبرُ يفتحُ منها كلَّ ما ارتتجا
لا تيأسنَّ وإنْ طالتْ مطالبُها إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فرَجا
أخلق بذي الصَّبر أن يحظى بحاجتهِ ومدَّ منَ القرعِ للأبوابِ أن يلجا

١١١- الاقتصاد في الأمور مملكة والسرف لا يعقبه إلا الهلكة

الاقتصاد هو التوسط بين التقتير والتبذير، فلا يجاري المرء من هو أغنى منه في إسرافه وبذخه فيقع في أسر الاستدانة ويصبح فقيراً معدماً فينبذه كل من رآه ويبغضه كل من علم أمره، ولا يبخل في الإنفاق على نفسه وأهله، يشح بالإحسان على البائسين والمحتاجين فيكون عرضة إلى ضرر أطماعهم وهدفاً إلى سوء عاقبة حرمانهم فيعيش، ولا راحة عنده ولا اطمئنان، وكفى المقتصد فخراً أن يعيش عزيز النفس غنياً محبوباً عند اللّه مبجلاً عند الناس.

قال اللّه تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ [الإسراء:٢٩]. وقال تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان:٦٧]، وقال جل شانه: ﴿ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧].

وقال رسول اللّه ﷺ: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة» وقال عليه الصلاة والسلام: «الاقتصاد وحسن السمت والهدي الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة».

وقال أبو بكر رضي اللّه عنه: ما عال مقتصد ولا يعيل. وقال: إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد.

وقال علي كرم اللّه وجهه: دع الإسراف مقتصداً، واذكر في اليوم غداً.

وقال معاوية: ما رأيت تبذيراً إلا وإلى جنبه حق مضيع.

وقال سعيد بن جبير: التبذير هو أن تنفق الطيب في الخبيث.

وقال سفيان الثوري: من كان في يده مال فليصلحه، فإنه في زمان إن احتاج إليه فأول ما يبذل فيه دينه.

وقال سقراط: لتكن عنايتك بحفظ ما اكتسبته كعنايتك باكتسابه.

وقيل لأفلاطون: لمَ تدخر المال وأنت شيخ؟ فقال: لأن يموت الإنسان ويخلف مالاً لعدوه، خير من أن يحتاج إلى أصدقائه في حياته.

وقيل لابن زياد: لمَ تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا. فقال: هي وإن أدنتني منها فقد أغنتني عنها.

وأتى قوم قيس بن عبادة يسألونه حمالة، فصادفوه في حائط له يتبع ما يسقط من الأثمار، فيعزل جيده ورديئه، فقاموا حتى فرغ فكلموه في ذلك، فبذل لهم ما أرادوا. فقال بعضهم: صنيعك هذا مناف لترقيح عيشك، فقال: بما رأيتم من فعلي أمكنني أن أقضي حاجتكم.

وقيل لحكيم: لمَ حفظت الفلاسفة ما في أيديهم؟ فقال: لئلا يقيموا أنفسهم المقام الذي لا يستحقونه، فقد علموا ألا اتكال على ما في أيدي الناس.

وقال بعض الحكماء: التبذير إنفاق المال في غير وجه حق وبذله على وجه لا تقتضيه الحكمة.

وقال أحد الأدباء: من ربى ابنه على الاقتصاد أفاده أكثر مما يخلف له ثروة وافرة.

وقال أحد العقلاء: ما وقع تبذير في كثير إلا هدمه ولا دخل تدبير في قليل إلا ثمره، وقال آخر: إذا أعطيت مالك في غير الحق يوشك أن يجيء الحق وليس عندك ما تعطي منه.

وقال المتلمس:

وحبسُ المالِ أيسرُ منْ فناهْ ... وضربٌ في البلادِ بغيرِ زاد

وإصلاحُ القليلِ يزيدُ فيهِ ... ولا يبقى الكثيرُ معْ الفَسَاد

وقال الشاعر:

أنفقْ بقدرِ ما استفدتَ ولا ... تسرفْ وعشْ فيه عيشَ مقتصد

منْ كانَ فيما استفادَ مُقتصِداً ... لمْ يفتقرْ بعدَها إلى أحدِ

١١٢ - العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق

العدل التزام طريق الحق في كل أمر من أُمور الحياة، وعدم الحيدة عنه قيد شعرة، والبعد عن الظلم أو الميل عن جادة الإنصاف بقصد قضاء بغية أو منفعة تعود عليه، والحقيقة التي لا مراء فيها أنه لا منفعة وراء الظلم ولا فائدة ترجى منه، بل هو طريق وعر المسلك قلما ينجو منه صاحبه، وإن ما يلقاه من مقاطعة الناس له وغضب المولى عليه، لأكبر دليل على جسامة ذنب الظالمين وسوء عاقبة الباغين.

قال الله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ [النحل:٩٠]. وقال تعالى: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ [النساء:٥٨]. وقال تعالى: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ [المائدة:٤٢]. وقال جل شانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ [النساء: ١٣٥]. وقال تعالى: ﴿الا لعنة الله على الظالمين﴾ [هود:١٨]. وقال عز وجل: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ [البقرة:٢٧٠]. وقال تعالى: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ [النمل:٥٢]. وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ [إبراهيم:٤٢].

وقال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة». وقال عليه الصلاة والسلام: «الظلم ظلمات يوم القيامة»، وقال عليه الصلاة والسلام: «أهل الجور وأعوانهم في النار». وعن أبي موسى رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وكذلك اخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد»﴾ [هود:١٠٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام، يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما من أحد يكون على شيء من أُمور هذه الأمة فلا يعدل بينهم إلا كبه الله في النار».

وقال أبو بكر رضي الله عنه لبعض عماله: عليكم بالعدل وتباعدوا عن الجور ولا تغدروا إن عاهدتم ولا تنقضوا إن صالحتم.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل له: إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك.

وقال الأحنف: ما عرضت النصفة على أحد فقبلها إلا تداخلني منه هيبة، ولا ردها أحد إلا طمعت فيه.

وقال أنو شروان: الملك إذا كثر ماله مما يأخذ من رعيته كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلعه من قواعد بنيانه، وقال غيره: المملكة تخصب بالسخاء وتعمر بالعدل وتثبت بالعقل وتحرس بالشجاعة.

وقال بعض الحكماء: بالعدل والإنصاف تكون مدة الائتلاف. وقال آخر: ليس شيء أقرب إلى تغيير نعمة وتعجيل نقمة من الإقامة على الظلم. وقال غيره: شر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم.

وقال بعض الفضلاء: يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم. وقال آخر: إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه، وقال غيره: دعوتان أرجو إحداهما وأخاف الأخرى، دعوة مظلوم أعنته وضعيف ظلمته.

وقال بعض الصلحاء: إذا ظلمت من دونك عاتبك من فوقك، وقال آخر: من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه، ومن طال تعديه كثرت أعاديه. وقال غيره: لا ينبغي للإمام ان يكون جائراً، ومن عنده يلتمس العدل، ولا للعالم ان يكون سفيهاً ومن عنده يلتمس العلم والحلم.

وقال بعض البلغاء: في معاقبة الظالم أعظم تعزية للمظلوم، وأبلغ تحذير للظالم من إنزال العقوبة وإن تنفست مدته. وقال آخر: الظالم مهلك ثم مهالك، كالنار إذا وقعت في يابس الشجر لا تبقي معها مع تمكنها شيئاً حتى إذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخمدت.

وقال أحد العلماء: إياك والبغي فإنه يصرع الرجال ويقطع الآمال. وقال آخر: العدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة.

وفي الأمثال: من سل سيف العدوان أغمد في رأسه، وقيل: الظلم مرتعه وخيم، وأعجل الأشياء عقوبة البغي. وقال العتابي:

بغيتَ فلمْ تقعْ إلا صريعاً ... كذاكَ البغيّ يصرعُ كلّ باغِ

وقال الشاعر:

ما زالَ يظلمني وأرحمهُ ... حتى رثيتُ لهُ منَ الظُلمِ
العدلُ يكفلُ للشعوبِ بقاءَها ... والعلمُ ينعيْ وفرها وثراءَها
وما منْ يدٍ إلا يدُ اللهِ فوقها ... ولا ظالمٌ إلا سيبلى بأظلمِ

وقال غيره:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مُقتدراً ... فالظلمُ يرجعُ عقباهُ إلى الندمِ
تنامُ عيناكَ والمظلومُ منتبهٌ ... يدعو عليكَ وعينُ اللهِ لمْ تنمِ

وقال غيره:

العدلُ روحٌ بهِ تحيا البلادُ كما ... دمارها أبداً بالجورِ ينحتمُ
الجورُ شينٌ بهِ التعميرُ ممتنعُ ... والعدلُ زينٌ بهِ التمهيد ينتظمُ

وقال غيره:

ظهورُ العدلِ يمحو كلَّ ظلمٍ ... إذا جاءَ الصباحُ مضى الظلامُ

١١٣- العفو من مكارم الأخلاق

العفو هو الصفح عند القدرة عمن هفا، وعدم الأخذ بالثار ممن ارتكب جرماً وهو من شيم الكرام يحبب المرء لمعاصريه ويحفظ قدره بين معارفه ويزيل ما في القلوب من عداوة وبغضاء ويدعو إلى الارتباط والائتلاف، لا يعدم صاحبه ناصراً في الدنيا ولا يضيع له أجراً في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى:٤٠]. وقال تعالى: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ [المائدة:١٣]. وقال جل شأنه: ﴿وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ [النور:٢٢]. وقال عز وجل: ﴿عفا الله عما سلف﴾ [المائدة:٩٥]. وقال تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ [البقرة:٢٣٧]. وقال تعالى: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ [الحجر:٨٥].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق، قال أبو هريرة: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله عفو يحب العفو». وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى بن عمران: يا رب من أعزُّ عبادك عندك، قال: من إذا قدر غفر». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من عفا عند القدرة عفا الله عنه يوم العسرة». وعنه ﷺ أنه قال: «ينادي منادٍ يوم القيامة من كان له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس» وقال: «الخير ثلاث خصال: فمن كن فيه فقد استكمل الإيمان من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا قدر عفا». وعن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: تحلم على من جهل عليك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك»، وقال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً».

وقال علي كرم الله وجهه: إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه.

وقال الأحنف: إياكم ورأي الأوغاد، قالوا وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عاراً.

وأسمع رجلٌ عمر بن عبد العزيز كلاماً، فقال عمر: أردت أن يستفزني الشيطان لعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً انصرف رحمك الله.

وكتب أبروزير إلى ابنه شيرويه: إن كلمة منك تسفك دماً وأُخرى منك تحقن دماً، وإن نفاذ أمرك مع كلامك، فاحترس في غضبك من قولك أن تخطئ، ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يجف، فإن الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلماً.

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي: إني شاورت في أمرك فأشاروا عليَّ بقتلك إلا أني وجدت قدرك فوق ذنبك، فكرهت القتل للازم حرمتك، فقال: يا أمير المؤمنين إن المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث ما عودته من العفو، فإن عاقبت فلك نظير وإن عفوت فلا نظير لك.

وقال بعض الحكماء: أفضل الناس من تواضع عن رفعة وعفا عن قدرة وأنصف عن قوة. وقال آخر: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وقال غيره: ليس الكرم عقوبة من لا يجد امتناعاً عن السطوة.

وقال بعض البلغاء: أحسن المكارم عفو المقتدر وجُود المفتقر. وقال آخر: ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام. وقال أبو الطيب:

وما قتلُ الأحرارِ كالعفوِ عنهمو ... ومنْ لكَ بالحرِّ الذي يحفظُ اليدا
إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتهُ ... وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا
فوضعُ الندى في موضعِ السَّيفِ بالعلا ... مضرٌّ كوضع السَّيفِ في موضعِ الندى

وقال الشاعر:

إذا ما لذنبٍ وافى باعتذارٍ ... فقابلهُ بعفوٍ وابتسامِ
ولا تحقدْ وإن ملئتَ غيظاً ... فإنَّ العفوَ منْ شيمِ الكرامِ

وقال آخر:

وصل الكرام وإنْ رموكَ بجفوةٍ ... فالصفحُ عنهمْ والتجاوزُ أصوبُ

قال غيره:

وإنَّ أولى الملا بالعفوِ أقدرهم ... على العفوِ أن يظفرَ بذي زللِ

وقال غيره:

فإن كنتَ ترجو في العقوبةِ راحةً ... فلا تزهدنَّ عندَ التجاوزِ في الأجرِ

وقال غيره:

خُذ العفوَ واصفحْ عن أُمورٍ كثيرةٍ ... ودعْ كدرَ الأخلاقِ واعمدْ لما صفا

وقال غيره:

إذا اعتذرَ المسيءُ إليكَ يوماً ... من التقصيرِ عذر فتى مقرٍّ
فصنهُ عن عقابكَ واعفُ عنهُ ... فإن الصفحَ شيمةُ كلِّ حرٍّ

١١٤- المروءة رمز الإنسانية الكاملة

المروءة صفة للنفس تحملها على فعل كل خير ودفع كل ضر، كلما وجدت لذلك سبيلاً، فهي عنوان علو الهمة وشرف النفس ودليل الكرم ومن دواعي الألفة ودوام المحبة

يرنو صاحبها دائماً إلى الكمال ويرغب في التمسك بأجمل الخصال، فمن تجرد من المروءة فقد سفلت نفسه وانحطت أخلاقه وقلت إخوانه فلا يجد من يعطف عليه إذا أصيب بمكروه، أو يتودد إليه إذا نزلت به نازلة، وما لذة العيش إلا بالتعارف والتعاون، فيقضي أيامه مبغوضاً ويضيع حياته وهو بعين الاحتقار مرموق.

قال اللّه تعالى: ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر: ٩].

وقال رسول اللّه ﷺ: «من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن اللّه يحب إغاثة اللهفان» وقال عليه الصلاة والسلام: «إن حقاً على المؤمنين أن يتوجع بعضهم لبعض كما يالم الجسد إذا تالم عضو منه» وقال: «إن اللّه يحب معالي الأمور ويكره دنيها وسفاسفها»، وقال: «علو الهمة من الإيمان».

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: لا تصغرن هممكم فإني لم أرَ أقعد عن المكرمات من صغر الهمم.

وقال ابن عائشة القرشي: لولا أن المروءة صعب محملها لما ترك أصحاب اللؤم منها شيئاً.

وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال: صدق اللسان ومؤاساة الإخوان وذكر اللّه تعالى في كل مكان.

وقال بعض الحكماء: من المروءة ان يبذل الإنسان لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب. وقال آخر: من اجار جاره اعانه اللّه وأجاره، وقال غيره: الهمة راية الجد.

وسئل بعضهم عن الفرق بين العقل والمروءة، فقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تامرك بالاجمل.

وقال بعض الأدباء: ليس من المروءة أن تكون أوانيك من الفضة وجارك طاوٍ وغريمك عارٍ.

وقال بعض البلغاء: من شرائط المروءة أن يتعفف المرء عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على ما يسترق ولا يعين قوياً على ضعيف ولا يؤثر دنيًّا على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والإثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم. وقال آخر: علو الهمم بذر النعم.

وقال بعض العلماء: إذا طلب رجلان أمراً ظفر به أعظمهما مروءة، وقيل: المروءة أنك لا تعمل عملاً في السر تستحي منه في العلانية. وقال الشاعر:

إنَّ المروءةَ ليسَ يُدركها امرؤٌ ... ورثَ المكارمَ عن أبٍ فأضاعها
أمرتهُ نفسٌ بالدناءةِ والخنا ... ونهتهُ عنْ سُبلِ العُلا فأطاعها
فإذا أصابَ من المكارمِ خلَّةً ... يبني الكريمُ بها المكارمَ باعها
مررتُ على المروءةِ وهي تبكي ... فقلتُ على مَ تنتحبُ الفتاةُ
فقالتْ كيفَ لا أبكي وأهلي ... جميعاً دونَ خلقِ اللّهِ ماتوا

١١٥- القناعة كنز لا يفنى

القناعة هي الرضا بما قسم للمرء من متاع الحياة الدنيا وعدم النظر إلى ما للغير، فليس للحياة بدون قناعة لذة ولا من غير رضا قيمة، وما ضاقت الدنيا إلا في وجه من اتخذ الجشع طبعاً والحرص ديدناً ولا عاش سعيداً إلا من كان الرضا حليفه والزهد قرينه.

قال اللّه تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزق ربك خير وأبقى﴾ [طه: ١٣١].

وقال رسول اللّه ﷺ: «القناعة مالٌ لا ينفد وكنز لا يفنى» وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «انتظار الفرج من اللّه عبادة. ومن رضي بالقليل من الرزق رضي اللّه تعالى عنه بالقليل من العمل». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أدِّ ما افترض اللّه عليك تكن من أعبد الناس، واجتنب ما حرم اللّه عليك تكن من أورع الناس وارض بما قسم اللّه لك تكن من أغنى الناس». وعنه أنه قال: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع».

وقال علي رضي اللّه عنه: من رضي بما قسم اللّه له استراح قلبه وبدنه.

وقال أكثم بن صيفي: من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة.

وقال سعد بن أبي وقاص: يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فإنها مال لا ينفد، إياك والطمع فإنه فقر حاضر.

وقال بعض الحكماء: إن من قنع كان غنياً وإن كان مقتراً ومن لم يقنع كان فقيراً وإن كان مكثراً. وقال آخر: القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر.

وقال غيره: الغني من استغنى باللّه والفقير من افتقر إلى الناس. وقال غيره: من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع. ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه وجمع شمله. وقال غيره: اشتر ماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرم.

وقال بعض الصلحاء: يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائن اللّه ملآنة وخزائنه لا تنفد أبداً، ولا تانس بغير اللّه فإن أنست بغيره تعالى فاتك الخير كله. وارض بما قسم اللّه لك فتريح قلبك وبدنك، ولا تطالبه برزق غد، كما لا يطالبك بعمل غد، فإنه لا ينسى من عصاه. فكيف ينسى من أطاعه وهو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط. وقال آخر: سرور الدنيا أن تقنع بما رزقت وغمها أن تغتمّ لما لم ترزق.

وقال بعض العقلاء: قليل يكفي خير من كثير يطغي. وقال آخر: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لم يخطر ببالك فلم تقله. وقال غيره: من رضي بما قسم اللّه له بارك له فيه. وقيل: القناعة رأس الغنى، وقال علي كرم اللّه وجهه:

أفادتني القناعةُ كل عزٌ ... وأيُّ غنىً أعزّ من القناعةِ
فصيِّرها لنفسكَ رأسَ مالٍ ... وصيِّر بعدَها التقوى بضاعةِ

وقال أبو العتاهية:

غني النَّفسِ ما يكفيكَ من سدٌ فاقةٍ ... فإن زادَ شيئاً عادَ ذاكَ الغنى فقراً

وقال أبو فراس الحمداني:

إنَّ الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسه ... ولو أنَّه عاري المناكبِ حافِ
ما كلّ ما فوقَ البسيطةِ كافياً ... وإذا قنعتَ فبعضُ شيءٍ كافِ

وقال الشاعر:

ومن يطلبِ الأعلى من العيشِ لم يزلْ ... حزيناً على الدُّنيا رهينَ غُيوبِها
وإذا شئتَ أنْ تحيا سعيداً فلا تكنْ ... على حالةٍ إلا رضيتَ بدونِها

وقال آخر:

اقنعْ بأيسرِ رزقٍ أنتَ نائله ... واحذرْ ولا تتعرَّضْ للإرادات
فما صفا البحرُ إلاّ وهو منقصٌ ... ولا تعكّر إلاّ في الزيادات

وقال غيره:

ورأيتُ أسبابَ القناعة أكّدتْ ... بعُرى الغنى فجعلتُها لي معقلا
فإذا نَبا بي منزلي جاوزتُه ... وجعلتُ منهُ غيرهُ لي منزلا
وإذا غلا شيءٌ عليَّ تركتُه ... فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إذا غَلا

وقال غيره:

كفى من العيشِ ما قد سدَّ من عوزٍ ... ففيه للحرِّ قنيانٍ وغنيان
وذو القناعةِ راضٍ منْ معيشته ... وصاحبُ الحرصِ إن أثرى فغضبان

وقال غيره:

فاقنعْ ففي بعضِ القناعةِ راحةٌ ... ولقدْ كسى ثوبَ المذلَّةِ أشعبُ

وقال غيره:

العيشُ لا عيشَ إلا ما قنعتَ بهِ   قدْ يكثرُ المالُ والإنسانُ مفتقرُ

وقال غيره:

واقنعْ فما كنزُ القناعةِ نافذاً   وكفى بِهـا عِـزاً لغيرِ مماري

١١٦- العفاف حلية الأشراف

العفة هي اجتناب ما لا يحل ولا يجمل وصد النفس عن تتبع شهواتها الدنيئة أو السير وراء أطماعها الردئية، فما أسعد من ملك عنان نفسه وقبض على زمامها فإنه يأمن من الوقوع في مهاوي الردى ومواطن الهلاك، وما أشقى من ترك لنفسه الحبل على غاربها فغرقت في لذاتها وشهواتها، فبشره بسوء وسيعلم بعد الصدمة الأخرى عاقبة غيه، ويندم ولات حين مندم.

قال اللّه تعالى: ﴿ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ [النساء:٦]. وقال جل شانه: ﴿يحسبهم الجاهلُ أغنياء من التعفف﴾ [البقرة:٢٧٣]، وقال عز وجل: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم اللّه من فضله﴾ [النور:٣٣].

وقال رسول اللّه ﷺ: «من طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء»، وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أربع من كن فيه حرمه اللّه تعالى على النار وعصمه من الشيطان، من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي وحين يغضب». وقال عليه الصلاة والسلام: «عفُّوا عن النساء تعف نساؤكم». وقال: «ما زاد اللّه عبداً بعفة إلا عزاً». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما زان اللّه العبد بزينة أفضل من زهادة في الدنيا وعفاف في بطنه وفرجه». وعنه أنه قال: «إذا أراد اللّه بعبد خيراً فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره بعيوبه». وقال: «جلساء اللّه غداً أهل الورع والزهد في الدنيا». وقال: «اجعلوا بينكم وبين الحرام ستراً من الحلال، ومن لم يفعل ذلك كان كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه».

وقال علي كرم اللّه وجهه: الزهد ثروة والورع جنة نعم القرين الرضا.

وقال أنو شروان لابنه هرمز: الكامل المروءة من حسن دينه ووصل رحمه وأكرم إخوانه.

وقال ابن المقفع: الهوى آفة العفاف.

وسئل عمرو بن العاص عن المروءة فقال: هي العفة عما حرم اللّه تعالى والمحبة فيما أحل اللّه تعالى.

وقال بعض الحكماء: من أحب المكارم اجتنب المحارم. وقال آخر: عار الفضيحة يكدر لذتها، وقال غيره: الرضا بالكفاف يؤدي إلى العفاف.

وقيل لسفيان: ما الزهد في الدنيا؟ قال: الزهد في الناس.

وقال بشار بن برد:

ولقدْ أصرفُ الفؤادَ عن الشي ء حياءً وحبُّه في السوادِ
أُمسكُ النَّفسَ بالعفافِ وأمسي ذاكراً في غد حديث الأعادي

وقال الشاعر:

إنَّ القناعةَ والعفافُ ليُغنيان عنْ الغنى
فإذا صَبرتَ على المُنى فاشكرْ فقد نلتَ المُنى

وقال آخر:

عفُّوا تعفّ نساؤكم في المحرمِ وتجنَّبوا ما لا يليقُ بمسلمِ

وقال غيره:

ما الحظُّ إلا امتلاكُ المرءِ عفَّتَه وما السعادةُ إلا حسنُ أخلاقِ

١١٧- المشورة سبيل النجاح

المشورة استطلاع المرء آراء من عركوا الدهر، وعركهم من ذوي الأفكار الصائبة والعقول الراجحة في مسائل الحياة قبل الشروع فيها حتى لا يصيبه منها ضرر ولا يمسه فيها زلل فما ضل من استشار، ولقد كان الألى مع ما كانوا عليه من العقول الراجحة والأفكار السامية لا يشرعون في عمل إلا إذا عقدوا الجماعات، وطرحوا الأمر بينهم شورى يتباحثون فيه حتى يتبينوا الطريق الأوضح فيسلكوه ويعرفوا السبيل الوعر فيجتنبوه، وبهذا قضوا حياتهم سعداء آمنين مطمئنين، وقد أمر اللّه تعالى به نبيه، فقال جل شأنه: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران:١٥٩]. وقال تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى:٣٨].

وقال رسول اللّه ﷺ: «لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على أُموركم بالمشاورة».

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «الحزم أن تشاور ذا رأي ثم تطيعه»، وعنه أنه قال: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار». وقال عليه الصلاة والسلام: «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا». وقال: «من أراد أمراً فشاور فيه امرأً مسلماً وفقه اللّه لأرشد أُموره»، وقال: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس، وما استغنى مستبد برأيه، وما هلك أحد عن مشورة، فإذا أراد اللّه بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه».

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور فيسددها برأيه، ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يامره أهل الرأي، ورجل حائر بأمره لا يأتمر رشداً ولا يطيع مرشداً.

وقال علي كرم اللّه وجهه: نعم المؤازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد، وقال أيضاً: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي اللّه تعالى عنه: إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأي ولا يفقد حزم.

وقال لقمان الحكيم لابنه: شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وأنت تأخذه مجاناً.

وقال عبد اللّه بن مروان: لأن أخطئ، وقد استشرت أحب إليَّ من أن أصيب وقد استبددت برأيي من غير مشورة.

وقال عبد اللّه بن الحسن لابنه محمد: احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل إن كان عدواً، فإنه يوشك أن يورطك بمشورته فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل.

وقال الجاحظ: المشورة لقاح العقول ورائد الصواب والمستشير على طرف النجاح واستنارة المرء برأي أخيه، من عزم الأمور وحزم التدبير.

وقال سيف بن ذي يزن: من أعجب برأيه لم يشاور، ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيداً.

وقال عبد الحميد الكاتب: المشار في رأيه ناظر من ورائه.

وقال بعض الحكماء: من طلب الرخص من الإخوان عند المشاورة ومن الأطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبه فقد قتل نفسه. وقال آخر: من استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول. وقال غيره: إذا شاورت العاقل كان عقله لك. وقال غيره: من شاور أهل النصيحة سلم من الفضيحة. وقال غيره: لا يهلك امرؤ عن مشورة، وسئل بعضهم: أي الأمور أشد تأييداً للعقل وأيها أشد إضراراً به، فقال أشدها تأييداً له ثلاثة: مشاورة العلماء وتجربة الأمور وحسن التثبت. وأشدها إضراراً به ثلاثة: الاستبداد والتهاون والعجلة.

وقال بعض الأدباء: من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل.

وقال بعض البلغاء: الخطأ من الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد. وقال آخر: من الحزم لكل ذي لب ألا يبرم أمراً ولا يمضي عزماً إلا بمشورة ذي الرأي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح. وقال غيره: من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه رأي العقلاء ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذ ربما زل، والعقل الفرد ربما ضل. وقال غيره: إذا أشكلت عليك الأمور وتغير لك الجمهور فارجع إلى رأي العقلاء وافزع إلى استشارة العلماء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستعداد فلأن تسأل وتسلم خير لك من أن تستبد وتندم وقيل في منثور الحكم: من أكثر من المشورة لم يعدم عند

الصواب مادحاً وعند الخطأ عاذراً. وقيل أيضاً: من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه. وقيل: من كمال عقلك استظهار على عقلك برأي غيرك.

وقال بشار بن بُرد:

إذا بلغَ الرأيُ المشورةَ فاستعنْ ... برأيٌ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولا تحسبِ الشورى عليكَ غضاضةً ... فإنَّ الخوافي قوةٌ للقوادمِ

وقال صفي الدين الحلي:

منْ دبَّرَ العيشَ بالآراءِ دامَ لهُ ... صفواً وجاءَ إليه الخطبُ مُعتذرا
يهونُ بالرأيِّ ما يَجري القَضاءُ بهِ ... من أخطأَ الرأيَ لا يستذنبُ القَدَرا

وقال الشاعر:

إن اللبيبَ إذا تفرَّقَ أمرهُ ... فتقَ الأمورَ مُناظراً ومُشاوراً
وأخو الجهالةِ يستبدُّ برأيهِ ... فتراهُ يعتسفُ الأمورَ مخاطراً

وقال آخر:

الرأيُ كالليل مسودٌّ جوانبهُ ... والليلُ لا ينجلي إلا بإصباحِ
فاضممْ مصابيح آراءِ الرجالِ إلى ... مصباحِ رأيكَ تزددْ ضوءَ مصباحِ

وقال غيره:

تأنَّ وشاورْ فإنَّ الأمورَ ... منها جليٌّ ومستغمضِ
فرأيان أفضلُ من واحدٍ ... ورأيُ الثلاثةِ لا ينقضِ

وقال غيره:

عقلُ الفتى ليس يُغني عن مشاورة ... كحدة السيفِ لا تُغني عن البطلِ
إن المشاورَ إما صائبٌ غرضاً ... أو مخطئٌ غيرَ منسوبٍ إلى الخطلِ

وقال غيره:

شاورْ سِواكَ إذا نابتكَ نائبةٌ ... يوماً وإن كنتَ من أهلِ المشوراتِ
فالعينُ تَنظُرُ منها ما دَنا وناى ... ولا تَرى نفسَها إلاّ بمرآةِ

وقال غيره:

خليليَّ ليس الرأيُ في صدرِ واحدٍ ... أشيروا عليَّ اليومَ ما تريانِ

١١٨- من جعل مطيته الروية والتؤدة كان خليقاً بالنجاح ولو أحاطت به الأخطار

الروية والتؤدة هما الشروع في الأعمال بعد التفكير فيها والوقوف على عواقبها ثم السير فيها مع التاني ليكون الإنسان بعيداً عن الخطل مصوناً من الزلل، فإن الطيش والخفة

كثيراً ما كانا سبباً في الأضرار وفساد الأعمال وعدم الوصول إلى الغرض منها، وإن نجاح الأمل لمعقود دائماً لمن سلك سبيل التأمل، وعبر طريق التأني.

والسلامة حليفة من ضرب في الأمور بفكر حاضر وجنان ثابت.

قال اللّه تعالى تحذيراً من العجلة: ﴿خُلقَ الإنسان من عجل سأريكم آياتيَ فلا تستعجلون﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وقال رسول اللّه ﷺ: «إذا أردت أن تفعل أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان خيراً فامض وإن كان شراً فانته». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يريك اللّه منه المخرج». وقال عليه الصلاة والسلام: «التؤدة في كل خير إلا في عمل الآخرة». وعنه أنه قال: «التأني من اللّه والعجلة من الشيطان».

وقال علي كرم اللّه وجهه: من استطاع أن يمنع نفسه من أربع خصال فهو خليق الا ينزل به مكروه: اللجاج والعجلة والتواني والعجب، فثمرة اللجاج الحيرة وثمرة العجلة الندامة، وثمرة التواني الذلة وثمرة العجب البغضة. وقال أيضاً: لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده، فإن الناس لا يسألون في كم يوم فرغ، وإنما ينظرون إلى إتقانه وجودته.

وقال المهلب: أناة في عواقبها درك، خير من عجلة في عواقبها فوت.

وقال بعض الحكماء: مع العجلة الندامة ومع التأني السلامة. وقال آخر: من تأنى نال ما تمنى. وقال غيره: العجز مع الواني والفوت مع التواني. وقال غيره: طلب ما لا يدرك عجز، ورب عجلة تعقب ريثاً.

وقال بعض الأدباء: لا يجد العجول فرحاً ولا الغضوب سروراً ولا الملول صديقاً. وقال آخر: يد العجلة تغرس شجرة الندامة. وقال غيره: من أسرع في الجواب حاد عن الصواب.

وقال أحد العلماء: من ركب العجل أدركه الزلل. وقال آخر: التأني حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة.

وقال بعض العقلاء: العجول مخطئ وإن ملك، والمتأني مصيب وإن هلك. وقال آخر: إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يفهم ويعزم قبل أن يفكر ويحمد قبل أن يجرب. وقيل: لا تقل بغير تفكير ولا تعمل بغير تدبير. وقيل أيضاً: من فكر أبصر. وقال الثعلبي:

قدْ يُدركُ المُتأني بعضَ حاجته ... وقد يكونُ مع المستعجلِ الزللُ
وقدْ تفوتُ على قومٍ حوائجهمْ ... هو التَّراخي وكانَ الرَّأيُّ لو عجِلوا

وقال المتنبي:

الرأيُ قبلَ شجاعة الشُّجعان ... هو أولُ وهيَ المحلُّ الثاني

فإذا هُما اجْتمعا لنفسٍ حُرَّةٍ ... بلغتْ منَ العلياء كلَّ مكانِ

ولربَّما طعنَ الفتى أقرانَهُ ... بالرأيِّ قبلَ تطاعُنِ الأقرانِ

وقال أبو الفتح البستي:

فللتدابير فرسانٌ إذا ركضوا ... فيها أبرّوا كمَا للحرب فرسان

وللأمورِ مواقيتٌ مُقدرةٌ ... وكلُّ أمرٍ لهُ حدٌّ وميزان

فلا تكنْ عجِلاً في الأمرِ تطلبهُ ... فليسَ يحمدُ منْ ذي الضَّجِ بحران

وقال الشاعر:

ذو الحزمِ لا يبتدي أمراً يهمُّ بهِ ... حتى يُطالعَ ما تبدو عواقبهُ

وقال آخر:

واستأنِ تظفرْ في أموركَ كُلها ... وإذا عزمتَ على الهُدى فتوكَّلِ

وقال غيره:

ومنْ لمْ يتئدْ في كلِّ أمرٍ ... تخطَّاهُ التدارُكُ والمنالُ

وقال غيره:

تأنَّ متئداً فيما ترومُ ولا ... تعجلْ وإنْ خلقَ الإنسانُ من عَجَلِ

وقال غيره:

تأنَّ ولا تضقْ للأمرِ ذرعاً ... فكمْ بالنُّصحِ يظفر منْ تأنّى

وقال غيره:

خليليَّ لا تستعجلا وانظرا غداً ... عسى أنْ يكونَ الرِّفقُ في الأمرِ أرشدُ

١١٩- الأمانة سر النجاح وداعي التقدم

الأمانة هي رعاية حقوق اللّه تعالى بتادية ما على المرء من الفرائض والواجبات، فلا يخون له عهداً ولا يجحد له فضلاً، وكذلك حفظ حقوق عباده فلا يطمع في وديعة اؤتمن عليها أو ينكر مالاً وكل إليه أمر حراسته، فليس من الدين ولا من العقل والكرامة أن يستحل الإنسان لنفسه مالاً ليس له فيه حق بعد أن اعتقد به ذووه خيراً وظنوا فيه حسناً، وكيف يرضى أن يبوء بغضب اللّه تعالى عليه وبغض الناس له، لا أظن أن صاحب الشيم الكريمة والأصول العريقة يرضى لنفسه أن يوصم بمثل ذلك وأخاله يترفع عن أن ينسب إليه عذر أو خيانة.

قال اللّه تعالى: ﴿إن اللّه يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ [النساء:٥٨].

وقال: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ [المؤمنون:٨]. وقال جل شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا اللّه والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ [الأنفال:٢٧]. وقال عز وجل: ﴿إن اللّه لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ [النساء:١٠٧].

وقال رسول اللّه ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك». وعن أنس بن مالك رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «تقبلوا لي ستاً أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف وإذا اؤتمن فلا يخن» وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: وكيف إضاعتها يا رسول اللّه؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تزال أُمتي بخير ما لم ترَ الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً» وقال: «الأمانة تجلب الرزق، والخيانة تجلب الفقر»، وعن عمرو بن الحمق رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «أيما رجل أمن رجلاً على دمه ثم قتله فأنا بريء من القاتل وإن كان المقتول كافراً». وقال ﷺ لسيدنا أبي بكر رضي اللّه عنه: «عليك بصدق الحديث ووفاء العهد وحفظ الأمانة فإنها وصية الأنبياء».

وقال خالد الربعي: قرأت في بعض الكتب السالفة أن مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الأمانة تخان والإحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس.

وقال بعض الحكماء: لو علم مضيع الأمانة ما في النكث والخيانة لقصّر عنهما عنانه. وقال آخر: من خان مان ومن مان هان وتبرأ من الإحسان. وقيل في منثور الحكم: من يخن يهن ومن الكرم الوفاء بالذمم. وقيل أيضاً: من ضيع الأمانة ورضي الخيانة فقد برئ من الديانة. وقال الشاعر:

واعملْ بمفروضِ الأمانةِ والتُّقى　　　وانه عنْ النُّكرِ الفظيعِ وفِعْله

وقال آخر:

وإذا اؤتمنتَ على الأمانةِ فارعها　　　إنَّ الكريمَ على الأمانةِ راعي

١٢٠ - العدل أساس الملك

للّه هذه الكلمة ما أكبر أمرها وأعظم سرها، فلقد وضحت بها السبل وأشرقت الأرجاء وبسطت الأرض ورفعت السماء ووضع الميزان وبثت روح الراحة في العمران، كلمة هي عنوان صالح الأعمال في الحال والمآل وهي الأصل الأصيل والظل الظليل والشجرة التي تجنى منها ثمار العوارف ويتفيأ على جميع الكائنات ظلها الوارف، كلمة كلما ذكرت محت الكروب وأخذت بمجامع القلوب وملأتها سروراً وأفاضت عليها نوراً تتعطر الأكوان

بأنفاسها الزكية وتنتعش الأرواح برياضها البهية، تلك كلمة العدل الذي هو روح الوجود وقوام كل موجود له أذعنت الأبطال وانقادت شم الجبال وبه صار الموات خصباً واليابس رطباً والضيق فسيحاً والعليل صحيحاً فهو شفاء الأبدان، وأصل كل إحسان أمر به رب العالمين وأقامه سيد المرسلين ذلك هو نبراس الهدى به تنجلي ظلمات الغي والردى والقطب الذي دارت عليه أرجاء الشرائع والأس الذي شيدت عليه شريعتنا الغراء وملتنا السمحاء فالمستمسك به مستمسك بالشرع القويم ومهتد إلى الصراط المستقيم والحائد عن طريقه واقع في شرك الضلال ورام بنفسه في مهاوي الوبال.

فالعز في اقتفاء آثاره والاهتداء بأنواره والذل في عدم الوقوف عند حده حتى في نفس ضده.

فالعدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق، به تلتئم الشعوب وتأتلف القلوب وتتصل أسباب النجاح وتنشر أعلام الفلاح وتخصب البلاد وتسعد العباد. قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النحل: ٩٠]. وفي الحديث: «بالعدل قامت السماء والأرض». وقال الشاعر:

عنْ العدلِ لا تعدُلْ وكنْ متيقِّظاً ... وحُكمكَ بينَ النَّاسِ فلْيكُ بالقسطِ
وبالرفـقِ عاملهُـمْ وأحسـنْ إليهـمْ ... ولا تُبدلنَّ وجهَ الرِّضا منكَ بالسُّخطِ
وحـلِّ بـدُرِّ الحقِّ جـيدَ نظامِهِمْ ... وراقِبْ إلهَ الخلقِ في الحلِّ والربطِ

فالعدل هو التوازن بين الأشياء ووضعها في مواضعها والإنصاف استيفاء الحقوق مادياً وأدبياً، والرحمة فوق العدل.

١٢١- العدل بين الأجرام وسائر الأجسام

اقتضت حكمة الحكيم العليم في خلقه أن جعل بين جميع أجزائه من الأكبر إلى الأصغر ميلاً طبيعياً وجذباً عاماً يكاد يقضي عليها بالاتحاد، لولا ما ألقي فيها من قوة الثقل التي بها قاومت تلك القوة فحفظت أحيازها وتوازنت، وهذا التوازن هو الذي نسميه بالعدل فيما بين الأجرام وسائر الأجسام، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾ [الرحمن:٧]. فعلى دعائم العدل قامت الأرض والسماوات وتزينتا بأنواع المبرات فالشمس والقمر وسائر الكواكب والأفلاك والأرض من ظاهر وباطن جميعها لا قوام له إلا على تلك الدعامة، فلو فارق شيء منها خطة العدل فني لا محالة.

فالعدل هو الذي يحفظ لها قانون التساوي والبقاء على هذا النظام البديع الإحكام، ولولاه لبغى بعضها على بعض وتصادمت وتلاطمت واختلَّ نظامها ومحى رسمها وذهبت أدراج الرياح هباء منثوراً.

١٢٢- عدل الإنسان مع نفسه

إذا أنتَ لم تعرفْ لنفسكَ حقَّها هواناً بِها كانتْ على النَّاسِ أهونا

فكيف تظلمها حقها ومن لم يعدل بنفسه، فأولى أن يحل في رمسه، وكيف لا وقد جافى جنبه بذلك عن مضاجع الخير والإحسان وألقى بنفسه في مهاوي الذل والخسران، وأهمل في جانبها العدل والوفاء فحياته والممات سواء.

حياتُنا كالموتِ إن لم تكنْ نهجاً إلى تخليدِ ذكرٍ يدومُ

وهل يرجى ممن أساء إلى نفسه أن يحسن إلى من عداه فعدل الإنسان مع نفسه حملها على المصالح وصدها عن القبائح ويختار لها ما هو الأنفع والأصلح دنيا وأُخرى ويهذبها ويعودها التطبع بمكارم الأخلاق.

والنفسُ كالطفلِ إنْ تهملهُ شبَّ على حبِّ الرَّضاعِ وإن تفطمهُ يَنفطِمِ

ومن ذا الذي يحب لنفسه العطب وسوء المنقلب ويرضى بالقعود عن طلاب السعود ويرمي بها في بحبوحة الهوان ولا يرعى لها من شؤون، أليس ذلك بحيوان أعجم أو حجر أصم، لا بل هو أسوأ حالاً وأكسف بالاً، وماذا يصنع ﴿واقترب الوعد الحق، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا﴾ [الأنبياء:٩٧]، ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [غافر:٥٢].

١٢٣- عدل الراعي مع رعيته

مما لا يحتاج إلى برهان ولا يختلف فيه اثنان أن الراعي العادل خير من المطر الوابل، باسمه تساجلت الأطيار في رياض السعود ومن أفقه أشرقت الأقمار على كل الوجود.

ذلك هو الأمر الذي سارت بحديثه الركبان في كل مكان ونادى به المنادي في كل ناد حتى أصبح أفواه الرجال مثلاً من الأمثال، ولا أعني بالراعي خصوص الأمير، بل ما يعم الكبير والصغير عملاً بقوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته». فالسلطان في ملكه راع ومسؤول عن رعيته والرجل في أهل بيته، والمرأة في بيت زوجها، والناظر في مدرسته وهلم جراً.

فبالعدل تخصب الأرض وتثمر الأموال وتنتظم الأحوال وتدر الأرزاق ويزول الشقاق وبه يستقيم الدين ويقوى حبله المتين.

فالدِّينُ بالمُلكِ يقوى والملكُ بالدِّينِ يبَقى

فإذا قاد الأمة راعيها بازمته ونهج على شرعته اتصلت الأسباب، وتفتحت الأبواب وسهل كل عسير في الزمن اليسير وراجت الأمور وذهبت الشرور ووافى السرور، والتامت القلوب وانجلت الخطوب وغرست في الأفئدة محبته، وحمدت على مر الأيام سيرته وبقي ولو بعد عزله أميراً وإماماً كبيراً، وهكذا بعد الممات تخلد ذكر الحسنات.

فيُرى على مرِّ الدُّهورِ لدى الورَى ... حيَّاً بما أولاهُ من إحسانِ

فمدار العمار على العدل والإنصاف بين جميع الرعية.

عليكَ بالعدلِ إنْ أوليتَ مملكةً ... واحذرْ منَ الظلمِ فيها غايةَ الحذرِ

فالملكُ يبقى مع الكفرِ الذَّميمِ ولا ... يبقى مع الجورِ في بدوٍ ولا حضرِ

١٢٤- عدل الرعية مع راعيها

يكون بإطاعته في صالح الأمور في الغيبة والحضور والتودد إليه والمحافظة عليه وشد أزره وتقوية أمره وشكره على جميل مسعاه وحمده على ما أولاه. قالت الحكماء: (السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه). قال اللّه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩].

١٢٥- العدل مع الأكفاء

هو عبارة عن كون التعامل فيما بينهم جارياً على سنن الحق ومناهج الصدق في جميع الأفعال وسائر الأقوال، كما قال تعالى: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد اللّه أوفوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ويؤدوا الواجب ويلينوا الجانب وأن يتخلقوا بمكارم الأخلاق وحميد الخصال فيرتقون ذروة الكمال.

وقد كانت الأمم السالفة والقرون الماضية من أجناس المتمذهبين وأصناف المتفلسفين مع افتراق مذاهبهم واختلاف عقائدهم مجتمعين على إنكار الظلم مجمعين على أضراره، إذ هو أصل النقم ومسلبة النعم، وهو يبدل العمارة بالبوار والإحسان بالأحزان أسرع من الطير إلى الأوكار ومن الماء إلى الانحدار وبه تكثر الشكوى وتعم البلوى وتفتر الهمم وتزل القدم ويكثر الضرب والسلب والقتل والنهب والهرج والمرج ولا دخل ولا خرج تجف البحار وتذبل الأشجار وتنقطع الأسباب ويتصل الخراب. قال تعالى: ﴿إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً﴾ [الإنسان: ٣١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

وحقّ اللّهِ إنَّ الظلمَ شؤمٌ وإنَّ الظلمَ مرتعهُ وخيمُ

وقال آخر:

ألمْ تعلمْ بأنَّ الظلمَ عارٌ جزاءُ الظلمِ عندَ اللّهِ نارُ

١٢٦- من ضيع الأمانة ورضي الخيانة فقد برئ من الديانة

الأمانة واسطة لبلوغ الإنسان مراتب السعد وسفينة تنتشل الوضيع من لجج الضعة وتقذفه على سواحل السؤدد والمجد وهي الأساس الذي لا بدّ منه في إقامة الحضارة وتشييد المدنية فكما لا يقوم البناء على غير أساس، كذلك لا يتأتى إيجاد العمران بغير هدوء واطمئنان، فإن الإنسان إن لم يأمن على نفسه وأولاده وماله، فلا يمكنه أن يقوم بأي عمل، فيقف لذلك دولاب التجارة فتبور الصنائع وتقل المكاسب، فيحتال الناس على أسباب المعيشة ويتهالكون على تحصيل القوت من غير طرقه المشروعة فتفسد أخلاق الأمة وتنحط لقلة العمل مداركها وينتهي ذلك بضعف قوتها وتفريق مجتمعها.

فالأمانة أول صفة تحمد في المرء، ولذلك نرى الناس يفرون من الخائن، بينما هم يفدون إلى الأمين ويزفون إليه جميل الثناء ويعينونه على الدهر ويمدونه بالأموال. قال اللّه تعالى: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ [آل عمران:٧٥]. وقال تعالى: ﴿إن اللّه يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ [النساء:٥٨]. وقال تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ [المؤمنون:٨]. وقال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب:٧٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

والخيانة صفة ذميمة وخلق سيِّئ ونقض للذمة وكفر بالنعمة وخبث في الطوية وسوء في النية. قال تعالى: ﴿إن اللّه لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ [النساء:١٠٧]. وقال الشاعر:

إنَّ الأمانةَ - لو علمتْ - كرامةٌ تُولي ذَويها رُتبةَ الإسعادِ

فابعدْ - هُديتَ - عن الخيانةِ كمْ لها في أهلِها منْ ذلةٍ وكسادِ

وقال آخر:

أدِّ الأمانةَ والخيانةَ فاجتنبْ واعدلْ ولا تَظلمْ يَطِبْ لكَ مكسب

وبالجملة: فالأمانة سيف الدين وعماد الدنيا، وهي أن تؤدي حقوق الخالق سبحانه وتعالى، وأن لا تفشي سر من أودع إليك سره وألا تغش أحداً في معاملاتك وأن تحافظ على من جعل تحت رعايتك وألا تنقض عهد من عاهدته وألا تختلس ما ليس لك فيه حق.

١٢٧ - الأخلاق الفاضلة وآثارها في رُقيّ الأمم الحية

وإنَّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ		فإن همْ ذهبتْ أخلاقهُمْ ذهبوا

الخلق عبارة عن حالة للنفس راسخة بها، تصدر عنها الأفعال مع السهولة بدون حاجة إلى التفكير والروية، فإن صدرت عنها الأفعال المحمودة سميت خلقاً حسناً، وإن انبعثت عنها الأعمال السيئة القبيحة سميت خلقاً سيئاً قبيحاً، والخلق في النفس كالخلق في الجسم ويستعملان معاً أي أن حسن الصورة الظاهرية مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد، بل بالجميع ليتم حسن الظاهر فكذلك لا يتم حسن الصورة الباطنية إلا إذا استكملت وحسنت بها الأخلاق جميعها.

وأمهات محاسن الأخلاق أربع فضائل: الأمانة والعدل والاعتدال والشجاعة.

ويدخل تحت ضد الأمانة الذي هو الخيانة المكر والخداع والتبله والدهاء والعناد والكفر والشك والإشراك والتطير والغيرة.

ويدخل تحت الظلم الذي هو ضد العدل حب النفس والاستئثار والطمع والبخل وحب الرياسة والتسلط والافتخار وكفران النعم والغضب وحب الانتقام والحسد، وما أشبه ذلك.

ويندرج تحت ضد الاعتدال حب التمتع والامتلاء بالأكل والشرب والشره والحرص والتبذير والتقتير وخلافها.

ويندرج تحت ضد الشجاعة الجبن والتكبر والتهور والعجب والذل والجزع والخساسة والوقاحة والرياء والملق وغير ذلك. وإن الفضائل أواسط بين طرفي الإفراط والتفريط كالسخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير. قال اللّه تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان: ٦٧].

وأما العفة فهي وسط بين الشره والجمود. قال اللّه تعالى: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ [الأعراف: ٣١].

والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفيها ذميم وما توسطهما فضيلة.

عليكَ بأوساطِ الأمورِ فإنَّها		نجاةٌ ولا تركبْ ذَلولاً ولا صَعبا

وقال الآخر:

ولا تَغلُ في شيءٍ منَ الأمرِ واقتصِدْ		كلا طرفي قصدِ الأمورِ ذميمُ

فهذه الأخلاق الفاضلة إذا تمكنت من أُمة وتمسكت بها في غدوها ورواحها وفي سرها وجهرها، فلا بدّ وأن تكون أُمة حية راقية، أُمة مستقلة قوية تهابها الأمم.

قال الشاعر:

ليسَ دنيا إلاَّ بدينٍ وليسَ الد　　　يـنُ إلا مكـارِمِ الأخـلاقِ

انظر إلى الأمم المتمدنة ترَ حسن عادتها ومكارم أخلاقها وائتلاف أفرادها سبب ارتقائها وواسطة حياتها وشوكتها ونصير قوتها وصولتها.

وانظر إلى الأمم التي انحطت أو تلاشت تجد أسباب ذلك طرحهم للأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة.

وليسَ بعامرٍ بنيانُ قومٍ　　　إذا أخلاقهُم كانتْ خرا

وبالجملة: إن الإنسان يستمد القوة في حياته من ثلاثة أشياء: (الشعور والعلم والأخلاق) فيجب أن يأخذ من كل منها نصيبه حتى يقدر على أداء الواجب عليه نحو نفسه وأُمته، وهذه الأشياء الثلاثة هي العوامل التي يسعى أبناء الأمم الحية في استكمال نصيبهم منها، فتجعل منهم رجالاً يتفاوتون في الرقي تبعاً لدرجة ما حصلوه من كل منها.

١٢٨- أساس نجاح الأمم الراقية تربية أبنائهم تربية روحية

قوام كل أُمة برجالها، ولا رجال إلا بالتربية لأنها هي التي تعين الطبيعة على إنماء بدن الناشئ في صحة وإرهاف ذهنه في سداد وتقويم سيرته في رشاد وتكسبه من صفات الرجولية ما يؤهله لأن يكون رجلاً حقاً في الغد، والمراد بالرجل هنا ذاك الذي عناه أحد الفلاسفة حينما رؤي في رابعة النهار وبيده مصباح وهو يتطوف في شوارع مدينة غاصة بالناس تطوف من يطلب شيئاً لا يكاد يرى فسئل عما يطلب فقال: أطلب (رجلاً) هذا هو المعنى المراد بالرجال هنا، وقليل ما هم.

وكل من تصفح كتب التاريخ القديم والحديث يجد أنه ما انحطت أُمة عن منزلتها إلا لأنها عدمت رجالها وانها ما عدمت رجالها إلا لأنها لم تعن حق العناية بتربيتهم صغاراً فلم يكن لها منهم كباراً سوى أشخاص لا شيء لهم من الرجولية سوى الاسم.

وإنما تتم التربية بثلاث طرق متوازية تفضي كلها إلى تلك الغاية أولاها: تربية البدن بحسب قوانين الصحة. والثانية: إرهاف ذهنه حتى ينفذه نور المعرفة وتنزاح عنه ظلمة الغباوة. والثالثة: تقويم سيرته وهداية خطواته إلى السبل المستقيمة، والتنكيب بها عن سبل الغي.

فكل أُمة حية لها في شأن حياتها أدوار عمرانية تصعد بها في سلم الترقي والحضارة إلى أن تصل إلى غايتها المتمناة، وأول خطوة من خطا التقدم التربية على الوجه المطلوب الملائم لأحوال الأمة والشامل لما به سعادتها، ولا ينال الإنسان هذه الساعدة والحياة

الطيبة إلا إذا توفر حظه من الصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة لا يحصل له شيء من هذه الصفات إلا بالتربية كما يشهد به العيان وكفى به من برهان، فكما أن الأرض لا تجود تربتها ولا تصلح للاستنبات ولا تؤدي خيرها وبركتها إلا إذا تعهدت بالحراثة والسماد الجيد والبذر والسقي، وكذلك الإنسان لا يتوقع منه خير ولا نفع ولا انتفاع إلا إذا تعهد بالتربية والتعليم، وقد قامت الدلائل على أن الإنسان ولو بلغ النهاية في كرم النجاب وطهارة العنصر وكمال السجايا مفتقر إلى التأديب والتربية الروحانية كما أنه مفتقر إلى التربية الجسمية حتى يصلح للنهوض بأعباء مصالحه الدينية والدنيوية، قال عليه الصلاة والسلام: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

ولما كانت التربية الجسمية ليست خاصة بالإنسان، بل يشاركه فيها الحيوان لم يبق له ما يميزه إلا التربية (الروحانية) وهي الخاصة التي بها يسمى إنساناً.

أقبلْ على الروحِ فاستكملْ فضائلها ... فأنتَ بالرُّوحِ لا بالجسمِ إنسانُ

ومعلوم أن الإرادة النفسية هي كغيرها من اللطائف المودعة في الإنسان ساذجة في مبدأ نشأتها قاصرة عن الجولان في الأشياء. قال تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [النحل: ٧٨].

فيجب تربية الإنسان من صغره وتعليمه ما ينفعه في دينه ودنياه ثم إلزامه صنعة يشترك بها مع غيره في تبادل المنافع حتى يتسنى له أن يقوم بخدمة متى بلغ رشده وقوي عليها، ويكون بذلك قد عمل لغيره كما عمل الغير له، ولا يترك اختياره لنفسه أو يتكل على ثروة أهله وشرف بيته فيخلد إلى الدعة والبطالة حتى إذا شب لم يجد بيده صناعة ولا وسيلة يستعين بها على الكسب لو أحوجته الضرورة إليه، فإن كرم الآباء وثروتهم لا يعتمد عليهما إلا ساقط الهمة. قال الشاعر:

لسنا وإنْ أحسابنُا كرُمَتْ ... يوماً على الأحَساب نتَّكلُ
نبنيْ كما كانتْ أوائِلُنا ... تبنيْ ونفعلُ مثلَ ما فعلوا

على أن المدار في كمال الإنسان على ما يدركه بأدبه لا بحسبه ونسبه، فالفخر بالهمم العالية لا بالرمم البالية، ومكارم الأخلاق أصدق نبأ من الأعراق، والعنوان على شرف الإنسان وكرم أصله هو ما يفعله لا ما يدعيه.

ما لَمْ يكنْ عنصرهُ طيباً ... لمْ يخرُج الطِّيبُ من فيهِ
أصلُ الفتى خافٍ ولكنَّهُ ... منْ فعلهِ يظهرُ خافيهِ

فإذا أهمل الناشئ مع ما علم من سذاجته وركود ربح إنسانيته حتى شب فكيف

يكون، ليت شعري، لا بدَّ والله أن يرعى مع الهمل أو يفترس مع السباع الضارية، فإن النفوس من ميلها وشوقها أسرع إجابة لداعي الشر منها لداعي الخير، فالنفس لولا التربية مجبولة على ذميم الأخلاق ميالة إلى ما لا تحمد مغبته كالهلع والجزع والطمع والشح والطغيان والظلم وحب العلو والافتيات وغير ذلك.

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فإن تجدْ ذا عفـــةٍ فلعلَّةٍ لا يظلـــم

وقال تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ [العاديات:٦]. وقال تعالى: ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب:٧٢]. وقال تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين﴾ [المعارج:١٩-٢٠-٢١-٢٢]. وقال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ [العصر:١-٢].

وبالجملة: فالتربية سر النجاح ومعراج الارتقاء وعليها نتائج السعادة الدنيوية والأخروية فهي بصفتها الكمالية أساس الابتداع وغراس الاختراع وسر فضيلة الإنسان على بقية الحيوان، ولولاها لما نشأت روح فاضلة في أفراد الأمة والهيئة الاجتماعية.

١٢٩- الأعمال قيم الرجال

ليسَ الحياةُ بأنفاسٍ نُرَدِّدُها إنَّ الحياةَ حياةَ العلمِ والعملِ

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ومزاياه وما أودعه فيه من الحواس المرشدة والنفس المفكرة والعقل المدبر والبيان المصور واللسان المعبر والقوى المنفذة والأعضاء العاملة التي بجميعها تصرف في أنواع العالم وبسط يده على كل الكائنات وكان له السلطان الأعظم على ما في الأرض، ولم تركب فيه تلك القوى إلا ليجعلها عوامل تحت سلطة التمييز والتدبير يصرفانها بمعيار الحكمة في مجاري ثمرات ما أحاطه به من الكائنات وجعل حوله من كنوز الخيرات التي نوعها القادر وفق تنوع حوائج الإنسان وجعلها صنوفاً متفاوتة النفع مختلفة الفائدة وأودعها خيرات كثيرة وبركات غزيرة ولم يجعله على ما هو عليه من هذا الشكل وتلك الصورة إلا ليعمل عمله الخاص به حسب رزقه المقسوم له، وقد أمره بالسعي لنواله حيث قال تعالى: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ [الملك:١٥].

فالسعي مقرون بالعمل والعمل يطلب الحركة والحركة تستدعي صرف القوة فمن يريد تحصيل الرزق وكسب العيش يلزمه أن يجدَّ ويتعب ويصرف مقداراً من قوته في العمل، وما نراه من أن بعضاً من الناس يصرف مقداراً عظيماً من قوته في أعمال شتى، ولا يحصل إلا على قليل من الفائدة، وبعضاً آخر لا يصرف إلا النذر اليسير من ذلك ويستحوذ على كثير من الفائدة، ربما يتوهم منه أحد أن الرزق ليس مناسباً للقدر المنصرف من

القوة، وإنما هو قسمة أزلية ليست مرتبطة بالعمل والسعي، ولم ينظر في الأمر نظر حكمة ولم يعرفه معرفة حاذق بصير، بل نظر إلى ظاهر الأمر وحقيقته خافية عليه بعيدة عن مداركه، فالله أمر بالسعي والعمل. والجسم هو القائم بذلك ظاهراً ومأمور من قبل العقل، فما أعمال الجسم مقومة ومعتبرة إلا حسب القوة الباطنة، وكلما كانت هذه القوة كاملة كانت قيم أعمال الجوارح تابعة لها والعكس بالعكس.

قال عليه الصلاة والسلام: «الناس يعملون الخيرات وإنهم يعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم».

ولا سبيل إلى الإتيان بأعمال تامة الحسن عالية القيمة وافرة الحظ إلا بالعقل الكامل والعمل المحكم، فبقدر وجود هذا وتفاوته تفاوت أفراد الإنسان، وكلما كان العقل أصح والروية أغزر والاختيار أصدق كان الكمال أتم والعمل أقوم. «إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه». وقال الشاعر:

إذا أكملَ الرحمنُ للمرءِ عقلهُ فقدْ كَمُلَت أفعالهُ ومآربُـه

فإذا تم هذا للمرء أتى بأعماله تامة الحسن رائعة الصنع رائعة الإبداع لا يوازنها ولا توازيها منن. الا ترى ما أبدعه الإنسان من الأعمال الغريبة أبدعه الذي أمكنه من ذلك وجعل له السلطان المتصرف في هذا العالم - كلا - ما الإنسان من هذه الجهة إلا شبح وتمثال لا يتميز به غيره ولا يفضل سواه، وإنما فضله ومزيته بقوته الروحية التي تستخدم جسمه وتوجه قواه الحسية، وإلا فليست قوى جسمه أكمل منها في غيره من الحيوانات التي يقهرها ويستخدمها في أعماله. مثلاً نرى الفلاحين يزرعون وكل منهم يجني مقادير مختلفة، والصناع تشتغل ومقادير الأرباح مختلفة - وهكذا - وأسباب ذلك كله التفاوت في المعلومات، فمن يرغب في زيادة ربحه وكثرة فائدته فعليه بالسعي والاجتهاد في اجتناء الخيرات من أكمام هذه الكائنات. قال الله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم:٣٩]. وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما ينفي عني حجة الجهل؟ قال: العلم. قال: ما ينفي عني حجة العلم؟ قال: العمل. وقال عليه الصلاة والسلام: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا». وقال في التوراة: «حرك يدك أفتح لك باب الرزق». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

وقال بعض الحكماء: الحركة بركة والبطالة هلكة والكسل شؤم وكلب طائر خير من أسد رابض.

يا نفسُ ذُوقـي لـذَّةَ العمـلِ وواظبي لذَّةَ العدلِ والإحسانِ في مهلِ

فكلُّ ذي عمـلٍ بالخيرِ مغتبطٌ وفي بـلاءٍ وشـؤمٍ كـلُّ ذي كسـلِ

وقال آخر:

دَعي نفسي التكاسلَ والتَّواني وإلا فالبسي ثـوبَ الهــوانِ
فلم أرَ للكُسَالى الحـظَّ يَجني ثمـاراً غـيرَ حرمـانِ الأماني

وقال آخر:

وكمْ حياء وكمْ عجزٍ وكمْ ندمٍ جمّ تولّد للإنسانِ منْ كسلِ

١٣٠ - فوائد المزاحمة والمسابقة وأثرها في الارتقاء البشري

لولا التزاحمُ في الأمورِ لأصبحتْ عُمُدُ النظامِ على ذُراها سُجَّدا

من بديع حكمة الحكيم العليم أن جعل التزاحم بين الأنام منشأ لتشييد النظام، فبالمزاحمة استيقظ الناس من سنة الغفلة ونشطوا من عقال الخمول وأجهدوا مطايا سعيهم وراء ما به يرغمون أنف تلك العوادي التي حطت بهم رحالها وضربت عليهم خيامها حتى أثقلت كواهلهم وألجأتهم إلى شدة البحث عما به يتخلصون من ربقة أخطارها وهول مضارها، وكم خبايا من الحقائق أبرزتها لهم معاول البحث فأصبحوا آمنين مخاوف دهرهم يخوضون أبحر صعوبتها دون أن يمسهم سوء ويركبون متونها خاضعة ذليلة على حين أنها تروم انتياشهم.

كل ذلك بما ألجأتهم إليه دواعي المزاحمة والمنافسة، وقد علم اللّه فيهم ذلك فنوّعهم في الخلقة إلى ما ترى وأودع كل نوع من القوى وركب فيه من الآلات ما به يقوى على تلك الصعوبات ويهزم كتائبها الجرارة.

ومن هنا تقلب الإنسان وتنقل في أطوار شتى وتأنق في الملابس وتفنن في المآكل والمشارب وزهى في تمتعاته بعد أن كان هو وغيره من الحيوانات سواء يتغذى بعضه بالبعض، ويهيم في الفلوات والآجام كما يهيم غيره يبتغي إصابة ما به يسد رمق الجوع ويتقي ألم البرد من نحو الريش وأوراق الشجر وجلود الحيوانات وغير ذلك، مما به كفاية حاجة حياته الضرورية ويتخذ الكهوف والمغارات مساكنه يأوي إليها كل ذلك بما أودعه اللّه في جسمه من المنبهات.

والإنسان بما ركب فيه من أصل الخلقة وما أودع فيه من المنبهات مزاحم لغيره مندفع إلى نزع آثار الخشونة الأولى والتقلب على سرر النعيم، ولولا تلك المنبهات التي تحثه على طلب حاجاته لاستولت عليه الغفلة عن تحصيلها وانتهى إلى فنائه دون شعوره، ولهذا صار الإنسان كما ترى مندفعاً إلى تحصيل أغذية يعوض بها ما فني وملابس

ومساكن يتقي بها الحر والبرد، وكل ذلك يدفعه إلى حب الأثرة والاختصاص بالنافع ومزاحمة من يتخيل أنه يقف في طريقه، تلك حال كل إنسان فهو ميال بطبعه إلى الخروج عن حير وضعه بما غرس فيه من الأمل الذي وضعه الله فيه رحمة، ولولاه ما غرس غارس غرساً ولا بنى بانٍ بنياناً.

مثلاً يرى الإنسان أخاه لابساً ثوباً أجود من ثوبه مادة وأحسن منه شكلاً فيدفعه حب التمتع إلى طلب مثله والأخذ في أسباب الحصول عليه وربما صادفه في طريقه ثوب أرقى وأجمل منظراً، فإذا رآه غيره أخذ يجهد نفسه كذلك في الحصول على مثل هذا الثوب الأرقى، وهكذا حتى ينتهي الأمر إلى ضرب من الثياب يدهش الناظر مرآه ويروق الخاطر معناه.

ومع ذلك لا يقفون عند هذا الحد ولنعم ما كانوا يعملون، وعلى هذا المنوال يرى الإنسان جاره في عيشة راضية توفرت حاجاتها وتكاملت مسراتها وصفت أوقاتها فلا يهدأ له خاطر ولا يستريح له فؤاد حتى يرى نفسه في رغد من العيش يساوي جاره على الأقل فيبعث به ذلك إلى أن يخلع ثوب بؤسه ويكشف عن ساق الجد في سيره لنوال بغيته.

إنَّ للّـه فـي الخلائقِ سـراً ... منْ سنا برقه تحارُ العقولُ
لا ترى ذرةً من الكـونِ إلا ... ولها في الكونِ شرحٌ يطولُ
هـذه دارُنـا بهـا زاحمتنا ... عاديات من كلِّ أوبٍ تصوبُ
تلكَ واللّهِ حكمةٌ من حكيمٍ ... لنظامِ الحياةِ أصلٌ أصيلُ

وغرض الكل واحد هم عليه متزاحمون يدفع بعضهم البعض وينازعه ما في يده رغبة في الاختصاص به.

كلٌّ لهُ غرضٌ يسعى ليدركهُ ... ولو تحمَّلَ في تحصيلهِ المضَضا

١٣١- لِمَ لم تؤثر الخطباء والكتاب في نفوس المصريين

لا شك أن بين ظهرانينا أُناساً أصبحوا عقبة بين الأدب وذويه، ولا ديدن لهم إلا التفنيد واللوم على الخطباء والكتاب وتثبيط همم المشتغلين بحرفة الأدب بحيث لو سمعوا خطيباً يخطب أو رأوا كاتباً يكتب لعب بهم الغيظ ودب في قلوبهم الحسد فترى منهم ألسنة حداداً فبدل أن يقولوا هذا الخطيب مصقع ذرب اللسان ثابت الجنان رابط الجأش واسع المجال رحيب الباع له اقتدار على التكلم في أي موضوع من مواضع الكلام بعبارة تسيل رقة وسلامة وتستميل القلوب النافرة وترد جماح الضالين وتصلح ما فسد من أخلاق المولدين وتؤثر على فهم كل سامع، تراهم يشددون النكير ويبالغون في التنديد

ويقولون إن هذا الخطيب كليل اللسان جامد القريحة مضطرب الجنان قد استولى عليه العي والحصر، وتمنطقت به الفهاهة وأخذته اللكنة، وبدل أن يقولوا أن هذا الكاتب.

في خطّه منْ كلّ قلبٍ شهوةٌ حـتّى كـانَّ مـدادَه الأهـواءُ

أصبحوا يقولون: إن جناب الكاتب له عبارات لا تخلو عن ركاكة التركيب وجفاء الأسلوب عن الفصيح المألوف في الكتابة والتاليف إلى غير ذلك.

ولا يعزب عن الأفكار اندفاع أغلب المصريين إلى التقليد الأعمى من غير روية في الأمر وتبصر في عواقبه فتراهم حينما يسمعون هذا الكلام يعضدونه وينصرونه ويميلون عن الخطيب أو الكاتب.

إنما تنجحُ المقالةُ في المر ءِ إذا صادَفتْ هوىً في الفؤادِ

أفبعد ذلك نرجو تأثير الخطباء والكتاب.

وكان للخطابة في الصدر الأول من الإسلام شاو جليل ومقام كبير ومكانة خطيرة، فلذا أخص الخلفاء والأمراء والعلماء أنفسهم بالوعظ والزجر عن الشهوات والمحرمات والمنكرات والمنهيات، ولعمري إنهم قاموا بها حق القيام وتاثرت بخطاباتهم الجموع وفعلت فيهم ما لم يفعل السيف حتى رجعوا إلى طريق الهدى والإرشاد، وقام بها من بعدهم الخلف الصالح وشغلوا أنفسهم بهذا الموقف العظيم فحافظوا على الأخلاق الشرعية والعوائد المستحسنة، ويا حبذا لو دام ذلك، فقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وتهاونوا في أمر هذا الموقف الخطير ولم يكترثوا به، فاسترسل الناس نحو شهواتهم غير منقادين لواعظ ولا كاتب فبدلت نعمة العظمة والظهور بنقمة التاخر والجمود، وضربت عليهم الذلة والمسكنة جزاء ما فرطوا في جانب الخطابة والوعظ، جزاء استنكافهم من القيام بهذا الأمر النافع واشتغالهم عنه بمصلحة أنفسهم والتفرغ لاغتنام لذاتهم «إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». فصار الناس كالأنعام ختم اللّه على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فاصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يسمعون النصائح النافعة ولا يبصرون الغي من الرشد، ففقدوا الإحساس الوطني وتفرقت قلوبهم وانحلت عزائمهم وخمدت نار حميتهم. إرادة اللّه التي أرادها لا محيص عنها ولا مناص منها ولا راد لها.

إذا ما أرادَ اللّـهُ ذلَّ قبيلـةٍ رماها بتشتيتِ الهوى والتواكلِ

أفبعد ذلك نرجو تأثير الخطباء والكتاب؟

وكثيراً ما رأينا بعض المصريين يتوجه للمحال التي أعدت للخطابة ، ولكن بعد ما يسمع الخطيب ينهى عن خلق قبيح كما إذا نهى عن شرب الخمر مثلاً تراه يتمثل بقول من قال: لا تنه عن خلق وتأتي مثله، ويفارق محل الخطابة وهو نادم على ما فرط من ضياع الزمن في غير طائل ولا ثمرة عادت إليه ويسرع إلى محلات اللهو والطرب.

وبالجملة: لا عجب في عدم تأثير الخطباء والكتاب، فإن الأمة إذا استولى عليها الضعف ودخلت في الهرم بسبب نبذها القانون السماوي وعدم محافظتها على العوائد الشرعية وصمّت آذان أفرادها وعميت قلوبهم وتشتت جامعتهم وانحلت رابطتهم.

تحسبهم أيقاظاً وهم رقود لا يتنبهون بمنبه ولا يردهم عن استرسالهم وراء الشهوات لوم لائم ولا زجر زاجر، سنة الله التي قد خلت في عباده.

وإنا نأمل في هذه الأيام أن يحصل إحساس لدى إخواننا المصريين وتثبت فيهم روح الغيرة فيعملون على إرجاع ما كان لهم من الفخر وإحراز ما كان لآبائهم من الفضل، وما ذلك على الله بعزيز.

١٣٢- الصحف السيارة وأثرها لدى الأمم

معلوم أن الجرائد أساتذة قائمة بتهذيب الأمم، وبث ما لم يعلم من أخبارها ونشر ما خفي من فنونها وآثارها، وعليها آثار الأعمال السياسية وتقدم الأحوال المعيشية فهي حياة الأمة العلمية ومادتها الأدبية تبشر وتذكر وتنذر وتحذر وتحدث عن الحوادث الواقعة، وتقدم لك موائد الفوائد النافعة فتهديك إلى منافع كنت بها حفياً وتبدي لك ما كان عنك خفياً وتهدي طرائف الأخبار وظرائف الأسمار وتكفيك مؤونة الاستخبار وكلفة السؤال والاستفسار وكأنها مجاميع متفرقة وينابيع متدفقة أو سفن مشحونة بشحون الأقوال أو قوافل محملة أخباراً عن الأحوال فهي ألسنة الأمم وترجمان الملوك وجهينة الأخبار وخزينة ذخائر الأفكار وصيقل الأذهان ومرآة حوادث الزمان والسائح الذي يطوف البلاد ويأتيك بأخبار العباد وأنت لا تبرح من مكانك فهي للرئيس موقظة وللمرؤوس موعظة وللتجار سوق بضائع وللصناع معرض صنائع وللشاري دلال وللمدعي استدلال ولأرباب الأقلام إعلان وإعلام وللمؤرخين مجمع وقائع وأخبار وللجغرافيين استكشاف خطط وآثار.

وبالجملة: يكون الإنسان بها مطلعاً على وقائع مصره عارفاً بما تجدد بين بني عصره من حوادث الزمان وعجائب عالم الإمكان وما هو صائر في الممالك المتمدينة ودائر بين الملوك المتمكنة وما هو جار بين الدول المتفقة والملل المتفرقة من عهود تجدد وشروط تؤكد وآثار تغير وصعاب تيسر وما بينهم من نزاع ومقاتلة وخداع ومخاتلة وسكون وهدنة وحركة وفتنة وما حدث في أحوال التجارة وأُمور السياسة والإدارة وما أبدته فحول العقلاء في مجامعها وما أسدته عقول النبلاء من بدائعها وما ظهر من رائع الصنائع وعوارف المعارف وطرائف اللطائف ويعرف العوائد مذمومها وممدوحها، ويميز الآراء راجحها ومرجوحها فيجتني ثمار الأفكار ويقتني محاسن الآثار، ويكون كأنما طاف مشارق الأرض ومغاربها، وجرب جميع الأمور ودرى عواقبها، فلا تكاد تنزل بساحته حادثة إلا وقد أحاط علمه بنظيرها وعرف غاية مصيرها.

١٣٣- التدبير نصف المعيشة

معلوم أن حاجة الأمم إلى المال كحاجة الجسم إلى الغذاء، فكما أن الغذاء حياة الجسم وقوامه، فكذلك المال حياة الأمم ولا قيام لها إلا به، وكما أن الغذاء إذا كثر في الجسم عن الحاجة واستعمل منه فوق القدر اللازم كان مضراً بالجسم وسبباً في ضعفه واضمحلاله وسقوطه في مهاوي الذل والاحتقار وليس ذلك قاصراً على الأمم فقط، بل الأمم والشعوب والقبائل والعائلات والأفراد في ذلك سواء، وفي المشاهدة أكبر دليل ولا ينبئك مثل خبير فكم من مسرف رأيناه قلّ بعد الكثرة وذلّ بعد العزة وافتقر بعد الغنى وأُهين بعد التعظيم وقلّ اعتباره وكثر احتقاره وذهبت هيبته وانحطت قيمته، وكما أن الإسراف والتبذير موجب للخراب والدمار، كذلك البخل والتقتير موجب للذم واللوم والعار، فالواجب إذاً استعمال الحد الوسط والتباعد عن طرفي الإفراط والتفريط في التصرف في الأموال. قال اللّه تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ [الإسراء:٢٩]. وقال تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان:٦٧]. وقال تعالى: ﴿ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧]. وقال تعالى ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم اللّه من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ [آل عمران:١٨٠].

وبالجملة: سوء التصرف في الثروة يجلب الخراب بخلاف الاقتصاد فإنه يجلب الرفاهية والسعادة وكم خرب التبذير بيوتاً عامرة وبدّد ثروة وافرة وكم أذل أميراً وصغر كبيراً وكم أغنى التدبير فقيراً وأعز حقيراً وجعل العبد أميراً.

قال الأصمعي: سمعت بعض العرب يقول: «من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر». وقال عبد اللّه بن جعفر: «كمال المرء في خلال ثلاث: معاشرة أهل الرأي والفطنة، ومداراة الناس بالمعاشرة الجميلة، والاقتصاد من بخل وإسراف».

أنفقْ بمقدارِ ما استطعت ولا ... تُسرفْ وعشْ عيشَ مُقتصد
منْ كانَ فيما استفادَ مُقتصدا ... لمْ يفتقرْ بعدَها إلى أحدِ

وقال آخر:

توسَّط بين تبذيرٍ وبخلٍ ... ولا تُسرفْ بما تلقاهُ نزرا
فإنَّ النَّزر يمسي بعدَ حينٍ ... إذا لمْ يكن بالإسراف وفرا
وإنَّ الوفرَ في الدُّنيا ببخلٍ ... وتقتيرٌ يريكَ اليسرَ عسرا
وكنْ في حالةٍ تزدادُ فيها ... لدى الأقوامِ مرتبةً وقدرا

وخيرُ النَّاس مقتصدٌ لبيبٌ تفرَّدَ في الملا بحثاً وخبرا
وكنْ في كلِّ أمرِ ذا اعتدال فربَّ حلاوةٍ تؤذيكَ ضُرّا
فما منْ باخلٍ أحياهُ مالٌ وما منْ مسرفٍ يعتزُّ دَهرا

١٣٤- إذا رزقتم أموالاً عظيمة ففيم تصرفونها

لا ريب أن المال روح تحيا به أجسام المالك وسراج يضيء به ظلام الخطوب الحالك وسلطان قوي الشوكة والبطش شديد العزيمة والبأس تذلل به الصعوبات وتحل به عقد المشكلات وتتصرف صروف الزمان وتقام معالم الأفراح والأحزان وعليه قوام الصنائع وإبراز مكنونات العلوم وهو كشاف للمخبآت وفك طلاسم الفنون ونجاح الاختراعات المشروعات وعليه قضاء الحاجات في جميع المهمات، فأي شخص رزق مالاً لحظته السعادة وامتدت عليه غصون السيادة والتفت الناس حوله وأصبح الكل أهله وتشرف الكل بالانتساب إليه والسعي في التقرب إليه.

إن قلَّ مالي فلا خلٌّ يصاحبني إنْ زادَ مالي فكلُّ النَّاسِ خلاَّنـي
فكمْ عدوٌّ لأجلِ المالِ صاحبَني وكمْ صديقٍ لفقدِ المالِ عاداني

هكذا يكون المال مجد الحياة وعز الممات.

فلا مجدَ في الدُّنيا لمنْ قلَّ مالهُ ولا مالَ في الدُّنيا لمنْ قلَّ مجدُهُ

ولكن ذلك كله إذا كان مصروفاً فيما يعلي عرش المجد ويرفع صرح العزة، فإذا أنفق في الأعمال المبرورة والمشروعات النافعة كان زينة لصاحبه في حياته وذكراً جليلاً له بعد مماته، ولكن إذا كان الشخص عنده خزائن قارون وخضع له المال ولم ينفقه في إقامة معالم المدنية الصحيحة كإنشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات وكل ما يقيم أود الراحة ويرفع بناء العمران فإنه يكون عليه شراً من الفقر ومجلبة لخزيه وعاره ووسيلة لذلته وشقائه، لأن الناس إنما يتوجهون إلى ذي مال طمعاً في نيله وحباً في الحصول عليه وينال شهرة عظمى ويقترن اسمه بالعلا. قال اللّه تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة واللّه يضاعف لمن يشاء واللّه واسع عليم﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال اللّه تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن اللّه به عليم﴾ [آل عمران: ٩٢].

وبالجملة: فالمال زينة الحياة الدنيا والنفقة إلى الدار الآخرة. فيلزم صرفه فيما يكسب الإنسان المجد حياً وحسن الذكر ميتاً. ولا تنفع الأموال ولا العقارات ولا التجارات ولا غيرها بغير علم وأدب يهذب الأخلاق ودين يقود إلى الرب الخلاق.

وعلى وجه العموم يصرف في كل ما يعرض لك عمله ولا يكون خارجاً عن حد الشرع والكمال والاعتدال.

١٣٥- البيت مملكة تديرها المرأة

قسمت العناية الإلهية جميع الأعمال المثمرة على أفراد الجنس البشري حسبما أوجدته في كل من الصفات والأمزجة وذلك مراعاة لما تقتضيه سنة التقدم وضمان مصالح العباد من الوقوع في الفوضى والاختلال الناتجين من قيام أحدهم بأمر ليس في استطاعته عمله.

وعلى هذا القياس قد وزعت الأعمال على الفريقين الكبيرين المكونين للجنس البشري وهما (الذكر والأنثى) فاختص كل فريق بالعمل الذي يلائم مزاجه وقوته ومقدرته إلى غير ذلك من الصفات التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى فيه وكان نصيب الرجال من هذه القسمة جميع الأعمال التي للمجهودات البدنية فيها المكان الأول من حرث الأرض وزرعها إلى الدفاع عن حومة المجتمع الذي يعيشون فيه وهو الوطن، واختصت المرأة لضعفها في القوة الجسمانية، ولما أوجد اللّه فيها من صفات الصبر والإخلاص ورقة القلب ودعة الأخلاق بأمور لهذه الصفات في إتمامها حظ وافر، وهذه الأعمال كثيرة جداً، منها ما هو واجب عليها نحو زوجها إذ يلزمها أن تسهر على مصالحه وتكون رسول السرور إليه وتشاركه في جميع مشاغله وتطرد عنه الهموم والأحزان وتريح خاطره من النظر إلى الأمور والمتاعب العائلية ليكون عنده الوقت الذي يتفرغ فيه هو أيضاً للقيام بواجبه خارج المنزل. أما أهم واجباتها في نظر الأمة فهو ما يخص أولادها لأنها مكلفة بمراعاتهم والقيام بشؤونهم في مبدأ حياتهم، أي: في الوقت الذي يحتاجون فيه إلى عناية كبرى لضعف أجسامهم وعقولهم فهي التي تنظر في أمورهم الصحية فتحافظ عليهم وتراقبهم خوفاً عليهم من الأخطار التي هم معرضون لها من صغر سنهم وهي المكلفة أيضاً بتلقينهم المبادئ الأولية التي تبنى عليها حياتهم الأدبية في المستقبل فتعودهم على محبة الفضيلة واحترام الحق وعلى كره الرذيلة ومقت الباطل وتلقن في عقولهم الصغيرة التي تحفظ أول ما تسمعه أو تراه الصفات والأخلاق التي تؤهلهم متى كبروا للقيام بواجباتهم بصفتهم أفراداً من أبناء الأمة فواجب المرأة عظيم ومسؤوليتها كبرى لا تقل عن مسؤولية الرجل خطارة وأهمية إن لم تزد عليه لأن على عملها تتوقف حياة الأمة أو مماتها، ولأن ذلك الرجل الذي ينكر عليها هذه المسؤولية لم يصل إلى ما وصل إليه من قوة الجسم والعقل إلا بسعيها المتواصل وعنايتها التي تبذلها في تربيته وتعليمه وهو صغير، ولو أنصف الرجل الحقيقة وأنصف المرأة معها وقدر عملها في الهيئة الاجتماعية حق قدره وطرد من مخيلته المزاعم الباطلة التي علقت بها من كلام السلف واستبداده وغروره لطأطأ رأسه احتراماً لذلك المخلوق العجيب.

المرأة: وما أدراك ما المرأة هي ملك السعادة الذي يهبط على الزوج الحزين البائس فيفرج عنه كربه ويطرد جيوش الحزن والهم والتعاسة التي تنتابه لما عندها من حسن الأسلوب ولمقدرتها على تصريف الأقدار والهموم فتجعل من البؤس سعادة ومن الحزن

سروراً، هي التي تقول للرجل ابعد عنك ما أنت فيه من الغم والحيرة واخرج لعملك سعياً وراء رزقك ودعني انا اقوم بهذه الأمور فيخرج هذا ساعياً مجداً مجتهداً فتكسب الأمة من ثمرة سعيه.

المرأة: هي إحدى العاملين في زيادة الجنس البشري وتقويته ووظيفتها في هذه الجهة كوظيفة الرجل، بل أكبر وأشد صعوبة لأنها تتحمل الآلام والأمراض فرحة مسرورة في أيام الحمل ووقت الرضاعة، ولا يشاركها الرجل في شيء من ذلك.

المرأة: هي التي تقوم بتربية هذه الأطفال وبمراعاة صحتهم وهي التي تدربهم وتمرنهم على المشي والحركة وتغير ملكتهم البهيمية التي ولدوا عليها فتجعل منهم أُناساً أصحاء أقوياء عقلاء قادرين على العمل والسعي، ولو شاءت لحرمت الأمة منهم بإهمالها شؤونهم وتركهم هم وشأنهم بلا رقيب.

المرأة: هي الساعد الأول والمرجع الأكبر لهؤلاء الأطفال متى شبوا، فهي التي تسري عنهم أحزانهم وتجلي كروبهم وتشجعهم على تحمل المصاعب وتحفظ أسرارهم وتنعشهم بالأمل الذي تبثه فيهم.

المرأة: هي طبيب أولادها وممرضة زوجها إذا اختل ميزان صحتهم فتعودهم وتسهر بجانبهم تقضي لهم حوائجهم وهي التي تعنى بإصلاح الفاسد وترميم العاطل من أُمورهم فيكون لهم من عملها رأس مال كبير.

المرأة: هي ذلك المخلوق الذي ملئ حباً وحناناً، تعرف المعروف وتكافئ فاعله عليه أضعافاً وتغضي عن السيئات التي توجه إليها يتغيب الزوج عنها وهي صابرة على بعده قاضية جميع ما يطلبه منها حافظة له حق العشرة يخوفها كل يوم ويدوس على حرمتها وهي تمر على عمله مرَّ الكرام مع ما تتحمله في ذلك من المعاناة والشقاء.

المرأة: هي المصباح الذي يضيء الحياة بنوره. هذه هي وظيفة المرأة في الحياة وذلك هو العمل الذي يجب ان تقوم به في المجتمع الإنساني، ولعمري إنها وظيفة عسرة الخطة وعمل صعب المزاولة يحتاج إلى صبر لا يطيقه الرجال، ولا اظن ان هناك من ينكر اهمية تلك المهمة التي يجب ان تقوم بها لأنها هي الأساس الذي يبنى عليه حاضر الأمة، والمعيار الذي يقاس به مقدار التقدم والرقي والحضارة التي يمكن ان تصل إليها في المستقبل، فلو فرضنا أن النساء تعمدن التقصير في واجبهن وتوانين في أداء مهمتهن فسد نظام العائلة، وصارت حياة الأفراد المكونين لها نقمة عليهم لا نعمة لهم لما يقاسون من اختلال هذا النظام، ولا يطول الزمن حتى تنعكس مضار هذا الاختلال على الأمة فيصيبها منه داء الفوضى الذي لا تقوم لها قائمة من بعده ولو اهملت الامهات تربية أولادهن ولم تعتن بصحتهم شبوا ضعافاً معرضين للأمراض والأوبئة، فلا يصلحون لعمل من الأعمال ولا

تستفيد منهم الأمة لأن العقل الحكيم في الجسم السليم، ولأن المرض يشغل الإنسان عن كل عمل آخر، لو تغافلت الأم عن تأديب أولادها وتنبيههم إلى الضار والنافع في صغرهم صاروا متى كبروا سيئي الأخلاق فاسدي التربية قبيحي السيرة منهمكين في اللذات البهيمية لا يعرفون من معنى الحياة أكثر مما تعرفه الحيوانات فيذهبون بالأمة مذهبهم ولا يطول الزمن حتى تتلاشى من الوجود، ولكن رب معترض يقول بأن إنشاء المدارس وتشييد دور العلم يغني عن وظيفة المرأة، إذ أن المدارس كفيلة بتهذيب أخلاق الطلاب ومراعاة صحتهم، وهذا الاعتراض مردود من نفسه لأن التربية شيء والعلم الذي تلقنه الأساتذة في المدارس شيء آخر، ولا تمكن لدور العلم أن تقوم بعد اعوجاج أخلاق أحد الطلاب إذا كانت فاسدة من الأصل وإن هي أرادت أن تسعى في عمل من هذا القبيل كان مثلها مثل الرجل الذي يريد أن يقوم جذع شجرة بعد أن كبر فيستعصي عليه تقويمه وينكسر الجذع. والسبب في أن المدارس عاجزة عن بلوغ هذه الغاية أن الطالب لا يمكن أن يدب إليها إلا بعد أن ترتسم في عقله صورة أخلاق أُمه وما عودته عليه مدة إقامته معها فلا يمكن أن يمحو هذه الصورة من مخيلته وتبقى معه ما شاء اللّه أن تبقى حياته معه، وقد يعترض علينا آخر بأننا نبالغ في أهمية عمل المرأة ونزيد في تقدير كفاءتها، والحقيقة أننا المقصرون وإنما نشأ هذا الظن لأننا لا نتصور تأثير الأم العاقلة على أولادها من جهة وعلى زوجها من جهة أُخرى، ولأننا لا نحلم يوماً بأن امرأة تترك أولادها الذين في سن الرضاعة ليقوم الرجل بتربيتهم وبالعناية بهم، ولا يمكن أن يقدر هذا العمل إلا رجل متوسط الثروة أو ضعيفها توفيت زوجته وخلفت طفلاً لبيناً، وإذ ذاك يجب أن نتساءل ونبحث فيما إذا كان عنده الوقت الكافي والصفات اللازمة لتأدية تلك المهمة الشاقة.

ولقد ظهر جلياً مما سلف أن عمل المرأة هو الأساس الذي يبنى عليه مستقبل الأمة الذي يرتكز عليه حاضرها. بقي علينا بعد هذا البيان المجمل أن نبحث فيما إذا كانت المرأة المصرية تقوم بالواجب عليها أم هي مقصرة أو جاهلة هذا الغرض؟ وليس الجواب على ذلك صعباً لأن مشاغل النساء المصريات معروفة وأعمالهن لا تخفى على أحد منا، فالمرأة عندنا إحدى اثنتين: فلاحة قروية، ومتمدينة حضرية، فأما الأولى فإنها لا تعرف من الحياة ولا تفقه من فوائد المعيشة شيئاً وجل ما تعتقده أنها إنما خلقت لتكون وسيلة للذة الرجل وشهواته خادمة له وعبداً عنده، بل إن مرتبتها لا تزيد عن مرتبة الحيوان الذي يحرث به الأرض وهي مرتدية بلباس من الجهل، أسود من الثوب الذي تلتف به عادة – واعتقادها في القضاء والقدر عظيم – وعليه فإن عمل الإنسان وسعيه في نظرها لا يمكن أن يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً، فإذا رزقها اللّه بمولود تركته وشأنه بدون عناية ومراعاة واهتمامها به قاصر على إعطائه ثديها كلما بكى، فإذا شبع فإنها تدعه يحبو على التراب عاري الجسم يتقلب في الطين والأوحال التي كثيراً ما يوصلها إلى فمه متى جاع وغفلت الأم عن صريخه،

وبعد أن يأكل هنيئاً مريئاً يحس بحرارة الشمس التي تؤثر في دماغه، فيفرك عينيه بيديه الملوثتين بالتراب والطين ثم يقع في سبات عميق وسط الطريق يقوم بعده مريض العينين لا يرى إلا هزيل الجسم ضعيفه ومتى قدر على المشي انضم إلى الأولاد الآخرين فيكتسب منهم كل قبيحة ويزيد في تربيته الأدبية ما يراه ويسمعه كل يوم بين والده ووالدته من الضرب والشتم والرفس واللكم الذي يبدأ الزوج يزفه إلى زوجته صبيحة ليلة العرس.

وأما الثانية: فإنها لا تزيد في التربية والمعارف عن الأولى إلا أنها قد تكون أسوأ من تلك خلقاً وأكثر إهمالاً لو لاحظنا ان الأولى تقوم مقام زوجها في كثير من الأعمال الخارجية عن المنزل، وأما هذه فليس عليها واجب آخر. ومن الأسف أنها لا تصرف وقتها في عمل مفيد، بل إنها تترك أولادها مع المرضعة التي لا تعرف إن كانت حسنة الصحة أو رديئتها ثم تسلمهم إلى الخدم فيشبون منحطي الأخلاق ناقصي التربية الاستقلالية مرضى أو معرضين للمرض.

هذا هو حال المرأة المصرية وتلك هي أعمالها، وبديهي انها حال لا ترضي أحداً لأنها تهدم نظام العائلة، وقد كان من نتيجتها انحطاط المصريين وتأخرهم في معترك الحياة ففقدنا الاستقلال السياسي والأدبي والاقتصادي، لأن صفات الثبات والشجاعة والإقدام ورباطة الجاش والمؤازرة والمؤاخاة تلك الصفات التي يكتسبها الطفل مما تعوّده عليه أُمه لا اثر لها في نفوسنا، فصار المصريون وهم يزيدون عن عشرين مليوناً آلة تعمل لفئة قليلة من الأوروبيين وغيرهم لا تبلغ اثني عشر الفاً وهي نسبة مؤلمة.

وقد نتج من جهل المرأة أيضاً انحطاط الآداب انحطاطاً مرعباً بين الشبان والشيوخ، فلا نشغل أوقاتنا إلا بالتافه المضر من الأمور فانتشر الحسد بيننا وصار كل منا ينصب أحبولة لجاره يوقعه في شباكها ونخاصم الأشقاء وننافر الأحباء وانتشر الكسل بيننا انتشاراً أقعدنا عن السعي وكسب المال من موارده الشريفة، وتمكنت من عقولنا الخرافات والبدع فصرنا أضحوكة في أفواه الغربيين وتركنا العمل بديننا وبالآداب التي يأمرنا بها غير مكترثين بغضب الله وسخطه، فوقعنا في تلك الحال السيئة التي نحن عليها اليوم.

أما آن الوقت الذي يقوم فيه عقلاؤنا والمتنورون منا بالإصلاح الواجب، أما آن لنا بعد كل ذلك الزمن الطويل الذي نخر فيه الجهل عظامنا أن نقوم قومة واحدة فنعالج ما نستطيع من أمرنا، أما آن لنا ان نقر ونعترف بمركز المرأة وبالعمل الذي يمكن أن تقوم به فلا ننظر إليها نظرنا إلى العبيد والخدم، ألم يحن الوقت لنقوم بتربيتها وتأهيلها لكي تكون زوجة صالحة عاقلة، فنكون قد انصفناها وأنصفنا أنفسنا، لعمري إن الحق واحد لا يتغير، ولكننا نغالط أنفسنا فيه، نقرر اليوم أمراً ثم ننقضه غداً ونتعامى عن النظر إلى الحقائق، فلا

نريد أن نثبت ما للمرأة من الحق في التعليم ونحرمها منه ثم نطالبها بعد ذلك بتربية الأولاد والعناية بهم وبإيجاد السرور والحياة في المنزل وهي مهمة لا يقوم بها إلا من نال حظاً وافراً من العلم والتربية.

وليس أغرب من قول الذي أعماهم الغرور والاستبداد فادعوا أن مساواة المرأة بالرجل في الحقوق هادم لنظام الحياة مفسد لآداب المرأة وهو زعم باطل لا سبب له إلا الوهم والجهل الذي نشأ عليهما الرجال، وإلا فكيف يمكن الجمع بين التربية وفساد الأخلاق وهما ضدان إذا وجد أحدهما بطل الآخر طبعاً، ولعل الذين يزعمون ذلك يستدلون على صحة دعواهم بما يشاهدونه من تهتك الفتيات اللائي نلن قليلاً من التعليم في إحدى مدارس القاهرة أو الأقاليم، وهنا يجب أن نحوّل نظر هؤلاء مرة ثانية إلى أن التربية والتعليم شيئان مختلفان وإن القليل الذي نلنه من العلم هو قشور، ولو أن هؤلاء البنات تربين في أحضان أمهاتهن تربية صحيحة مبنية على الآداب التي يأمر بها الدين الحنيف لتمكنت من قلوبهن أسباب الفضيلة، ولما كنا نرى لهذا التهتك الذي يعيبونهن به أثراً، بل لرأينا منهن مثالاً حياً على صدق ما نقول. أما الغربيات اللاتي يهمس القوم في المجتمعات على آدابهن فإنهن من الطبقة السفلى في بلادهن وأكثرهن لا يعرفن لهن أباً ولا أُماً، وقد نزحن إلى مصر طلباً للثروة فنلنها بطرق خسيسة أو شريفة، ثم اشترين بها زوجاً ليس له هم في الدنيا إلا حب المال، وما أكثر الذين يعبدونه بين الناس. وأرى بعد ذلك أن دعوى المدعين بأن تربية البنات تفسد آدابهن دعوى باطلة ولا أجد مانعاً أبداً بعد ما عرفنا مهمتها وعملها في تقدم الأمم من مساواتها بالرجل في حقوق العلم والتربية عملاً بقول النبي ﷺ: «طلب العلم فرض على كل مسلم ومسلمة».

١٣٦- اذكر طرق المعيشة واختر لنفسك منها طريقاً

يوجد بين كل الناس طرق الكسب، منها التجارة وقد تكون جارية مجرى الاعتدال يقصد منها إنماء المال ليصرف الربح أو بعضه في لوازم المعيشة أو يزاد الباقي على الأصل حتى يكثر وتتسع الدائرة فيدخل إلى الانتفاع منها أقوام آخرون عمالاً لصاحب المال فتعمهم ثروته ويكونون كعائلة للمالك يعنيهم شأنه ويهمه أُمورهم في الحال والاستقبال، وقد تكون التجارة آخذة سبيل الاعتساف لا يقصد منها إلا المال وجمعه من أي طريق وجد، على أي وجه أخذ، ويدخل في هذا القسم المرابون والغاشون في صنف البضائع ونوعها وجنسها وقيمتها، وكثير ما هم في كل بلاد وكل زمان، وكما أن هذا العمل يتأتى أن يكون من عمل واحد، فكذلك يمكن أن يكون من جماعة أو شركة أو طائفة، وكلما كبرت كبر ضررها في الوسط أو الجيل الذي هي فيه.

ومنها الزراعة: ولا نخالها يتأتى فيها من حيث ذاتها ذلك التقسيم الذي أمكن في

التجارة، لأن الزراعة لا يقصد منها إلا استثمار الأرض وإخراج ما في بطنها من الخيرات بالأعمال، وإنما الممكن تقسيمها إلى ما يراعى فيه ذلك المقصد بالجد والبحث عن النافع من الأعمال للوصول إلى ذلك المقصد، واختيار الأصلح من المزروعات مع ملاحظة مناسبته للأرض والتقليل منه أو الإكثار على حسب حالة الفصول والرواج، وإلى ما يراعى فيه مجرد القوت لأصحاب الأرض بقطع النظر عن تلك الملاحظات، وقد يوجد هذا القسم الأخير في كل البلاد، وإن تفاوت في القلة والكثرة باختلاف الأمكنة، فترى المزارعين في بعض البلاد يلحون على الأرض الحجرية حتى تنبت نبتاً حسناً وينوعونه كل سنة ويتعمقون في الأرض أو يجعلونه سطحياً على ما يهديهم إليه وتدلهم فيه التجارب.

وبعض الناس قد رزقوا أرضاً من الخصوبة بمكان تصلح لزرع كل شيء ولا نراهم إلا عاكفين على زرع صنف واحد أو أصناف معدودة، ملازمين فيه طريقة واحدة كأنهم استغنوا بجودة التربة عن الأعمال.

ومنها التوظف والخدمة: وهذه تنقسم باعتبار أول إلى التوظف في الحكومات وإلا الخدمة الخارجة عنها، وباعتبار آخر إلى ما يراعى فيه تأدية الوظيفة والخدمة بما لها من الحقوق وما عليها من الواجبات غير ملحوظ فيه إلا نفس الوظيفة والخدمة بقطع النظر عمن تؤدي له وما توصل إليه، وإلى ما لا يراعى فيه إلا مجرد المعيشة والمحافظة على الراتب بصرف النظر عن اللوازم التي لا تقوم الوظيفة والخدمة إلا بها، ويوجد من القسم الأخير كثيرون في الممالك إلا أن عددهم يختلف بتفاوت التربية وتعميمها، وبتفاوت قيام الرؤساء بملاحظة المرؤوسين حق القيام، وبتفاوت العمل على ما أوجبه القانون بلا تفرقة بين الأعاظم والصغار.

ومنها الصناعة: وقد تكون كالتجارة موجهة إلى إجادة العمل وتحسين المصنوع مراعى فيه الربح والنماء وتوسيع دائرة الصنعة من حيث هي، ويدخل في باب الانتفاع بها الكثير من العمال، وقد تكون سائرة إلى الإكثار من المال بصرف النظر عن وجهته ومآخذه، ويدخل في هذا القسم الغشاشون في المصنوع من جهة المادة أو التمويه وهم كثيرون وإن اختلفوا في الأمم باختلاف التربية العمومية وبتفاوت مراقبة الحكام وأحكام النظام وربما اختلف ذلك في المملكة الواحدة باختلاف الزمان.

وقد يمكن إدخال بقية الطرق المستعملة بجلب الرزق التي فيها وجه الصدق والغش في تلك الطرق الأربعة فلم يبقَ بعدها سوى الطرق الممحضة للغش والتدليس وهي أكثر من أن تدخل تحت عد أو يحصيها كتاب لأن الناس كلما رأوا منها قديماً جددوا فيه بدعاً واستنبطوا منه فروعاً، والحوادث لا تنقطع ولا تنحصر، فلا بدَّ من وجود تلك الطرق بدوام الزمان. ولنسرد منها بعض الشيء مما اتخذه أهله طرقاً للعيش. والموت أحسن من السلوك فيها للمتقين الصالحين.

فمن ذلك طريق التكفف للقادر على الكسب بالعمل، وطريق السرقة والاغتصاب وطريق الخدعة والاحتيال، وقد يدخل في الطريق الأخير الدجالون والرمالون وكذبة الدعاة إلى طرق يسمونها خيرية، وليست منها في شيء لأنها مناقضة للشرائع الحقة ومنافية للمعقول، وقد أمرنا على لسان دعاة الهدى بأن لا نصدق إلا بما جاؤوا به من النور المطابق للمعقول، أولئك أقوام نصبوا الحبائل للبشر والشباك للصيد فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

كلٌّ منْ في الوجودِ يطلبُ صيداً غـيـرَ أنَّ الشّـبـاكَ مختـلفات

١٣٧- الناس من خوف الفقر في الفقر

يوجد بين كل أُمة أفراد حُبب إليهم من دنياهم الجمع وكرهوا أن تكون لهم يد في البذل أو أن يكون منهم على الناس طول، بل إن منهم من بالغ فجعل نفسه ومن تلزمه مؤونتهم عداد الناس فلم يعطها حقها من الإنفاق وضيق على ذوي قرباه من الصبية والنساء فلم ينالوا من سعته غير الحرمان، وفقدوا بوجوده كل شيء من الراحة والنعيم، وكان بقاؤه فيهم على كره منهم وهو لاهٍ عنهم مشغول الفكر بالكنز والتحرز من الضياع منهوك الجسم بما أخذ على نفسه من طريق الكف عن المشتهيات بل الحاجيات والضروريات، فما كان أجوده من فقير صابر يتحمل مضض الفاقة، ولا يألم لبعده من النعمة لا يجد من ذاته باعثاً إلى اللذة فيعيش في شظف العيش وتقشف الاضطرار قرير العين ناعم البال، ولئن ذكر بأن حالته لا تلائم ثروته سخر بالناصح وانتظم مكان الواعظ، وأخذ يبين فوائد التقتير ومضار السرف، وعدّ كل من حاد عن جدته مجداً في سبيل الفقر، مسرعاً إلى العوز والإقلال، وضرب لذلك الأمثال بمن أنفق فأملق وبمن مال إلى التبذير فآل إلى التدمير واحتج بالتخوف من مصيرهم والوقوع في عاقبة أمرهم.

ومنْ يُنفق السَّاعاتِ في جمعِ مالهِ مخافةَ فقرٍ فالـذي فَعَـل الفقـرُ

قال الزمخشري: (لا سرف في الخير كما لا خير في السرف)، وهذه أيضاً حكمة نستبين بها أن الطرف الثاني للتقتير وهو السرف مضر ضرر الطرف الأول بعينه لأن المسرف وهو من يعطي من ماله مالاً يستحق لمن لا يستحق همه أن يبعثر ما جمع الأولون لغير فائدة ولا في طريق مصلحة وهو لا يتنعم منه بشيء في نفسه ولا يستفيد منه من وكّل إليه أمرهم من القرابة الشرعيين فهو معهم فقراء في أنفسهم وإن عدهم الفقراء من المثرين ولا يمضي عليه وعليهم زمان حتى يصلوا مصير البائس، ومن ضاقت به ذات اليد عن لوازم الحياة بهذه الحالة يتلاقى مع الطرف الأول في نقطة الإعدام وخسارة المال. وقد جعل اللّه عاقبة الأمرين (التقتير والسرف) واحدة حيث يقول: ﴿ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ [الإسراء: ٢٩].

فرتب الملامة والحسرة على ارتكاب ما نهى عنه في الجانبين جانب غلّ اليد إلى العنق وجانب بسطها كل البسط دلالة على أنهما يشتركان في شر العاقبة، ولا شبهة في أن اللوم كما يتجه على من غلّ يده إلى عنقه، كذلك يتجه على من بسطها كل البسط، لأنه لا منفعة في المال المكنوز كما لا فائدة في المال الذي يصرف في غير وجهته وما خلق لأجله من المنافع للناس، وكذلك يعد كل منهما محروماً من ماله، ولا بدّ يوماً من مراجعة الواحد منهما عقله فيرى أن لا نفع له في ماله فتلحقه الحسرة على حرمانه من ماله وضياع حياته سدى في الجمع أو التفريق والتبديد بدون عائدة تعود عليه في مآل دينه أو دنياه، ويا لها من حسرة يخشاها العاقل ويتحاشاها البصير فعاقبة الطرفين واحدة بلا نكران.

حدد اللّه الوسط بين هذين الطرفين وعينه كل التعيين بآية: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان:٦٧]. فالسرف والتقتير طرفان والقصد بينهما قوام، وقد حسب البعض أن السرف لا يكون إلا بالإنفاق في المعصية، أما في الوسعة الشخصية والمنزلية فلا إسراف، وقد ذهب آخرون إلى أنه في الأخيرة سرف كما هو في المحرمات وهما رأيان لا بدّ بينهما من وسط كما هو بين السرف والإقتار، والعدل ذلك أن كل نفقة في خير على شريطة بقاء المادة الأصلية للثروة بالغة ما بلغت لا تعد من الإسراف في شيء، أما الخير فقد بينته الشريعة المطهرة ودلت عليه أعمال السلف الصالحين، وإن الإقتار المذموم هو الإمساك عن الإنفاق في هذا الخير، ومن باب أولى أن يعد الإمساك عن الإنفاق في اللوازم المعيشية تقتيراً شائباً.

أنواع الخير الذي أبانته الشريعة المطهرة كثيرة فقد رغبت في بذل كل ما يعود منه على المنفق أجراً، ولم تقتصر على الواجبات كالزكاة في النقود والزرع والماشية والعروض وزكاة الرقبة بالسلاح وكخمس الغنائم وسلب القتيل، بل بينت كل ما فيه كرامة خلق وتطبع بفضيلة كالصدقة الجارية والوقف على نوع مخصوص والتبرع بالإحسان وإعانة المحتاج ومواساة الفقير بالعطاء وتعهد الأغنياء للمساكين كلما دعت حاجتهم إلى الإنفاق.

وليس من حاجة لسرد النصوص القرآنية والحديثية والأثرية فإنها بين يدي كل من اطلع عليها من الناس ولا خفاء في فهمها ولا التباس فإنها كلها من الصراحة بمكان يدركها معه حتى الأميون.

ويعد كريماً ولا يحسب مسرفاً شرعاً كل من خصص من ماله بعد أداء الواجب من الزكاة المفروضة جزءاً لا يضيق عليه معيشته للصدقات، وله أن يجعل بذله لطائفة مخصوصة من الناس يعين صفاتهم ويجريه عليهم ما شاء من الزمن أو طول الحياة.

ويكون مقتراً إذا ارتكب ما نهى اللّه عنه إن كانت عنده تلك السعة وخصصها لنفسه ولم ينتفع منها أحد سواه فإنه ربما جرى ذلك إلى التقتير على نفسه ومن هم عالة عليه فوقع من خوف الفقر في الفقر، وإن خالف من نسبته إلى الإسراف في الخير.

ويعتبر مقتراً ملوماً كل من منع المستحق ما يستحق من المال كأن علم بأن في جيرانه أو أهل محلته أو بلدته بائساً كبرت عليه نفسه فتعفف عن ذل المسألة إلحافاً فبات فقيراً، ثم لم يواسه بما يقدر عليه من طعام أو مال يسد خلته ويدفع حاجته، أو كان علم بأن في أولئك من كان غنياً فدهمه القضاء بما لم يكن في الحسبان، فأمسى وهو في مصاف الفقراء، ثم لم يبادر إلى نجدته بماله والسعي بجاهه في إعلام الأغنياء بحاله حتى يجتمع له منهم ما يجعله رأس مال لحياته في مستقبل الزمان.

أو كان رأي من أولئك من قضى على عائلهم بالموت أو ليس لهم بعده من ساعٍ على رزقهم وهم لا يقتدرون عليه كأن كانوا صبية أو مرضى أو كهولاً، ثم لم يتعهد أمرهم بماله وبسعيه في استنهاض أهل الخير لهم ودعوتهم إلى إغاثة أولئك المضطرين، أو كان شاهد منهم نسمات من اليتامى تدور في الأزقة بلا عمل ولا كسب لقلة ما يجدون ممن يأويهم ويربيهم، ثم لم يسعفهم بالمال وبذل الجاه في استجماع ما يصلح شأنهم من أغنياء أُمتهم ومواطنيهم في البلاد، كل هؤلاء وأمثالهم يعدون مقترين ومما يخافون الفقر وهم واقعون فيه.

النوال والسخاء في هذا السبيل وأمثاله خير وفضل، أما قصره على المباحثات فنقص وجهل، ولأن يبني الرجل لنفسه بيتاً من المكانة والمنزلة في قلوب مواطنيه الخير من أن يبني بين منازلهم قصراً مشيداً يفسح فيه المدى ويكثر فيه الزينة ويستجلب إليه البهار، فإن البيت في القلوب قوي الدعائم متين الأساس كلما تقادم عليه العهد زاد رفعة وانفساحاً، وذلك القصر وإن بناه بالإحكام حتى كان كالأهرام يبلوه الزمان وما لذته لصاحبه وهو قذى في عين الفقير كلما رآه تضجر الحالة لنفسه. أما ذلك البيت بيت المواساة والإحسان فهو قرة عين الفقير، ومتنزه البائس والمسكين ومحط رحال المجد والفخار وإن زخرفه ليدوم بدوام الناس في الوجود.

ومن الناس من تجده يسهل عليه الإنفاق في الاستطالة بالبناء الزائد عن حاجته بكثير، ولا يهاب المصرف في مثل الأفراح والمآتم وغيرها فينفق ماله وراء الناس ويجنح إلى الخيلاء في الملبس والمطعم وهو لا يحتاج من ذلك إلا إلى جزء من عشرات، ينفق هذا وهو مرتاح القلب غير متألم مما يرميه به العقلاء من الخروج عن القصد في هذا السبيل، ثم إن دعي إلى مبرة شرعية تقاعس وكلما أجهد الناصح نفسه وجدَّ في الطلب ازداد تقاعداً وتباعداً، وكان هذا حاله في كل دعوة إلى مكرمة تطالب بها مكارم الأخلاق، فما لمثل هذا من دواء ينفعه في تصرفاته إلا الإلجاء إلى الخير فإنه لا ينفع معه الدليل ولا يفيده البرهان إذا ارتكز في دماغه أن عمله هو اللازم، وإن غيره من طلاب المآثر الباقية عابث

مضيع للمال في غير طريقه المعتاد فإن لم يكن القسر لازمه ناصح وما هو من حيث الوجود بقليل ودأب على تذكيره بالشريعة وتمثل له بآياتها وأعمال أهلها فعدل عن طبعه ومال إلى الخير فعمله، وتعود بالعمل عليه فتتجه وجهته إليه، وإن وجد في الأمة كثير من أولئك وعز على الناصحين تهذيبهم فلا بأس من تركهم والركون إلى التربية في الصغر فإنها أقرب للمنفعة وأدنى إلى الانتفاع.

يعد مسرفاً شرعاً كل من صرف ماله أو شيئاً منه في محظور لضرورة، أو مال في تصرفه إلى الخيلاء والرياء أو أكثر من لوازم الحياة وحاجياتها وزخارفها مقتصراً عليه وتأدى به ذلك إلى ضياع المال كله أو معظمه والاحتياج إلى الغير بعد زمان وإن خرج به تجاوز الحد إلى الاستدانة لستر الحالة كما يفعله الكثير كان من السفهاء المغرورين، وربما كان من اللازم أن يقوم عليه قيّم يدير له شؤون المال ويتصرف بما فيه المصلحة لئلا يتكاثر الدين وهو في غفلته فلا يصحو إلا وقد نفد الرزق أجمعه وأصبح من المقلين، وتلاقى مع طرف التقتير ونادى عليه حاله والناس «لا خير في السرف بحال من الأحوال».

١٣٨ - فوائد صناديق التوفير

إن من أهم ما يجب أن تصرف إليه العناية هو غرس مبادئ الاقتصاد والتوفير في نفس الأولاد من الصغر حتى ترتاح إليه نفوسهم عند الكبر.

ولا شك أن صناديق التوفير عظيمة الفائدة في كل بلاد أُنشئت فيها. وعلى الخصوص في البلاد التي تكون فيها أبواب التبذير واسعة، فعلى كل عاقل يسعى في وضع كل ما يتوفر لديه في إحدى صناديق التوفير المنتشرة في أنحاء القطر ولا يخجل من قلتها فإن القليل مع القليل كثير.

قَليلُ المالِ تُصلحهُ فيبقى ولا يبقى الكثيرُ معَ الفسادِ

ولا بدّ من يوم يجد فيه مبلغاً يقوم بحاجاته بل بمعيشته، بل الخجل الأعظم هو عدم وجود مال متوفر لديه مع شدة حاجته إليه.

قال الإمام أبو بكر: «إني لأبغض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد». وقال بعض الملوك: (أفضل أن أرى رعاياي يضحكون على بخلي من أراهم يبكون من إسرافي). ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل، ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر وطاب نفساً بالذل.

وأسباب الاقتصاد عديدة ومزاياه مفيدة وفوائده جمة وعوائده عامة، فإن الأموال المقتصدة تنفع صاحبها عند وقوعه في الحاجة (الدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود).

وقال الشاعر:

إنَّ الدراهمَ في المواطنِ كلِّها ... تكسو الرجالَ مهابـةً وجمالا
فهيَ اللسانُ لمنْ أرادَ فصاحةً ... وهي السِّلاحُ لمنْ أرادَ قِتالا

فأنعم بمشروعٍ صناديق التوفير الذي وسع ما ضاق وكبر ما صغر ووفر ما زاد ويسر ما تعسر وشرح صدوراً كانت منقبضة وساعد أناساً هم في حاجة إلى المساعدة بدون مقابل ولا أجر، ولله در من شرع ومن تمم ذلك العمل العظيم القدر الكبير النفع الجليل الوضع.

وبالجملة: الناس طوائف فمنهم الأغنياء الواسعو الثروة الذين إذا لم يعيشوا بالترف الزائد لم يمكنهم أن ينفقوا دخلهم كله وهؤلاء يكفيهم أن يعتدلوا في نفقاتهم حتى لا تزيد على دخلهم وإلا فإن أسرفوا كثيراً لم يسلموا من الفقر، وإن اقتصدوا كثيراً جمعوا مال الدنيا وأوقفوا حركة الأعمال وغلوا أيدي أهل الصناعة والتجارة وكلا الأمرين مذموم، ومنهم الفقراء والأواسط الذين إذا عاشوا بالحكمة والتدبير لم يزد دخلهم على نفقاتهم إلا قليلاً وهم الفريق الأكبر من البشر، فهؤلاء يجب عليهم الاستعداد للعطلة والمرض والشيخوخة بذخر النقود عند مسيس الحاجة إليها، وذخر النقود في البيت قلما يفي بالغاية المطلوبة، وربما تنفق على غير حاجة شديدة وذخرها في البنوك الكبيرة متعذر لأن هذه البنوك لا تستلم إلا المبالغ الكبيرة وتحبس فيها نصف سنة على الأقل، فإذا مست الحاجة واقتضت الحالة وضع صناديق التوفير لذخر ثلاثة أو خمسة قروش أميرية للفقراء من العمال وغيرهم جاءت بفائدة عظيمة وأصبحت من أفعل الوسائط لتهذيب الناس وردعهم عن الشرور وجعلهم من الذين يحسنون صنعاً.

١٣٩- هل الفوائد الناتجة عن تأليف الشركات في بلادنا من الأجانب مشتركة بيننا وبينهم، أو عائدة عليهم فقط؟

من أنعم النظر في أحوال الأمم الأوروبية وتأمل في أُمور الجمهوريات الأمريكية والمستعمرات الأوسترالية، وسبر غور هذه الأمم بمنظار الانتقاد وبحث في أحوالها وأطوارها بتأملٍ وافتقاد تجلت له في أحسن جلباب وظهرت له حقائقها بغير حجاب، واتضح له جلياً أنها نالت قصب الرهان في مضمار التمدين والعمران وفازت بأمانيها من اتساع نطاق الحضارة وتقدم الصناعة والزراعة والتجارة فنشأ عن ذلك اشتراك المنافع بين الأمم واشتباك فروع التجارة بين جميع الحكومات والملل بتأسيس الشركات.

انظر إلى الشركات الدولية كشركات السفن البخارية والسكك الحديدية والأسلاك البرقية وما أفادته من تسهيل المواصلات وتقريب المسافات فقطعت الفيافي والفلوات

واخترقت الجبال والآكام والصحراوات وكثر انتقال الأفراد إلى كافة الممالك والبلاد على أحسن أسلوب وأتم نظام مما هو مشاهد بالعيان في كل زمان ومكان.

وانظر إلى الشركات التجارية وما فعلته يد المنافسة في البلاد الغربية يندهش لُبّك ويتحير فكرك.

وانظر إلى الشركات الصناعية وما وصلت إليه يد الصناع من المصنوعات التي عمرت جميع البقاع.

وانظر إلى الشركات الزراعية وما وصلت إليه في تلك الأقطار مما يدهش الأبصار ويبهج الأنظار فما غادرت شبر أرض في تلك البلاد إلا واخصبته حتى منحدر الجبال أصبح رياضاً وبساتين يسر الناظرين، ولا يبعد أن تستخدم قممها وذراها من غرسها وبنائها فتقدمت الأراضي تقدماً باهراً وصار الفدان الواحد يساوي مبلغاً وافراً ضعف ما كان يساويه قبلاً مرتين أو أكثر، وهكذا بقية الشركات التي غيرت نظام الهيئة الاجتماعية، وأوجدت المنافسة في كافة المشروعات التجارية والصناعية، وجعلت جميع الأفراد مشمولة بالمنافع العمومية ونشرت بينهم روح الحضارة والمدنية وصار الكل يشتغلون ويربحون ويكسبون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

١٤٠- لا سرف في الخير كما لا خير في السرف

لا بدّ للعاقل من التبصر في عواقب الأمور والنظر في مستقبلها فلا تغره ما تفيض يده به من الدينار والدرهم، فيزعم أن الأيام لا تتنكر له وأن الفقر لن يلج بابه فيبذر ويسرف ويبدد ويتلف لا يحسب للعواقب حساباً ولا يخشى من الأيام انتقاضاً.

فكم رأينا من عزيز أصبح بعد الرفه والنعمة وبعد الحياة اللينة يمتهد الثرى ويستندي الأكف يطرق الأبواب فلا يجاب قد صد عنه صديقه وفر من لقائه من كان في نعمته مغموراً وبغناه فرحاً مسروراً وضربت عليه الذلة والمسكنة، فضاقت عليه الأرض بما رحبت فهو من ليله في سُهد وأرق لا يذوق النوم إلا غراراً ومن نهاره في هم وقلق لا يرى للراحة مناراً لا يجد حراً يواسيه، ولا رفيقاً ينسيه ما هو فيه، تجري دموعه على خده أذبلته الأيام بعد النضرة أسفاً على ذلك النعيم الزائل والمجد الحائل، حتى إذا قرص الجوع أحشاءه وأنهك قواه دار يتفرس الوجوه عله يجد كريماً يسد خلته ويرق لمصابه، وأين الكريم فهو من نهاره في نصب وعناء ومن ليله في شقاء وبلاء.

غالبتُ كلَّ بليةٍ فغلبتهُا   والفقرُ غالبني فأصبحَ غالبي

نعم إن الفاقة هي الموت أو شر منه.

فالموتُ خيرٌ من حياةٍ يُرى بها عَلى الحرِّ بالإقلالِ وسمُ هوانِ

الفقر يخرس الفطن عن حجته ويجعله غريباً في بلدته، لا يجد بُداً من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهبت مروءته ومن ذهبت مروءته فلا خير له في الحياة.

ولو أن ذلك المسرف المبذر أعد للدهر وتقلباته عدة من القصد في موارده، فادخر ما يدرأ به عادية الزمان واتبع قول اللّه الكريم: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان:٦٧]، لما لقي من دهره ما ليس له بحمله يدان. فإن حسن التقدير مع الكفاف أبقى من الكثير مع الإسراف، وإن في إصلاح المال سلامة الدين وجمال الوجه وبقاء العز وصون العرض.

قليلُ المالِ تصلحهُ فيبقى ولا يبقى الكثيرُ معَ الفسادِ

فأما أولئك الذين يغرهم أن يقال جواد فينفقون أموالهم بين الملاعب والملاهي ولا يدعون منكراً إلا ارتكبوه ولا إثماً إلا اقترفوه، فلا دواء لهؤلاء إلا الفقر الذي يضرب على أيديهم ويقع موقع الأغلال من أعناقهم، وذلك جزاء المفسدين.

الجود فضيلة، ولكن إن جاوز الحد أو أخطأ الغرض انقلب رذيلة لا تغفر وزلة لا تستباح وكيف يجود المرء بماله تكرماً وحاجته إليه ماسة ونفسه بما يجود به أجدر، ولأن يمسك ما في يده أحب وأفضل من أن يمدها إلى الناس.

يا ربَّ جودٍ جرَّ فقرَ امرئٍ فقامَ في الناسِ مقامَ الذليلِ
فاشددْ عُرا مالكِ واستبقهِ فالموتُ خيرٌ من سؤالِ البخيلِ

وبالجملة: إن الإنسان لا يدري ما خبأه له الزمن في كنانته من مدلهم الخطوب وبالغ الحادثات. فبينما ترى الرجل غنياً مكثراً إذا هو قد قلب له الدهر ظهر المجن فأنضب معين ثروته وأغاض مجرى سعادته.

وبينا تراه معافى في جسمه موفوراً في صحته إذا بالأسقام انتابته وبالخطوب تهادته وبسهام الآلام رمته فأذوت نضير غصنه وأذبلت زهرة شبابه.

وبينا تراه وحيداً إذا بك تراه رب أسرة وكاسب صبية تلك سنة اللّه في خلقه ودوام حال محال.

ألا وإن الصديق تدخره للشدة والصاحب تستمده في الحاجة هو المال فهو وحده يكفكف الدمع ويلم الشعث ويصلح ما أوهته يد الخطوب. فلا جرم إذا كان الاقتصاد فضيلة والإسراف رذيلة فبالاقتصاد يخفف الإنسان وطأة الفقر ويدفع شرة الألم ويستعيد رونق الشباب وغضارة الفتوة وبثماره الشهية يسد رمق ذوي الحاجة، ويربِّي الأبناء ويوطئ لهم سبيل الرقي والفلاح.

فأما من أسرف وبذر وفرق ما ادخر وبدد ما جمع وأمن عوادي الزمن، فقد نصب نفسه هدفاً لسهامه وغرضاً لخطوبه وآلامه يوم تنوبه النائبة وتصيبه الصائبة، فلا ملجأ له ولا وزر ولا مال قد ادخر وأنى له بحر يواسيه أو كريم يؤاخيه ويوم تكون ذكرى ماضيه غصة على غصة، يعض بنان النادم المتحسر على ما فرط فيه، يقول: يا ليتني قدمت لحياتي وماذا ينفع الندم وقد أحاط به جيش الألم.

فالعاقل من اغتنم من غناه لفقره ومن شبابه لهرمه ومن صحته لمرضه ولبس لكل حالة لبوسها حتى لا ييأس لخطب او يذوب أسى لكرب.

إذا المرءُ لمْ يدنّسْ منَ اللؤمِ عرضهُ ... فكلُّ رداءٍ يرتديهِ جميلُ

حلية الإنسان بين أقرانه نفس شريفة وعرض طاهر نقي وخلق جميل، فإذا استكمل ذلك فقد استكمل الحسن واستحق الإجلال والإكبار.

ولا يضره ان يكون فقيراً معدماً يرتدي اسمالاً بالية، فإن الثياب تبلي جدتها وتذهب الأيام بنضرتها وجمال الأخلاق يزيد على الأيام حسناً ويجعل للمتحلي به بين الناس شأناً رفيعاً.

ومن الناس من لا يبالي بحفظ عرضه وصون نفسه من الدنس ثم يستر هذه النفس الدنيئة، وذلك العرض الخسيس بأجمل الثياب وأنفس الحلل فيكون مثله كمثل الذي تناول جيفة قذرة ولفها في لفائف الحرير لا يمنعها ذلك أن تكون خبيثة الريح قبيحة المنظر.

ليسَ الجمالُ بأثوابٍ تزيّننا ... إنَّ الجمالَ جمالُ العلمِ والأدبِ

فالعاقل من كمل نفسه وصان عرضه فالمرء بآدابه لا بثيابه.

١٤١ - الفلاح روح العمران

إذا ما اخترتُ في الدُّنيا حبيباً ... فخيرُ أحبَّتي فلاحُ مصرا
كريماً يملأُ البلدانَ خيراً ... ولا يلقى سوى الإجحافِ أجرا
بمحراثٍ يشقُّ الأرضَ شقّاً ... فيخرج منْ ثراها الخصبِ تبرا
فلوْ عرفَ الطريقَ الحقَّ قومي ... لما احتقروا لهُ عملاً وقدْرا

الفلاح يدر على البلاد الخير واليمن والرخاء ويزرع الحبوب والخضر التي تنتجها الأرض ويغدو ويروح إلى حقل مترامي الأطراف كالزبرجدة الخضراء أو البساط السندسي ويتحمل حرارة القيظ وزمهرير الشتاء مجداً في عمله ينفع وطنه بالثمرات الناتجة من زرعه ويصلح الأرض البور ويربي الماشية التي نأخذ لبنها ونأكل لحمها ويساعد على تشييد المنازل ويغرس الأشجار ويتعهدها بالسقي لنجني ثمارها ونقطف أزهارها ونشم شذاها.

ويعمل الأعمال بأجر قليل وثمن بخس وبه حياة العمران وتمام الرفاهية والسعادة بزيادة دخل الحكومة من ثمن قطن وحبوب ودفع خراج أرضه.

إذا لـم تستطعْ شيئاً فدعهُ ... وجـاوزهُ إلــى ما تستطيعُ
وكيفَ تريدُ أنْ تدّعي حكيماً ... وأنتَ لكلِّ مـا تهوى تبوعُ

جهل وألف جهل من المرء أن يتشبث بغير الممكن ويجري وراء المستحيلات فإن ذلك تضييع للحزم وتوجيه للعزم إلى غير وجهه فينبغي للعاقل الذي يحرص على أن يذكر بالرجاحة ويعرف بالحزم أن يحكم أمر نفسه فيردها عن الاسترسال في أمانيها الباطلة ومطامعها الزائدة فإن مصارع الرجال تحت بروق الطمع.

إذا صاحبتَ فـي أيامِ بؤسٍ ... فـلا تنسَ المودةَ في الرخاءِ
ومنْ يعدمْ أخـوهُ على غناهُ ... فمَا أدَّى الحقيقةَ في الإخاءِ

أجل إن صديقك الذي عرفته في أيام شقائك ومحنتك وفقرك وحاجتك فدفع عنك بعض آلامك وهوّن من مصائبك جدير منك أن تحرص عليه إذا صرت إلى اليسر والسعادة حتى تؤدي له بعض ما يجب عليك وحتى تشاركه في نعيمك كما شاركك في بؤسك وإلا فإنك قد خنت الصداقة وعققت المروءة إذا شقي وأنت في نعيم وصفاء وافتقر وأنت في غناء وهناء.

إذا كانَ رعبي يُورث الأمنَ فهو لي ... ألذُّ منَ الأمنِ الذي يُوجبُ الرُعبا

أهلاً بتلك الحوادث التي تخوفني فأحذر وتنذرني فأتقي وتذكرني فأتعظ وتفيدني التجربة والحزم فأسرَّك بعد حزن وأضحك بعد بكاء، ولا أهلاً بالنعيم الذي لا ظل له، واللذة التي تعقب الحسرة وتخلف الندم.

إذا فعلَ الفتَى ما عنه ينهى ... فَمِنْ جهتينِ لا جهة أساءَ

حقاً إن الواعظ يجب أن يكون أول العاملين بموعظته وإلا فقد أساء إلى نفسه إساءتين أولاهما: أنه عرف شراً فلم يتجنبه، وأخراهما: أنه رضي لنفسه ما لم يرضه للناس وذلك أهون لنفسه عليه.

ومـا الحسبُ المـوروثُ لا درَّ درّهُ ... بمحتسـبٍ إلاَّ بـآخـرَ مُكتسبِ
إذا العودُ لمْ يثمـرْ وإنْ كانَ شعبةً ... منَ المثمراتِ اعتدَّه النَّاسِ في الحطبَ
فليـسَ يسـودُ المـرءُ إلاَّ بنفسهِ ... وإنْ عـدَّ آباءً كـراماً ذوي حسبِ

لا تعتمد على شرف آبائك فإنما حازوه بأعمالهم واستحقوه بمجهودهم وليس بمعدود في مفاخرك حتى يكون إلى جانبه شرف ترتقي إليه بهمتك وتعمل فيه بيدك، ألست ترى العود من الشجرة المثمرة وإن قصر من طبيعة أصله وفقد مزية أرومته، لم يكن لغير النار طعاماً، فعلى نفسك فعوّل، وليس للإنسان إلا ما سعى.

واسوأُ أيَّامِ الفتى يومٌ لا يرى ‌‌ ‌‌ لـهُ أحدٌ يزري عليهِ وينكرُ

ليس شراً على المرء من ذلك اليوم الذي يركب فيه هواء فلا يجد له راداً عن ضلاله ولا منهنِهاً من غلوائه فإنه جدير إذ ذاك أن يتردى في مهاوي ضلالته ويذهب فريسة جهالته.

وإذا عجزتَ عنِ العدوِّ فداره ‌‌ ‌‌ وامزح لـهُ إنَّ المُزاحَ وفاقُ
فالنارُ بالماءِ الذي هو ضِدُّها ‌‌ ‌‌ تُعطي النّضاج وطبعُها الإحراقُ

إذا أعياك عدوك وظهر عليك بقوته فتغلب عليه بالمعروف يسهل لك صعبه وتلن قسوته ويذهب غضبه، فإن المعروف علاج الإباء ونازع العداوة، ألست ترى الماء والنار وهما ضدان قد أمكن أن نستفيد منهم وضع الإناء بينهما فنحصل على إنضاج الطعام.

إذا الأمرُ أعيا اليومَ فانظرْ به غَداً ‌‌ ‌‌ لعـلَّ عسيراً فـي غـدٍ يتيسر
ولا تُبدِ قولاً منْ لسانكَ لم يُرضَ ‌‌ ‌‌ مواقعـهُ مـنْ قبـلِ ذاكَ التَّفكر
ولا نصر منْ حبلِ امرئٍ في رضا امرئٍ ‌‌ ‌‌ فيتصـلا يومـاً وحـبلكَ ابتـر

إذا حاولت أمراً فخاب فيه سعيك فلا تستسلم إلى اليأس فيعقل لسانك ويذهب بصوابك ويفت في عضدك فإنما عظائم الأمور صيد حبالته الصبر وشركه الأناة، فأوسع لنفسك محال الأمل يضيء لك صبح المشكلات، وليكن منك على نفسك رقيب يناقشها الحساب فلا تنطق بالقول حتى تمر به على ذهنك، فتقدر موقعه وتقرأ عاقتبه فإنك إن لم تفعل دللت الناس على عيوبك فسجلوا عليك الحمق وعدوا لك الهفوات، وربما راش لك لسانك سهماً فأرداكَ أو حفر لك قبراً فواراك.

إن للصداقة حقاً يجب أن ترعاه، فلا تجعلها سلعة تساوم فيها الأصدقاء تبذل منها بقدر ما تدر لك من النفع وتضن بها حين لا تؤمل منها ربحاً فتخذل الضعيف لتمالئ القوي وتهجر الفقير لترتع في بحبوحة الغني. فإن تلك خلة لو عرفها الناس لزهدوا في صداقتك فتاول ربوع إخائهم، وقد أفردت في دار وحشة ويجتمع شملهم وقد رثت حبالك منهم.

يلومونني في الدَّينِ قومي وإنَّما ‌‌ ‌‌ ديُوني في أشياءَ تُكسبهم حمـدا
أسـدُّ بـه ما قـدْ أخـلّوا وضيَّعوا ‌‌ ‌‌ تُغورَ حقـوقٍ ما اطاقوا لها سـدّا
وإنَّ الـذي بيني وبين بنـي ابـي ‌‌ ‌‌ وبين بني عمِّي لمُختلفٌ جِـــدا
فإنْ ضيَّعوا غيبي حفظـتُ غيوبهم ‌‌ ‌‌ وإنْ هدموا مجدي بنيتُ لهمْ مجـدا

عَجبت وما لي لا اعجب من قوم ضيعوا الحزم في عتبي وجنحوا به عن محجة الصواب، بل فاتهم اني أجد ليجدوا وابني ليتفيؤوا واحترق ليستنيروا واتحمل ثقل الدين

دونهم لأقيم لهم فخراً يجنون شرفه ويبقى لهم اسمه. أؤدي ما عجز عنه كسولهم وأبغي ما رغبت فيه نفوسهم فقصر عنه سعيهم. لقد يقضي اللبيب عجباً من الفرق بيني وبين هؤلاء، إذ لا يلتقي هواي بهواهم ولا يوافق شكلهم شكلي. فإذا خانوا غيبتي ونهشوا عرضي كنت على غيبهم أميناً وعن أعراضهم ذائداً، وإن كفروا شكرت، أو عابوا أثنيت.

١٤٢- الرحمة فوق العدل

ولا تخشَ غيرَ اللّهِ وارحمْ عبادهُ فرحمتهُ ذخرٌ لمنْ هـو راحمُ

جميل وألف جميل الاتصاف بالشفقة والرحمة مع جميع المخلوقات لا فرق بين إنسان وحيوان والعطف على البؤساء والضعفاء ومعاملة جميع الناس بالرأفة ولين الجانب والابتعاد عن القسوة والغلظة، فالرفق من دواعي الألفة والتواصل هو سبب إلى السلام والوئام وعماد السعادة وأس النظام، فكثيراً ما قطع الخرق تواصلاً وفك ترابطاً وكم أفسد العنف نظاماً وسبب هلاكاً وكم أخل أعمالاً وضيع آمالاً. ولقد وصف اللّه تعالى نفسه بالرحمة، فقال جل شانه: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم﴾ [الأنعام:٥٤]. وقال عز وجل: ﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه يحب الرفق في الأمر كله». وقال عليه الصلاة والسلام: «من أُوتي حظه من الرفق فقد أُوتي حظه من الدنيا والآخرة» وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه». وقال عليه الصلاة والسلام: «ارحموا ترحموا أو اغفروا يغفر لكم». وقال: «لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي». وعن عائشة أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن اللّه رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وقال معاوية: عجبت لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدر عليه بالحجة، ولمن يطلبه بخرق وهو يقدر عليه برفق.

وقال أشجع السلمي لجعفر بن يحيى: ما كاد يدرك بالرجال ولا بالمال ما أدركت بالرفق.

وقال بعض الحكماء: يدرك بالرفق ما لا يدرك بالعنف، ألا ترى أن الماء على رقته يقطع الحجر على شدته.

وقال بعض العقلاء: إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني فبماذا يدرك. وقال آخر: يد

بالرفق تجني ثمرة السلامة، ويد الخرق تغرس شجرة الندامة. وقيل: الرفق مفتاح النجاح. وقيل أيضاً: بالرفق تستجلب القلوب. وقال أبو الفتح البستي:

ورافق الرِّفق في كلِّ الأمورِ فلمْ يندمْ رفيقٌ ولـمْ يذممهُ إنسانُ
ولا يغرنَّكَ حظٌ جرَّهُ خـرقٌ فالخرقُ هدمٌ ورفقُ المرءِ بنيانُ

وقال النابغة الذبياني:

الرِّفـقُ يُمـنٌ والأناةُ سـعادةٌ فاستأنِ في رفقٍ تلاقِ نجاحاً

وقال آخر:

منْ يستعنْ بالـرِّفقِ في أمرهِ يستخرجِ الحيَّـةَ مِنْ وكْـرِها

١٤٣- بروا أباؤكم تبركم أبناؤكم

ليس هناك مخلوق لا يشعر بما للوالدين من الولاء الجميل والفضل الجزيل فهما سبب وجوده في هذه الحياة، وقد راعياه مراعاة الحنان والإكرام منذ الصغر وربياه جهد طاقتهما حتى الكبر، فلم يالوا جهداً في إرضائه والعمل على تمام راحته وإذا كان هذا هو حالهما معه، فما أولاه أن يقابلهما بمثل إكرامهما له ويبرهما في كبرهما مقابل عطفهما عليه في صغره، ويساعدهما في لوازم الحياة بكل ما أُوتي من قوة وما وهب من عقل وهو يعلم أنه ليس من الدين ولا من المروءة أن يقابلهما بالعقوق ويجحد فضلهما عليه وينكر ما قدماه له من خدمات جليلة وما تحملاه معه من متاعب جسيمة، ولقد حثنا اللّه تعالى بوجوب برّهما والإحسان إليهما، فقال جل شانه: ﴿وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٌ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل ربِ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤]. وقال عز وجل: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾ [العنكبوت:٨].

وقال رسول اللّه ﷺ: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن اللّه يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من أرضى والديه فقد أرضى اللّه ومن أسخط والديه فقد أسخط اللّه»، وعنه أنه قال: «من بر والديه طوبى له زاد اللّه في عمره»، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من رجل ينظر إلى وجه والديه نظرة رحمة إلا كتب اللّه بها حجة مقبولة مبرورة». وعن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا يجزي ولد والداً إلا ان يجده مملوكاً فيعتقه». وعنه أنه قال: «طاعة اللّه طاعة الوالد ومعصية اللّه معصية الوالد». وقال: «اثنان يعجل اللّه عقوبتهما في الدنيا البغي وعقوق الوالدين». وعن أنس أن رسول اللّه ﷺ قال: «الكبائر الإشراك باللّه وعقوق الوالدين وقتل

النفس واليمين الغموس». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ليلة أُسري بي رأيت أقواماً في النار معلقين في جذوع من نار، فقلت من هؤلاء يا جبريل، قال الذين يشتمون آباءهم وأمهاتهم في الدنيا».

وقال الحسن البصري: حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم.

اشكرْ محاسنَ والديكَ وعزّهم   واخفِضْ لهم عزَّ الجناح بذلهِ

وقال آخر:

لأمِّكَ حقٌّ لو علمتَ كبيرُ   كثيركَ يا هذا لديه يسيرُ
فكمْ ليلةٍ باتتْ بثقلكَ تشتكي   لها منْ جواها أنَّة وزفيرُ
عليكَ ببرِّ الوالدينِ كليهما   وبرِّ ذوي القُربى وبرِّ الأباعِدِ

١٤٤- صلة الرحم من صلة الرحمن جل شأنه

تتكون حياتنا الاجتماعية من الأسر (والعائلات) فإذا تفككت عرى اتصال هذه الأسر وتحللت روابط تلك العائلات فقد ضاع القصد منها وأصبح كل فرد منعزلاً عن الآخر يهيم على وجهه في الفيافي والقفار لا يجد له ناصراً ولا يرى له معيناً وحينئذٍ فلا تجد للحياة نظاماً ولا للعيش سعادة، ولهذا كانت صلة الرحم السبيل الأقوى إلى توطيد عرا المحبة وتوثيق روابط الإلفة والوئام، فمن تجرأ على قطع تلك العلائق وفصم هاتيك الصلات بين الأقارب، فقد اعتدى على النظام الإلهي، ثم لا يجد له من دون اللّه ولياً ولا نصيراً.

قال اللّه تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا اللّه الذي تساءلون به والأرحام إن اللّه كان عليكم رقيباً﴾ [النساء: ١]. وقال جل شأنه: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب اللّه﴾ [الأنفال: ٧٥]. وقال عز وجل: ﴿الذين يوفون بعهد اللّه ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر اللّه به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ [الرعد: ٢٠-٢١].

وقال رسول اللّه ﷺ: «من سرّه أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن اللّه تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقال مه فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى، رضيت يا رب. قال: فذلك لكِ». وقال عليه الصلاة والسلام: «صلة الرحم تزيد العمر». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «يقول اللّه عز وجل: أنا الرحمن وهي الرحم اشتققت اسمها من اسمي فمن وصلها وصلته، ومن

قطعها قطعته». وعنه أنه قال: «اثنان لا ينظر الله إليهما يوم القيامة قاطع الرحم وجار السوء»، وقال أيضاً: «صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الأعمار». وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم». وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون فقال: «يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم، وإياكم والبغي فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغي وإياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة تو[illegible]ن مسيرة ألف عام، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم».

وقال بعض الحكماء: صلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق.

وقال بعض الأدباء: من لم يصلح لأهله لم يصلح لك، ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك.

وقال بعض البلغاء: صلوا أرحامكم فإنها لا تُبلى عليها أصولكم ولا تُهضم عليها فروعكم. وقال آخر: من وصل رحمه وصله الله ورحمه.

وحسبكَ مـنْ ذُلٍّ وسـوء صنيعةٍ ... مناواةُ ذي القُربى وإن قيلَ قاطـعُ
ولكـنْ أواسـيهِ وأنسـى ذنوبـــهُ ... لترجعـهُ يومـاً إلـيَّ الرواجـعُ
ولا يستوي في الحُكمِ عبدانِ واصلٌ ... وعـبدٌ لأرحـامِ القرابـةِ قاطـعُ

١٤٥- العمل للدارين صفقة رابحة

ما أحسنَ الدِّينَ والدُّنيا إذا اجتمعا ... واقبح الكُـفر والإفـلاسَ للرَّجـلِ

تقضي الشريعة الإسلامية والقوانين الإلهية أن يعمل الإنسان للدنيا والآخرة معاً بحيث لا ينكب على الدنيا ويفرط في الحب لها والولوع بها فيسوقه ذلك إلى التغالي في لذاتها والانهماك في شهواتها فينسى عاقبته ويخسر آخرته ولا يترك الدنيا مطلقاً ويرغب عنها كلية فيضيعها ويقضي على الغرض منها، وحين إذ ذاك يكون قد أخل بنظام الكون وخالف قوانين الشريعة.

قال تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ [القصص: ٧٧]. وقال: ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾ [الشرح:٧-٨].

وقال رسول الله ﷺ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة

للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أعظم الناس هماً المؤمن يهتم بأمر دنياه وأمر آخرته». وعنه أنه قال: «خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ولم يكن كلاً على الناس». وقال أيضاً: دعوا الدنيا لأهلها، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر». وعن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «من أحب دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى».

وقال علي كرم اللّه وجهه لرجل ذم الدنيا عنده: الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها.

وقال سفيان الثوري رحمه اللّه: مكتوب في التوراة إذا كان في البيت بر فتعبد وإذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك. وقال وهب بن منبه: مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

وقال ابن السماك: من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها.

وقال بعض الحكماء: ليكن طلبك الدنيا اضطراراً وتذكرك في الأمور اعتباراً وسعيك لمعادك إبداراً. وقال آخر: انظر إلى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بها. وقال غيره: ليس من الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها.

وقال بعض السلف: الموت قصاراك فخذ من دنياك لأخراك. وقال آخر: إني وجدت خير الدنيا والآخرة في التقى والغنى، وشر الدنيا والآخرة في الفجور والفقر. وقال غيره: من عمل للآخرة أحرزها والدنيا، ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة. وقال جرير:

فلا هو في الدُّنيا مضيِّعٌ نصيبهُ ... ولا عرضُ الدُّنيا عنِ الدِّينِ شاغلُهْ

١٤٦ - زارع البر يحصد السرور

الكرم والمعروف والإحسان صفات جليلة في النفس تدفعها إلى فعل المكرمات ومدّ يد المساعدة لذوي الحاجة والبائسين والعمل على تخفيف الكوارث عمن سطا عليهم الدهر وصرعتهم شقوة الحياة وهي العوامل الفعالة إلى غرس بذور المحبة بين الناس وتوطيد علائق الألفة بين الأفراد، ويكفي المرء دليلاً على الترغيب في التخلق بها ما قرنه اللّه تعالى من البركة والنماء في أرزاق المحسنين وما وعدهم إياه من الثواب والأجر العظيم.

قال اللّه تعالى: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب

لولا أخرتني إلى أجلٍ قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ [المنافقون: ١٠]. وقال تعالى: ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ [الأنفال: ٣-٤]. وقال جل شانه: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، واللّه يضاعف لمن يشاء واللّه واسع عليم﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال عز وجل: ﴿وما تنفقوا من خيرٍ يوف إليكم وانتم لا تظلمون﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال تعالى: ﴿وما انفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ [سبأ: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم اللّه من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال رسول اللّه ﷺ: «استنزلوا الرزق بالصدقة». وقال عليه الصلاة والسلام: «حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته». وعنه أنه قال: «إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وإن أول أهل الجنة دخولاً هم أهل المعروف». وقال: «اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله». وقال: «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها». وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط مُنفقاً خلفاً، ويقول الثاني اللهم أعط ممسكاً تلفاً». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «قال اللّه تعالى انفق يا ابن آدم يُنفق عليك». وقال: «من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». وقال: «كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله واللّه يحب إغاثة اللهفان».

وقال علي كرم اللّه وجهه: «لا تستحِ من عطاء القليل فالحرمان أقل منه، ولا تجبن عند الكثير فإنك أكثر منه».

وقال الأحنف بن قيس: ما ادخرت الآباء للأبناء ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب.

وقال سعد بن العاص: قبح اللّه المعروف إن لم يكن ابتدئ من غير مسالة فالمعروف عوض عن مسالة الرجل إذا بذل وجهه فقلبه خائف وفرائصه ترعد وجبينه يرشح لا يدري أيرجع بنجح الطلب أم بسوء المنقلب.

وقال بعض الحكماء: إن في الكرم عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود

جميل الذكر. وقال آخر: الجود يوجب المدح والبخل يوجب الذم. وقال غيره: اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله، وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك.

وقال أحد الأدباء: من لم يصن وجهه عن مسالتك فصن وجهك عن رده. وقال آخر: أفضل الناس ما عاش الناس في فضله.

وقال أحد العقلاء: جود الرجل يحببه إلى أعدائه وبخله يبغضه إلى أودّائه. وقال آخر: من كثرت عوارفه كثر معارفه.

وقال أحد البلغاء: من بذل ماله أدرك آماله. وقال أفضل العطية جهد المقل.

وقال أحد الفضلاء: للمعروف خصال ثلاث: تعجيله وتيسيره وتستيره، فمن أخل بواحدة منها فقد بخس المعروف حقه وسقط عنه الشكر.

وقال أحد الأجواد: خير النوال ما وصل قبل السؤال. وقال آخر: أكمل الخصال الثلاثة، وقار بلا مهابة وسماح بلا طلب مكافاة وحلم بغير ذل.

وكتب كسرى إلى بعض عماله: استقلل كثير ما تعطي واستكثر قليل ما تأخذ، فإن قرة عين الكريم فيما يعطي، وقرة عين اللئيم فيما يأخذ، ولا تجعل الشحيح لك معيناً ولا الكذاب أميناً فإنه لا إعانة مع شح ولا أمانة مع كذوب.

وإذا اتسعتَ برزقِ ربِّكَ فاجعلنْ ... منهُ الأجلَ لأوجهِ الصَّدقاتِ
ولم أرَ كالمعروفِ أمَّا مذاقُهُ ... فحلوٌ وأما وجهُهُ فجميلُ
خيرُ أيامِ الفتى يومَ نفعْ ... واصطناع المعروف أبقى مصطنعْ
ما ينالُ الخيرَ بالشرِّ ولا ... يحصدُ الزَّارعُ إلا ما زرعْ
كُنْ مُحسناً مهما استطعتَ فهذه الـ ... ـدُّنيا وإنْ طالتْ قصيرٌ عُمرها
إنَّ المآثرَ في الورى ذريةٌ ... يفنى مؤثِّرُها ويبقى ذكرُها
فترى الكريمَ كشمعةٍ منْ عنبرٍ ... ضاعتْ فإنْ طفئتْ تضوّع نشرُها
إذا كنتَ ذا مالٍ ولم تكُ ذا ندى ... فأنتَ إذاً والمقترونَ سواءُ
على أنَّ في الأموالِ يوماً تباعةً ... على أهلِهِ والمقترونَ براءُ
أحسنْ إلى النَّاسِ تستعبدْ قلوبهمْ ... فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ
منْ يفعلِ الخيرَ لا يعدمْ جوازيَهُ ... لا يذهبُ العرفُ بين اللهِ والنَّاسِ

١٤٧- الشكر جلاب النعم

إذا كنتَ في نعمةٍ فارعها ... فإنَّ المعاصي تزيلُ النِّعمْ
وداوم عليها بشكرِ الإلهِ ... فإن الإلهَ سريعُ النِقمْ

الشكر اعتراف المرء بالإحسان لذويه وإقراره بالثناء على مسديه فجحد النعمة كفر وإنكارها لؤم، لهذا كان من الواجب أن يشكر الإنسان المولى العلي الأعلى على تواتر نعمه ومزيد إحسانه حتى يضاعف له في رزقه ويبارك له في عمله كما يجب عليه ألا يجحد شكر من قدم إليه صنيعاً حسناً وأولاه معروفاً، فإذا فعل ذلك فقد أدى الواجب واستحق العطف والمعونة متى عرته شدة أو نابته نائبة.

قال الله تعالى: ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ [لقمان: ١٢]. وقال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال رسول الله ﷺ: «أشكر الناس لله أشكرهم للناس». وقال عليه الصلاة والسلام: «من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا لوالديه في إدبارهما فقد شكرهما». وقال عليه الصلاة والسلام: «أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء إلا الدعاء والثناء فقد كافاه». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة رحمة والفرقة عذاب». وعنه أنه قال: «من أتى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له». وقال: «أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فهي نعمة من الله عليه، فإن قابلها بالشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد إثماً ويزداد الله عليه بها سخطاً».

وقال علي كرم الله وجهه: كفر النعمة لوم.

وقال الحسن: كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها.

وقال عمر بن عبد العزيز: تذكروا النعم فإن ذكرها شكر.

وقال المغيرة بن شعبة: اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت ولا زوال لها إذا شكرت.

ودخل أبو هارون على بعض الحكماء فقال له: يرحمك الله ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرته وإذا رأيت بهما شراً سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً حفظته وإذا سمعت بهما شراً نسيته.

وقال عبد الحميد الكاتب: من لم يشكر الإنعام فأعدده من الأنعام.

وقال بعض الحكماء: من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة ومن منَّ بمعروفه سقط شكره ومن أعجب بعمله حبط أجره. وقال آخر: كفر النعمة من أمارات البطر وأسباب الغير.

وسئل بعضهم ما أضيع الأشياء؟ قال: المطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد في الشمس وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها.

وقال بعض الأدباء: الشكر أفضل من النعم لأنه يبقى والنعم تفنى. وقال آخر: من أعطى أربعاً لم يمنع من أربع من أعطى الشكر لا يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى الاستشارة لم يمنع الصواب. وقال غيره: لا تسئ إلى من أحسن إليك ولا تمن على من أنعم عليك. وقال غيره: من بذل بعض عنايته لك فابذل جميع شكرك له.

وقال بعض الفضلاء: إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر.

وقال بعض العقلاء: أمسكوا المعروف عن ثلاثة: اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشه، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه.

وقال بعض الفصحاء: الكريم شكور أو مشكور، واللئيم كفور أو مكفور. وقال آخر: من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد. وقيل: قيمة كل نعمة شكرها.

مَنْ جاوزَ النِّعمة بالشكرِ لم ... يخشَ على النعمةِ مُغتالها
لو شكروا النعمةَ زادتهمْ ... مقالة اللّـه الـتي قالها
لئنْ شـكرتُمْ لأزيـدنكُمْ ... لكنا كفـرهمْ غـالها
والكفُر بالنِّعمةِ يدعو إلى ... زوالِها والشكرُ أبقـى لهـا

وقال آخر:

شُـكرُ الإلـهِ بطـولِ الثناءِ ... وشُـكرُ الـولاةِ بصدقِ الـولاءِ
وشُـكرُ النظيرِ بحسنِ الجزاءِ ... وشـكرُ الـدنيءِ بحسنِ العطاءِ
سأشكرُ لا أنـي أُجازيـكَ منعماً ... بشكري ولكنْ كي يزادَ ذلكَ الشكرُ
وأذكـرُ أيامـاً لـديَّ اصطنعتها ... وآخرُ ما يبقى على الشُّكرِ الذِّكرُ
الشُّكرُ أفضلُ ما حاولتُ مُلتمساً ... بـه الزيـادةَ عـندَ اللّه والنَّاسِ
إنَّ الصنائعَ أطواقٌ إذا شكرتَ ... وإنْ كفـرتَ فأغـلالٌ لمنتحلِ
أوليتني نعمـاً أبـوحُ بشـكْرِها ... وكفيتني كـلَّ الأمورِ بأسـرِها
فلأشـكرنَّكَ ما حييتُ وإنْ أمُتْ ... فلتشكرنَّكَ أعظُمي فـي قـبرِها

١٤٨- الإخلاص والرياء وأثرهما في العامل وعمله

الإخلاص هو أن يعمل المرء الخير بوحي ضميره الخالص ويقدم الإحسان بدافع نفسه الطاهرة قاصداً وجه اللّه الكريم وطالباً ثوابه العظيم غير ناظر لسمعة أو متطلع لشهرة

إذ كل ما يعمل رياء لا خير فيه ولا يجلب لصاحبه غير المقت والازدراء، وقد أثنى اللّه تعالى على المخلصين وذم المرائين.

فقال جل شانه: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾ [مريم:٥١]. وقال تعالى: ﴿واعلموا أن اللّه يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ [البقرة:٢٣٥]. وقال عز وجل: ﴿فويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون﴾ [الماعون:٤-٧].

وقال رسول اللّه ﷺ: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه اللّه رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر». وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى». وروى النسائي عن أبي أمامة أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن اللّه تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه». وروي عن أبي ذر رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليماً ولسانه صادقاً ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة». وقال عليه الصلاة والسلام: «شرار أُمتي المعجب بدينه المرائي بعمله المخاصم بحجته والرياء شرك». وعن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبد يقوم مقام سمعة ورياء إلا سمَّع اللّه به على رؤوس الخلائق يوم القيامة». وقال عليه الصلاة والسلام: «أخوف ما أخاف على أُمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية». وقال: «إن الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل». والمراد بالشرك الرياء.

وقال علي كرم اللّه وجهه: لا تعمل شيئاً رياء ولا تتركه حياء.

وقال بعض الحكماء: من التمس أربعاً بأربع التمس ما لا يكون.

من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون. ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون. ومن التمس وفاء الإخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون. ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون.

وقال بعض الفصحاء: المرائي يتبهرج بزي الصلحاء وليس منهم ويظهر بمظهر الأخيار وهو ضدهم حتى يستعطف القلوب النافرة ويخدع العقول الواهية.

وقال بعض الفضلاء: لتكن سريرتك أحسن من علانيتك. وقال آخر: الرياء يفضي بصاحبه إلى استهزاء الناس به.

وقال بعض الصلحاء: كل حسنة لم يرد بها وجه اللّه فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء. وقال آخر: كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير اللّه فليس من اللّه في شيء، ولو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس به أنه كتمه فهو من أقبح الرياء.

وقيل: المتزين لما ليس فيه كلابس ثوبي زور فهو بريائه محروم الأجر مذموم الذكر لأنه لا يقصد وجه اللّه تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رثاؤه على الناس فيحمد به.

وأفضلُ البرِّ ما لا من يتبعهُ ولا تقدّمهُ شيءٌ منَ المطلِ
فإنَّما الجودُ بذلٌ لم تكافَ بهِ صنعاً ولم تنتظر فيهِ جزا رجلِ

وقال مؤلف هذا الكتاب:

عليكَ بالصّبرِ والإخلاصِ في العملِ ولازمِ الخيرَ في حلٍّ ومرتحلِ

١٤٩- الصراحة مرآة النفوس الطاهرة

الصراحة خلق يوجب على الإنسان الإفصاح بما في قلبه من غير زيغ ولا مراوغة، فليس من العيب أن يسرد الإنسان لأخيه كل مجريات الحياة بوضوح وجلاء حتى يتضافرا معاً على الإصلاح. ولكن العيب كل العيب أن يتلون المرء في أحواله ومعاملاته ومحادثاته ثم هو يعلم أن للسان سقطات وللوجه علامات ومهما يبطن تظهره الأيام، ولا شك بعدها أن تعرف حقيقة أمره وتظهر خبيثات نيته ويفتضح سوء تملقه ولا يلومن بعدئذٍ إلا نفسه حيث ينفض الكل من حوله ويبرأ الجميع من معرفته.

قال اللّه تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد اللّه على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ [البقرة:٢٠٤]. وقال جل شانه: ﴿يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ [الفتح:١١].

وقال رسول اللّه ﷺ: «شر الناس ذو الوجهين الذي ياتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». وروي عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون وجيهاً عند اللّه». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار». وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس من أخلاق المؤمن التملق ولا الحسد إلا في طلب العلم».

وقال علي كرم اللّه وجهه: وما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه، وقال أيضاً: أعداء الرجل قد يكونون أنفع من إخوانه لأنهم يهدونه إلى عيوبه فيجتنبها ويخاف شماتتهم فيضبط نعمته ويتحرز من زوالها بغاية طوقه، وقال: المرآة التي ينظر الإنسان فيها إلى أخلاقه هي الناس لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ومساوئه من أعدائه فيهم. وقال: أعلم أن الذي مدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك. وثوابه وجوابه قد سقطا عنك.

وقال سعيد بن عروة: لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيها من قبح المنظر وعجز المخبر أحب إليَّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين.

وقال الأحنف بن قيس: لا صديق لمتلون ولا وفاء لكذوب ولا راحة لحسود ولا مروءة لدني ولا زعامة لسيِّئ الخلق.

وقال الإسكندر: انتفعت بأعدائي أكثر مما انتفعت بأصدقائي لأن أعدائي كانوا يعيروني ويكشفون لي عيوبي وينبهوني بذلك على الخطأ فأستدركه، وكان أصدقائي يزينون لي الخطأ ويشجعونني عليه.

وجاء رجل إلى المهدي فقال له: أنا عبدك، فقال: لا أعلم أحداً ينسب نفسه إلى مخلوق مثله فإنه ملق كاذب لا يقبله إلا مفتون أو مأفون.

وكان أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه إذا مدح، قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون.

وقال بعض الحكماء: إن الملق مصائد العقول الواهنة والمداهنة شبكة القلوب الغافلة، وهما من ضروب التدليس والتمويه والتضليل والتغرير، وليس في من يكون الملق والمداهنة بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل، وقال آخر: أن المتملقين يجعلون التملق خديعة، فإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة أغروا أربابها وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم. وقال غيره: عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه، كيف يفرح، وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه، كيف يغضب.

وقال بعض الفضلاء: من أعظم الذنوب تحسين العيوب، وقال آخر: لا تحمل على ظنك ما لا تطيق ولا تعمل عملاً لا ينفعك ولا تغتر بالمداهنة ولا تثق بمال وإن كثر، وقال غيره: ينبغي للرجل أن يكون مرآة أخيه تريه خيره وشره.

وقال أحد العقلاء: أعرف الرجل من فعله لا من كلامه وأعرف محبته من عينيه لا من لسانه.

وقال بعض البلغاء: التملق خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز. وقال آخر: من آداب الكلام أن لا يتجاوز المرء في مدح ولا يسرف في ذم لأن التجاوز في المدح ملق يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر، وكلاهما شين وإن سلم من الكذب.

وقال أبو حيان الأندلسي:

عدايَ لهمْ فضلٌ عليَّ ومنَّة ... فلا أبعدَ الرَّحمنُ عنيَّ الأعاديا
همْ بحثوا عن زلَّتي فاجتنبتها ... وهمْ نافسوني فاكتسبتُ المعاليا
وكمْ منْ صديقٍ ودُّهُ بلسانه ... خؤونٌ بظهر الغيبِ لا يتذمم
يضاحكني لطفاً إذا ما قابلتهُ ... وتقصدُني منهُ إذا ما غبتُ أسهمُ
كذلكَ ذو الوجهينِ يرضيكَ شاهدا ... وفي غيبةٍ إنْ غابَ صابَ وعلقمُ

وقال صالح بن عبد القدوس:

قلْ للَّذي لستُ أدري منْ تلونّه	أناصحٌ أم على غشٌ يُناجيني
إنّـــي لأكـثرُ مما سمتني عجباً	يدٌ تشجُّ وأُخرى منكَ تاسوني
تغتابُني عـنـد أقوامٍ وتمدحني	في آخرين وكـلٌّ عنكَ يأتِيني
هذانِ شيئان قد نافيتَ بينهما	فاكففْ لسانكَ عنْ شتمي وتزييني
خـــلٌّ النفـــاقَ لأهلـــه	وعـليكَ فالتمسِ الطّـــريقا
وارغـبْ بنفســكَ أنْ تـــرى	إلاَّ عـــدواً أو صـــديقا
ولا خيرَ في ودّ امرئٍ متملقٍ	حُلـــو اللسانِ وقلبهُ يتلهَّبُ
يُعطيكَ منْ طرفِ اللسانِ حلاوةً	ويروغُ منكَ كما يروغُ الثعلبُ
ولا خـيرَ فـي ودّ امرئٍ متلـوّنٍ	إذا الريحُ مالتْ مالَ حيثُ تميلُ

١٥٠- الاستقامة والاعتدال أساس المدنية الحقة

الاستقامة والاعتدال هما خصلتان ممدوحتان إذا وجدتهما في المرء دلتا على حسن سيره وكمال عقله وهما سياجه الوحيد عن دفع ما يتسرب إليه من ضرر، وصد ما يلحقه من قدح ولولاهما لما كان النظام الذي نشاهده ولا كان الاطمئنان الذي نمرح في بحبوحته فهما سبيل نجاح لمن أراده وطريق سعادة لمن رغب فيها وهيهات هيهات أن ينال الخلو منهما مأربه أو يبلغ قصده، بل لا يزال طول حياته يتخبط في دياجير الظلام فلا يرى للنور بصيصاً فيهتدي به ولا للذة الحياة بريقاً فيصل إليه فينقطع رجاؤه وتفنى معه آماله.

قال اللّه تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ [فصلت:٣٠]. وقال تعالى: ﴿فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾ [هود:١١٢]. وقال جل شأنه: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام:١٥٣]. وقال عز وجل: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ [الجن:١٦]. وقال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ [الأعراف:٩٦]. وقال تعالى: ﴿أفمن يمشي مُكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراطا مستقيم﴾ [الملك:٢٢].

وقال رسول اللّه ﷺ: «استقم وليحسن خلقك للناس». وعن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول اللّه، قال ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمة منه وفضل».

وعن سفيان بن عبد اللّه الثقفي رضي اللّه عنه قال: قلت يا رسول اللّه حدثني بأمر أعتصم به، قال: «قل ربي اللّه ثم استقم». وقال عليه الصلاة والسلام: «خير الأمور أوساطها».

وقال علي كرم اللّه وجهه: خير الأمور النمط الأوسط إليه يرجع الغالي وبه يلحق التالي.

وقال بعض الحكماء للإسكندر: أيها الملك عليك بالاعتدال في كل الأمور، فإن الزيادة عيب والنقصان عجز. وقال آخر: ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة، كالشجاع إذا زاد على حد الشجاعة نسب إلى التهور، والسخي إذا زاد على حد السخاء نسب إلى التبذير.

وقال بعض الأدباء: أحسن الأعمال أن تاتي بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا نقصان، فهي أوسط الأحوال فيها وأعدلها، لأنه لم يكن تقصير فتندم ولا تكثير فتعجز. وقال آخر: إياك ومفارقة الاعتدال فإن المسرف مثل المقصر في الخروج عن الحد.

وقال بعض العلماء: إن العدل ماخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل، ولست تجد فساداً إلا وسببه الخروج من حال العدل إلى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان.

وقال بعض العقلاء: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك. وقال آخر: أكثر الخير في الأوساط.

قال أبو العلاء المعري:

إذا كنتَ تبغي العيشَ فابغ توسُّطاً ... فعندَ التناهي يقصرُ المتطاولُ
تُوقي البُدور النَّقص وهي أهلَّةٌ ... ويُدركُها النُقصانُ وهي كَواملُ
عليكَ بأوساطِ الأمورِ فإنَّها ... نجاةٌ ولا تركبْ ذَلولاً ولا صعبا

وقال آخر:

لا تذهبنَّ في الأمورِ فرطاً ... لا تسألنَّ إنْ سألتَ شططا
وكنْ منَ الناسِ جميعاً وسَطا
ودعْ عنكَ إسرافَ العطاءِ ولا تكنْ ... لكفّيكَ في الإنفاقِ إمساكُ مقتر
الا إنَّ أوساطَ الأمورِ خيارُها ... مقالُ نبيٍ عنْ هُدَى اللّهِ مخبر

١٥١ - الأمل رحمة من اللّه للناس

فليستْ حياةُ المرءِ إلاَّ أمانيَا ... فإنْ هيَ ضاعتْ فالحياةُ على الأثر

الأمل خلق كريم به تنشرح النفس ويتسع مجال العمل ويقوم الإنسان بما عليه من واجبات الحياة طبقاً للقوانين الشرعية فلا يصيبه فيها ملل ولا تعتوره منها كآبة فما أصابه من خير شكر اللّه عليه وما مسه من سوء قابله برباطة جاس وثبات جنان وتضرع إلى مولاه الأعلى أن يخلف عليه فيما أصابه في عيشه ويزيل عنه ما اعترضه في أُمور حياته، ثم هو لا يكاد يستانف عمله واضعاً الأمل نصب عينيه لعلمه أنه العدة على اقتحام المصاعب

بصدر رحب والوسيلة على ارتكاب الأهوال في سبيل الوصول إلى طلبه غير هياب ولا وجل. ما دام يعتقد أنه على طريق الحق يسير وإلى غاية شريفة يأمل واقفاً عند حد لذلك الأمل حتى لا يخرج به إلى درجة الطامع في الدنيا والمتكالب عليها وشتان ما بينه وبين امرئٍ انقطع الأمل منه فتسرّب اليأس إلى فؤاده وتملك القنوط من قلبه فقعد عن العمل وكفّ عن السير في سبيل الحياة حتى ضاقت به الأرض على سعتها وأصبح يعيب الزمان وأهله، وما للزمان عيب سوى نفسه ثم صار يطلب الفرار من الحياة، وربما أهلك نفسه تخلصاً منها، وهو ما نشاهده بين ظهرانينا من بعض الجهلاء البائسين فيذهب غير ماسوف عليه وبئس المصير.

قال اللّه تعالى: ﴿ولا تيأسوا من روح اللّه إنه لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون﴾ [يوسف:٨٧] وقال جل شأنه: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ [الحجر:٥٦].

وروي الديلمي أن رسول اللّه ﷺ قال: «إنما الأمل رحمة من اللّه لأمتي، لولا الأمل ما غرس غارس شجراً ولا أرضعت أم ولداً».

وقال بعض الحكماء: لولا الأمل ما بنى بانٍ بنياناً ولا غرس غارس غرساً. وقيل: قتل القنوط صاحبه وفي الظن باللّه راحة القلوب. وقال الطغرائي:

ولا تيأسنَّ منْ صنعِ ربِّكَ إنَّهُ	ضمينٌ بأنَّ اللّهَ سوفَ يديلُ
فإنَّ الليالي إذا يزولُ نعيمُها	تُبشِّر إنّ النائباتِ تزولُ
ألمْ ترَ أنَّ الليلَ بعدَ ظلامه	عليه لإسفارِ الصباحِ دليلُ
ألمْ ترَ أنَّ الشمسَ بعدَ كُسوفها	لها صفحةٌ تغشى العيونَ صقيلُ
وأنّ الهلالَ النّضوَ يقمرُ بعدَما	بدا وهو شختُ الجانبين ضئيلُ
وللّنفوسِ وإنْ كانت على وجلٍ	منَ المنيّة آمالٌ تقوّيها
فالصبرُ يبسطها والدهرُ يقبضُها	والنفسُ تنشرُها والموتُ يطويها
لا خيرَ في اليأسِ كلُّ الخيرِ في الأملِ	أصلُ الشّجاعةِ والإقدامِ في الرجلِ
أعلّلُ النَّفسَ بالآمالِ أرقبُها	ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ

١٥٢- من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه

عقب الجدّ نجاحٌ وغنىً	ورداءُ الفقرِ منْ نسجِ الكسلِ

إن نظام هذه الحياة يتطلب السعي والعمل، وحركة الأعمال فيها تتوقف على الجد والاجتهاد. ولذلك كان من الواجب أن ينهض الإنسان للعمل مستشعراً بشعار الجد والنشاط طارحاً القعود والكسل وراءه ظهرياً حتى يقوم بما فرضته عليه الطبيعة - وهي سنة

اللّه في خلقه - ويعمل بما أوحته إليه القوانين الشرعية والعاقل لا يرضى لنفسه أن يكون كلاً على غيره، وهو يعلم أن الرزق منوط بالسعي، وأن مصالح الحياة لا تتم إلا باشتراك الأفراد حيث يقوم كل واحد بعمل خاص له، وهناك تتبادل المنافع وتدور رحى الأعمال ويتم النظام على الوجه الأكمل.

قال اللّه تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل اللّه، واذكروا اللّه كثيراً لعلكم تفلحون﴾ [الجمعة:١٠]. وقال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ [الملك:١٥]. وقال جل شأنه: ﴿وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾ [سبأ:١٠-١١]. وقال عز وجل: ﴿وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ [التوبة:١٠٥].

وقال رسول اللّه ﷺ: «فيما يرويه عن ربه أن اللّه يقول يا عبدي حرّك يدك أنزل عليك الرزق». وروى الطبراني أن رسول اللّه ﷺ قال: «اطلبوا الرزق في خبايا الأرض». وقال عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده». وروي عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة يكفرها الهموم في طلب المعيشة».

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللّهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، واللّه تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض.

وقال بزرجمهر: إن يكن الشغل مجهدة فإن الفراغ مفسدة.

وقال بعض الحكماء: اجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك، فليس كل الزمان مؤاتياً لك ولا ما فات مستدركاً.

وقال أحد الأدباء: العمل ترس يقي سهام البلاء، والجد سيف يقطع أعناق الشقاء.
وقال آخر: لا شيء أحسن من عقل زانه حلم ومن عمل زانه علم ومن حلم زانه صدق.

وقال بعض البلغاء: إن اللّه تعالى جعل طلب الرزق مقصوراً على الخلق كله وأهل التحصيل والنظر يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال والخلابة والاحتيال. وقال آخر: من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد أثله أو حمد حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه. وقال غيره: إذا عمل المرء ولم يدرك حاجة فحسبه نفعاً أن يسلم من عواقب التواني التي هي أسوأ من مغبات الخيبة. وقال غيره: من صادف حظاً بدون مشقة كان فيما ناله كالمغتصب، إذ ليس في الحظوظ استحقاق.

وقال بعض العقلاء: لا تمض يومك في غير منفعة ولا تضع مالك في غير صنيعة، فالعمر أقصر من أن ينفذ في غير المنافع، والمال أقل من أن يسرف في غير الصنائع، والعاقل أجل من أن يفني أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره، وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره.

وقال بعض العلماء: هل يجوز في وهم أو يتمثل في عقل أو يصح في قياس أن يحصد زرع بغير بذر أو تُجنى ثمرة بغير غرس أو يورى زند بغير قدح أو يثمر مال بغير طلب.

وقال بعض الفضلاء: الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم، والعلم كله هباء إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا في موضع الإخلاص.

وقد قيل: كل رزق له سبب، ومن طلب الأمر وجدَّ وجد.

وقال ابن شهاب:

تتبعْ خبايا الأرضِ وادعُ مليكها ... لعلكَ يوماً أنْ تجابَ فترزقا
فيؤتيكَ مالاً واسعاً ذا متانةٍ ... إذا ما مياهُ الأرضِ غارتْ تدفقا

وقال صفي الدين الحلي:

ومنْ أرادَ العُلا عفواً بلا تعب ... قضى ولمْ يقضِ من إدراكها وطرا
لا يبلغ السُّؤل إلاَّ بعدَ مؤلمةٍ ... ولا تتم المُنى إلا لمنْ صبرا

وقال الشاعر:

وما طلبُ المعيشةِ بالتَّمني ... ولكنْ ألق دلوكَ في الدلاءِ
تجئكَ بمثلها طوراً وطوراً ... تجئك بحمأةٍ وقليلِ ماءِ
ولا تقعدْ على كسلِ التّمني ... تحيلُ على المقدَّر والقضاءِ
فإنَّ مقاديرَ الرّحمن تجري ... بأرزاق الرجالِ منَ السماءِ
مقدَّرةٌ بقبضٍ أو ببسطٍ ... وعجزُ المرءِ أسبابُ البلاءِ
إذا أنتَ لمْ تزرعْ وأبصرتَ حاصداً ... ندمتَ على التّفريطِ في زمنِ البذرِ
دعِ التكاسُلَ في الخيراتِ تطلبُها ... فليسَ يسعد بالخيرات كسلانَ
بصرتُ بالحالة العُليا فلَمْ أرها ... تنالُ إلاَّ على جسرٍ منَ التعبَ
وما طالبُ الحاجاتِ في كلِّ وجهةٍ ... منَ الناسِ إلاَّ منْ أجدَّ وشمَّرا

١٥٣- المثابرة والثبات على الأعمال سر النجاح

الثبات هو المواظبة بدون هوادة ولا انقطاع ولأن الأعمال لا تتكلل بالنجاح ولا يبلغ المرء منها أمنيته إلا بالثبات فيها، وتوطيد العزم على المثابرة عليها من غير أن يجعل لليأس عليه سبيلاً أو يدع للسآمة عنده مجالاً وما فشل في عمله إلا من ضعفت عقيدته وخارت

عزيمته فقعد عن مواصلة العمل ولم يهتد إلى بلوغ الأمل، ولكن كبار النفوس أشداء الشكيمة تراهم لا يزالون يكافحون الأعمال من جميع وجوهها بقلوب ثابتة وعزائم صادقة فلا يلبثون أن يبلغوا منها مآربهم ويفوزوا منها بمقاصدهم جزاء ما تحملوا من متاعب وتجشموا من مصاعب، والله لا يضيع أجر العاملين.

قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الأنفال:٤٥]. وقال جل شأنه: ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل». وقال عليه الصلاة والسلام: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». وقال عليه الصلاة والسلام: «من بات كلاً من طلب الحلال بات مغفوراً له».

وقال علي كرم الله وجهه: التواني مفتاح البؤس وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد، وقال: من أطاع التواني ضيع الحقوق، ومن العجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه، وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه وقال: لهب الشوق أخف محملاً من مقاساة الملالة.

وقال الأحنف: إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً وإن ضجرت لم تصبر على حق.

وقال يزيد بن الملهب: ما يسرني أني كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود الضجر.

وقال أعرابي: العاجز هو القليل الحيلة الملازم للأماني المستحيلة.

وقال أحد الحكماء: ما لزم أحد الدعة إلا زل، وحب الهوينا يكسب الذل وحب الكفاية مفتاح العجز. وقال آخر: احذر مجالسة العاجز، فإن من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه وأمده من جزعه وعوده قلة الصبر ونساه ما في العواقب وليس للعجز ضد إلا الحزم.

وقال أحد الفضلاء: من دام كسله خاب أمله ومن التوفيق بغض التواني. وقال غيره: أولى الأمور بالإنجاح المواظبة والإلحاح. وقيل: لا تؤخرن عملاً عن وقته، فإن للوقت الذي تؤخر إليه عملاً آخر، ولست تطيق ازدحام الأعمال لأنها إذا ازدحمت دخلها الخلل. وقيل أيضاً: من لزم الرقاد عدم المراد ومن كثر تواكله كثر إهماله ومن كثر إهماله ضاعت أمواله.

لقدْ هاجَ الفراغُ عليكَ شغلاً ... وأسبابُ البلاءِ منَ الفراغِ
توكَّل على الرَّحمنِ في الامر كلّه ... ولا ترغبنَّ في العجزِ يوما
لا تكونن للأمورِ هيوباً ... فإلى خيبةٍ يصيرُ الهيوبُ
إذا همَّ لمْ تردعْ عزيمةُ همِّه ... ولمْ يأتِ ما يأتي منَ الأمرِ هائبا

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمـهُ ونكَّبَ عنْ ذكرِ العواقب جانبا
إذا كُنتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا عزيمـةٍ ولا تكُ بالترداد للـرأي مُفسـدا
فإني رأيتُ الريثَ في العزمِ هجنةً وإنفاذُ ذي الرّأيَ العزيمة أرشدا

١٥٤- الألفة والأخوة قوة والتفرق ضعف

قضت الشرائع بالألفة والتآخي لما يعترض حالنا في هذه الحياة من العوائق والمصاعب وما ينتابنا فيها من النوائب والمصائب مما لا يقدر الفرد على احتماله أو دفع أضراره، فبالألفة والأخوة تتوطد العلائق بين الأفراد وتقوى الرابطة بين الجماعات، ويعمل الكل متحدين على مكافحة معترضات الحياة وتذليل صعابها فتفتح أمامهم الطرق ويسهل عليهم عبورها حتى يصلوا إلى ما يشاؤون من بلوغ النجاح ونيل الآمال، ومن هذا يتضح لك سوء عاقبة من انشق على إخوانه وقطع حبل المودة فيما بينه وبينهم، فإنه لا يزال تتخبطه الوساوس وتتلقفه الحوادث ولا يجد من يرشده أو يشاركه في دفع ضر أو جر مغنم.

قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [آل عمران:١٠٣]. وقال: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات:١٠]. وقال: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ إخواناً على سرر متقابلين﴾ [الحجر:٤٧].

وقال رسول اللّه ﷺ: «المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد اللّه إخواناً». وقال ﷺ: «لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا». وعن أنس أن رسول اللّه ﷺ قال: «أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى اللّه المشاؤون بالنميمة الملتمسون للعثرات المفرقون بين الإخوان».

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: لقاء الإخوان جلاء الأحزان.

وقال علي كرم اللّه وجهه لابنه: الغريب من ليس له حبيب.

وقال ابن المعتز: من اتخذ إخواناً كانوا له أعواناً.

وقال خالد بن صفوان: أعجز الناس من قصّر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

وقال عبد الملك بن طاهر: المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والإخوان كنوز وافرة.

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء بالإخوان فإنهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان وعون في السراء والضراء.

وقال أحد الحكماء لابنه: يا بنيّ لا تستقل عدواً واحداً ولا تستكثر ألف صديق ولا تستبدل بأخ قديم أخاً مستحدثاً ما استقام لك. وقال آخر: المودة والأخوة سبب التآلف والتآلف سبب القوة والقوة حصن منيع وركن شديد، وبها يمنع الضيم وتنال الرغائب وتنجح المقاصد.

وقال بعض الأدباء: أفضل الذخائر أخ وفيّ حميم صادق المودة لطيف الصحبة يهتم لشانك اهتمامه بشانه ويتوفر على هنائك كما يتوفر على هنائه.

وقال أحد الفصحاء: الصديق الحميم عدة في البلايا، وعمدة في المحن وبلسم في النوائب ومرهم في الشدائد. وقال آخر: لا تساغ مرارة الأوقات إلا بحلاوة الإخوان الثقات فاستروح من غمة الزمان بمؤانسة الخلان.

وقال ابن الرومي:

عليكَ بإخوان الصفاء فإنهمْ ... عمادٌ إذا استنجدتهمْ وظهورُ
وليسَ كثيراً ألفُ خلٍّ وصاحبٍ ... وإنَّ عدواً واحداً لكثيرُ

وقال عبد الله بن عرفة:

هُمومُ رجالٍ في أُمورٍ كثيرةٍ ... وهمِّي منَ الدُّنيا صديقٌ مساعدُ
نكونُ كروحٍ بين جسمينِ قسمتْ ... فجسماهُما جسمانِ والرُّوح واحدُ
فإنَّما الرجالُ بالإخوان ... واليدُ بالساعدِ والبنا
لا يحقِّر الصحبةَ إلاَّ جاهلٌ ... أو مارقٌ عنْ إرشادِ غافلِ
وما المرءُ إلاَّ بإخوانه ... كما تقبضُ الكفُّ بالمعصمِ
ولا خيرَ في الكفِّ مقطوعةً ... ولا خيرَ في الساعدِ الأجذمِ

١٥٥ - اختيار الأصدقاء ميزان العقول الراجحة

الناس في هذه الحياة متفاوتو الأخلاق متباينو المشارب، فمنهم من ساءت أخلاقهم فنزعت نفوسهم إلى الشهوات ومالوا إلى اللذات، فما عرفوا غير إشباع نهمتهم وما راغوا غير العمل لأهوائهم، فهؤلاء لا خير يرجى منهم ولا منفعة تعود على المجتمع الإنساني من ورائهم فالابتعاد راحة وعدم الارتباط بهم وقاية منهم، ومنهم من حسنت طباعه فقمع نفسه عن لذاتها وردعها عن شهواتها وعمل للمنفعة العامة وصار في طريق الإصلاح، وهذا هو الجدير بالإلفة والخليق بالتودد فالخير معقود بمصاحبته والسعادة مقرونة بمصادفته لأن نفسه الطاهرة تطمح على الدوام إلى الكمال وقلبه الثابت مشرئب لنيل معالي الأمور، والمرء على دين خليله.

قال اللّه تعالى: ﴿وحَسُنَ أولئك رفيقاً﴾ [النساء:٦٩]. وقال في معرض التحذير من قرناء السوء مبيناً ندامة من لم يحتط لنفسه في اختيار من يصادق: ﴿يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ [الفرقان:٢٨]. وقال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون اللّه من أولياء ثم لا تنصرون﴾ [هود:١١٣].

وقال رسول اللّه ﷺ: «عليكم بإخوان الصدق فإنهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء». وقال عليه الصلاة والسلام: «المرء كثير بإخوانه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له». وروى البخاري أن رسول اللّه ﷺ قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد، فصاحب المسك إما أن تشتري منه أو تجد ريحاً طيبة، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة».

وقال علي كرم اللّه وجهه: خير إخوانك من واساك وخير منه من كافاك.

وقال عبد اللّه بن جعفر: عليك بصحبة من إذا صحبته زانك وإن غبت عنه صانك وإن احتجت إليه مانك وإن رأى منك خلة سدها أو حسنة عدها.

وقال لقمان لابنه: يا بنيّ لا تجالس الفجار ولا تماشيهم اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم وجالس الفضلاء والعلماء فإن اللّه يحيي القلوب الميتة بالفضيلة كما يحيي الأرض بوابل المطر.

وأوصى أمير المؤمنين أولاده قال: يا بنيّ عاشروا الناس عشرة إن غبتم حنوا إليكم وإن فقدتم بكوا عليكم، إن القلوب جنود مجندة تتلاحظ بالمودة وتتناجى بها، وكذلك هي في البعض فإن أحببتم الرجل من غير خير سبق منه إليكم فارجوه، وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم فاحذروه.

وقيل لابن السماك: أي الإخوان أحق ببقاء المودة؟ قال الوافر دينه الوافي عقله الذي لا يملك على القرب ولا ينساك على البعد إن دنوت منه داناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك وإن احتجت إليه رفدك وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله.

وقال بعض الحكماء: احذر من الكريم إذا أهنته واللئيم إذا أكرمته والعاقل إذا أحرجته والأحمق إذا مازحته والفاجر إذا عاشرته. وقال آخر: الصديق النصوح من بصرك مواضع رشدك وعواقب غيك.

وقال غيره: معاشرة ذوي الألباب عمارة القلوب وصداقة الجاهل تعب. وقال غيره: شر الإخوان الواصل في الرخاء الهاجر عند الشدة.

وقال بعض البلغاء: من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار مودة الأشرار.

وقال آخر: اصحب من الإخوان من أولاك جمائل كثيرة، فكافأته بجميلة واحدة فنسي جمائله وبقي شاكراً ذاكراً لجميلتك يوليك عليها الإحسان الجميل ويجعل أنه ما بلغ من مكافاتك القليل.

وقال غيره: الصديق من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب.

وقال أوس بن حجر:

وليسَ أخوكَ الدائمَ العهدِ الذي ... يذمُّكَ إنْ ولي ويُرضيكَ مُقبلا
ولكنْ أخوكَ النائي ما دمتَ آمناً ... وصاحبكَ الأدنى إذا الأمرُ أعضَلا

وقال أبو تمام:

مَنْ لي بإنسان إذا أغضبتهُ ... وجهلتُ كانَ الحلمُ ردَّ جوابهِ
وإذا صبوتُ إلى المدامِ شربتُ مِنْ ... أخلاقهِ وسكرتُ مِنْ آدابهِ
وتراهُ يُصغي للحديثِ بطرفهِ ... وبقلبهِ ولعلَّهُ أدرى بهِ

وقال الأحنف بن قيس:

أخوكَ الذي إنْ تدعهُ لملمة ... يجبكَ وأن تغضبْ إلى السَّيفِ يغضب
إنَّ أخاكَ الصدقَ من يسعى معكَ ... ومَنْ يضرُّ نفسهُ لينفعكْ
ومَنْ إذا ريبُ الزمان صدّعكْ ... شتَّتَ فيكَ شملهُ ليجمعكْ
ليسَ الصديقُ الذي إنْ زلَّ صاحبُه ... يوماً رأى الذنبَ منهُ غيرَ مغفور
وإنَّ أضاع له حقاً فعاتبه ... فيه أتاه بتزويق المعاذير
إن الصديقَ الذي تلقاهُ يعذرُ في ... ما ليسَ صاحبُه فيه بمعذورِ
إنْ كنتَ مُتّخذاً خليلاً ... فتنقَّ وانتقدِ الخليلا
منْ لمْ يكنْ لكَ مُنصفاً ... في الودِّ فابغِ به بديلا
ولقلَّما تلقى اللئيمَ عليكَ إلاَّ مُستطيلا
واحذرْ مؤاخاة الدنيِّ لأنَّهُ ... يُعدي كما يعدي الصّحيحَ الأجربُ
واخترْ صديقكْ واصطفيه تفاخُراً ... إنَّ القرينَ إلى المقارن يُنسبُ
ودعِ الكذوبَ فلا يكنْ لكَ صاحباً ... إنَّ الكذوبَ لبئسَ خلاًّ يصحبُ

١٥٦ - العتاب وأثره في نفوس الأصحاب

لما كان التآخي والتآلف بين الناس من التعاليم الشرعية والنظم الإليهة، وكان من الواجب أن يعمل المرء على دوام العلائق واستمرار الروابط، ولا يتم ذلك مع من اختارهم لصحبته ورضيهم لإخوته إلا باحتمال عثراتهم والصفح عن هفواتهم، كان من المحتم عليه الا يقطع أخاه لأول وهلة أو يتركه لأيسر كبوة، بل يعاتبه على ما صدر منه بالحجة

والبرهان بقصد إصلاحه، لا لغرض تعنيفه وليلاحظ عدم الإغراق في العتاب، فإن ذلك يوجب مجانبته وقطع مصاحبته، وقد ورد في احتمال الأذى آثار كثيرة.

قال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ [آل عمران:١٣٤]. وقال جل شانه: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى:٤٠].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض». وقال عليه الصلاة والسلام: «مداراة الناس صدقة». وقال رسول الله ﷺ: «ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا بدّ له من معاشرته حتى يجعل الله له من ذلك مخرجاً». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من اعتذر إليه أخوه المسلم من ذنب قد أتاه فلم يقبل منه لم يرد على الحوض غداً». وقال رسول الله ﷺ: «الا أُنبئكم بشراركم؟ قالوا بلى إن شئت يا رسول الله، قال: إن شراركم الذي ينزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده، قال: أفلا أُنبئكم بشر من ذلك، قالوا بلى إن شئت يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه، قال: أفلا أُنبئكم بشر من ذلك، قالوا بلى إن شئت يا رسول الله، قال: الذين لا يقيلون عثرة ولا يقبلون معذرة ولا يغفرون ذنباً، قال: أفلا أُنبئكم بشر من ذلك قالوا بلى إن شئت يا رسول الله، قال: من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أعقل الناس أعذرهم للناس.

وقال علي كرم الله وجهه: لا تقطع أخاك على ارتياب ولا تهجره دون استعتاب.

وقال معاوية: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت لأنهم إذا جذبوها أرسلتها وإذا أرسلوها جذبتها.

وقال الأحنف: من حق الصديق أن يتحمل ثلاثاً: ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة.

وقال أحد الحكماء: إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده، ولكن داو كَلْمَهُ واستر عورته وابقه وابرأ من عمله. وقال آخر: مما يجب للصديق على الصديق الإغضاء عن زلاته والتجاوز عن سيئاته، إن رجع، عاتبه بلا إكثار، فإن كثرة العتاب مدرجة للقطيعة. وقال غيره: لا صديق لمن أراد صديقاً لا عيب فيه. وقال غيره: لا تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه. وقال غيره: كل عقل لا يداري به الكل فليس بعقل تام.

وليسَ عتابُ النَّاسِ للمرءِ نَافعاً   إذا لمْ يكنْ للمرءِ لبٌّ يعاتبُه

وقال بعض الأدباء: ثلاث خصال لا تجتمع إلا في كريم: حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال.

وقال بعض البلغاء: من لا يؤاخي إلا من لا عيب فيه قلى صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على كل ذنب دام عتبه وكثر تعبه.

وقال ابن عباس:

يا صديقي الذي بذلتُ لهُ الود ... د وانزلتهُ على أحشائي
إنَّ عيناً قذيتها لتراعيـ ... ـكَ على ما بها منَ الأقذاءِ
ما بها حاجةٌ إليكَ ولكن ... هي معقودةٌ بحبلِ الوفاءِ

وقال أحمد بن أبان:

إذا انا لم اصبرْ على الذَّنب من أخٍ ... وكنتُ أُجازيه فاينَ التفاضلُ
ولكنْ أداويه فإنْ صحَّ سرَّني ... وإنْ هو أعيا كانَ منه تحاملُ

وقال بشار بن برد:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتباً ... صديقكَ لم تلقَ الذي لا تعاتبهْ
وإنْ انتَ لمْ تشربْ مراراً على القذى ... ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربهْ
فعشْ واحِداً أوصلْ اخاكَ فإنهُ ... مقارف ذنبٍ مرةً ومُجانبهْ

١٥٧ - الكلام وما يترتب عليه من المنافع والمضار

إنَّ الكلامَ لفي الفؤادِ وإنَّما ... جعلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلا

الكلام هو واسطة التعارف بين الناس والتعاون معهم، فلا يستغني المرء عن محادثة غيره في شؤون الحياة ونظم الأعمال.

ولما كان الكلام هو عنوان درجة الشخص ودليل جوهر نفسه بين النفوس وجب أن يكون صحيحاً مختاراً ذا فائدة صادراً عن عقل وروية وصدق وحسن طوية بعيداً عن البطلان والسخرية قليلاً على قدر الكفاية، فإن الكلام الكثير ينسي بعضه بعضاً وتكراره يدعو إلى السآمة والملل، وقلما سئم مكثر من لغو وهذر.

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]. وقال تعالى: ﴿وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾ [الحج: ٢٤].

وقال رسول الله ﷺ: «رحم الله عبداً، قال: خيراً فغنم أو سكت فسلم». وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «يا معاذ انت سالمٌ ما سكت فإذا تكلمت فعليك قولك». وقال عليه الصلاة والسلام: «أبغضكم إليَّ المتفيهق المكثار والملح المهذار». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن الله تعالى يكره الانبعاق في الكلام فرحم الله عبداً أوجز في

كلامه». وقال عليه الصلاة والسلام: «وهل يكب الناس على وجوههم أو مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم». وقال: «هلك المتنطعون». وقال عليه الصلاة والسلام مثنياً على الكلام الذي يتحرى فيه صاحبه ما يجب أن يتحراه: «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة».

وقال علي كرم الله وجهه: احسبوا كلامكم من أعمالكم وأقلوه إلا في الخير. وقال أيضاً: اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه العقل، وقال: خير الكلام ما صدقه الفعال.

وقال أبو الأسود الدؤلي لابنه: يا بنيّ إن كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك، ولا بكلام من هو دونك فيزدروك.

وقال جعفر بن يحيى: إذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عياً، وإن كان الإكثار واجباً كان التقصير عجزاً.

الصمتُ في غيرِ فكرةٍ سهوٌ والقولُ في غيرِ حكمةٍ لغوٌ

وقال المهلب: لأن أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه أحب إليّ من أن أرى للسانه فضلاً على عقله.

وقال بطليموس: افرح بما لم تنطق به من الخطأ أكثر من فرحك بما نطقت به من الصواب.

وقال بعض الحكماء: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها. وقال آخر: بكثرة الصمت تكون الهيبة وبعدل المنطق تجلب الجلالة. وقال غيره: إنما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال. وقال غيره: من أعجب بقوله كثر زلله وقلّ سامعوه، وليس لكثرة الهذر نفع يوازي ضره.

وقال بعض البلغاء: الزم الصمت فإنه يكسبك صفوة المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤونة الاعتذار. وقال آخر: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك، فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب. وقال غيره: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل فإذا تكلم بها صار في وثاقها. وقال غيره: رب ألسنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها.

وقال بعض الأدباء: سعد من لسانه صموت وكلامه قوت. وقال آخر: الكلام في الخير كله أفضل من الصمت، والصمت في الشر كله أفضل من الكلام.

وقال بعض العقلاء: أشد الناس بلاء وأكثرهم عناء من له لسان مطلق وقلب مطبق، فهو لا يستطيع أن يسكت ولا يحسن أن يتكلم.

وقال بعض العلماء: من أعوز ما يتكلم به العاقل ألا يتكلم إلا لحاجته أو لحجته ولا يفكر إلا في عاقبته أو في آخرته.

وقيل لإياس بن معاوية: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام: قال أفتسمونه صواباً أو خطأً. قالوا بل صواباً. قال: فالزيادة من الخير خير.

وقيل: إذا تم العقل نقص الكلام. وقال أبو الفتح البستي:

تكلَّم وسدِّد ما استطعتَ فإنَّما ... كلامكَ حيٌّ والسُّكوتُ جمادُ
فإنْ لم تجدْ قولاً سديداً تقولُه ... فصمتكَ عن غيرِ السَّدادِ سدادُ

وقال غيره:

رأيتُ العزَّ في أدبٍ وعقلٍ ... وفي الجهلِ المذلَّةُ والهوانُ
وما حسنُ الرِّجالِ لهم بحسنٍ ... إذا لم يسعدِ الحسن البيانُ
كفى بالمرءِ عيباً أنْ تراهُ ... لهُ وجهٌ وليس لهُ لسانُ

وقال غيره:

وزنْ القولَ من قبلِ الكلامِ فإنَّما ... يدلُّ على قدرِ العقولِ التكلُّمُ

١٥٨- الضحك والمزاح ومقدار المكروه منهما والمباح

المزاحُ والضَّحكُ الكثيرُ سقوطٌ ... واليأسُ من روحِ الإلهِ قنوطُ

المزاح والضحك خلتان غير ممدوحتين ما لم تكونا في حد الظرف والكمال مع مراعاة الظروف الخاصة بهما بقصد ترويح النفس وتفريج السآمة ليستأنف المرء عمله بالجد والنشاط مع التزام الأدب والصدق كي يكون محفوظ القدر موفور الكرامة، أما إذا خرج الإنسان بهما عن موضع الجد والاحترام وحد الحشمة والوقار، فقد عرّض نفسه للازدراء والاحتقار؛ وبئست حال من لم يعرف لنفسه قدرها ولم يحفظ لكرامته مقامها في هذا المجتمع الإنساني.

قال تعالى مخاطباً لقوم هذا شأنهم: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ [غافر: ٧٥].

وقال رسول الله ﷺ: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً». وقال عليه الصلاة والسلام: «إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى ترى منه لهواته، إنما كان يبتسم». وقال رسول الله ﷺ: «الصمت سيد الأخلاق ومن مزح استخف به».

وقد ورد: (المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «التبسم أبلغ في الإيناس من الضحك الذي يكون استهزاء وتعجباً».

وقال الحجاج بن يوسف الثقفي: المزاح يوغر صدر الصديق وينفر الرفيق ويبدي السرائر ويظهر المعاير ويجلب الشتم ويثير الحقد.

وقال عمر بن عبد العزيز: اتقوا المزاح فإنه حمقة تورث ضغينة.

وقال بعض الحكماء: الضحك شاغل عن النظر في الأمور المهمة مذهل عن الفكر في النوائب الملمة، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار.

وقال أحد الأدباء: على العاقل أن يتقي المزح وينزه نفسه عن وصمة مساويه فإنه مخرج إلى القطيعة ومذهبة للهيبة والبهاء ومدعاة لتجرؤ الغوغاء والسفهاء. وقال غيره: الضحك كالمزاح يلزم تحاميه والنفور منه والأحرى بالعاقل أن يبدل الضحك عند الإيناس بالتبسم.

وقال بعض العلماء: من قلّ عقله كثر هزله. وقال آخر: احذر فلتات المزاح فسقطة الاسترسال لا تقال. وقيل: المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب. وقيل أيضاً: كثرة الضحك من الرعونة وضحكة المؤمن غفلة من قلبه. وقال النيسابرري:

شرُّ مزاحِ المرء لا يُقال ... وخيرهُ يا صاحِ لا يُنالْ
وقد يقالُ كثر المُزاح ... من الفتى تدعو إلى التلاحي
إنَّ المزاحَ بدؤهُ حلاوة ... لكنّما آخرهُ عداوة
يحتدُّ منهُ الرِّجال الشّريفُ ... ويجتري بسخفِه السَّخيف

وقال ناصح الدين:

لا تجعلِ الهزلَ دأباً فهو منقصةٌ ... والجدّ تعلو به بين الورى القيمُ
ولا يغرّنكَ منْ ملكٍ تبسمهُ ... ما سحَّتِ السحَبُ إلاَّ حينَ تبتسمُ

وقال علي كرم الله وجهه:

ودَعِ المزاحَ فربَّ لفظة مازحٍ ... جلبتْ إليكَ بَلابلا لا تُدفع
أفدْ طبعكَ المكدود بالهمِّ راحةً ... بضحكٍ وعلله بكاسٍ منَ المزحِ
ولكنْ إذا أعطيتهُ المزحَ فليكنْ ... بمقدارِ ما يُعطى الطّعام من الملحِ
واحذرْ من المزحِ كمْ في المزحِ من خطرٍ ... كمْ من صديقين بعد المزحِ فاختصما

١٥٩ - العاقل من اتعظ بغيره واعتبر به

إذا المرءُ كانتْ له فكرة ... ففي كلِّ شيءٍ لـهُ عبرة

الاعتبار هو الاتعاظ بحوادث الزمان والانتصاح بنصائح الحدثان، فالعاقل من أخذ

في أموره بالثقة وسار في أحواله بالحيطة كي تقل عثراته وتنقطع هفواته ومن الجهل الفاضح أن ينظر الإنسان للحوادث نظر متفرج غير متدبر، لا نظر متفكر معتبر، ولذلك تراه يقع فيما وقع فيه غيره، ولعمر الحق إن هذا الخطأ فادح لا ينبغي أن يكون من العقلاء فيجب تداركه والعمل على تلافيه وليحرص كل الحرص أن يكون لنفسه من الأيام واعظ ومن الحوادث رادع ومرشد لعيش عيشة الآمنين السعداء.

في كلِّ شيءٍ عبرةٌ لمنْ عقلْ   قد يسعدُ المرءُ إذا المرءُ اعتدلْ

قال اللّه تعالى: ﴿فاعتبروا يا أُولي الأبصار﴾ [الحشر:٢]. وقال تعالى: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ [النازعات:٢٦]. وقال جل شانه: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق:٣٧]. وقال عز وجل: ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ [طه:٥٤].

وقال رسول اللّه ﷺ: «السعيد من وعظ بغيره».

وقال بعض الحكماء: كفى بالتجارب تاديباً وبتقلب الأيام عظة. وقال آخر: إن للباقي بالماضي معتبراً وللآخر بالاول مزدجراً والسعيد لا يركن إلى الخدع ولا يغتر بالطمع. وقال غيره: السعيد من اعتبر بامسه.

وقال بعض الفصحاء: كفى بالدهر مخبراً بما مضى عما بقي، وكفى عبراً لاولي الألباب ما جربوا.

وقال بعض البلغاء: ما أكثر العبر لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر.

وقيل لأحد الحكماء: من أدبك، قال: ما أدبني أحد، رأيت الجهل قبيحاً فاجتنبته.

وقيل: من كثر اعتباره قلّ عثاره. وقيل أيضاً: العاقل من اتعظ بغيره واعتبر به.

وقال إبراهيم بن شكلة:

مَنْ لمْ يؤدِّبْهُ والداهُ   أدّبهُ الليلُ والنهار
كمْ قدْ أذلَّ كريمَ قومٍ   ليسَ لهُ منهما انتصار
منْ ذا يدُ الدَّهرِ لم تنلهُ   أو اطمأنَّت به الدِّيار
كلٌّ عنِ الحادثاتِ مغضٍ   وعندهُ للزَّمان ثار

وقال طاهر بن الحسين:

إذا أعجبتكَ خصالُ امرئٍ   فكنهُ يكنْ منكَ ما يُعجبكْ
فليسَ على المجدِ والمكرماتِ   إذا جئتها حاجبٌ يحجبكْ

١٦٠- إن النفس لأمارة بالسوء

إن للنفس نزعات شيطانية ولذات شهوانية، فإذا هي تركت وشأنها تعثو وراء لذاتها وتسير في سبل شهواتها فتنزع إلى الشر في كل منزع، ولا شك أنها تودي بصاحبها في

الهلاك فيتردَّى في مهاوي الردى، أما من تغلب على نفسه وقادها بعقل راجح وفكر ثابت ومنعها عن أطماعها الدنيئة وكفها عن شهواتها الخسيسة، فإنه يكون بعيداً عن مواطن الشقاء والهلاك غير مرتكب إثماً ولا متحمل وزراً وسيجزيه اللّه الجزاء الأوفى مع المتقين.

قال اللّه تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]. وقال تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٩-١٠]. وقال جل شأنه: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللّه﴾ [ص: ٢٦]. وقال عز وجل: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله اللّه على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال رسول اللّه ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأماني». وقال عليه الصلاة والسلام: «المجاهد من جاهد نفسه وهواه». وقال عليه الصلاة والسلام: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إياكم والهوى فإن الهوى يُصم ويُعمي».

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: اقذعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلاعة تنزع إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مري وإن الباطل خفيف وبي، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

وقال علي كرم اللّه وجهه: أخاف عليكم اثنين: اتباع الهوى، وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة، وقال: إياكم وتحسين الشهوات على أنفسكم، فإن عاجلها ذميم وآجلها وخيم.

وقال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه.

وقال ابن السماك: كن لهواك مسوِّفاً ولعقلك مسعفاً وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فإن ترك النفس وما تهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء.

وقال بعض البلغاء: من أصلح نفسه أرغم أنف أعاديه، ومن أعمل جده بلغ كنه أمانيه. وقال آخر: أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك. وقال غيره: من أمات شهوته فقد أحيا مروءته. وقال غيره: الهوى عسوف والعدل مألوف.

وقال بعض العلماء: ركب اللّه الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم.

وقيل لبعض الحكماء: من أشجع الناس وأحداهم بالظفر في مجاهدته، قال من جاهد الهوى طاعة لربه، واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه. وقيل: العقل ويز ناصح والهوى وكيل فاضح. وقيل أيضاً: من أطاع هواه أعطى عدوه مناه.

وقال علي كرم الله وجهه:

صُن النَّفسَ واحملها على ما يزيِّنها ... تعشْ سالماً والقولُ فيكَ جميلُ
ولا تريـــنَ النَّاس إلاَّ تجمُّـــلاً ... نبا بـكَ دهـرٌ أو جفـاكَ خليلُ

وقال أبو الفتح البستي:

يا خادمَ الجسم كمْ تشقى بخدمته ... لتطلبَ الربـحَ مما فيه خسرانُ
اقبلْ على النَّفسِ واستكملْ فضائلها ... فأنتَ بالنَّفس لا بالجسمِ إنســانُ
إذا ما رأيتَ المرءَ يقتادهُ الهـوى ... فقـد ثكلتهُ عـندَ ذاكَ ثواكلهْ
وقـدْ أشمتَ الأعداءَ جهلاً بنفسهِ ... وقـدْ وجدتْ فيهِ مقالاً عواذلهْ

١٦١- من كتم سره فقد ملك أمره

كتمان السر من أفضل الأخلاق وأكبر الفضائل به تصان الأعراض وتحفظ الأرواح وتلتئم الجماعات فرب سر أفشيته جلب شراً مستطيراً وأحدث فتنة أهلكت خلقاً كثيراً، ولهذا كان من الواجب على الإنسان أن يخفي سره ما استطاع، وإلا عرض نفسه إلى أضرار كثيرة لا قبل له بها، وحينئذٍ لا يمكنه دفع ما يترتب على ذلك من الأخطار فيعض سبابة المتندم ولا ينفعه الندم بعدما انقضى الأمر.

قال الله تعالى: ﴿وأوفوا بالعهدِ إن العهدَ كان مسؤولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقال جل شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: ١].

وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على نجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سرها». وعن ثابت عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان فسلم علينا فبعثني في حاجته فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ فقلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سر، قالت: لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ أحداً. قال أنس: والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت». وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا حدّث رجلٌ رجلاً بحديث ثم التفت فهو أمانة».

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: من كتم سره كان الخيار في يده وكان يقول رضي اللّه عنه: ما أفشيت سري إلى أحد قط فلمته إذ كان صدري به أضيق.

وقال عليّ كرم اللّه وجهه: سرك أسيرك فإن تكلمت به صرت أسيره.

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية الأسرار والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل امرئٍ مفتاح سره.

وقال أنو شروان: من حصّن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بنيّ كن جواداً بالمال في موضع الحق ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر. وقال آخر: انفرد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل ولا جاهلاً فيخون. وقال غيره: من أفشى سره كثر عليه المتآمرون.

وقال بعض الأدباء: أضعف الناس من ضعف عن كتمان سره وأقواهم من قوي على غضبه وأصبرهم من ستر فاقته وأغناهم من قنع بما تيسر له. وقال غيره: كم من سر أراق إفشاؤه دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ولو كتمه لأمن من سطوته وسلم من عواقبه.

وقال بعض الفصحاء: من عجائب الأمور أن الأموال كلما كثر خزانها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثر خزانها كان أضيع لها. وقال آخر: ما أسرك؟ لو كتمت سرك. وقال غيره: من لم تغيبه الأضالع فهو مكشوف ضائع.

وقال بعض العقلاء: إظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهاره سر نفسه لأنه يبوء بإحدى وصمتين: الخيانة إن كان مؤتمناً، والنميمة إن كان مستودعاً.

وقيل: من أفشى سره أفسد أمره ومن كتم سره ملك أمره، وقيل أيضاً: قلوب العقلاء حصون الأسرار، وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع عليه ويؤثر الوقوف عليه، فإن طالب الوديعة خائن.

ولا تفشِ سرَّكَ إلاَّ إليكَ فإنَّ لكُلِّ نصيحٍ نصيحاً
فإني رأيتُ وشاةَ الرِّجا لِ لا يتركوا أديماً صحيحاً
لا يكتمُ السرَّ إلا كُلّ ذي ثقةٍ والسرُّ عند خيارِ النَّاسِ مكتومُ
فالسرُّ عندي في بيتٍ لهُ غلقٌ ضاعتْ مفاتيحهُ والبابُ مختومُ
ومُستودِعي سرّاً تضمنتُ سرَّهُ فأودعتهُ منْ مستقرِّ الحشا قبرا

ولكنّني اخفيه عنّي كأنّني   من الدّهر يوماً ما أحطتُ به خبرا
وما السرّ في قلبي كميتٍ بحفرةٍ   لأنّي أرى المدفونَ ينتظرُ النّشرا
إذا ما ضاقَ صدركَ من حديثٍ   وأفشته الرّجالُ فمنْ تلومُ
وإن عاتبتَ من أفشى حديثي   وسرِّي عندهُ فأنا الملومُ
ولستُ بمبدٍ للرّجالِ سريرتي   ولا أنا عن أسرارِهم بسؤولُ
صن السّر عن كلّ مستصحبٍ   وحاذر فما الرّأيُ إلا الحذرُ

تمّ بعون الله تعالى وتوفيقه الجزء الأول من ديوان الإنشاء

ويليه الجزء الثاني.

بسم الله الرحمن الرحيم

١٦٢- الشحاذة وخطرها على المدنية والحضارة

يقضي نظام هذه الحياة على الإنسان أن يسعى ويعمل لطلب الرزق من وجوهه المشروعة حتى لا يمد يده للناس، فإنه إذا قعد عن العمل ولزم البطالة والكسل، فلا شك أن تسوء حاله وتنحط نفسه ويضيق عيشه فيلجأ إلى السؤال والشحاذة، وأي عاقل يرضى لنفسه بهذه الحال التعيسة، بل وكيف يقبل أن يكون عضواً أشل في الهيئة الاجتماعية لا يقام له وزن ولا تعرف له قيمة.

قال اللّه تعالى في مقام الثناء على من لا يسأل الناس شيئاً: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ [البقرة:٢٧٣]. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ [البقرة:٢٦٧]. ومن لا كسب له من أولئك المعطلين لا يمكنه الإنفاق (إن أنفق) إلا من ذلك الخبيث.

وقال رسول اللّه ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف اللّه بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه». وقال عليه الصلاة والسلام: «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول». وقال: «لا تلحفوا في المسألة فواللّه لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته مني شيئاً، وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته». وقال عليه الصلاة والسلام: «لو تعلمون ما في المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله شيئاً».

وقال علي كرم اللّه وجهه لابنه الحسن في وصيته له: يا بنيَّ إن استطعت ألا يكون بينك وبين اللّه ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك، وقد جعلك اللّه حراً فإن اليسير من اللّه تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وإن كان كل منه كثيراً.

وقال لقمان لولده: يا بنيّ إياك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك.

وقال أكثم بن صيفي: أفضل منُ السؤال ركوب الأهوال.

وقال شريح: من سأل حاجة فقد عرض نفسه للرق، فإن قضاها المسؤول منه استعبده بها وإن رده عنها رجع كلاهما ذليلاً، هذا بذل البخل وذاك بذل الرد.

وقال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه.

وقال بعض الحكماء: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأنعم على من شئت تكن أميره.

وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ والجرح الذي لا يندمل، قال حاجة الكريم إلى اللئيم.

وقال الشاعر:

إذا أعـوزتكَ أكـفُّ اللئـامِ — كفتكَ القناعةُ شبعاً وريَّـا
فكنْ رجُلاً رجلهُ في الثَّرى — وهامـةُ همَّته فـي الـثريَّا
فإنَّ إراقـة مـاء الحـيا — ة دونَ إراقـة مـاء المُحيَّا
لعمرُ اللّه ما عوَّدتَ نفسي — خُضوعاً لامرئٍ فيـه ابتذالُ
أيرضى مَنْ لهُ عقلٌ ورأيٌ — تعاطي ما عليـه بـه وبالُ
لا تحملـنَّ مـنَ الأنـا — مِ عليكَ إحسـاناً ومنَّـه
واخـترْ لنفسـكَ حفظُهـا — واصبرْ فـإنَّ الصبر جنَّـه
مننُ الرِّجالِ علـى القُلو — بِ أشدُّ منْ وقـعِ الأسـنَّه
لا تحسبنَّ الموتَ موتُ البلا — لكنَّما الموتُ سؤالُ الرِّجالِ
كلاهُمـا مـوتٌ ولكـنْ ذا — أشـرُّ من ذاكَ لذلِّ السؤالِ
ما اعتاضَ باذلُ وجهه بسؤاله — عوَضاً ولو نالَ الغنيُّ بسؤالِ
وإذا السؤالُ مـع النوالِ وزنتهُ — رجحَ السؤالُ وخفَّ كلّ نوالِ

١٦٣- أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع

الطمع والحرص رذيلتان كبيرتان وهما أصل الجشع وعدم الرضا بما قسم اللّه للمرء من الرزق وتكالب النفس على طلب الزيادة ولو من غير طرقها المشروعة وليس ما نراه من الجرائم الكثيرة من سرقة وقتل وغيرهما إلا أثراً سيئاً من آثار الحرص على الدنيا والطمع فيها، فلا يقف صاحبهما عند حد ولا ينتهي إلى غاية وتكون عاقبته الهلاك لا محالة ولو نبذ الحرص والطمع وراء ظهره، ورضي بما كسبت يداه من رزق حلال لكفاه ذلك وعاش عيشة هادئة مرضية.

قال اللّه تعالى: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [البقرة:١٦٨]. وقال جل شأنه: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ [البقرة:١٨٨].

روى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله أوصني وأوجز، فقال النبي ﷺ: «عليك بالإياس مما في أيدي الناس وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وإياك وما يعتذر منه». وكان يقول في دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع».

وقال علي كرم الله وجهه: ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع. وقال: أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع.

وقال بعض الحكماء: من أراد أن يعيش حراً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقال أحد الفلاسفة: العبيد ثلاثة: عبد رقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع.

وقيل للإسكندر: ما سرور الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها، قال: فما غمها؟ قال: الحرص عليها.

وقيل: الحرص مفسدة للدين والمروءة، ومن لزم الطمع عدم الورع.

قال أبو العباس أحمد بن مروان:

وذيْ حرصٍ تراهُ يلمُّ وفراً ... لوارثه ويدفعُ عنْ حماهْ
ككلبِ الصَّيدِ يمسكُ وهو طاوٍ ... فريستَهُ ليأكُلها سواهْ

١٦٤- تجنب الفحشاء لا تنطق بها

الفحش هو النطق بالألفاظ البذيئة والكلمات المبتذلة التي تجلب كثيراً من العداوة والبغضاء، وتجر من المنازعات والمشاحنات التي قد تنتهي بأوخم العواقب وأسوأ النتائج فتتفكك عُرا المحبة وتنقطع روابط الإلفة ويحل الفساد محل النظام والخصام محل الوئام، وإذ ذاك تسوء الأحوال وتضطرب رحى الأعمال.

قال الله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً﴾ [النساء:١٤٨]. وقال جل شأنه: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص:٥٥]. وقال جل شأنه: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ [المؤمنون:٣]. وقال عز وجل: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق:١٨]. وقال تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ [الإسراء:٣٦].

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه». وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال قال عليه الصلاة والسلام: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه

قال: «إن أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسبُّ الرجل أبا الرجل فيسب اباه ويسب أُمه». وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله من حفظ لسانه وعرف زمانه واستقامت طريقته». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام»، وقال أيضاً: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر». وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»، وقال: «إن الله لا يحب الفاحش المتفحش».

وقال عمرو بن عتبة: نزه نفسك عن استماع الخنى كما تنزه لسانك عن الكلام به، فإن السامع شريك القائل، ولو ردت كلمة الناطق بالأذى في فيه لسعد رادها كما شقي قائلها.

وقال المهلب: إذا سمع أحدكم العوراء فليطاطئ لها فتتخطاه.

وقال حاتم:

وكلمةُ حاسدٍ في غيرِ جرمٍ ... سمعتْ فقلتُ مُرّي فانفذيني
عُنيتُ بها كأن قيلتْ لغيري ... ولمْ يعرق لها يوماً جبيني

وقال أبو الحسن بن الحرث الهاشمي:

تحرّ من الطُرق أوساطها ... وعد عن الموضعِ المُشتبه
وسمعُكَ صنْ عن قبيحِ الكلامِ ... كصونِ اللسانِ عن النطقِ به
فإنّ عند استماعِ القبيحِ ... شريكٌ لقائلهِ فانتبه

وقال الشاعر:

إذا ما بدت منْ صاحبٍ لكَ زلةٌ ... فكنْ انتَ محتالاً لزلّته عُذرا
أحبُّ الفتى ينفي الفواحشَ سمعهُ ... كأنَّ به عن كلِّ فاحشةٍ وقرا
سليمُ دواعي الصّدرِ لا باسطَ أذىً ... ولا مانع خيراً ولا قائل هُجرا

وقال آخر:

تجنّبِ الفحشاء لا تنطقْ بها ... ما دُمتَ في جدِّ الكلامِ وهزله
واحبس لسانكَ عن رديءِ مقالةٍ ... وتوقَّ من عُثرِ اللسانِ وزلّه
كمْ كلمةٍ جرَّت لرأسٍ نقمةً ... كالدّهر يرشقُ نبلهُ في نبله

١٦٥- الغيبة والنميمة والسعاية وما ينجم عنها من المضار والأخطار

الغيبة هي أن تذكر أخاك بما يكره، والنميمة نقل الحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد، والسعاية هي الوشاية بين الناس باختلاف الأكاذيب، وكلها صفات ذميمة تجلب

الشر وتدعو إلى الفرقة وتوغر الصدور وتثير الأحقاد، كيف لا وإنها داعية الفساد وأس الشقاء والبلاء تحط بصاحبها إلى أسفل الدركات وتنفر الناس منه فيصبح ولا أنيس له وجليس، ولعمري إن مثل هذا جدير به أن يفر من وجه الناس حياء وخجلاً، والعاقل من تبرأ من تلك الخصال الرديئة وتطهر من أدرانها الخبيثة وعمل على محاربتها بكل ما في وسعه.

قال اللّه تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاَّف مهين، همَّاز مشَّاء بنميم منَّاع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم﴾ [القلم: ١٠-١٣]. وقال جل شانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا اللّه إن اللّه تواب رحيم﴾ [الحجرات: ١٢]. وقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ [الحجرات: ٦].

وقال رسول اللّه ﷺ: «الا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: شراركم المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون العيوب». وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شغار، ملعون كل قتات، ملعون كل منان». وعن أنس رضي اللّه عنه أنه قال عليه الصلاة والسلام: «من اغتيب عنده أخوه المسلم فلم ينصره وهو يستطيع نصره، أذله اللّه في الدنيا والآخرة». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على اللّه ان يقيه من النار». وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا وقع في الرجل وأنت في ملأ فكن للرجل ناصراً وللقوم زاجراً وقم عنهم». وقال: «من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يرفعن إلينا عورة أخيه». وقال: «لا يراح القتات رائحة الجنة». وقال عليه الصلاة والسلام: «لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل، قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم». وروي أن امرأتين صامتا على عهد رسول اللّه ﷺ وجعلتا تغتابان الناس فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «صامتا عمَّا أحل لهما وأفطرتا على ما حرم عليهما».

وقال علي كرم اللّه وجهه: «الأشرار يتبعون مساوئ الناس ويتركون محاسنهم كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة».

وقال ابن عباس: اذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن تذكر به ودع منه ما تحب أن يدع عنك.

وقال المهدي: ما الساعي بأعظم عورة ولا أقبح حالاً من قابل سعايته ولا يخلو أن يكون الساعي إليك حاسداً نعمة فلا تشف غيظه أو عدواً فلا تعاقب له عدوه لئلا يشمت به.

وقال أرسطاطاليس: النميمة تهدي إلى القلوب البغضاء ومن نقل إليك نقل عنك.

وقال بعض الملوك لولده: ليكن أبغض رعيتك إليك أشدهم كشفاً لمعايب الناس، فإن للناس معايب أنت أحق بسترها، وأنت إنما تحكم بما ظهر لك، والله يحكم بما غاب عنك، واكره للناس ما تكره لنفسك واستر العورة يستر الله عليك ما تحب ستره ولا تصغ إلى حديث ساع. فإن الساعي غاش، وإن قال قول نصيح.

وقال بعض الحكماء: الساعي بين منزلتين قبيحتين: إما أن يكون قد صدق فخان الأمانة، وإما أن يكون قد كذب فخالف المروءة. وقال غيره: الصدق يزين كل أحد إلا للسعاية، فإن الساعي أذم وآثم ما يكون إذا صدق.

وقال بعض الأدباء: لم يمش ماشٍ شر من واشٍ.

وقال بعض الفضلاء: النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر فتجنب سبلها وتحرز من أهلهما.

وقال آخر: إذا رأيت من يغتاب الناس فاجهد جهدك ألا يعرفك! فإن أشقى الناس به معارفه.

وقال بعض العلماء: السعاية إلى كل ذي قدرة مهلكة، فكم دم أراقه سعي ساع وكم حريم استبيح بنميمة نمام وكم من صفين تقاطعا وكم من إلفين تهاجرا وكم من زوجين تفارقا.

ودخل رجل على عبد الملك بن مروان وكان معه جلساء فقال له: أُريد أن أسر إليك أمراً، فقال لأصحابه إذا شئتم فقوموا، فلما تهيأ الرجل للكلام قال له عبد الملك: إياك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك ولا تكذبني فإنه لا رأي لكذوب أو تسعى إلي بأحد فإن السعاية من أفظع الجرائم، وإن شئت أقلتك، قال: أقلني.

وقيل: النميمة سيف قاتل. وقال أبو تمام:

ومنْ يأذنْ إلى الواشينَ تسلَّق ... مسامعهُ بألسنةٍ حداد

لا تلتمسْ من مساوي النَّاسِ ما ستروا ... فيهتكَ اللّهُ ستراً عنْ مساويكا

واذكرْ محاسنَ ما فيهم إذا ذُكروا ... ولا تعب أحداً منهمْ بما فيكا

يسعى عليكَ كما يسعى إليكَ فلا ... تأمنْ غوائلَ ذي وجهينِ كيَّادِ

لا تقبلنَّ نميمةً بلغتها ... وتحفظنَّ من الذي أنباكها

إنَّ الذي أهدى إليكَ نميمةً ... سينمُّ عنكَ بمثلها قدْ حاكها

من نمَّ في النَّاسِ لم تؤمنْ عقاربُه ... على الصديقِ ولم تؤمنْ أفاعيه

كالسَّيلِ بالليلِ لا يدري به أحدٌ ... من أينَ جاءَ ولا منْ أينَ يأتيه

١٦٦- الحقد والحسد وأثر ضررهما في الهيئة الاجتماعية

الحقد والحسد صفتان مذمومتان تأكلان حسنات صاحبهما كما تأكل النار الحطب، فهما منشأ العداوة والبغضاء وسبب كل قطيعة وتفرق كل جماعة، وإن الحسود لخارج على ربه غير راضٍ قسمته في خلقه فهو يعارضه فيما قضى وقدر على طبق علمه ومقتضى حكمته، وقد جلب على نفسه غماً لا يهدأ وناراً لا تنطفئ فلا يستقر له بال ولا يستريح له ضمير، فحري بالعاقل أن يفك نفسه من تلك الأغلال ويخلص من كابوس هاتيك الخصال فتسعد حاله ويفوز بالرضا والرضوان.

قال اللّه تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله﴾ [النساء: ٥٤]. وقال جل شأنه: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ [الفلق: ٥]. وقال عز وجل: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ [القلم: ٥١].

وروي عن أنس أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد اللّه إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». وروى الطبراني أنه قال عليه الصلاة والسلام: «ليس مني ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه». ثم قرأ: ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وروى ابن ماجه أن رسول اللّه ﷺ قال: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». وعن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال: قيل يا رسول اللّه أي الناس أفضل؟ قال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب، قال: «هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد». وقال عليه الصلاة والسلام: «دب إليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أُنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم». وقال: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد».

وقال عبد اللّه بن المعتز: الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده.

وقال الحسن بن علي: يحسد أحدهم أخاه حتى يقع في سريرته وما يعرف علانيته ويلومه على ما لا يعلمه منه ويتعلم منه في الصداقة ما يعيره به إذا كانت العداوة.

وقال الجاحظ: من العدل المحض والإنصاف الصريح أن تحط عن الحاسد نصف عقابه، لأن ألم جسمه قد كفاك مؤونة شطر غيظك.

وقال معاوية رضي اللّه عنه: ليس في خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود.

وقال بعض الحكماء: من صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة. وقال غيره: من رضي بقضاء اللّه تعالى لم يسخطه احد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد. وقال غيره: ما أمحق للإيمان ولا أهتك للستر من الحسد، وذلك أن الحاسد معاند لحكم اللّه تعالى باغ على عباده عات على ربه يعتد نعم اللّه نقماً، ومزيده غيراً وعدل قضائه حيفاً، للناس حال وله حال ليس يهدأ ليله ولا ينام جسمه ولا ينفعه عيشه محتقر لنعم اللّه عليه متسخط ما جرت به أقداره، لا يبرد غليله ولا تؤمن غوائله إن سالمته وترك وإن واصلته قطعك وإن صرمته سبقك.

وقال بعض الأدباء: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود له نفس دائم وهم لازم وقلب هائم.

وقال بعض العلماء: من انقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء بأربع مذام:

إحداهن: حسرات الحسد وسقام الجسد، ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء.

والثانية: انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه.

والثالثة: مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محباً وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم ولياً.

والرابعة: إسخاط اللّه تعالى في معارضته، إذ ليس يرى قضاء اللّه عدلاً ولا لنعمه من الناس أهلاً.

أعطيتُ كلَّ النَّاسِ من نفسي الرِّضا ... إلاَّ الحسودَ فإنَّه أعياني
ما انْ لي ذنباً إليه علمتهُ ... إلاَّ تظاهر نعمةَ الرَّحمنِ
وأبى فما يُرضيهِ إلاَّ ذلَّتي ... وذهابُ أموالي وقطعُ لساني
إنّي لأرحمُ حاسدي لحرِّ ما ... ضمَّتْ صدورهُمْ منَ الأوغارِ
نظروا صنيعَ اللّه بي فعيونهم ... في جنَّةٍ وقلوبهُمْ في نارِ
لا ذنبَ لي قد رمتُ كتمَ فضائلي ... فكأنَّما برقعتُ وجهَ نهارِ
وسترتُها بتواضعي فتطلَّعتْ ... أعناقها تعلو على الأستارِ
لا يحملُ الحقدَ منْ تعلو به الرُّتبُ ... ولا ينالُ العُلا منْ طبعهُ الحسدُ
إنَّ الحسودَ الظلومَ في كربٍ ... يخالهُ منْ يراهُ مظلوما
ذا نفسٍ دائمٍ على نفسٍ ... يظهرُ منها ما كانَ مكتُوما
يا طالبَ العيشِ في أمنٍ وفي دعةٍ ... رغداً بلا فترٍ صفواً بلا رنقِ
خلِّصْ فُؤادكَ منْ غلٍّ ومن حسدٍ ... فالغلُّ في القلب مثل الغلِّ في العنقِ

أيا حاسداً لي على نعمتي | أتدري على منْ أسأتَ الأدبْ
أسأتَ على اللّه في حكمهِ | لأنَّكَ لمْ ترضَ لي ما وهبْ
فأخزاكَ ربِّي بأنْ زادني | وسدَّ عليكَ وجوهَ الطلبْ

١٦٧- وصف روضة غناء

روضة واسعة الأرجاء فسيحة الأنحاء تحار فيها الأبصار وتقصر عن وصفها الأفكار ترابها من مسك وكافور وحصباؤها الدر النضير قد فاح أرجها وأضاءت سرجها جنة عالية قطوفها دانية وطلحها منضود وظلها ممدود وأعلام أشجارها مرفوعة وفاكهتها كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، خضرة نضرة أنيقة ظلولها وديقة وأغصانها وريقة ذات ألوان وأفنان وأكمام وأكنان وثمرات حسان قد فاح الطيب من مجامر أزهارها وصاح خطيب العندليب على منابر أشجارها.

الوردُ في أعلى الغصونِ كأنَّهُ | ملكٌ تحفُّ بهِ سراةُ جنوده

وترنم البلبل على العيدان فتمايل تمايل النشوان أو القيان الحسان وقد ملئت من أنواع الأزاهر وألوان النبت الباهر بدر وزبرجد وفضة وعسجد تجوس المياه خلال ديارها وتشرق بآفاقها أنوار أنوارها وبرز إبريزها وحسن تطريزها وأبدت من زينتها ما هو باللطف منعوت ونثرت على الزمرد أصناف الدر والياقوت عاليها من رونق الورق المونق ثياب سندس خضر واستبرق فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من أثمار ذات بهجة وأزهار تنعش خطره يمتلك صاحبه مودة القلوب وينال كل مرغوب ومحبوب به يجتلب المجد ويكتسب الحمد وضده الكبر وهو أقبح وصف يسلب من الإنسان الفضائل ويكسبه النقائص والرذائل.

كيف لا وإن أقبح ما يرى عليه الإنسان أن يكون متكبراً لأنه بذلك ينسب لنفسه ما لا يصح أن ينسب إليه ويدعي ما ليس في الإمكان أن يناله وهذا ضرب من الخلل، ودليل واضح على الجنون وبرهان ساطع على الغرور، ومن غره السراب تقطعت به الأسباب، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يتواضع إلا كل رفيع ولا يتكبر إلا كل وضيع» على أن التكبر عنوان الجهل..

١٦٨- طاعة أولياء الأمور مقياس رقي الأمم

الطاعة هي الحرم الأوفى والعروة الوثقى والكهف الحصين والملاذ الأسمى من تمسك بحبلها سلم ومن لجأ إليها غنم وهي أس الدين وَزصل اليقين ومنهاج السيادة

وطريق السعادة وأساس النظام الذي عليه مدار حسن الأعمال والسبب القوي لإصلاح الأمور وتحسين الأحوال بها تسعد البلاد والأوطان ويعم بها النفع وتتسع دائرة العمران، فحق على كل فرد أن يتمثل لولي أمره ويحفظ له الحق في احترامه وتعظيم قدره، وأن يقوم بما عهد إليه من الأعمال بالكمال وأن يهتم بتاديته على أتم نظام وأحسن حال، فإن المرء إذاً ملوك وأُمراء ورؤساء ووزراء وفقراء وأغنياء وكتاب وشعراء تقام فيها معالم العلوم والفنون ونغمات والحان وتدريس أفنان وقضاء أوطار وضرب أوتار، كل نفس بما كسبت رهينة وعلى ما حملت من أمانة دينها أمينة فهذا يسعى في خلاص ذمته، وهذا يوقعه القدر في حبائل جنايته بخيانته، قل كل يعمل على شاكلته.

بها ما شئتَ منْ دينٍ ودُنيا وإخـوانٌ تأسوا في المعاني
فمشغوفٌ بآيـاتِ المثانــي ومفتـونٌ برنَّـاتِ المثانــي
وكـمْ من قـارئٍ فيها وقـارٍ أضرًا بالجفـونِ وبالجفـانِ
وكمْ من معلِّـمٍ للعلمِ فيها ونادٍ للنَّدى حلوُ المجاني
فصل إنْ شئتَ فيها منْ يُصلي وإمَّا شئتَ فادنُ مـنَ الدنانِ
ودُونكَ صحبة الأكياسِ فيها أو الكاسـاتِ منطلقُ العنانِ

قال ابن إياس: إن بعض الحكماء وصف أرض مصر فقال: هي في ثلاثة أشهر (لؤلؤة بيضاء) وثلاثة أشهر (مسكة سوداء) وثلاث أشهر (زمردة خضراء) وثلاثة أشهر (كهرمة صفراء) وذلك لان أرض مصر يركبها النيل وقت فيضانه فتكون بيضاء من افتراش الماء عليها، ثم تصير مسكة سوداء متى نزل الماء من عليها، ثم تصير زمردة خضراء وقت الربيع، ثم يصير زرعها أصفر كالذهب.

فمن الناس من يسكن مصر ليعدها عوناً على تقواه، ومنهم من يعدها للعبه وملهاه، هذا يرعى فيها النجوم ويناجي الحي القيوم، وهذا يغفل ليله إلى الصباح أو يقطعه بما هو عليه ملوم هذا ينظر إليها بعين الفكر والتبصر في عجائب القدرة وهذا ليس له منها إلا الابتهاج بنضارة الزهرة.

رأيتُ رياضَ القدسِ في روضةِ المُنى على نيلِ مصرَ بينَ تلكَ المناظرْ
مناظـرُها للنَّاظـرينَ مشـــارقٌ وفيهـا وجـوهٌ كالبـدورِ البـوادرْ
ويشبهُ سيبُ الماءِ فيهـا صوارِماً بأيدي الهنا سلت لسلبِ النواظـرْ
عليها جـلالُ اللّهِ جلَّ جلالـهُ وفيها سـريرُ السرِّ سـرِ السرائرْ
يحيط بأرجائها النيلَ الميمون فيبرئ من الأسقام عليلاً ويشفي من الأوار غليلاً.
ديـارُ مصرَ هـي الدُّنيا وساكنها هـمْ الأنــامُ فقابلها بتفصيـلِ
يا مـنْ يُباهـي ببغدادَ ودجلتها مصرُ مقدمـةٌ والشَّـرحُ للنِّيـلِ

والنيل حياة الأرواح والأنفس ويحشر له الناس ويحج فيه إلى المقياس، وفي الحقيقة هو خلعة رضى ولباس، ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل ويركب إليه الملك والجنود ويكون للناس من مائه ولونه المحمر ورود. ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وله في كل سنة أجل معدود.

لِلّهِ يومُ الوفا والنَّاس قدْ جمعوا كالروضِ تطفو على نهرٍ أزاهرُه
ولِلوفاءِ عمودٌ من أصابعهِ محلَّقٍ تملأُ الدُّنيا بشائرُه

١٦٩- النور وأثره في الإنسان والحيوان والنبات

النور حاجة من حاجات الجسم يسر من وجد فيه للحصول عليه كما يتألم لفقدانه فهو يزيد الجسم قوة ونشاطاً والقلب طهارة والفكر جودة، انظر إلى العصفور فإنه يصفو حاله في النور ويترنم بألحانه ويغرد بصوته الجميل ويقضي وقته في سعة من السرور وإن حرمه اضطرب لفقده وفترت همته فلا تسمع له صوتاً ولا لحناً.

قال كبار الحكماء: (المحل الذي لا يدخله الشمس يزوره الطبيب) وقال آخر: (لا بدّ من طبيب للعائلة، والأفضل ان يكون هذا الطبيب نور الشمس)، وانظر أيضاً إلى النباتات والأثمار، فلا تنبت ولا تنضج إلا بالنور، فهو رأس السعادة وأصل الوجود وسبب النمو والصعود وعليه مدار الصحة والصفاء، بل هو حياة من في الأرض والسماء فيلزم الاعتناء بوصوله إلى محلات النوم والمطالعة.

١٧٠- اللغة العربية ومزاياها على سائر اللغات

إن للغة العربية من الفوائد خزائن لا تنفد وكنوزاً لا تفنى وبدوراً لا تحجب وعيوناً لا تنضب ورياضاً لا تذوي، ولكن لا يصل إليها إلا من غاص بحرها وولى وجهه شطرها وسبر كنه أغوارها وجاس خلال ديارها وجاب نجادها ووهادها وراد مروجها وورد مناهلها، ومن المزايا التي تترتب على معرفة العربية وتمتاز بها على سائر اللغات الأعجمية كونها أوسع من غيرها من اللغات وأكثرها طرقاً في فن الكتابات وأفصحها مقالاً وأفسحها مجالاً وأوفقها للنظم طباعاً وأطولها في النثر باعاً، فيمكن ان يؤتى في المقام الواحد بدرجات من الإسهاب وأنواع من الإيجاز تستطاب إلى غير ذلك من أساليب البلاغة والبراعة التي توسع مجال اليراعة.

وكونها غير قابلة للانعدام كغيرها من لغات الأنام لأنه نزل فيها كتاب عربي مبين تلاوته من أعظم العبادات عند جميع المسلمين، فما دام هذا الدين قائماً، كان هذا اللسان موجوداً دائماً بخلاف اللغات الأخرى فليس فيها كتاب يتعبد بمجرد تلاوة كلامه لاعتقاد

اربابها، إن الترجمة كافية في بيان مرامه. وقد أوصى احد فلاسفة الالمان يوماً تلاميذه فقال: «إذا اردتم ان تكتبوا فكراً تامنون عليه كرور الأجيال فاكتبوه بالعربية فإن لها دون غيرها من اللغات مزية». فقالوا: وما مزيتها؟ فقال: «لأن في العالم أُمة عظيمة العدد ترى من أُصول دينها تلاوة كتاب فيها يسمى (القرآن) ولا شك في بقاء الأديان في الأمم العظيمة الشان، وحينئذٍ فلا ريب إن هذا الكتاب يبقى ما بقي هذا الدين وإن العربية تبقى ما بقي هذا الكتاب».

وما يطنطن به بعض الناس من قصورها، إنما هو عن جهل بها او لغرض يتعسر إخفاؤه وما يعترض به من ان الاستكشافات في هذه العصور كثيرة، وليس في اللغة العربية كلمات للدلالة عليها فاعتراض ضخم في الظاهر فارغ في الباطن.

وما مثلـهُ إلاّ كفارغٍ بنـدقٍ خليٌ من المعنى ولكن يفرقعُ

فإن باب الاصطلاح ليس مغلقاً في اللغة العربية مفتوحاً في غيرها.

وبالجملة: فاللغة العربية أليق اللغات وأكفلها بحاجة العلوم فمن ذلك سعتها فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ الف كلمة، وعدد كلمات الإنجليزية ١٠٠ الف كلمة (على أن معظم هذا العدد الأخير اصطلاحات صناعية) وعدد مواد العربية ٤٠٠ الف (مادة لا كلمة).

وبسبب غنى اللغة العربية وسعتها نجد فيها للمعاني الشديدة التقارب كلمات خاصة بكل معنى مهما كانت درجة التفاوت، وبذلك لا يكون محل للالتباس او الإبهام في التعبير اللذين هما آفة العلم والأدب.

١٧١- ما هي الحاجة الماسة لحفظ اللغة العربية الفصحى ومضار استعمال العامية كتابة

غير خاف أن اللغة العربية رابطة عامة لعدة من الخلائق في المغارب والمشارق ولحمة عظمى لجملة من الأمم صلتها من آكد الصلات وحرمتها من أعظم الحرم، ولا يكفي في عقد هذه اللحمة اللغة العامية، لأن لكل شعب فيها طريقة خصوصية فلهجة المصريين أو الحجازيين تخالف لهجة غيرهم من المغربيين أو الشاميين، فالأمر العام الذي ترجع هذه اللهجات إليه ويعتمد في مبادلة الأفكار المختلفة عليه، هو اللسان الصحيح الشريف لسان التحرير والتاليف، أجل إن اللغة العربية مفتاح العلوم ومصباح الفهوم وواسطة لإدراك ما يجده الإنسان ويقع تحت العيون والآذان تجعل صاحبها قادراً على إرسال أشعة أفكاره إلى أبناء جلدته فيستجلون ضياء أنواره ولا يجدون في طريقهم عقبات من العقادة تحجب عن الطالبين مراده بخلاف من تقاعدوا عن الحصول عليها وتقاعسوا عن تعلمها

وصرف الهمة إليها، فلا يعرفون قيمتها إلا عند الشروع في العمل ويأسفون حينئذٍ على حرمانهم من مزاياها بطاعتهم دواعي الكسل ويندمون ولا ينفع الندم حيث زلت القدم.

وليس من وسيلة لحفظ لغة أُمة أقوى من استعمالها في التعليم والتعلم، ولا واسطة لنماء علم بين أُمة ونشر التعليم بين بنيها غير استعمال لغتها، فبديهي أن استعمال أُمة لغة غير لغتها في التعلم والتعليم هو هجر للغتها وإماتة لها، فاللغات المسماة الآن ميتة ما صارت كذلك إلا لهجرها.

وهناك أمر أشد خطراً وأعظم وقعاً وضرراً وهو أنه لما كان السواد الأعظم من الشرقيين هم المسلمون وكان هذا الدين الإسلامي قائماً بالقرآن الكريم الذي هو باللغة العربية لزم لأجل فهمه بقاء اللغة العربية بحيث متى انعدمت انمحق الدين الإسلامي وهلك السواد الأعظم من الشرقيين دنيا وأُخرى لأن الدين هو ملاك الأمر والعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

أجل، إن من أحب اللّه أحب رسوله العربي ومن أحبه أحب العرب ومن أحبهم أحب اللغة العربية ومن أحبها عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها، فإن العرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تعلمها من الديانة إذ هي أداة العلم وواسطة التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل واشتمالها على المروءة وسائر مكارم الأخلاق، ولو لم يكن في الإحاطة بمعرفة مبانيها والوقوف على حقائق معانيها وتصاريفها ومجاريها والتبحر في جلائلها ودقائقها ومجازاتها وحقائقها إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز كتاب اللّه المبين وزيادة التبصر في إثبات النبوة التي هي عمدة الإيمان لكفى بالعربية الفصحى فضلاً يحسن أثره ويطيب في الدارين ثمره.

١٧٢- فوائد تمهيد الشوارع ونظافتها وإنارتها

مما يستدل على حالة التمدين والحضارة ملاحظة كيفية الشوارع والأزقة، فمن أهم الواجبات بذل الهمة وإمضاء العزيمة في تحسين وتجميل شوارع البلاد، على أنه لا يسمح لهم التمدين قط بترك الشوارع والأزقة ضنكة معوجة رديئة التبليط والتخطيط مظلمة الأرجاء قذرة الأنحاء، بل يطلب منهم دائماً أن تكون مستقيمة عريضة نظيفة مدكوكة ممهدة، وذلك لأن الشارع أو الزقاق إذا كان ضنكاً يمنع سهولة تجدد الهواء ويعوق امتداد النور إلى مخازن الناس أو حوانيتهم فيجعلهم مستعدين للآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنازير والسل والأورام ونحو ذلك، وإذا كان معوجاً فإنه يعسر انطلاق خطوات الناس فتعثر أرجلهم وتتلاطم صدورهم وتتقارع جباههم وحينئذٍ يكون السير في

الزقاق عراكاً لا انتقالاً، وإذا كان وعراً غير مستوٍ فإنه يصدع أقدام الماشين ويسبب سقطات البهائم تحت أحمالهم الثقيلة فتهشم حوافرها وتتكسر أرساغها فضلاً عن المؤذيات التي تنجم من الشتاء في تلك الطرق الوعرة فيؤثر فيها بحيرات من الأوحال تمنع الذهاب والإياب وتقفل للتجار والصناع الأبواب وعندها تقف حركة الأعمال وتتعطل الأشغال وتتجرع الفقراء كأس الذل والهوان، ولا يبقى سبيل لسلوك العميان، ومن حيث أن الاقذار والأوساخ لها أشد الأفعال السيئة، فلا يسوغ والحالة هذه تغافل ولاة الأمور عن ملاشاتها، ويجب الاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للأسواق والشوارع والخاصة للبيوت والمساكن فراراً من تلك التأثيرات الرديئة ومراعاة حق المدنية.

١٧٣- إنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

التاريخ حياة الذكر ومدبر الحياة يسجل لكل واحد المجد والشرف والفخار أو الذل والضعة والعار، فهو الحكم المطلق الواقف بالمرصاد يكافئ من حسنت سيرته ويعاقب من ساءت خطته.

المرءُ بعدَ الموتِ أُحدوثةٌ يفنـى وتبقى منهُ آثاره
فاحسنُ الحالاتِ حالُ امرئٍ تطيبُ بعدَ الموتِ أخبارُه

وإن أعمال الإنسان كالنجوم والحياة كالنهار والموت كالليل، لأنه لا يظهر فضل المرء إلا بعد موته، ولا يعرف مقامه إلا بعد ذوقه كأس الحمام، فكما أن النجوم لا تظهر إلا في الليل، كذلك الرجل لا ترى أعماله إلا بعد موته، فإن كانت صالحة ترى القوم قد عدت مآثره، وكان محمود الشهرة طيب الثناء يخلد له التاريخ صفحة بيضاء، وإن كانت طالحة فقد صب عليه ربه سوط عذاب، واصحبه قومه باللعنات وصار اسمه لا يذكر إلا مرادفاً بالتهكم مقروناً بالاحتقار، وما ذلك إلا لأنه حاد عن طريق الخير وشذ عن فعل المعروف ولم يراع للعاقبة حقاً ولم يخش لها بأساً ولم يدر ماذا يكون بعده مما يسجله التاريخ له من المجد والفخار أو الخسة والاحتقار.

وأفضل الناس من طمح ببصره إلى الأمام وعلم أن الآجال صحائف الأيام فقلدها أفضل الأعمال وجرد تاريخه من نقطة سوداء تشوه وجه صحيفته البيضاء حتى كان مثالاً حسناً لمكارم الأخلاق وجمال الطباع نصيراً للمروءة، فهذا الذي يسجل له التاريخ ذكراً حسناً وحديثاً عاطراً وأثراً خالداً.

فيُرى على مرِّ الدُّهورِ لدى الورى حيّاً بما أولاهُ مِنْ إحسانِ

بخلاف من جعل مطمح نظره الشهوات واللذات وأفنى عمره فيما لا يغني ولا يثمن

من جوع، فحشر نفسه في زمرة من لا يخافون عقاباً ولا يتحاشون عذاباً فيغير اللّه نعمته وتحل به نقمته ويسجل لنفسه الخزي واللعنة إلى يوم الدين وحقت عليه كلمة العذاب.

حياتُنا كالموتِ إنْ لمْ تكنْ ... نهجاً إلى تخليدِ ذكرٍ يدومُ

وعلى الجملة: إن من ترك له ذكراً حسناً لم يمت أبداً، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له». فهذه ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين في حق صاحب العمل كي تديم عمله وتجعله باقياً، فهذه الفضائل مخلدة للذكر مؤبدة للأجر وبضدها تتميز الأشياء.

نافس على الخيراتِ أهلَ العُلا ... فإنَّما الدُّنيا أحاديثُ
كنْ محسناً مهما استطعتَ فهذهِ الدُّ ... نيا وإنْ طالتْ قصيرٌ عمرها
إنَّ المآثرَ في الورى ذريةٌ ... يفنى مؤثرُها ويبقى ذكرُها
فترى الكريم كشمعةٍ منْ عنبرٍ ... ضاءتْ فإنْ طفئتْ تضوَّعَ نشرُها

فالدنيا دار كثير سكانها عديد قاطنوها تختلف آراؤهم بحسب اختلاف مطالبهم ومشربهم، وينقسمون إلى فرق متعددة كل منها يقوم بعمل دون غيره فالأطباء يعالجون المرضى والقضاة ينظرون في القضايا ومحاكمة المجرمين، والمهندسون لبناء المساكن وإصلاح طرق الري، والنجارون لعمل ما يلزم للمنازل من أبواب ونوافذ وغيرها، والحدادون يسبكون الحديد. والكل يسعى في هذه الدار لينال قسطاً من المال يساعده في الحياة أو ليؤدي واجباً مفروضاً عليه وهو العمل، ولعمر الحق ما الحياة إلا شقاء ونصب يولد الإنسان باكياً علامة له على شقائه فيها وعذابه الدائم الذي لا ينتهي إلا بانتهاء أجله ويموت باكياً من شدة الألم وينتقل من داره التي يسكنها إلى القبر الذي يجعله مأواه ومسكنه ويصير جسمه الذي كان كالزهرة النضرة جثة هامدة لا حراك فيها، وبعد ذلك تتحول الجثة إلى رفات سحيق – فإذا تأمل الإنسان وتبصر وعلم أن ذلك هو حاله لنبذ ملاذ الدنيا، ولعافى النفس عن الهوى، ولعلم أن الجنة هي المأوى فلا يترك حسنة إلا ويأتي بها، ولا سيئة إلا ويتخلى عنها. ويكون حقيقة هو الرجل الذي عرف الحياة وقدرها وعرف الآخرة وأعدلها من الحسنات والفضائل ما يخلده له ذكراً حسناً.

إذا كنتَ في أمرٍ فكنْ فيهِ مُحسناً ... فعمَّا قليلٌ أنتَ ماضٍ وتاركُهْ

١٧٤ – إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب، قعدت وأنت كبير حيث تكره

لا يخفى أننا نجد من شعورنا الانساني أن الأحوال النفسانية المختلفة كالتفكر والإحساس والإرادة صادرة عن شيء باطني قائم بذاته مغاير للجسم، فهذا الشيء يسمى بالنفس أو الروح، وبما أن شعورنا يبقى على حالة واحدة من الصغر إلى الكبر، وأن الجسم

تلحقه التغيرات المختلفة، نعلم أن النفس ليست بمادة وليست قابلة للقسمة وأنها شيء آخر مخالف للجسم، ولكنها مرتبة به حيث نجدها تقتسمه أحواله كالقوة والضعف والصحة والمرض، كما أن الجسم مرتبط بها ويقتسمها أحوالها كالفرح والحزن وخلافهما.

ثم إن التفاعلات المتغايرة التي بين الجسم والنفس إما أن تكون متسببة عن النفس أو عن الجسم. وذلك إذا كانت حالة من أحوال النفس تتولد من أثر ظاهري في الجسم تعتبر تفاعلاً سببه الجسم. وإذا كانت حالة من أحوال الجسم تتولد عن أثر باطني في النفس تعتبر تفاعلاً سببه النفس.

وينتج من ذلك أن الأحوال الجسمية الظاهرية تكون محسوسة للنفس، وإن الجسم تلحقه الحركة بواسطة تأثير النفس فيه.

وأقرب أجزاء الجسم من النفس هي الأعصاب لأنها توصل الآثار الظاهرية إلى النفس وتكون واسطة لها في تأثيراتها في الظاهر، وتدعو الجسم بواسطة الإحساسات النفسانية إلى الحركة الاختيارية، ولذلك يمكن أن تعتبر الأعصاب آلات للنفس.

والأعصاب تكون فعالة إما بواسطة التأثيرات الظاهرية أو الباطنية، فالظاهرية كالضغط والضرب أو الحرارة والنور والكهربائية، والباطنية كدورة الدم والأحوال الصادرة عن النفس والأعصاب منها ما ترسل الآثار من محيط دائرة الجسم إلى مركز الإحساس النفسي، وتسمى أعصاب الإحساس، ومنها أعصاب ترسل التأثيرات النفسانية الطالبة للحركة إلى محيط الجسم وتسمى أعصاب الحركة الاختيارية إن كانت مسبوقة بالإرادة، والاضطرارية إذا لم يسبقها إرادة، وهناك حركة شبيهة بالاضطرارية كالضحك عند رؤية شيء غريب وكحركة الدم عند الحياء والخجل، وكحركة الأعضاء الصادرة تحفظاً كتغميض العين اتقاء خطر، والحركات التقليدية كالتثاؤب عند رؤية آخر قد تثاءب، وغير ذلك، ويعد من ذلك النوع الحركات الطالبة لها الآداب في المقابلة والمؤانسة والإنسانية فهي وإن كانت اختيارية فالتمرن عليها يجعلها كالاضطرارية، فالذي يتربى بأخذها تصير له عادة، وطبعاً لا تحتاج في صدورها إلى إرادة منه.

ولما كانت النفس في الإنسان أمارة بالسوء ميالة للشر طلابة للراحة احتاج الناشئ في صغره إلى مزيد عناية. فمن الهم الله والديه أن يرضعاه ثدي الأدب والجد من صغره ووهبه مع ذلك عقلاً كاملاً، شب وحب الارتقاء يشب في صدره وذروة المجد مرمى نظره وخدمة الوطن كل أمله فلا يستصعب شاقاً ولا يجد في طريقه للمجد عائقاً فهو ينفر من الراحة ويأنف الانغماس في اللهو مع السفلة ويجد نفسه أعلى مقاماً وأرفع منزلة من أن يدنس سمعته أو يلوث صيته بالانكباب على إضاعة الوقت فيما يضر ولا طائل تحته فيمقت جنبه المضجع وتبغض عينيه الكرى، إلا اغرارا أو مضمضة.

ومن أهملاه والداه شب والكسل قرينه والهاوية قطينه والفقر أليفه والعجز حليفه يعيش ليأكل ويقتل الوقت الثمين ولا يميز بين الغث والثمين، حتى إذا كبر صدمته مصائب الحدثان وافترسته مخالب الزمان.

وإذا كانتْ النُّفوسُ كِباراً تعبتْ في مرادِها الأجسامُ

قال الإمام الغزالي: «الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش ومائل إلى كل ما يمال إليه به، فإن عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدبه، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه». وحينئذٍ فلا بدّ للارتقاء الأدبي من التربية وهذه يجب أن يبدأ بها من الصغر.

١٧٥- فوائد ومضار الانتقاد

الانتقاد والفحص من أحسن الوسائط لإصلاح الأعمال وترقيتها وتطهيرها مما طرأ عليها من الفساد إهمالاً أو سهواً أو جهلاً، وأن النفس المهذبة المتربية لترتاح لمن يقوم عوجها من عالم عليم وإمام حكيم فيسمع قوله ويخشى لومه ويتقبل انتقاده بقبول حسن، فبذلك تتقدم العلوم والمعارف ولا يظهر منها إلا ما هذبته العقول ونقحته الأفكار وأصلحته الأنظار والأبصار، فتتجلى في أحسن مثال وأبهى منظر وكمال، منطوقها الحقائق ومفهومها الدقائق يعلو وجهها البشر والسرور ويقرها جميع الجمهور، وبذلك تقوم المصلحة العامة على قدم الأمانة وتسير الأمة في سبيل الرقي والنجاح فيسمو عزها ويبسط سلطانها.

وقد اعتنى به الغربيون اعتناء عظيماً لأنه يدعو الحاكم والكاتب والتاجر والصانع لبذل جهده في إتقان عمله، فتتقدم البلاد وتحسن حالتها حساً ومعنى فتراهم لا يبزغ بينهم كتاب ولا يشرق عندهم مخترع حتى يفحصوه فحص الناقد البصير فينظرون فيه من كل وجهة ويزنونه وزناً دقيقاً، وبذلك طهروا المطبوعات من المضر والتافه والساقط فلا يجسر على نشر ما كتب إلا الكفء القدير الواثق بعمله الطالب نفع وطنه، وإلا كان عمله إذا أقدم تجارة تهددها سوق الكساد ولا تلبث أن تبور ويضرب بها عرض الحائط.

والانتقاد من أهم ما أنشئت لأجله الصحف والمجلات فهو أجل منافعها إذ به يرتدع الظالم عن غيه ويجبر المستبد على الوقوف عند حده فهي توصل صوت الشعب وتعبر عن رأي الأمة لمن يقدر على تلبيتها وإجابة ندائها والإصاخة لمطالبها وتخفيف ويلاتها ومصائبها.

وبالجملة: الانتقاد ضرب من ضروب الإصلاح إذا كان الغرض منه الإرشاد إلى الصواب والتنبيه عن الخطأ والحض على الصحيح وإلا صار مجلبة للتقاطع والأحقاد ومثار

التنافر والعناد، وحينئذٍ يسقط نفعه ولا يحسن وقعه بل يصير تعنتاً ودعوى كاذبة يلصق العار بالمنتقد، ويحط من كرامته لأن قصده إرسال ما في كنانة غيظه من سهام التشفي والانتقاص.

فإذاً يجب على المنتقد ألا يضرب بحسامه إلا صفحاً كي لا يجرح شعور المنتقد جرحاً مميتاً قاتلاً، ويجب عليه ألا تبلغ لهجته الشدة ولا تتجاوز اللائق بالأديب من الرقة، ويجب عليه أن يدرأ العيوب والشبهات، فإذا لم يجد شبهة فلا مناص من الانتقاد.

كما أن الواجب على من انتقد عمله أن يقدّر الانتقاد الصحيح حق قدره وينظر فيه نظر من يريد الصواب وينشد الهداية ويبحث عن موقع الحطل ولا يتعالى ويتغطرس شامخاً بأنفه، فما هو بالمعصوم وإن هو مهما علا كعبه في فنه إلا إنسان والله وحده هو الذي تفرد بالعصمة والكمال.

١٧٦- فوائد ومضار التقليد

التقليد التشبه بالغير إن خيراً فخير وإن شراً فشر والعاقل من قلد غيره في الفضائل والكمالات، ونافسه في اقتناء الخيرات وزاحمه في كمال الأعمال وتشبه به في جلائل الأفعال.

هذه أمة الغرب التي ما كانت تذكر قلدت الشرق عندما كان شمساً مشرقة أيام الحروب الصليبية فارتقت، وأخذت عن العرب أحسن العادات وأفضل الصفات وكمال العرفان وأصبحت الآن هي التي تضيء العلم والعمل على أرجاء المشرق الذي غربت شمسه وأشرقت عليه وكلنا لاه يمرح ويلعب، وتفعل الغربيون بنا ألاعيبهم ونحن أطوع لهم من خيال وتبعناهم تبع المقلد الأعمى فيا له من داء عضال اختلفت في أدوائه رجال الشرق، فمن قائل لا سبيل لنا إلى الخروج من ربقة هذا الانحطاط إلا تقليد الأمة الفلانية واختار أُمة من الأمم الغربية، أشرب في قلبه حبها فأخذ يبث أعمالها ويؤم أميالها، ومن مدّع أن التقليد لهذه الأمة يوصلنا للغرض المطلوب وأنه يجب علينا أن نقلد الأمة الشهيرة وانتقى له أُمة أُخرى مدحها وفضلها على سواها، وهكذا حتى كثرت الأحزاب واختلفت الميول وصار كل حزب بما لديه فرحاً، ونسوا أو تناسوا الدواء الشافي وهو رجوعهم إلى كتابهم وعوائدهم وأخلاقهم والتمسك بعقائدهم ودينهم هؤلاء هم رجال الصدر الأول من الإسلام لم يبلغوا هذه الدرجة الفخمة التي يرتعد لها قلب الجبان ويعجب منها كل إنسان، إلا لكونهم كانوا يرجحون غيرهم في الشجاعة ولا يقلدون إلا في الفضيلة لا لأنهم كانوا مستكملي العَدد والعُدد، بل لأنهم اجتمعوا تحت كلمة الوحدة وانقادوا للقانون الشرعي الذي هو كافل لأحوال المعاش والمعاد فكانوا يتحاكمون إليه في السلم والحرب وجميع

الأعمال بحيث لا يبنون أمراً من الأمور إلا بعد عرضه على قواعد الدين وأحكامه فإن ساعدت عليه أتوه وإلا تركوه، وبهذه الحالة صار جانبهم محفوظاً وسلطتهم نافذة وقوتهم مشهورة وأعمالهم مرضية إذ كانوا لا يولون الأمور إلا أربابها قائمين بإقامة الحدود محافظين على شعائر الدين إلى أن غير الأمراء والرجال ما في أنفسهم واتبعوا شهواتهم وبدلوا وجهتهم وفرقوا كلمتهم فحقت عليهم كلمة: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١].

ولا تنشط أُمة من عقالها أو تقوم من رقدتها أو تستيقظ من غفلتها إلا بباعث يبعثها ومنبه ينبهها كذكر مجد أسلافهم وتقليدهم في أعمالهم وإفهامها أن لهم استعداداً للكمال ورجائهم الخير وتوسمهم إقبال الزمان وتبسم الدهر في وجوههم.

وقصارى القول إن التقليد غريزة أودعها جل شأنه في نفس الإنسان لتكون داعية العمل ورائد الرقي ومبعث الحركة ومطلع شموس المدنية والعرفان.

يولد الطفل وهو لا يعلم شيئاً من شؤون الحياة فتراه مولعاً بتقليد أُمه وأبيه وسائر ما يقع تحت حواسه من حسن أو قبيح فجدير بالإنسان أن يصرف تلك الغريزة إلى النافع من الأشياء ويجعلها وصلة بينه وبين أعاظم الرجال فيقلدهم فيما أتوه من جليل الأعمال فإن شاء فليكن مرشداً حكيماً أو قائداً عظيماً أو طبيباً ماهراً أو منشئاً محرراً أو سياسياً محنكاً أو أُصولياً بارعاً أو سائحاً متجولاً أو قاضياً عادلاً أو وزيراً نصوحاً أو خطيباً فصيحاً أو شجاعاً مدافعاً أو تاجراً رشيداً أو مخترعاً مُفيداً، فإنه إن فعل ذلك علم مقدار نفسه في الوجود وقلد تقليداً نافعاً وأفاد واستفاد وإن أضاع تلك الهبة الغية وقلد تقليد الغراب، وكان كمن اغتر بالسراب وبهره حسن المنظر فشغله عن سوء المخبر وصار يخبط في أُموره خبط عشواء لا يميز بين السراء والضراء، فذلك الذي رجع بصفقة المغبون وضل ضلال المفتون وكان تقليده وبالاً عليه وضرراً على من التفوا حوله وحذوا حذوه فضلَّ وأضل.

١٧٧- الربا نذير الخراب والدمار

رغد العيش مبني على تبادل أعمال البر والإحسان بين الناس وعلى مواساة بعضهم بعضاً وأخذ بعضهم بيد بعض، وإلا فلا مدنية ولن تجد من دين نزل من السماء إلا وهذه الخصال في مقدمة تعاليمه، ومن باع درهماً بدرهمين فقد عمد إلى قطع تلك الروابط الثابتة، ورضي من الحياة أن يعيش في التجرد من الإنسانية والمدنية، فلا يحسن ولا يحسن إليه ولا يواسي أحداً ولا أحداً يواسيه، وهي خسارة كبرى يحتسبها عليه نظام الدين والعمران.

ذلك هو المرابي آثر نعمة نفسه على إقامة المصلحة العامة وهي العمل بحكم المواساة والبر فجر ذلك إليه، إذ فقد من الناس من يواسيه إذا أجدب أو يبره إذا أترب، وأيقظ على مطالبه الأطماع وعرض ثروته لأهداف الأغراض واستبدل بشاشة الوجوه وكنوز الضمائر ببهارج الظواهر.

وإن من النفوس نفوساً تؤثر الكثير المظنون من المنافع على القليل المقطوع به منها، وإنما ينشأ ذلك من بعد الهمة أو من الطمع الهائل، وما تلك الأنواع من النفوس بكثيرة العدد في الناس، وإنما الذي يغلب وجوده في جميع الطبقات هي التي تؤثر القليل المحقق على الكثير المظنون لا سيما إذا كان هذا محفوفاً بمشاق ومكاره وكان ذاك مما يبلغ براحة واطمئنان.

ومتى هان على الناس بيع الدرهم بدرهمين أخلدوا إليه، وأعرض أكثرهم عن مشقة المكاسب المدنية من نحو تجارة وصناعة وزراعة لأن ما تأتي به هذه الأسباب من النمو المالي على ما فيه من الجهد والعناء مظنون، على العكس مما يجيء به المكسب الربوي فإنه مع قلة مؤونته وخفة عمله مشهود ومتحقق.

والنفوس أكثر ميلاً واشد لوعاً بما كان من هذا الضرب من المكاسب، وهناك مهب الفقر المدقع ومصب العجز المدمن وهما خطبان أليمان، لا ينتظم بهما جنس ولا يصير عليهما اجتماع، وذلك ما يفعله الربا بالهيئة الاجتماعية، قال تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ [البقرة:٢٧٥]. والحكمة في تحريم الربا هي أنه يقتضي أخذ مال الغير وهو القدر الزائد بدون عوض، وهذا حرام لقوله ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه». وقد اجتمعت الأئمة أيضاً على حرمة أكل مال غير المسلم من الذين دخلوا بلادنا بأمان وعهود بخلاف الحربيين.

كيف لا وأنه إذا تمكن الشخص من تحصيل درهم زائد بواسطة عقد الربا لأعرض عن وجوه الكسب كالحرف والصنائع لما فيها من المشقة العظيمة، ولا شك أن هذا يفضي إلى انقطاع منافع الخلق لأن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والصنائع والحرف فإذا حصل الإعراض عن هذه الأشياء استغناء بالربا فلا بدّ أن يختل نظام العالم وأيضاً الربا يؤدي إلى انقطاع المعروف والإحسان بين الناس بسبب منع القرض والسلف، فإذا حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم ورد مثلها فقط، وأما لو كان الربا حلالاً لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين فيؤدي ذلك إلى انقطاع المعروف والإحسان بين الناس، بل وإلى ذهاب أملاكهم ووقوعهم في ذل الفقر والمسكنة كما عليه الغالب من أهل زماننا هذا. قال تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ [البقرة:٢٧٦].

١٧٨- اختيار الزوجين لبعضهما سر الحياة الجميلة

الأسرة وإن كانت أخص المجتمعات فهي أصلها وأقرب للإنسان من غيرها، تنتظم من زوجين متآلفين يأنس كل منهما إلى الآخر والازدواج الأدبي هو ما يكون ملحوظاً فيه إلى الحكمة الإلهية التي هي طلب العفة والتكثير، وما وراء ذلك من قضاء الميول الجسمية فخارج عن مقصد الآداب وإن كان ذلك هو الباعث الطبيعي، ومن دواعي الازدواج طلب مصافات النفوس والإنس والتعاون وغير ذلك من الصفات الفضلى التي تؤذن بصفاء العيش وابتهاج النفس ولا يصدر ذلك إلا عن ثابت محبة بين الزوجين ذاتهما.

ثم إن المحبة للذات إما أن تكون لجمال الخلق أو كمال الخلق فإن كانت لجمال الخلق والظاهر التي وراءها الأخلاق الذميمة فقل أن تصل بالإنسان إلى غاية محمودة، بخلاف التي تنبعث عن كمال الأخلاق وحسن السجايا ولو كان دونها دمامة الخلق.

وأهم الخصال الحميدة بينهما هي الثقة ببعضهما في جميع الأحوال ومتى نفدت الثقة انحلت عرى النسبة بينهما وعاشا مفترقين أهواء مجتمعين أجساماً ولولا ما شرع الله من الطلاق لتفاقم الأمر وعز الصبر، ولذلك كان اختيار الزوجين لبعضهما في الأمم السالفة لا سيما الأمم العربية من أهم الأمور فكان العربي يقطع المراحل لاستوصاف خطيبته، ويقصد الخبير بشأنها الدربة المجرب الذي عجم عود الأيام فيلقي عليه من وصفها فيأخذ في سرد شمائلها من جمال الظاهر وكمال الباطن وحسن السجايا التي يجب أن تكون عليها النساء وقتئذٍ وكذلك هي عند استوصافها الزوج، فكان لا مطمع لنظرهما إلا الصفات الجميلة من الكرم والمجد والشجاعة والعفاف.

والزوج والزوجة سيان في الحقوق ومتساويان في المعاملة فكما أن سيد العائلة لكونه أقوى حماساً وأشد بأساً وأوسع تصرفاً كذلك هي رئيسة أموره لتدبيرها المنزل ونظرها في مصالحه وجلبها لراحته، فاسترقاقه إياها أو صرفها في خدمته الخارجية عن حقوقه ضد للعدل مناف للآداب حطة في الإنسانية خدش لناموس الحياة، وكما أنها تقتسمه الحزن والسرور تقتسمه كذلك الخيرات المنزلية فلا حق له في اختصاصه بأطايبها واستئثاره بها نفسه ولو رضيت الزوجة.

وتقوى النسبة بين الزوج والزوجة إذا صارا أبوين لاتحادهما على أمر واحد وهو (التربية) وفي هذه المرتبة تتم العائلة وتزيد الحقوق فتكون ثلاثة حقوق: حقوق الأبناء على الآباء، وحقوق الآباء على الأبناء، وحقوق الأبناء على بعضها.

فأما حقوق الأبناء على الآباء: فهو الاعتناء بالتربية الجسمية والعقلية وطبع محاسن الأخلاق وجميل الصفات وتعليمهم التعاليم الدينية مع تمرينهم على العمل بها وأخذهم

بالرفق والتودد لا بالقسوة والتخوف، والتسوية بين الأشقاء وبعث المحبة فيما بينهم وتعويدهم على اقتسام الحزن والسرور بعضهم البعض وهديهم إلى ما يصلح معاشهم من بعدهم والمحافظة على ذلك كله وعدم التفريط فيه.

وأما حقوق الآباء على الأبناء فهي الطاعة وخفض جناح التواضع والاحترام والتعظيم من قدرهم والثقة بهم والإحسان في المعاملة إليهم ومساعدتهم والشكر على أنعمهم والخشية لا الخوف منهم.

وأما حقوق الأبناء على بعضهم فالحب والاحترام والشفقة والعدل في المعاملة وصفاء السريرة والمساعدة وغير ذلك، وما يكون منهم منافياً للآداب والمعاملة كظلم أحدهم الآخر أو الإضرار به فموكول لعقاب الآباء متبعين العدل والإنصاف مع الاحتراس والحيلة كيلا يظن به من يستحق العقاب منهم أنه أدنى درجة من أشقائه أو من له الحق أن له الفضيلة عليه.

وبالجملة إن تربية الأبناء سواء الذكور منهم والإناث وتعليمهم العلوم والآداب من أول واجب على كل أُمة تريد صلاحها وتقدمها وانخلاعها عن جلباب البساطة وإنقاذ أفرادها من مهالك الجهل والتوحش والانحياز بهم إلى جانب التمدين والحضارة حتى تكمل النسبة بين الرجل والمرأة ويقوى تعارفهما وتتاكد إلفتهما وثقتهما ويكون مجموعهما تمثالاً للخير وصورة للآداب يبعثانها في أبنائهم وتكون العائلة مثالاً للمجتمعات الخارجية ونموذجاً للوطن ومثلاً أعلى للأمة التي هو منها. فالعائلة بالآباء خيرها بخيرهم وشرها بشرهم.

إذا كانَ ربُّ البيتِ بالطَّبلِ ضارباً   فشيمةُ أهلِ البيتِ كلُّهمُ الرَّقصُ

وكما تكون الآباء تنشأ الأبناء فلا يستخرج من الحديد الذهب ولا يجنى من الشوك العنب.

ينشأ الصَّغيرُ على ما كانَ والدهُ   إنَّ الأصولَ عليها ينبتُ الشجرُ

١٧٩ - المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه

حب النفس فطرة في كل إنسان ولكنه يختلف قلة وكثرة بين الناس، وليس مبدأ حب النفس من النقائص البشرية، بل هو خلق وجد مع الإنسان حيث خلقه الله لجلب النفع له ودرء الضرر عنه.

ولما كان الإنسان في حالته الفطرية الأولى قبل كل اجتماع كانت ملكة حب الذات لازمة له ضد العناصر الطبيعية والحيوانات التي تنازعه في معيشته، بل كان حب الذات هو القانون الوحيد الذي يتبعه في سلوكه فلا يتاخر عن فعل أمر يعود عليه أو يجلب له لذة ولو كان قبيحاً أو فيه شر للناس.

ولكن منذ اليوم الذي ابتدأ الإنسان فيه أن يعيش في جامعة من أبناء جنسه متضامنة في وسائل الحياة أخذ الشعور بحب الذات يتناقص في كل فرد من أفراد هذه الجامعة لما تحققه من أن حفظ نفسه لم يبق من وظيفته وحده، بل من وظيفة جميع أعضاء العائلة التي هو منها، فالقبيلة التي تشمله فالحكومة التي ترعاه.

ومن ذلك اليوم وجد في جانب هذا الواجب الذي تكفلت به الهيئة الاجتماعية حق صريح لها في الا يعمل فرد منها عملاً يعود عليها أو على عضو منها بالضرر، ومع التقدم رويداً رويداً في نظام الاجتماع صار كل عضو من الأمة يتمتع بأعمال كل أعضائها وينتفع من أفكارهم وعلومهم ومصنوعاتهم كما ينتفع المفكر والعالم والصانع بالسواء، على ذلك صارت الحقوق والواجبات متشعبة موزعة على كيفية التضامن العام بين الجميع بحيث صار الواحد اليوم مرتبطاً بأهل بلده ارتباطاً شديداً.

نعم إن حب النفس لا يزال في فطرة كل إنسان، بل إنه لا يزال أشد الإحساسات الطبيعية وألزمها للنفس حتى يخيل أن كل حب سواه كالعشق أو محبة البنين أو الصديق أو المال لم يخرج في الحقيقة عن كونه شعبة من حب الإنسان لنفسه بالواسطة، بمعنى أن الإنسان يحب نفسه في كل إنسان وفي كل شيء يميل إليه.

لكن لا ريب في أن الدين والتربية والتأديب قد أثر جميعها على هذا الإحساس الطبيعي حتى أضعفه، أو على الأقل رسم له دائرة محدودة لا يتخطاها، فكل منفعة شخصية لا تضر بالغير مباحة وهي ممنوعة إذا كانت بعكس ذلك.

والتربية الحسنة النافعة إنما تظهر في اختيار المنافع الشخصية وانتخاب ما يكون منها موافقاً لمصلحة الهيئة الاجتماعية، فيخدم الإنسان نفسه ويخدم الناس في آن واحد، وفي الغالب إذا خدم الإنسان الناس بهذه الطريقة استخدمهم في تحقيق آماله، لأن العمل إذا كان يحتوي على منفعة عمومية رضي الناس أجمعون وعضدوا عامله بأقوالهم وأعمالهم، وهذا التعضيد يساعد به العامل، ولا شك في تنفيذ ما أراد وتحقيق ما قصد.

ومن الأسف أن الشرقيين قد غفلوا عن تهذيب ملكة حب النفس في تربية النشء، فشبوا على ما نراه ممتازين بمهارة غريبة في انتخاب مطالبهم مما يضر بالغير، فهم يتهافتون على العمل النافع لهم إذا كان فيه إضرار بالمصلحة العامة، وقد لا يقبلون عليه إذا تجرد من ذلك، فالموظف يعرف لتقدمه كل الطرق ما عدا طريقاً واحداً وهو (الشغل).

والفرد من الأهالي لا يستعين في طريق نفع ذاته بغير المطاعنات وتلفيق البلاغات، وبجميع أعمال الزور حتى ضد أقرب الناس إليه.

وها نحن نعيش اليوم كل واحد في جانب الآخر بدون أن يمتزج به إلا امتزاجاً سطحياً، كل منا سائر في طريقه مهتم بنفسه لا يجمعه مع الآخر أقل ارتباط، مع أننا نرى غيرنا على خلاف هذه الأخلاق.

نرى الأمة المكوّنة من اربعين مليوناً من النفوس مثلاً كل أفرادها على قلب رجل واحد.

وإذا ذكر اسم الوطن ألفيت هذا المجموع العظيم مؤلفاً من جمعيات سياسية وجمعيات علمية وأُخرى فنية، وهكذا بقدر ما يوجد من فروع العلوم والفنون، نرى حب الاجتماع في كل شيء وفي كل إنسان عند الأمم الغربية، فلهذا يلزم تعويد نشأتنا على الاجتماع بأمثالهم حتى إذا شبوا على ذلك كان حب الاجتماع فطرة فيهم، فلا يكون حب النفس من العيوب المفضية إلى انحلال اجزائنا والإضرار بجامعتنا كما هو الآن.

١٨٠- فوائد الوقار ومضار الاحتقار

الوقار أو الاحترام هو محك التربية فكلما كان نامياً في أُمة كانت تربيتها جيدة وإذا كان فقد كان فقدانه إنذاراً بانحلال جامعتها وسقوط أبهتها وعظمتها.

وإن أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد في رفعه شأنها هو احترام جملة أُمورها الجوهرية الأساسية مثل الدين والوطن والسلطة العمومية والعائلة والعلم والفضيلة وكل عمل شريف أو جميل أو نافع.

وإذا كان هذا الاحترام عاماً عند الجميع وشاملاً لجميعها كان دليلاً على قوة تربية الأمة حيث لا يجرؤ على مخالفة هذا التيار القوي إلا نفر قليل.

ونحن معشر المصريين لا نحترم وطننا ولا نعرفه، وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الاجانب والدخلاء، وفاتنا أن كل عيب منسوب له هو منسوب في الحقيقة لنا.

أما السلطة العمومية فما عهدنا لها احتراماً في نفوسنا لا في الماضي ولا في الحال إذ في الماضي كان المصريون يخشونها ويرهبونها أشد الرهبة حيث كان مبدأ معاملتها الظلم والقسوة.

واليوم إذا اعتدل مبدأ السلطة، انقلب الخوف بناء على حركة رد فعل طبيعي وبمحرضات أُخرى إلى استخفاف، وكلاهما بعيد عن الاحترام الذي يلزم أن يكون متبادلاً بين الهيئة الحاكمة والمحكومة.

فإذا توفر هذا الاحترام من الجهتين من جهة الحكومة بالتفاتها إلى راحة الأمة والاعتناء بسماع ندائها وتنفيذ رغباتها كما ينبغي وبحسب الإمكان، ومن جهة الأمة بأن تثق بوكلائها ولا تتأخر عن طلب الإصلاحات التي تراها لازمة لها وتغير القوانين التي تراها مضرة بها بلا تردد ولا خوف وتقدر أعمالهم حق قدرها إن كانت مفيدة فتشكرهم عليها وتنبههم إن أخطأوا وتشجعهم على الاستمرار في الخطة الموافقة للمصلحة العامة حتى يكون ذلك لزاماً لهم كان ذلك من أهم أسباب سعادة الأمة.

والأسرة، يلزم أن يكون أساسها الاحترام ونحن مع الأسف نرى الروابط العائلية عندنا قلما تكون محترمة وكثيراً ما يتغلب عليها هوى النفس.

فليس بالنادر أن يتزوج الرجل امرأة وتلد له أولاداً ثم يتركها وأولادها ويتزوج سواها، وقد يترك هذه حاملاً ليأخذ غيرها كذلك، وهكذا يقضي حياته في تشييد بناء عائلات وهدمها بدون أن يتعلق بواحدة ويعيش فيها مع زوجته وأولاده لأن لم يفكر إلا في لذة دنيئة لا تذكر في جانب الأضرار التي تنجم عنها، وإن أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة هو الطلاق، وهو أبغض وجوه الحلال إلى الله تعالى، وقد اعتاد أهل مصر استعماله بطريقة شائنة جداً لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل.

فعلى الآباء أن يحترموا أنفسهم أمام أولادهم ليأخذ هؤلاء عنهم مثل المحبة والصفاء حتى تتربى نفوس الناشئين على ملكة الاحترام وتصبح العائلة كما يجب أن تكون لا كما هي الآن ميدان يتخاصم فيه الأهل ويتشاتمون وقد يتضاربون ويفترقون.

وأيضاً لم يوجد بيننا احترام للعلم والفضيلة، ولذلك لا تميز في المعاملات بين صاحب الفضيلة وصاحب الرذيلة، بل في بعض الأحيان قد يكون احترامنا للثاني أكثر من الأول، على أن المدنية الصحيحة تعتبر أكبر مكافأة لمن عمل عملاً صالحاً أن يحترمه الناس، وأكبر عقوبة لمن يعمل العمل الخبيث أن يحتقروه، ولا يمكن أن تصير الفضيلة مطلبوة مرغوباً فيها، والرذيلة ممقوتة مبغضة إلى النفوس إلا إذا أحس الناس بقوة حكم الرأي العام وسلامته، ولا يوجد شيء يبرهن على فساد أخلاق الأمة أكثر من ضياع احترام الفضيلة فيها إذ لا شيء أقرب للفضيلة من احترام الفضيلة.

وبالأسف نرى شيوخنا يحتقرون الشبان ولا يثقون بمعارفهم وأعمالهم، ونرى شبابنا يهزؤون بالشيوخ ولا يثقون بتجاربهم فيرمونهم بالجهل ويحسدونهم على وظائفهم إن كانوا من أصحابها ويزاحمونهم في الأقوال والأعمال ولا يتأخرون عن أن يتسوروا أكتافهم ليخرقوا الصفوف بغية الاستيلاء على مراكزهم.

١٨١ - ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون

العالم الإنساني جميعه جسم واحد أعضاؤه الأمم، صحته الهدى، داؤه البغي، دواؤه النصح والإرشاد، فإذا لم يأمر الآمرون بالمعروف وينهى الناهون عن المنكر، خسروا الدنيا والآخرة وباؤوا بغضب يحارب ضمائرهم، وخسارة تنقص أموالهم وقتل يحصد رؤوسهم وانتهاك لحرماتهم وصبت اللعنة عليهم والخزي والعذاب المهين. وإذا قام الهداة بإرشاد الرعية وأوقفوا الأمراء عند حدهم إذا ظلموا وعلموهم إذا جهلوا وذكروهم إذا نسوا، كان العدل وانتظم الأمر، ولم يأل الناصحون من الأمم جهداً في غابر الأزمان في النصح والإرشاد ولم يبالوا بما ينالهم من الأذى والموت قياماً بما عهد إليهم وما توحي به ضمائرهم. وهذا (بيدبا) حكيم البراهمة قام مقام الخصم الألد في وجهه (دبشليم) ملك الهند حينما طغى وتجبر، فوقف مدافعاً عن ابناء أُمته الضعفاء في منزلة بين المنزلتين، إما استقامة الأمور وانتظام الجمهور، وإما سفك دمه وإذاقته طعم الموت الزؤام وأبى ذلك الفيلسوف البقاء على الذلة والهوان، فنال بالنصح بغيته وأبقى له أثراً يذكر بعده. فحيا اللّه الحكمة والحكماء ومن معهم.

وهؤلاء الخلفاء الراشدون عنوان العدل ونبراس الهدى وعلم السعادة، ومع ذلك لم يذرهم الناصحون ولم يدعهم المرشدون.

وكذا النصحاء وقفوا في وجوه بني أُمية واستعذبوا التعذيب ورضوا بالموت كما وقع (لحطيط الزيات) إذ قال للحجاج إنك من أعداء اللّه في الأرض تنهك المحارم وتقتل بالظنة، وعبد الملك بن مروان أعظم منك جرماً وأكبر منك إثماً وإنما أنت خطيئة من خطاياه وسنة من سجاياه، فأمر بقتله فقتل شهيد الحرية وهو في الثامنة عشرة من عمره.

وأيضاً ملوك العباسيين كم وعظهم الواعظون وأنذرهم المنذرون هذا أبو جعفر المنصور دخل عليه عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي وقال له: يا أمير المؤمنين أخاف أن تسمع النصح ولا تعمل به فصاح به الربيع وانتهره بالسيف، فقال المنصور: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، وسار الأوزاعي في نصحه ووعظه وزجره لأمير المؤمنين وإنذاره.

فلولا الهداة والمصلحون في الدول العربية والمحررون والحكماء في الدول الغربية لغلب العزيز أذلها وأقل الكثير أقلها وأضحت طعمة للآكلين فريسة للقانصين فأسرع إليها الفناء وحقت عليها كلمة العذاب والشقاء. قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فإصلاح الأمم يتوقف على توخي أحسن المثل التي ينتهجها قادة الشعوب وانتهاج أوضح المسالك التي يسلكها المصلحون ليسيروا مع الأمم سير الأستاذ مع تلميذه وليأتوا البيوت من أبوابها وليخاطبوها بلسانها، وكما أن الأستاذ يحادث قلب التلميذ بما يشاكل طباعه ويناسب أطوار استعداده فهكذا قادة الأمم مع الشعوب، هذه سنة اللّه ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً، ومن غيّرها فقد حاد عن الصراط المستقيم.

١٨٢- هل نحن في عصر المدنية

التمدين تمصير الأمصار وتنظيم المدن وعداد مرافق الحياة فيها لتنال حظها من أُصول حياة دهرها، وللمدنية خمسة مطالب: (الغذاء) لصلاح الجسد و(الدواء) لإتمامه و(الثوب) لوقايته مما يحيط به من الجو و(المسكن) ليقيه من عاديات الوحوش واللصوص و(السلاح) لحفظه من عدو من جنسه يفاجئه، وتحوط هذه المطالب خمسة دوائر:

الأولى: لأركان المدنية الأربعة الإمارة والزراعة والتجارة والصناعة.

الثانية: للرياضيات من فلك وحساب وهندسة وجبر.

الثالثة: للطبيعيات وهي المعدن والنبات والحيوان والإنسان ثم القوانين العامة والكيمياء. ثم الضوء ونواميسه ثم الحرارة وقوانينها.

الرابعة: للبخار ونقله الأجسام وإدارته الآلات وإحداثه الضوء ونقله البريد.

والخامسة: للكهرباء وتلغرافها وإدارتها آلات أعمال الغذاء والملبس والمسكن وإضاءتها وحرارتها، فهذه هي الدوائر الخمس التي أحاطت بالإنسان وخدمت غذاءه ودواءه وثوبه وداره وحصنه فرجعت الحياة وإن تعاظم شانها وكبر شكلها واتسع نطاقها إلى كسرة خبز وثوب وأمن.

وليس التمدين إشباع البطن وستر الجسم والأمن على النفس وما أحاط بها، كلا، فهناك بهجة للنفس وسرور للقوى المفكرة بتعقل مثل هذه العلوم، وكأن هناك تسابقاً بين شهوات الأجسام وقوى العقول، فكما يتسابق ذوو الشهوات إلى نارها، يسبق الحكماء إلى نورها، ولئن كا للأجسام غذاؤها فللعقول بهاؤها وروحها ولئن بقي بها الجسم ودويت بها علله، فللأرواح فرح بمعرفتها وبهجة بإدراكها، وهذه الأجسام إذا خلقت عاجزة دبرتها العقول، وجعل احتياجها سبيلاً لاستنباط الحيل والدقائق والنظر في الكثائف واللطائف واستخراج الدقائق حتى تعرج الأرواح إلى عالمها وتدرك أسرار ما أحاط بها حتى سارع الإنسان اليوم إلى درس الطائر في حركاته وسكناته، فيسكن معه في جنته العالية التي لا تسمع فيها لاغية.

إن المدنية ترفع الأخلاق بنسبة واحدة ترفع الخير والشر معاً، فإن غلب شرها خيرها آلت بها إلى الدمار كدولة الرومان، وإن غلب الخير الشر بقيت إلى أجل معلوم ما دام القلب موجوداً، فإذا عظم بناء هيكل المدنية وتم نظامه لم تؤثر فيه زعازع المفاسد إنما يبقى ثابتاً إلى أجله، فلا دهشة من سماع فساد الأخلاق والغش والخيانة وعموم السكر في أُمة عظمت مدنيتها، لأن ذلك قليل في جانب شامخ عزها ورفيع مجدها، فالبحر لا ينجسه شيء.

ومتى زاد الضرر فغلب المنافع، آلت الأمة للخراب كمدنية المصريين المبنية على شفا جرف هار.

قال هنري الفرنسي: «اصحب الخمر معك لتبيد الجنس الشرقي». وذلك لأن القوم علموا أن الشرقي غرّ ساذج يغتر بالزخارف وليس لديه من العلوم والمعارف ما يقاوم هذه المبكيات المحزنات.

وبالجملة: فالمدنية هي التي ترقي الأفكار الداعي لتحسن الأخلاق والإحسان في المعاملات، والمراد بترقي الأفكار انتقالها من المدارك الشهوانية إلى المدارك الروحانية، مدارك الضمير الحر والنفس الطيبة المهذبة، وذلك لأن الإنسان خلق وله نفسان: واحدة حيوانية والأخرى روحانية. فالأولى هي الأمارة بالسوء الداعية إلى الشهوات. والثاني: هي الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر والأصل في الإنسان أن تتغلب عليه الأولى لمعاشرته للناس ومعاملته إياهم فتملكه الرذائل، ولكن إذا استعملت معه الوسائل لقهرها فقهرت، وتغلبت الثانية عليها تملكته الفضائل، وصار بعد أن كان لا يسير إلا حيث يقود طمعه وشره يسير حيث يرى الفضيلة فيتبعها.

أما ما يظنه الناس من أن المدنية والتمدين حسن الثياب والهيئة، وجمال السمت أو من يأكل أطايب الطعام وأشهاه ويلبس أحسن الملابس وأبهاها، أو الإسراف في الشهوات واللذات أو عدم المحافظة على الدين والشريعة أو التحايل على جمع المال وتثميره أو غير ذلك مما تلوكه ألسنة المغترين بظواهر الألفاظ وهم عن معانيها غافلون، فبعيد كل ذلك عن التمدين والمدنية الحقة.

١٨٣- هل الأفيد إجبار الحكومة كل شاب على الجندية أو إطلاق سراح الموسر الذي يفدي نفسه بماله وأسر المعسر

معلوم أن الإنسان لا يكمل حاله إلا بالشجاعة والعدل والعفة والعلم، فهذه أُمهات الأخلاق وجنات السعادات ورضوان الحياة، بل هي الأساطين التي عليها بنيت الاستقامة والكمال والمدنية.

فالشجاعة هي القوم الاكبر للحياة ولا قيمة للعلم بلا قوّة تنفذه.

في الجبن عارٌ وفي الإقدام مكرمةٌ   والمرءُ بالجبنِ لا ينجو من العطبِ

هذه الأمة العربية افتتحت هذه البلاد بحد السيف والسنان والسلم والصلح فتربعوا في دستها أيام الدولة الأموية والعباسية والفاطمية، ولما ضرب المماليك مصر ضربات الظلم والاستبداد وبطشوا بطشهم فيها وتحكموا على النفوس وأكلوا اللحم وأذابوا الشحم وأهلكوا الحرث والنسل، ظل القوم في ديارهم صرعى من الجور والتعسف لا سلاح معهم فنسوا من شدة الفزع الأكبر حظهم من الجندية مدة من الزمان وهم يتقلبون على جمر الجهالة ويسبحون في بحار الضلالة ويرسفون في قيود العبودية والاسترقاق، حتى إذا ما جاء (محمد علي باشا الكبير) فحررهم وأعتقهم وأطلق سراحهم وعلمهم العلم ودربهم على الحرب والضرب فضربوا بالمدافع والسيف وألفوا رحلة الشتاء والصيف، فيوماً تراهم للروس مهاجمين، وآخر في الحجاز يقاتلون الوهابيين وطوراً في بلاد الروم يقاتلون ومرة في اليونان وكريد يتبارزون وآونة على الشام يزحفون، وكان العلماء الأقدمون يأمرون تلاميذهم بتعلم هذا الفن الجليل فكان أحدهم يقصد البحر وقد هاجت أمواجه فيركب السفينة فتتقاذفها الأمواج لتكمل نفسه بالشجاعة، وبعضهم كان يقف في المواضع المظلمة المخيفة حتى يتعود عليها، وإذا كانت هذه الفضيلة من أشرف الخلال وأعلاها، فلماذا يفر النشء المصري من التحلي بها، واشتهر بين العامة أنهم يؤخذون ظلماً وزوراً كأنهم يساقون إلى السجون.

ليست شعري ما هذا الجهل والضلال المبين الذي أضر بالأمة وأسقطها في يد الاحتلال، إن هذا لشيء عجاب كيف يسوغ للأغنياء الجمع بين نقيضين، اشتروا لأبنائهم العلوم واشتروا بمالهم الجبن حيث يفدي الواحد ابنه بدفع البدل، كأنهم يحذرون أن يتكمل الأبناء بفن الشجاعة. وكذا الفقير جمع بين نقيضين معكوسين الجهل والشجاعة.

أليس من العدل أن يعرف الناس قاطبة ما القصد من نظام الجندية، ثم لا يصطفى قوم لفقرهم وينبذ آخرون لدفعهم الفداء، كلا، فإن كلا المدرستين (مدرسة الشجاعة، ومدرسة العلم) تهذيب وتدريب لا تعذيب وتغريب وإبعاد وتخريب، وإنما هو درس وتعليم غايتهما خدمة الوطن، فإذاً الأجدر أن يحشر الناس في صعيد واحد لا تفرقة بين غني وفقير، وإلا فما معنى الفدية وأي وجه لها إلا الدلالة على الجهل المطبق وعدم إدراك الفضيلة وما الميزة بين الصنفين وكيف الفرار من الفضيلة على أنها إن كانت فضيلة أفلا تعم النوعين، وإن كانت ذيلة أفلا تشمل الطائفتين حتى يكون العدل مسوياً بين الطرفين، فإذاً المسؤولية واقعة على عاتق الحكومة المصرية التي لا تجعل الجندية إجبارية عامة لكل فرد من أفراد الرعية ويصلح شانها حتى لا تكون في أعين الأهالي قذى بحيث يقلل مدة خدمتها وتحسن المعاملة بين

الجنود في المآكل والمشرب والرياضة وترخص لهم بإجازات أسبوعية وسنوية يقضونها بين أهاليهم وأقاربهم وتمهد لهم سبل الراحة والرغبة في هذه الفضيلة الجليلة حتى تهرع إليها الشباب وتطرق أبوابها كما طرقت اليوم أبواب المدارس العلمية للتلاميذ واكتظت بهم حتى ضاقت عليهم بما رحبت، وكانت المدارس قبلاً خاوية على عروشها لا تؤمها التلاميذ إلا كرهاً ووراءهم أمهاتهم تسخم الوجوه وتلطم الخدود كما يفعل اليوم بمن أخذ جندياً، فاللهم قرب الزمن الذي تتساوى فيه مدرسة الشجاعة بمدرسة العلوم والكل عليهما يتهافتون وفي فضيلتهما فليتنافس المتنافسون.

١٨٤- مدارج الإنسان في معترك الحياة

الإنسان في حال نشأته ودور طفوليته أضعف أنواع الحيوان قاصراً عاجزاً هلوعاً يترصده الحيوان المفترس بمخلب وناب، وتكتنفه الطبيعة بمصائب وأوصاب فيدب محاطاً بمكاره الطبيعة الخارجية من أمراض قتالة وعوارض مغتالة، ثم يشب فيقع في قبضة مكاره النفس الداخلية فيكون منذ يدب إلى أن يشب عرضة للمهالك بين عاملين قويين أسهلهما عليه أقتلهما له، وليس هذا حال الإنسان باعتبار الطفولية فقط، بل هو حاله أيضاً باعتبار أول وجوده على الأرض إذ إن اللّه سبحانه وتعالى لما خلق الإنسان خلقه سليم الفطرة ساذجاً، ليس عنده من القوة الطبيعة والإلهامات الفطرية ما عند سائر الحيوان ليدفع به الآفات ويصد الهجمات، اللهم إلا مسحة من العقل الفطري، كانت لا تغني عنه من الحياة شيئاً، ولكن اللّه سبحانه وتعالى أودع في خزائن ذلك العقل أسراراً كامنة فيه كمون النار في الزناد، فكما أن هذه لا تظهر إلا بالقدح، كذلك تلك الأسرار (وهي مدارك العقول الفائقة) لا تظهر إلا بالاحتكاك بالمقاصد الحيوية التي لا تتناهى في جانب العقل البشري، ومن ثم كان بدء صعوده من حضيض البهيمية إلى أوج البشرية بالطرق التدريجية والإلهامات العقلية التي تترقى بترقي الحاجة وتنمو بنمو وسائل التربية والتعليم.

ولا ريب أن الإنسان يحتاج في تدبير المعيشة إلى وسائط كثيرة، أهمها التعاون والاجتماع واحتياجه إلى مساعدة من عداه من بني جنسه في تدبير شؤون الحياة البشرية، فكان ذلك من بواعث انضمامه في أول حلقة من حلقات الاجتماع.

كيف لا، وإن الإنسان بعد أن كان يسكن الغابات الكثيفة ويأوي إلى ظل الأشجار الغضة ويأكل من نبات الأرض ويهيم من الحيرة في كل واد، دخل في أول طور من أطوار المدنية وهو الاجتماع، ثم أخذ يبني لنفسه الأكواخ الحقيرة وينحت في الجبال بيوتاً، ومنها الكهوف الصناعية التي ترى في كثير من الجبال اتقاء عوادي الطبيعة ودفعاً لمخاطر الوحدة، ثم ما زال يتسع أمامه مجال الفكر وتتشعب طرق المقاصد بتشعب طرق المعيشة حتى تولدت فيه قوة الاختراع وقوة الحرص والطمع فنما عنده حب التغالي بمظاهر الاجتماع

والتغالب في ميدان المظاهرة الدنيوية فاحتاج للاعتصام بقوة الاجتماع في المدن طلباً لرغد العيش وهرباً من عناء البداوة فخطط المدن وابتنى المعاقل والحصون ومصّر الأمصار وشيّد فيها شاهقات القصور وزاهيات المنازل والدور، وكان في غضون ذلك يجول بفكره في مناحي الطبيعة باحثاً عما أودع الله فيها من الأسرار وأوجد من المنافع في المواليد الثلاث ليسخر منها لمصلحته ما شاء فيما شاء، ومن نعم الله سبحانه وتعالى ورأفته بهذا النوع الإنساني أن جعل له من العقل سلطاناً إذا أطلقه من وثاق الأوهام تناول به أسرار الطبيعة من كبد السماء ويخرج بها من أعماق الأرض بلا حرج عليه لينتفع بها في الحياة الدنيا فيزرع ويستثمر ويعمر ويستعمر ويخترع ويبتدع ويتفيأ ظلال العمران ويستمد مادة الحياة الطيبة مع توالي الأزمان من خلال المتاعب والمشاق التي يتكبدها في استجلاء الحقائق وإطلاق الفكر في أطراف الوجود، يتناول به من أسراره قوة تدرأ عنه غوائل الضعف الطبيعي الذي فطر عليه، وتدفع طوارئ الطبيعة وأخطارها التي تكتنفه وقد جد الإنسان وراء هذه الغاية فوصل وفعل في الوجود من آثار العقل ما فعل مما هو مشاهد بالعيان في كل زمان ومكان، ولكن توصل إلى ذلك تدريجاً بأعمال الفكر والاسترشاد إلى طرق السعادة بنور العلم الذي استمده من الشرائع الإلهية واهتدى به إلى تطهير النفس البشرية من أدران البهيمة، فأقام له ذلك العلم من نفسه على نفسه مجداً وحسباً يهديه نوره إلى الصراط المستقيم.

وبالجملة: خلق الله الإنسان الأول (آدم) أبا النوع الإنساني الذي قال الله تعالى فيه للملائكة: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

ولقد ثبت بالأدلة القطعية أن آدم كان راقياً، لأن الخالق جل شأنه علّمه كل ما يلزمه لحياته، ولكنما الأيام وتقلباتها وحوادثها أنست أولاده مدنية أبيهم خصوصاً لما انقضى معظمهم في حادثة الطوفان وتشتت من بقي منهم بعد رسو سفينة نوح على الجوديّ يطلب أقل عيش في الأرض، والذين تناسلوا من هذا الفريق درجوا على سنة آبائهم لا مقر لهم ولا مأوى إلا الأمكنة التي يجدون فيها الأعشاب والنباتات.

فالإنسان في تلك الأزمان البعيدة كان يسكن الأكواخ الحقيرة والمغارات، ويتخذ

كل أدواته من الأحجار لجهله بما في الأرض من المعادن التي لم تخلق إلا له، ولم يكن له عمل سوى استعداده لملاقاة أعدائه من الحيوانات الضارية، ومكث على هذه الحال الأزمان الطويلة التي سماها علماء التاريخ بالعصر الحجري أو البربري أو عصر الهمجية، ولكن لما كان بطبيعته قابلاً للرقي، لوجود العقل فيه والحواس كما قال اللّه تعالى: ﴿ واللّه أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [النحل:٧٨]. نظر إلى نفسه وتحسر وقال: ما أتعسني حظاً كيف يكون للحيوان سلطان عليّ وأنا أعمل وأختار ولي قوة على الاختراع، وانتبه من ذلك الوقت ودقتق البحث حتى وصل إلى القصدير الذي لم يغنه شيئاً عن استعمال الأحجار لأنها أقوى منه وأشد صلابة، ولا تغير حرارة الشمس أشكالها كما تغير أشكاله، فجدد البحث حتى وصل إلى النحاس الذي خطر بباله أن يخلطه بالقصدير، فحصل على البرونز الذي كان مبدأ سعادة له وافتتاح عصر جديد سماه علماء التاريخ بالعصر البرونزي.

ولكن هذه الاكتشافات كانت سبباً عظيماً في استمراره في البحث حتى اكتشف الحديد الذي تمم سعادته واعتبر فاتحة عصر جديد سماه أهل التاريخ (بالعصر الحديدي) ومن هنا ابتدأت المدنية، وانتشل الإنسان من وهدة كانت بعيدة الغور وقويت مداركه، ووجدت عنده من التجارب حقيقة سماها (العلم) وفرع لها فروعاً عديدة وأغصاناً كانت ثمارها نجاحه وفلاحه، فكانت تلك الحقيقة أكبر سبب في تمدينه، إذ بها ذلل العقبات التي كانت أمامه واتخذ له موطناً يدافع عنه، وعرف كيف يكتشف وكيف يخترق البحار والمحيطات، وكيف يوجد الروابط بين البلاد والممالك، وكيف وكيف.. إلخ. مما لم يتضح له إلا بعد الآلاف من السنين.

فالإنسان الآن بفضل العلوم وانتشارها، ليس ذلك الذي كان لا يعاشر غير الوحش بل هو العالم الراقي المدرك واجباته العارف مقدار حياته ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين:٤].

١٨٥ - السعي والعمل روح العمران

كلٌّ منْ في الوجود يطلبُ صيداً غـيرَ أنَّ الشِّـباكَ مختلفَات

من ردد طرف البصيرة في نظام هذا الكون وما أبدعته يد القدرة، رأى أن الحكيم العليم قد ركبه من أُمور تنوعت صفاتها وتغيرت مظاهرها، وهي على اختلافها ليست في الحقيقة إلا مادة واحدة عملت فيها عوامل القدرة فنصبتها على هذه الشرائط متنوعة الصفات مختلفة الأحوال، حسبما تقتضيه طبيعة حياتها وحكمة وجودها لابسة من حلل

النظام وحلى الأحكام ما يشهد للحق جل شانه بالتفرد في صفات الكمال، ومن بديع حكمته أنه لما انتقل الإنسان من الوحشية إلى المدنية أنبت له ذلك الانتقال وجوب الأعمال ونادته الجماعة حي على التعامل فمن لا يؤثر ان يعمل لا يأكل فاندفع كل إلى الخبط في مهنته والغوص في حرفته فذهب يعارك الجمادات كل كثيف ويباشر الصنائع كل خفيف ويمارس العلاقات كل عليل منقطع ويتاجر بالبضائع كل كليل مبتدع، ويستقصي الموجودات كل دقيق مخترع. وهكذا قد انخرط الجميع في الارتباط وغرق الكل في لجج الاختباط، فكل طائر على أجنحة الطيش لقطع آفاق العيش، فترى البعض يشكو الكلال والبعض يندب الملال، وهذا يتوجع في التعب وذاك يتفجع من الوصب فأعين تبكي من العسر وأفواه تضحك من اليسر.

كلٌّ منْ في الكونِ يشكو دهرهُ ليـت شعري هذه الدُّنيا لمنْ

فأبصار الجميع شاخصة إلى غرض واحد وهو طريق العيش والرزق فهم عليه متزاحمون بواسطة حرف، ومهن، وأسباب مختلفة، فالناس بين مزاحمة تقتضي تنافراً ومساعدة تقتضي ائتلافاً، وليسوا في ذلك سواء «فطرة اللّه التي فطر الناس عليها».

فالإنسان مسوق بحسب خلقته وما تقتضيه فطرته إلى الشغل والعمل ليمرن نفسه، ولذلك كان مضطراً طبعاً لأن يتبصر زمن صحته فيما يكون إذا أصابه مرض يمنعه عن العمل أو اعتراه وهن الشيخوخة وضعف القوى، ولهذا جاء في الحديث الشريف: «تزوّد من صحتك لسقمك، ومن غناك لفقرك، ومن شبابك لهرمك».

وبعبارة أُخرى: سنة اللّه في خلقه هي أن ينظر الإنسان في الحال إلى ما يؤول إليه أمره في الاستقبال، بل هذا النظر الذي يطلبه الوجود هو قاعدة سلامة الأوطان ورأس المدنية والعمران. وهذا إنما يدعو الإنسان إلى أن يدخر في يومه شيئاً من ثمرة عمله في هذا اليوم يستعمله في يوم ثان إذا طرأ عليه ما يمنعه من العمل، فإذا كان اليوم الثاني كان غير محتاج لنفقته لسبق حصوله عليها فإذا لم يعرض عليه ما يمنعه من العمل أمكنه شغل هذا اليوم في تحسين آلات عمله أو مبادلة عمله ذلك اليوم بالآلة اللازمة له من غيره ليسهل عليه العمل بعد، بما ادخره قبل، وهذا المدخر هو رأس المال.

فرأس المال إذاً هو جزء من ثمار أعمال سابقة يستعان بها في اللاحقة. وظاهر أن لكل إنسان رأس مال هو ما ادّخره. فالنجار الذي يملك فارة وقدُّوماً، ومنشاراً هو صاحب رأس مال، والحداد الذي يملك كيراً وسنداناً ومطرقة صاحب رأس مال، ومالك محراث للحرث أو مسطرين للبناء أو مقص للخياطة كل من هؤلاء صاحب رأس مال.

وليس رأس المال قاصراً على النقود أو الأرزاق المستعملة في استنتاج أرزاق أُخرى

أو مؤونة أو آلة، بل الإدراك رأس مال والأدب رأس مال والبر والخير رأس مال لمن يسديه وحبُّ الوطن رأس مال، بل جميع الأعمال، فالسابق منها رأس مال في الحال، والحال رأس مال في الاستقبال.

فالطفل الذي يتعلم القراءة والكتابة والحساب وتاريخ وطنه وما كان عليه سلفه حاصل بتعلمه على رأس مال، وإذا تعلم بعد ذلك صنعة زاد رأس ماله، وحينئذٍ لا يتوقف نجاحه في المعيشة إلا على أن يكون عاملاً صادقاً أميناً مؤدياً لواجباته.

والذي تعلم الشريعة وأحكامها حاصل على رأس مال يحصل له به الفائدة، والاعتبار باستعمال رأس المال في إرشاد الناس إلى مصالحهم وإقامة العدل بين الناس ليقف كل عند حده فيحصل الأمن وتحفظ الحقوق، والطبيب له رأس مال هو معلوماته التي اكتسبها بالتعلم وانتفاعه منه موقوف على حسن استعماله لهذه المعلومات، والسياسي الذي جرب الأمور واختبر الناس يملك رأس مال تختلف قيمته بحسب تجاريبه ومعرفته لأحوال العالم وضروريات أُمته. ورأس المال هذا يستعمله السياسي أيضاً كما يستعمل التاجر رأس ماله في الاستغلال فيبذل منه في صورة مقترحات ما يعود عى الأمة التي يشتغل من أجلها بزيادة ثروتها ورفعتها ورفاهيتها بنسبة رأس ماله.

ولرأس المال من أي نوع كان أهمية عظمى فلا غنى لأمة عنه وإلا فكيف يكون الاستنتاج إذا أعوز النجار القدوم والحداد الكير والصناعة الفوريقة، والبناء المسطرين والخياط المقص والزارع المحراث، وكيف تكون حالة الأمة إذا لم يحصل أفرادها على المعلومات الأدبية والدينية والعلمية والابتدائية التي أصبحت اليوم ضرورية لكل إنسان وبما يتميز عن غيره من أنواع الحيوان.

وكيف تكون حالة الأمة إذا لم تتخذ رجالاً من أهلها أهل حزم وعزم ودراية سبروا الزمان وأهله يؤتم بهم فيحصل بين أفرادها التضافر والتعاون والتحابب، ويكون للأمة بمقترحاتهم ميول معلومة تسعى لها، إذ لا فوز لأمة اليوم في معامع المزاحمة وميادين التمدين والحضارة إلا إذا تمسكت بصفوة رجالها وأقدرهم وأمضاهم في العمل، ولا جرم أن الأمة تتقهقر وتخسر بقدر ما يعوزها من ذلك، فالاستنتاج بدون هذه الآلات ينقص نقصاً فاحشاً، ولو أجهد الصناع أنفسهم في العمل فلا تكون محصولات البلاد كافية لمعاش الأمة وحياتهم وتصبح الأهالي فقراء ويعتريهم الاضمحلال والذلة والهوان.

فإن الثروة العمومية للأمة تتعلق كل التعلق بما ذكرناه من رأس المال، وبينها وبين حالة الأهالي ارتباط شديدة فكلما صارت الأمة أكثر عدداً وأعز شأناً زادت الثروة العمومية بحسب نسبة حسابية يزيد عدد الأهالي تبعاً لنسبة هندسية فإذا بلغت الثروة العمومية

ثلاثة أمثال ما كانت عليه يبلغ الأهالي تسعة أمثال ما كانوا عليه، وكما أنه لا سبيل للحصول على رأس مال إلا بالعمل والادخار كان السعي أو الحرمان كذلك لا بقاء له من غير مثابرة على العمل والادخار، فمن أنفق من غير أن يكتسب فإنما يبدد ثروته ويمد يده إلى الفقر لأنه يشتت ثمرة العمل السابق الذي استجمع بالسعي والحرمان فيكون في طريق الخراب طريق فيه يرى رأس ماله انتقل من يده إلى يد غيره أكثر منه نشاطاً وأحسن تبصراً.

فالعمل المستجمع لا يحفظ إلا بالعمل، فكما أن الملابس تنهك والمنازل تتشعب إن لم يتداركها العمل، كذلك الأعمال السابقة لا سبيل لحفظها والانتفاع بها إلا إذا أمدت بأعمال لاحقة، وكما أن المباني إن لم يتعهدها أصحابها بالأعمال تسقط وتهدم وتنفصل أجزاؤها بعضها عن بعض فيتداركها آخرون بالعملة ويستجمعونها فتصبح بناء آخر جديداً، ولكن في يد ملاك آخرين، فكذلك العمل المستجمع في السابق إن لم يكن مقروناً بالعمل في الحال تبدد وانتشر واستولى عليه آخرون فينتفعون به فلا يحفظ للتاجر رأس ماله في استقلاله إلا بالعمل والمثابرة عليه وإلا ضاع سعيه السابق وما قاساه في الحصول عليه من التعب والحرمان، وكذلك الأمر في رأس المال الذي يكون في صورة مقترحات لا تحصل جميع فوائدها إلا إذا حصلت المثابرة لحق الهيئة الاجتماعية التي استعملت في صالحها هذه المقترحات خسارة عظيمة هي ضياع أعمال مدخرة ادخرها السلف لينتفع بها الخلف، ولا سبيل لهذا الخلف أن يدخر لخلفه رأس مال إلا إذا زادت الأعمال التي ادخرها سلفه بعمله والمثابرة عليه.

١٨٦- القضاء والمحاماة وأثرهما في المدنية والحضارة

إن القضاء من أرفع الأركان وأقوى دليل على ذلك استتباب الراحة به والأمان، فلو لم يكن قضاء لأخنى علينا الزمان، ولشبت نيران البغي والعدوان لتحرق أجسام الضعفاء وتتمتع بين ذلك بالنهب للأقوياء، وغير خاف ما يحدث من ذلك على كر الدهور والأيام من إعدام الجنس البشري، إذ أن روح القوة لا بدَّ أن تكون لدى الناس بدرجات، فمنهم قوي ومنهم أقوى ومنهم سباق غايات، فيقلد الفريق السابق زمام السلطنة فيفتك بالكل.

فلهذا كان المقصد من القضاء إنما هو نصب قسطاس العدل في الأحكام وإصدار الأمر بإذاقة القاتل كأس الحمام.

إذا خانَ الأميرُ وكاتباهُ ... وقاضي الأرض والى في القضاء
فويلٌ ثم ويلٌ ثمَّ ويلٌ ... لقاضي الأرضِ من قاضي السماء

ولا بدَّ للقاضي أن يكون رجلاً حراً بالغاً عاقلاً سليم السمع والبصر واللسان متصفاً

بصحة التميز وقوة الجنان بعيداً عن السهو والغفلة مأموناً في حال رضاه وغضبه، عدلاً فلا يكون مرتكباً للكبائر ولا مصراً على الصغائر أن يكون عارفاً بالناسخ من الأحكام والمنسوخ والمقيد والمطلق والخاص والعام قادراً على استنباط الأحكام بالقياس.

وينبغي أن يكون شديداً من غير عنف، ليناً من غير ضرب مستشيراً أهل الحزم والاجتهاد، وأن يكون مكانه مرتفعاً عن محل الخصمين وأن يحث الخصمين على أن يصلحا ذات بينهما، فإن أبيا أصدر الحكم عليهما وأبرمه وأن يمتنع من بيع وشراء لنفسه، ومن إقامة وكيل في ذلك معروف له في البلدة لئلا تحابيه الناس ويحرم عليه قبول الرشوة، وإذا حضر خصمان فلا يستهل بالترحيب صاحب الشرف منهما، بل يسوي بين الوضيع والرفيع والجليل والحقير والغني والفقير والصغير والأمير، وينبغي له أيضاً ألا يقضي بين الناس وهو متأثر بأي مؤثر خارجي أو داخلي كالسرور الزائد والحزن الشديد والبرد المؤلم والحر الذي يكاد يذهب بالعقل والجوع والعطش وغلبة النعاس حتى لا ينطبق على رجال القضاء. قول الشاعر:

قضـاةُ زماننا أضحوا لصوصاً عموماً في البريَّة لا خُصوصا
فحسبُك أنَّهـم لـو صافحـونا لسلُّوا من خواتمنا الفُصوصا

والمحاماة مهنة شريفة وصناعة محتاج إليها في البلاد المتقدمة ذات الشأن والثروة، إذ معلوم أنه كلما زادت الثروة وتطلعت الناس إلى الازدياد منها كثرت بينهم المنازعات فيحتاجون إلى المحامي وهو وكيل في الحكم والمخاصمة، يتكلم مكان المرء بما يعجز عنه ويدافع بما لم يعلمه ويشهد له بما لم يخطر على باله فيثبت الحق لأهله ويكفي موكله مؤونة التعب وينوب عنه في مخاصمته، فترى المحاميين عن الخصمين يشحذ كل منهما لسانه، ويقوي جنانه استعداداً للنزال في ميادين المقال وتأهباً للدفاع في مواقف النزاع ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة في الحكم ورفع التهمة والجرم، ويمارس هذه الصناعة اليوم كثير من الفضلاء جعلوا نصر الحق نصب أعينهم، وإن دخل فيها جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب لا يهمهم إلا الحصول على الدرهم والدينار بأي وجه كان، يدافعون عن القضية ولو علموا ضعف أساسها ويقدمون عليها ولو بدا لهم عدم نجاحها ويقفون ضد الحق وإن كان جلياً، فأولئك ليسوا من المحامين في شيء، وشقاء الأمة بهم أكثر من نفعها، فيجب على المحامي أن يكون عالماً بصناعته محيطاً بدقائقها، وأن يكون ذا مروءة وشهامة وعفة ودين ونفس شريفة تنأى به عن الدنايا، فصيح اللسان قوي الجنان مراعياً المصالح العامة جاعلاً دأبه نصر الحق مرشداً للناس وهادياً لهم حتى يؤتمن على أُمورهم ويوثق به في شؤونهم، وتملكه الأمة قيادها وتعطيه زمامها.

يا أيُّها الشَّهمُ المحامي الألمعي ... ومن يُراعي حكمةَ المشرِّعِ
عليك بالصِّدقِ وبالأمانةَ ... واحذرْ من النِّفاقِ والخيانةَ
فأنت خصمٌ في القضايا وحكم ... تهدي إلى الحق كما يهدي العلمُ
وأنت للقاضي أجلُّ مرشد ... وهو إلى التحقيق منك يهتدي
وأنت قاضٍ والقضاةُ تبع ... إذا شرحتَ ما تريد استمعوا
فانظر إلى قولِكَ سامي الشانِ ... وصنهُ عن زورٍ وعن بهتانِ
واعلمْ بأن اللّه بالمرصادِ ... لمظهر الفسادِ في العبادِ

وبالجملة: لا مشاحة في أن للقضاء الفضل العظيم والنفع العميم لجميع المخلوقات، فهو الهيئة الحاكمة التي تردع الظالم عن ظلمه وتوقف كل واحد عند حده، فهو الذي ينقذ الأبرياء من مخالب الأشقياء، بل هو الدعامة الوطيدة التي يبنى عليها أساس العمران ويتوقف عليها عمار البلدان واستتباب الأمن في كل مكان وزمان، فإذن هو الأنفع للهيئة الاجتماعية، ولا يمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال بخلاف المحاماة فيمكن لرب الأمر أن يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه.

١٨٧- فوائد الصدق ومضار الكذب

الصدق أفضل خصال الإنسان وأوضح دلائل الإيمان وأجل مواهب الإحسان وأكمل نعم الملك الديان وهو دال على جلالة القدر ونزاهة النفس وعلو الهمة وصلاح الشيم والشمائل وبه تمام المكارم والفضائل، فمن تحلى به فقد أحرز الفضل بكماله وجمع الخير في أقواله وأفعاله، لأنه أوضح دلائل العقل، وأعدل شواهد الخير وأرفع منازل البر وأقرب إلى السلامة وأبعد من الملامة وأجدر بالغبطة والكرامة وقد وصف المولى به نفسه حيث قال: ﴿ومن أصدق من اللّه قيلاً﴾ [النساء:١٢٢]. وقال تعالى: ﴿يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ [المائدة:١١٩]. وقال ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة».

الصدقُ يمنٌ ومنجاةٌ ومحمدةٌ ... فيه الكرامةُ والإقبالُ والشرفُ

وأما الكذب فهو أوضع كل خطة وأجمعها للمذمة والخسة وأكبرها ذلاً في الدنيا وأكثرها خزياً في الآخرة، وهو من أعظم علامات النفاق وأقوى الدلائل على دناءة الأخلاق والأعراق، لا يؤتمن حامله على حال، ولا يصدق إذا قال. قال تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات اللّه﴾ [النحل:١٠٥]. وقال ﷺ: «آفة الحديث الكذب وأعظم الخطايا اللسان الكذوب».

وقال الشاعر:

لا يكذبُ المرءُ إلا من مهانتهِ أو عادةِ السُّوء أو من قلّةِ الأدبِ

فالصدق أوجبه العمل وأكده الشرع، وإن كان لا يوجب نفعاً ولا يدفع ضراً، فمن اتخذه سنة كانت له أحسن جنة، وبه يتم الفضل وتكمل المروءة وتنتشر المصالح وتستر القبائح، وإن الكذب رمد عين السيادة ومطفئ سراج المروءة والسعادة وموهن قوى الجلالة وساد طريق الإحسان ومحبط عمل الإنسان وهادم بناء الإيمان، لأنه من الأفعال التي لا تقبلها العقول ولا تستجيزها الديانة.

قال بعض الحكماء: الكذب ملجأ الفجار وسبب العثار، وقلما نجا منه من اضطر إلى الاعتذار.

فإذاً من الحق على كل عاقل، والواجب على كل فاضل، أن يأخذ نفسه باجتنابه وينزهها عن سقطته وارتيابه، وأن يتحرى الصدق وإن توقعه، وأن يرفض الكذب وإن نفعه.

وبالجملة: ليس الكذب فضيلة من الفضائل ولا سياسة من السياسات، كما يفهم بعض المارقين المتملقين وليس مما يعلي قدر الإنسان، بل بالعكس يسقط المروءة ويذهب ماء الوجه ويدل على ضعف الإيمان بالله تعالى، فمن اعتاد الكذب اعتاد الناس ذمه وأكثروا من السخط عليه، كذلك الله تعالى يمهله حتى إذا أمسكه لم يفلته فإنه ظلم نفسه وظلم الناس بجانبه، لا سيما إذا كان رئيساً من الرؤساء أو ممن يفهم فيهم الناس أنهم ناصحون أمناء، قال تعالى يصف حال الكذابين: ﴿يوم تجزى كل نفس بما كسبت ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة﴾ [الزمر: ٥٩-٦٠]. وإن الكذاب الذي صار الكذب خلقاً له، وليس التطبع بالتعود ببعيد، فإن العادة طبع ثانٍ كما قرر الفلاسفة، لا إخال باله يصفو يوماً لأنه بعيد عن الحقائق راكب سفينة في موج مضطرب قلَّ أن تنجو به، وممتط مطية متعثرة قلَّ أن تصل به إلى حيث يريد. قال حكيم:

لــي حيلةٌ فيمـن ينمّــ ـم وليس في الكذّاب حيلة
مـن كانَ يخلقُ مـا يقـو لُ فحيلتي فيـــهِ قليلـة

وفي الحديث الشريف: «الكذب رأس كل خطيئة». ومما روي أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ ليدخل في الإسلام فقال: يا رسول الله إني أعمل من الخطايا ما لا يمكنني أن أبتعد عنه. فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «أتعاهدني على ترك الكذب؟» قال: نعم. فلما ذهب الرجل وأراد أن يشرب الخمر قال في نفسه أنا إن شربت الخمر وسألني رسول الله ﷺ عنه، فبمَ أجيب وقد دخلت في الدين، إن أجبت بنعم أقام عليَّ الحد، وإن

أجبت بلا فقد كذبت، وقد عاهدني على ترك الكذب، إذاً فلاتركنه، فتركه وكذا بقية الموبقات وحسن إسلامه.

حقاً إن الصدق فضيلة حسنة لا يحصد غارسها في نفسه إلا ثماراً طيبة وخيرات جزيلة، وقد حث اللّه تعالى عليه في القرآن الكريم إذ قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة:١١٩]، وقال يمدح أهله: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ [الأحزاب:٢٣]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الصدق منجيك وإن خفته والكذب مرديك وإن أمنته».

١٨٨- مقارنة بين المعلم والطبيب في الهيئة الاجتماعية

إن المولى تبارك وتعالى خلق الإنسان ضعيفاً مجرداً من العلوم والمعارف، لا يميز بين الغث والثمين، قابلاً لطوارئ العلل والأسقام، تائهاً في لجج الضلالات والأوهام، يخبط في أُموره خبط عشواء، لا يميز بين السراء والضراء، فمتى وصل ليد المعلمين العلماء، سلبوا جهله وقادوه إلى الهدى والاهتداء. وأما الأطباء فيصلحون الأجسام من العلل والأسقام بالأدوية والعقاقير، وكلاهما لا يسد مسد الآخر في قيامه بالأعمال المفروضة عليه.

وعلاجُ الأبدانِ أيسـرُ خطباً ... حين تعتلُّ من علاجِ العقولِ

وحينئذٍ لا تفضيل بينهما والحاجة ماسة لكليهما، وإنما التفضيل بمقارنة نتائج أحدهما بالآخر، وهي تقضي بتفضيل المعلم على الطبيب إذ هو مقوم للروح الحاكمة على البدن، ولا ريب في أن الروح أشرف من الجسم وأعلى. كيف لا وإن الطبيب حسنة من حسنات المعلمين الأعلام، فمقامهم بين العالم فوق كل مقام ولهم الشرف الأسمى والاحترام.

١٨٩- وصف الامتحان العام

في منتصف الساعة السابعة من صباح يوم الإثنين دقت الأجراس فاندهشت منا الحواس وتسلط في قلوبنا الوسواس، من هول محفل الامتحان وما أدراك ما الامتحان، إن هو يوم لا ينفع فيه خل ولا رفيق ولا مال ولا صديق إلا من أتى اللّه بقلب سليم: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق:٣٧].

دخلنا إلى الخيام وكأننا سقينا كأس الحمام، وأخذ كل منا مضجعه وعرف كل واحد رقمه وموضعه، ورأينا لجاناً معقودة وأبواباً مسدودة، وقسوة سائلين وتشديد مراقبين، وطلبة يهمسون ولا يتنفسون، فاستولى علينا الشيطان وتحققت الأذهان من الحرمان واستوى الجاهل وذو العرفان والشجاع والجبان في هذا الميدان إلا أني تسابقت

تسابق الفرسان في المضمار، وأعربت بكل لسان عن وجوه الإضمار، وثبت قدمي وأطلقت لسان قلمي وحليت الطروس باللطائف وطرزته بالظرائف وكشفت نقاب المعضلات وحللت صعاب المشكلات، فله الحمد من قبل ومن بعد، إذ رميت السهام لنيل المرام وأصبت المرمى في نهاية الامتحان الذي يكرم فيه المرء أو يهان.

١٩٠- التاريخ مدرسة عامة

ليسَ بإنسانٍ ولا عاقلٍ من لا يعي التاريخَ في صدرهِ
ومن وعى أخبارَ من قبلهِ أضافَ أعماراً إلى عمرهِ

التاريخ مرآة الأعصر الغابرة والحاضرة، به ينير العقل ويحيي القلب ويلجم الإرادة ويدعو إلى المقاصد الحسنة، وهو نور الحق وحياة الذكر ومدبر الحياة ورسول القدم، فيه معرفة أحوال الأمم وبلدانهم وعاداتهم وأعمالهم المادية والأدبية وصنائعهم وانسابهم إلى غير ذلك، فيعتبر بأحوالهم الماضية والتنضح بها. قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر، حكمة بالغة فما تغني النذر﴾ [القمر:٤-٥]. وقال عز شأنه: ﴿وكلاً نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ [هود:١٢٠] وقال الإمام علي لابنه الحسن رضي اللّه تعالى عنهما: «أي بنيّ إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدت كاحدهم، بل كاني بما انتهى إليّ من أُمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر نحيله وتوخيت لك جميله وصرفت عنك مجهوله».

وبالجملة: فالتاريخ أجل العلوم قدراً وأجلاها في ظلمات الحيرة بدراً يكسب صاحبه النباهة حتى يفوق أمثاله وأشباهه، فيحوز المراتب العلية ويفوز بالمطالب السنية، إذ به تستنير الفكر والألباب وتعلم حوادث الأزمنة والأحقاب، وبمرآته ما دونه الأولون من العلوم والصنائع، ويظهر ما خفي من أحوال القرون السالفة وأخبار الأمصار الجامعة وما فيها من الآثار والمنافع، فهو أعظم مربٍ للإنسان يدعو إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، فإذاً هو مدرسة عامة تسمو فيها العواطف، وتتشرف الاحساسات التي عليها المعول في ارتقاء الأمة إلى أرفع الدرجات وهو الضامن الوحيد لتهذيب النفوس وتوسيع المدارك.

١٩١- علوُّ الهمة من الإيمان

المعالي نداء الأحرار وتاج الملوك وشعار الأمراء ومنار الفلاسفة والحكماء ومقصد الأدباء والشعراء، فهي غاية مطلبهم وجلّ غرضهم، وكلهم يسيرون إليها كالأسود الظافرة لا يرهبون خطراً ولا يقدمون حذراً.

دعيني أجدّ السعيَ في طلبِ العُلى فأبلغ سؤالي أو أمُوت فأُعْذَرا

فللمعالي سبل خطرة حرجة المسلك لا يظفر بها إلا المقدام الجسور ولا يتغلب على عقباتها إلا الحر الصبور ورقي الأمم بعلو الهمم.

لا يمتطي المجدَ من لم يركبِ الخطَرا ولا ينالُ العُلا من قدَّمَ الحذرَا

والرجل الخامل ينظر إلى المعالي من بعيد، وهي بين يديه أقرب من حبل الوريد.

إذا ما تمنَّى المرءُ إدراكَ غايةٍ عليه بإهمالِ التقاعُد والكسلِ

فلا تبلغ الغايات من دون همَّةٍ ويحظى بها الإنسانُ بالكَدِّ والعملِ

وأول السبل إلى درك المعالي هو الإقدام والتعب، فالذي لا يقدم على الأمر الخطر بكل عزمه لا يناله والذي لا يتعب في غايته ولا يسقيها من ماء فكرته لن يدركها، وكيف يرقى العلا من طبعه الكسل.

يا منْ يسامي العلا عفواً بلا تعبٍ هيهاتَ نيلُ العُلا عفواً بلا نصبِ

فلقد جعل اللّه سبحانه وتعالى الراحة في بساط التعب والمجد من شامخات المصاعب وتاج العلا على هام المجد المجاهد، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تاتوني بانسابكم وائتوني بأعمالكم». وقال الشاعر:

دعيني أنلْ ما لا ينالُ من العُلا فسهلُ العُلا في الصَّعبِ والصَّعبُ في السَّهلِ

تريدينَ إدراكَ المعاني رخيصةً ولا بدّ دون الشهدِ من إبرِ النَّحلِ

إن كنتَ تطلبُ عزّاً فادرعْ تعباً أو فارضَ بالذُّل واختر راحةَ البدنِ

ثم إن الإقدام والتعب لا يصلحان للنجاح إلا إذا رافقتهما حكمة ودراية واستقامة وثبات وصبر وحسن أخلاق.

فقلْ من جدّ في أمرٍ يحاولُـهُ واستصحب الصَّبرَ إلا فازَ بالظَّفرِ

فمن شمر عن ساق عن الجد وجد مفتاح الجد، ومن عشق المعالي عانق العوالي ومن جلب درَّ الكلام، حلب درّ الكرام، ومن ركب الأمل الواسع لم يستبعد المحل الشاسع.

كلّ لهُ غرضٌ يسعى ليدركـهُ والحرُّ يجعلُ إدراكَ العُلا غرضِه

١٩٢- وصف الحرب وما تخلفه من المضار والأخطار

الحرب هي باعث الهول والكرب والطعن والضرب، أولها شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى، وهي خدعة يوم لك ويوم عليك.

الحربُ أوّلُ ما تكون فتيَّة تسعى بزينتِها لكلِّ جهولِ

حتى إذا حميتْ وشبَّ بشرارِها عادت عجوزاً غير ذات جليل
شمطاءُ جزّت رأسها وتنكّرت مكروهــة للشّــمِّ والتّقبيــل

كيف يفعل الإنسان فعل الوحوش الضارية فيقتل النفوس البرية ويترك البلاد متخربة خالية، قتل الإنسان ما أكفره وما أشره وما أصلبه وما أكثر طمعه في ملك غيره وحسده، فقاتل الله الطمع المجلب للخراب والمسفك للدماء المزهق لأرواح العباد المهدد لشوكة الإمارة المدحض لنمو الزراعة والصناعة والتجارة المضعف قوة أسباب الارتقاء المفرّق الأبناء من الآباء والآباء من الأبناء.

بخلاف السلم فإن به تأمن العباد على الأموال والأولاد، وترتقي البلاد وتمنح المجد والإسعاد وينتشر العمران وتوطد دعائم الأمان وتنتظم طرق المودة والوفاق وتنفصم عرى الشقاق.

وبالجملة: فالحرب ميدان تسفك فيها الدماء، ميدان الكر والفر تمشي الجنود إلى ميدان الحرب وهي تبكي وتتودع من الدنيا نادمين على ما قدمته يداهم من الشر، فرحين على ما جنوه من أعمال الخير يمشون ودمع العين ليس له انقطاع قلوبهم راجفة وأبصارهم خاشعة ولسان حالهم يقول: أهذا اليوم الذي سنقف فيه بين يدي الله، ويسأل كل منهم على ما قدمته يداه، لا حول ولا قوة إلا بالله إنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا تقابل الفريقان وانتشبت الحرب بينهما واشتبكت السيوف واضطرمت النيران واتقدت نار الحرب وتصلصلت الدروع من وقع البيض وزلزلت الأقدام من ولولة الأنجاد ورنين القسي وقراع الرماح وأقبلت الآجال تفترس الآمال أمطرت السماء رصاصاً وأظلم الجو واكفهرت السماء وصمتت الألسنة ونطقت الأسنة وخطبت السيوف على منابر الرقاب وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب وتلاصقت القنا والقنابل وتعالقت الصوارم والمناصل وبلغت القلوب الحناجر وأدركت السيوف المناصر وضاق المجال وتحكمت الآجال فلا ترى إلا رؤوساً تندر ودماء تهدر وأعضاء تتطاير وتتناثر وأجساماً تتزايل وتتمايل حتى ثملت الرماح من الدماء فتعثرت في النحور وتكسرت في الصدور وكثر أنين القتلى وجرت أنهار من دمائهم تسبح الواحد الديان.

ترى كثيراً من الجنود في ساحة القتال ملقية على الأرض قتلى وجرحى يئنون من كثرة الألم، ترى الواحد منهم رافعاً يده مشيراً بها على ما أصابه، واضعاً الأخرى على قلبه متحسراً على ما ناله، فهذا الشاب كان يفتخر بشجاعته، وصارت الوحوش تأكل لحمه.

فما أرخص القتل في ساحة القتال وأرخص الرجال الشبان وأكثر الشرك بالله، فبئست الحرب فإنها كلمة ترتجف عند سماعها قلوب الملوك وتشيب لرؤياها النشء الأبرياء.

بئست مصائبها ودواهيها العظمى فإنها توقف أحوال التجارة وتعطل المعامل والشركات، وتكثر المشاكل والمنازعات والحروب الداخلية والنهب والسلب والقتل.

١٩٣- أول الحزم المشورة

تأنَّ وشـاورْ فإنَّ الأمو ... رَ منها جليّ ومستغمضُ
فرأيانِ أفضلُ من واحدٍ ... ورأي الثَّلاثةِ لا ينقضُ

المشورة واجبة على كل ذي حزم متعينة على كل ذي لب وفهم، وهي حصن من الندامة وأمان من الملامة، وأحمد للرأي وأنجح للسعي، فالمستشير على طرف النجاح، والمستبد تلعب به الرياح والمشورة مع السداد والسخافة مع الاستبداد قال الله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران:١٥٩]. وقال ﷺ: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار». وقال علي رضي الله عنه: «نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد».

وقال الشاعر:

إذا بلغَ الـرَّأيُ المشورةَ فاستعنْ ... بـرأي نصيحٍ أو نصيحةِ حـازمِ
ولا تجعلِ الشُّورى عليك غضاضـةً ... فـإنَّ الخوافـي قـوةٌ للقـوادمِ

فالمشاورة لقاح العقول ورائد الصواب، ومن شاور عاقلاً أخذ نصف عقله، وهي عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه ومن أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً وعند الخطأ عاذراً، وحينئذٍ لا عذر لأحد في ترك المشورة، وإن كان من أهل العقل والرشاد وذوي الرأي والسداد، فإن المشاور قد يكون له في بعض الأمر هوى ولبعض الوجوه ميل، فربما جنح إلى هواه ومال إلى ميله والمستشار إنما يعطيه لباب عقله وصفو رأيه وخالص نظره.

قال بعض الحكماء: من استشار أهل العقول أدرك المأمول.

شـاورْ سـواكَ إذا نابتكَ نائبـةٌ ... يوماً وإن كنتَ من أهل المشوراتِ
فالعينُ تنظرُ منها ما دنَـى ونأَى ... ولا تـرى نفسَـــهـا إلا بمـرآةِ

وبالجملة: إن في المشورة سعادة عظمى وحياة طيبة. قال تعالى: ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾ [الشورى:٣٨].

وقال لقمان لابنه وهو يعظه: «يا بُنيّ اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة إلى فعله». فقال ابنه: كيف أجعل عقل غيري لي، قال تشاوره في أمرك. وقيل للأحنف بأي شيء يكثر صوابك ويقل خطؤك فيما تأتيه من الأمور وتباشره من الوقائع، قال بالمشورة لذي التجارب ومخض زبدة الآراء.

وقد قيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم، قال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم. وقال الشاعر:

الرأيُ كالليلِ مسود جوانبـهُ ... ما لليلِ لا ينجلي إلا بإصباحِ
فاضممْ مصابيحَ آراءِ الرِّجال إلى ... مصباحِ رأيكَ تردد ضوءَ مصباحِ

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: في المشورة سبع خصال: استنباط الجواب واكتساب الرأي والتحصن من السقطة، وهي حرز من الملامة ونجاة من الندامة، وألفة للقلوب واتباع للأثر، ولكنما الإنسان لا يشاور كل احد، بل من كان فيه ذلك غير أخذ رأي جاهل وعدو وحسود ومراء وجبان وبخيل وذي هوى.

فالمرء إذا شاور إخوانه في شؤونه اغناه ذلك عن كثرة التجارب، ووفر عليه جزءاً كبيراً من أوقاته، وأظهر له صديقه من عدوه، وما شرعت تلك الفضيلة في الدين إلا لحكمة عمرانية قد ظهرت جلياً منذ ظهور الإسلام، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يأخذ آراء أصحابه في الأمور المهمة، إذ من الثابت أنه استشار في أسارى (بدر) فأشار أبو بكر بالفداء وأشار عمر بالقتل، فعمل برأي أبي بكر، وكذلك الصحابة كانوا يتشاورون.

ولم نرَ المجالس الشورية الرسمية التي أصبحت الأمم تتغنى بها إلا من الإسلام ومن قاموا بالأمر بعد رسول الله ﷺ، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بتأسيس مجلس شورى بعد موته لينتخب من يكون أميراً وقد انتخب عثمان رضي الله عنه ولم يقطع دابر الاستبداد، ويضرب على أيدي المستبدين الطاغين إلا الشورى التي قيدت كل مطلق، وها هي الأمم قد أصبحت تحكم نفسها بنفسها، وتقترح على حكوماتها ما شاءت أن تقترح موسطة في ذلك المجالس الشورية، ولو حافظ الشرقيون على هذه الدعامة الكبرى والأساس المتين لما تقوض مجدهم ولا سقطت دولهم.

١٩٤ - الزراعة وفوائدها

الزراعة هي الأم المغذية والمادة المقوية لنوع الإنسان وسائر أنواع الحيوان فهي مادة الحياة وروح المدنية وقوام الحضارة. قال الله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ [الأنعام:٩٩]، ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله﴾ [الأنعام:١٤١]، ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ [النحل:١١]، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها﴾ [فصلت:١٠]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من مؤمن غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة». وقال أيضاً: «التمسوا الرزق من خبايا الأرض». وقال الشاعر:

إذا أنت لـم تـزرعْ وأبصرتَ حاصـداً ندمتَ علـى التَّفريطِ في زمنِ البذرِ

ولرفعة شانها وعظيم مزيتها اعتنى بها قدماء المصريين حتى أنهم لم يدعوا قيد شبر من أرض إلا عمروه بالزراعة، وذكر المؤرخون أنه قد كان من أُصول دولة الفرس أن يبرز الملك بجلالته مع أعيان أهل دولته ويباشر حراثة الأرض بنفسه في أول يوم من أيام السنة تنويهاً بشرف الزراعة وتنبيهاً على ما يقتضي لأهلها من التشويق والشجاعة.

وقيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه: أتغرس بعد الكبر، فقال: لأن توافيني الساعة

وأنا من المصلحين خير من ان توافيني وأنا من المفسدين، وقيل لأبي الدرداء وهو يغرس جوزة: أتغرس بعد الكبر وانت شيخ وهي لا تطعم إلا بعد عشرين سنة أو ثلاثين، فقال: وما علي إلا ان يكون الأجر لي والهناء لغيري. وقيل: فلاح المعيشة في الفلاحة.

١٩٥- النباتات والأشجار وأهميتها عند جميع العالم

من نعم اللّه التي لا تحصى ولا تكاد تستقصى النباتات التي منها الأقوات والأدوية والفواكه والملابس والزينة والعلف والرعي والحطب للوقود والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن وغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها ومنها الورق والأزهار والأصول والعروق والفروع والصموغ لضروب من المصالح، وقد أودع اللّه فيها من البركات ما صير الحبة الواحدة تختلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل، وجعل الأشجار والثمار والأزهار مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح فتجلي عن القلوب دونها عند مشاهدتها، وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها، ففيها منافع مختلفة التأثير منها ما تقوى به القلوب، ومنها أغذية تحفظ الحياة، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها، وخلق فيها بذوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها.

ومن حسنات الأرض على بني الإنسان التي أبرزتها الزراعة في تلك الأشجار التي شابهت الإنسان في أطواره ونشأته، حتى إذا أنضجت واستوت على سوقها وتفرعت أغصانها أمدت الإنسان بكثير من الفوائد وجزيل من المنافع، يجني الإنسان منها الثمار التي يتفكه بها، مما لذ طعمه وطاب جناه: ﴿صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ [الرعد: ٤]. وأزهاراً يانعة ذات عرف شذي ورائحة زكية يستخرج منها المياه العطرية ويستعمل بعضها في الأدوية الطبية مما يكون شفاء للأمراض ومريحاً للعلل، ومنها تتكون الحدائق الغناء فترى الأشجار فيها وارفة الظلال قد تمايلت أغصانها واهتزت أفنانها وأينعت أزهارها ودنت قطوفها تضوع المكان بطيب نشرها وتنعش النفس برونقها، فإذا هب النسيم وتمايلت الأغصان تعطرت الأرجاء وتمثلت الجنان في الرياض، وبها يستظل الإنسان من الشمس فتقيه حر الهجير، وتغرس في حانتي الطرق لهذه الفائدة فتكسبها رونقاً وزينة وتلطف هواءها وتنقي جوها، فما دامت قائمة على ساقها تمد الإنسان بالمنافع المختلفة والفوائد المتنوعة حتى إذا انقضى أجلها قطعت منها أخشاب ذات فوائد عظيمة تستعمل في الأبنية والمنازل والأدوات المختلفة التي لا يستغنى عنها في مكان وتصنع منها السفن التي تمخر في البحر وتشق بحيزومها عباب الماء، وتكاد شراعها تصافح السحاب فتسير في البحار وهي الحواري المنشآت في البحر كالأعلام تحمل في جوفها الناس والبضائع وتنقل الأخبار من مشارق الأرض إلى مغاربها، كما يستعمل الخشب في الوقود، وغير ذلك من الفوائد التي تمتع بها الإنسان وقضى منها مآربه.

١٩٦- البخار سر رقي العالم المتمدن

إن قوة البخار شاملة أهم الصنائع والأشغال، ونشاهد قدرته الباهرة، من ذلك سير البواخر البحرية وقطر السكك الحديدية والطابع والعمل في المناجم والغزل والنساجة وغير ذلك.

فلاستخدام البخار في السفن وحدها قيمة لا تعد لها قيمة إذ أغنتنا السفن البخارية الآن عن الرياح واختلاف الفصول فصلاً عن إسعافها لنا على تقصير المسافات بسرعتها الفائقة.

وللبخار أيضاً عمل يذكر في الأسفار البرية فيحمل الإنسان على جناحه براحة وسرعة يعجب منها، وقد أحيا مدناً وأمصاراً زاهرة، وحاك للبشر المنسوجات ووفر البضائع فهبطت أثمانها ونقلها براً وبحراً بأجرة رخيصة، ووصل بعض البلاد ببعضها صلة موثوقة العرا، وأراح الناس من أتعاب لا حد لها ولا نهاية، ووزع في الوقت نفسه الأشغال والأعمال على جموع وجماهير تعد بالملايين.

تلك قوة لا يعتريها الكلال، فتداب في العمل نهاراً وليلاً إذا غذيت بالوقود وتقوم بواجباتها قياماً دقيقاً، وقد أمست الآلة البخارية مسعفة للإنسان ومساعدة له في جميع أحواله، فلا بد إذا قلنا أن البخار رقي بالعالم المتمدين إلى ذروة المجد والفخر.

وبالجملة: إن البخار هو القوة العظمى التي ظهرت منها العجائب وبدت فيها الغرائب، فتكاثرت بها أعمال الصناعة وأخصبت أرض الزراعة وراجت أسواق التجارة واتسعت طرق الثروة وكثرت أنواع الخير والنعمة، من ذلك الآلات البخارية التي تروي مقداراً عظيماً من الأرض مع السهولة والراحة، وبذلك تضاعفت ثمرتها ومنها قطارات السكك الحديدية والسفن البحرية والطواحين والآلات البخارية التي تدار بها معامل المصنوعات والمنسوجات والمطابع وغير ذلك من ثمرات البخار وقوته التي تحار في وصفها الأفهام وتعجز عن حصرها الأقلام.

١٩٧- التجارة وفوائدها

التجارة تاج الإمارة وينبوع البركات والأرباح وتوفيقات بها تزيد ثروة البلاد وتتوفر أسباب التنعم للعباد. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ [النساء:٢٩]. وقال تعالى: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ [البقرة:٢٧٥]. وقال ﷺ: «أطيب ما يأكل الرجل من كسبه والكسب في القرآن التجارة»، وقال عليه الصلاة والسلام: «التاجر الصدوق مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً». وقال عليه الصلاة والسلام: «تسعة أعشار الرزق في التجارة».

وقال الشاعر:

كُــنْ تاجـراً حـراً بأيِّ مـالِ ... ولا تكـنْ مسـتخدماً بحـالِ
وكُــنْ إذا تاجــرتَ ذا إدارةْ ... لــتدركَ الرِّبـحَ مــن الخسارةْ
واجتنبِ الرِّبـا وصـنعَ الغـشِّ ... فإن مـولاكَ شـديدُ البطـشِ
فــإنَّ بالتجــارة الأنـامَــا ... نالــوا المُنى وحصلُوا المراما
فهــي قــوامُ المُـلك والعبــاد ... فــي كـلِّ موطـنٍ وكل نادِ
وهي لعمـر الحـق لـولا الخطـرُ ... أول مـا بـــه الفتى يفتخـرُ
لا سيَّما مع العفـافِ والشَّـرفِ ... وصونُ رأسِ المالِ من داعي التلفِ

حقاً إن التجارة لجديرة بمزيد الاعتبار، فإن فيها غنى لأولي الأبصار، ولذلك نرى الأمم التي في مقدمة التمدين حريصة على جميع ما ينمي أسباب التجارة ويزيدها اتساعاً وازدهاراً ومهارة.

هذه دولة إنكلترا ما نالت نفوذها في كثير من الممالك الشرقية إلا بتجولها في البحار للتجارة، ولأهميتها قد اعتنت الأمم الغربية بتلقينها لأبنائها في مدارس خصوصية أنشئت لهذا الغرض.

وبالجملة: التجارة لها تأثير جلي وسبب قوي على التمدين والخيرات في جميع الأوقات، لأنها رسول التعارف ومنها التآلف تزيد البلاد في المال نمواً ورفعة وعلواً، وبعد ما تكون فقيرة حقيرة تصبح غنية خطيرة، ثم إنه يلزم التاجر رأس مال كافٍ لعمله وأن يختبر أولاً الأصناف التي يريد أن يتجر فيها ويخالط أهلها ويعرف مصدر ورودها ومقدار اللازم منها وما يلزم لها من العمال الأصدقاء ويخصص لها مكاناً تروج فيه ويرتبها ترتيباً سهل التناول ويرصدها في دفاتر سهلة المراجعة، ولا يستدين أكثر مما يمكن أن يقوم بوفائه في مواعيد سداده، وألا يبيع بالدين إلا لكل مؤتمن موثوق به في حسن المعاملة.

سبلُ المعيشةِ في الحياة كثيرةٌ ... وعظيمُها عندَ الرَّخاءِ تجـارةٌ
فهي الشهامةُ والكرامةُ في الورى ... والمرءُ فـي دار الحياةِ كرامةٌ
لا خيرَ في عيشٍ إذا لم ترعـه ... عند التناول في المقامِ سلامةٌ
وبها يعيش المرءُ حـرًّا سالماً ... لا يعتريـه من السَّخيف ملامةٌ

١٩٨- الصناعة راية الأمان لسعادة الأوطان

المعارف تتنوع حسب مواضيعها، فمنها ما يحسب مركزها الخصوصي النفس الإنسانية الخالدة، وهذه تسمى المعارف الدينية ومنها ما يعد مركزها الخصوصي العقل البشري وهذه تسمى المعارف العلمية، ومنها ما يختص بالقوى الجسدية والحواس وهذه

تدعى المعارف الصناعية، وهي أفضل وأجل الوسائط لتقدم البلاد ونفع العباد، ودعامة الحضارة وارتقاء الإمارة، وتوطيد مركز الإدارة ومنبع الثروة والغنى وغاية التقدم والمنى، بل روح العمران وتاج السلطان وحمى الأوطان وراية الأمان في كل زمان ومكان، وقد قيل: صناعة في اليد أمان من الفقر وحرفة المرء كنزه، وقال الإمام عمر بن الخطاب: إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول هل له حرفة، فإذا قالوا: لا سقط من عيني.

أفادتني الصناعةُ كلَّ عزٍّ　　　وهل عزٌّ أعزُّ من الصناعةِ

وللصناعة الأسبقية (عدداً) لكثرة فروعها ووفرة معداتها ونتائجها، والأسبقية (رتبة) بالنظر إلى سعة علومها ويانع أثمارها ودقة أُصولها وسمو درجاتها، ولها من طول الباع في إسعاف ما سواها من المهن ما يعز مقامها ويؤيد شرفها مدى الأيام، وكل بلاد تروم التقدم والارتقاء أدبياً ومادياً تجد أن المفتاح لما ترومه الاعتناء بالصناعة.

إن الصنائعَ والفنونَ كلاهما　　　مما بـه الإنسـان قـدراً يرفـعُ
وهما الوسيلةُ للسَّعادة فاشتغلْ　　　بهمـا فإنـك للبـلاد سـتنفعُ
واختر لنفسكَ ما يكونَ صنيعةً　　　حسناً فقيمتكَ التي قد تصنعُ
ودعِ التَّكاسـلَ والبطالـةَ إنَّهـا　　　سببٌ يعوقُ عن المعاشِ ويمنعُ

١٩٩- المطر وما يحدثه من المنافع للعباد

المطر هو قطرات الماء الحاصلة من البخار الذي يصعد إلى الجو فيصير غيوماً وسحباً تسوقها الرياح بين القبة الزرقاء وسطح الأرض على أبعاد مختلفة، وعندما تبلغ هذه الغيوم والسحب بعد ميل أو ميلين ارتفاعاً تبرد وتنخفض درجة حرارة الهواء فلا يستطيع حملها فتجتمع دقائق هذه السحب منضماً بعضها إلى البعض الآخر، فتتكون منها قطرات المطر فتسقط لكونها أثقل من الهواء الكروي والغيوم في الجو عند سيرها كثيراً ما تصادم رؤوس الجبال، وأحياناً تتغير جهة سيرها أو تصب ما فيها من البخار مطراً على رؤوسها وجوانبها.

وقد يحدث المطر أيضاً من مصادفة السحب مجاري رياح درجة حرارتها أو طي من درجة حرارة الغيم السابح، وكثيراً ما تجمد الأمطار عند انحدارها بسبب شدة البرد فتنزل برداً أو ثلجاً فسبحان الخالق العظيم.

٢٠٠- الماء حياة جميع العالم

مما أنعم اللّه به على عباده الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات. قال اللّه تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ونزَّلنا من السماء ماء مباركاً﴾ [ق: ٩].

وقال الشاعر:

وعارض مبتسم قد استهلّ ... ومدّ أطنابَ الغمامِ وأظل
حتى إذا أثرى الثرى من وبلهِ ... وأخصبَ الجدبَ تولى وارتحل
كم أنزلَ اللّهُ لنا من رحمةٍ ... ومن حياة بحياةٍ إذا نزل

فهو الذي أغاث الأنام وأروى الهضاب والآكام وأحيا النباتات والسوام، وجعله مزيلاً للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب والمكان.

وبالماء يبل التراب فيصلح للأعمال والبناء، وبه يرطب كل يابس ويستعين به كل زارع وغارس وتطفأ به النيران ويرتوي به الظمآن والعطشان من إنسان وحيوان في كل زمان ومكان وتصلح به المطبوخات، وغير ذلك من جميع الموجودات، تلك حكمة الحكيم العليم فسبحانه وتعالى المتفضل العظيم.

وبالجملة: فالماء من أجل النعم الإلهية وأعظم المنن على كافة البرية التي لا تقدر أن تقوم بشكر المنعم عليها بعشر المعشار ولو أنفذنا في ذلك الأقلام والبحار، فقد جعله اللّه تعالى حياة كل شيء، وجعل نفعه عاماً لكل موجود ولم يجعله ملكاً لأحد من الوجود.

ولذا امتن اللّه به على عباده امتناناً في الكتاب مسطوراً. فقال تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ [الفرقان:٤٨]. فيه يزول ظمؤنا، وبه يعود ما ينقص من كمية الماء في الدم بسبب التبخير والتبول وباقي الإفرازات.

٢٠١- الحيوانات وما يبعث الإنسان على الرفق بها

خلق اللّه لنا الحيوانات لتساعدنا في أحوالنا المعيشية، وقد علم اللّه أن بالناس حاجة إلى أعمالها وهم لا يطيقون أعمالها ولا يقدرون عليها، ولو كلف اللّه العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم، فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصون بعملها، وقد سلب الحيوانات العقل والذهن لتذل للإنسان، فمنها ما نركبه ونحمل عليه الأثقال ونستعمله في جرّ العربات وحرث الأرض ودرس الحب. قال تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ [النحل:٨]. ومنها ما نتخذ منه أقواتنا من اللحم واللبن وما نصنع منها ملابسنا وأغطيتنا وفرشنا بما يخرج منها من الأصواف والأوبار والأشعار، وغير ذلك. قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وهو الذي سخّرَ البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ [النحل:١٤].

وإذا كان الأمر كما ذكر فالواجب شرعاً أن نرفق بها ونشفق عليها ولا نحملها ما لا

تطيق ونطعمها ونسقيها مكافأة لها على ما تجود به علينا من الأعمال النافعة كل وقت. قال تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ [النحل:٦-٧]. وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم يوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين.

٢٠٢- أنجزَ الحرُّ ما وَعد

حقاً إن الوفاء بالوعد من أفضل شمائل العبد وأوضح دلائل المجد وأقوى دواعي الإخلاص والود، وأحق الأفعال بالشكر والحمد وهو أصل المودة والصفاء وثمرة المحبة والإخاء. قال تعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ [النحل: ٩١]، ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾ [الإسراء:٣٤]، ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف:٣]. وقال عليه الصلاة والسلام: «آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان».

وقال بعض الحكماء: من لقي الله بلسان صادق وعامل الناس بحسن الأخلاق وألزم نفسه رعي العهود والمواثيق، فقد أرضى المخلوق والخالق وأدرك الفضل في كل سابق.

وما أصعب نكث العهود وأقبح تضييع الحدود وأكبر عصيان الخالق المعبود. قال تعالى: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ [الفتح: ١٠]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له». وقال الشاعر:

فإن جمعتِ الآفات فالبخلُ شرُّها ... وشرٌّ من البخلِ المواعيد والمطل
لا خيرَ في وعدٍ إذا كان كاذباً ... ولا خيرَ في قصدٍ إذا لم يكن فعل

وقيل: وعد كالوعيد بمطل شديد يشيب الوليد، سحائب الصيف أثبت من قوله، والخطر في صفحة الماء أقوى من عهده، ومواعيد عن نوب أقرب إلى الإنجاز من وعده.

إذا قيلَ في النَّاسِ خليلٌ فقلْ نعم ... خليل اسمُ شخصٍ لا خليل وفاء
وإن قيل في النَّاسِ جوادٌ فقلْ نعم ... جوادُ ركوبٍ لا جوادُ عطاء

وقال بعض الحكماء: من نكث عهده ومنع رفده وأظهر حقده فلا خير عنده.

وبالجملة: أجمعت الأمم واتفقت الشرائع على أنه لا نكث لعهد بعد إبرامه ولا نقض لعقد بعد إحكامه، وهو أس مهدت عليه قواعد الإيمان وبنيت عليه أركان الإحسان وبه صلاح الخلائق وعليه مدار الحقائق، وهو أمرٌ قبله العقل وصدقه اللسان، لو نبذه الناس

لأصبحوا فوضى وعادت سماؤهم أرضاً وأمسى عقد الحق محلولاً وصارم الصدق مغلولاً ودم التناصف مطلولاً، فمن حفظ عهده وحافظ عليه، فقد أسرع إلى الخير ووصل إليه.

ثبتت على حفظِ العهودِ قلوبُنا إن الوفـاءَ سـجيةُ الأحـرارِ

٢٠٣- الرشوة وأثرها في تهديد الأمن العام

قد تقرر في عقول جهلة العوام ان الرشوة هي السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم على ما يخالف الأصول المتبعة أو يخل بالأمن والسكينة أو يهتك حرمات الحقوق اتكالاً على ما يضمره في نفسه من الرشوة كافية للنجاة من العقاب أو الحصول على غرضه بأي وجه كان، وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة لا يصح أن يقضي أمراً في مصلحة لأحد إلا بالرشوة، ولذلك يرون أن من الواجب على من التمس إنجاز أي عمل يتعلق بمصلحة أن يقدم إلى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالب به واجبات المصلحة التي أُنيطت بذمته، ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التي لا تشمئز منها طباعهم ولا يستنكرها أحد منهم، بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل.

ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت خالية عَن عناد خصم أو تدليس محتال، ولا يكتفي بذلك في اقتضائها فيسارع إلى الرشوة يدفعها لمن يرجع إليه تخليص حقه غنيمة باردة، وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع إليه في قبولها منه لظنه أنه لا نجاح بدونها، وليس ذلك إلا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدنياء الهمم تقرباً لذوي المناصب وتذللاً خبيثاً لا يجوزه الشرع ولا قانون البلاد، وتنفر منه كل نفس ذي إحساس إنساني مع أن حفظ الأموال من الضياع في ما لا ينبغي وصرفها في وجوهها الضرورية أليق بفعل العقلاء وأصون لمحرمات القانون وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة، وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة.

٢٠٤- آثار منافع الصبر ومضار القنوط واليأس

الصبر أصل تفرعت منه فروع البر والإحسان، وأس بنيت عليه قواعد الطاعة والإيمان، وهو حصن منيع المكان مشيد البنيان وجنة واقية وعزة باقية وقطب كرة الأمور وعليه جميع الأحوال تدور، فليس شيء من الفضل إلا والصبر سببه وإليه منتسبه. قال تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ [القصص: ٥٤] ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الصبر كنز من كنوز الجنة». وقال الشاعر:

وقـلْ مـن جدَّ في أمرٍ يؤمّلُهُ واستصحبَ الصَّبرَ إلا فازَ بالظَّفرِ

وجميع خلال الخير وخصال البر وأحوال الطاعة، وما جعل اللّه في الإنسان من حسن الشيم وكرم الأخلاق وأسباب الديانة وداعي الإيمان، إنما هي كلها مرتبطة بالصبر، كيف ما تأملتها وعلى أي حال تدبرتها، فحينئذٍ جميع أحوال الدنيا كلها من السراء والضراء مفتقرة إلى الصبر راجعة إليه سواء أكانت النفس راضية إليه أم كارهة له.

وأما القنوط فهو خلة ذميمة وخصلة سقيمة يوهن القوى الجسمية ويميت القلب ويعظم الخطب ويضعف النفس ويورث اللبس ويدل على فساد الطبيعة ويبعث على مخالفة الشريعة، ولا يسكن إلا القلوب المعتلة ولا يألف إلا العقول المختلفة، فويل للهلوع الجزوع، ما أتعس حياته وأكثر آفاته يقل صبره لما ينزل ويسوء ظنه بما يستقبل، فلا يزال أخا فكرٍ ووجل عمره متصل بالنكد والخجل.

قال لقمان لابنه: «واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور». فإن الإنسان إذا أطاع نفسه وأهملها وأسلمها ليد الجزع وأغفلها ولم يحملها على الصبر فيما دهمها فقد بخسها حقها واحرمها وهانت عليه وما أكرمها فسكنت إلى الجزع وامتنعت من السلوان، وقالت الحكماء: من قل صبره وعظم عليه أمره وضاق عن حمل ما نزل به صدره، فقد تبين كفره، لأنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس.

ضجرُ الفتى في الحادثاتِ مذمةٌ والصَّـبرُ أليقُ بالرِّجـال وأوفـقُ

٢٠٥- في التأني السلامة وفي العجلة الندامة

لا تعجلنَّ بأمـرٍ أنـتَ طالبـهُ فقلَّما يـدركُ المطلوب بالعجـلِ
فذو التاني مصيبٌ في مقاصـدهِ وذو التَّسرعِ لا يخلو من الـزللِ

إن التاني في العمل دعامة النجاح ومصدر الفوز والفلاح ومحور الحزم وعضد العزم وحسن السلامة وصراط الاستقامة به تسود الممالك وتنجو من العطب والمهالك. قال اللّه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ [الحجرات:٦]. وقال عليه الصلاة والسلام: «من تأنى أصاب أو كاد، التاني من اللّه». وقيل من تأنى نال ما تمنى، وقيل يد التاني تجني ثمرة السلامة، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة. وقال الشاعر:

الرفق يمنٌ والأناةُ سعادةٌ فتانّ في أمرٍ تلاقِ نجاحاً

وما أتعس العجلة والإسراع في الأمور، فكم بذلك اندثرت مدن وقصور، وما أشق من ارتدى برداء الاستعجال ولم ينظر إلى ما وراء ذلك في الاستقبال من تقلبات الأحوال.

وقد نهى المولى عن العجلة فقال: ﴿أتى أمر اللّه فلا تستعجلوه﴾ [النحل:١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «العجلة من الشيطان ومن تعجل أخطأ أو كاد».

وقال بعض الحكماء: من استعجل في أمر قبل أوانه، عوقب بحرمانه.

قد يدركُ المتأنّي بعضَ حاجته وقد يكونُ مع المستعجلِ الزللُ

ومن تأمل بعين البصيرة في حكمة خلق المولى تبارك وتعالى العالم في ستة أيام مع كونه قادراً أن يخلقها في أسرع من لمح البصر يرى مزايا التأني الواجب شرعاً اتباعه.

٢٠٦- الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك

ولا أؤخرُ شغلَ اليومِ عن كسلٍ إلى غدٍ إنَّ يومَ العاجزين غد

نعم، إن الوقت سيف قاطع وبرق لامع ومن الحزم انتهاز الفرصة وترك التواني فيما يخاف فيه الفوت

وانتهزِ الفرصةَ إنَّ الفرصةَ تصيرُ إن لم تنتهزها غصة

ومن أعظم المصائب فوات الوقت بلا فائدة واكتساب عائدة. قال تعالى: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا اخترتني إلى أجل قريب﴾ [المنافقون: ١٠].

وقال بعض الحكماء: اغتنم بياض النهار قبل العشية. وقال الشاعر:

إذا ضيعتَ أوّل كلّ أمرٍ أبتْ أعجازه إلا التواء

فالعمر قصير وترتيب الأوقات يطيله والناس مبصرون، ولكنهم عن قيمة الوقت عميان.

يسرُّ المرء ما ذهبَ الليالي وكان ذهابهُنَّ لهُ ذهابا

فمن اتخذ اليقظة نبراساً وانتهاز الفرصة أساساً، هانت عليه عظائم الأمور وعظمت مهابته في الصدور، وخف عنه عبء الصعاب وانفتح له من الخيرات كل باب.

ومن نبذ انتهاز الفرصة، فلا شك أنها تتقلب عليه غصة ويقع في حيرة لا يدري كيف العمل، وقد سبق السيف العذل، لأن الماضي لا يرد والمستقبل ليس في اليد.

وعاجزُ الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتبَ القدرا

فالزمان إذا مرّ على الإنسان بدون فائدة، ولا اكتساب عائدة لا يحسبه العاقل من عمره ويظنه الجاهل من سعده وخيره.

إذاً فإنني يوم ولم أصطنعْ يداً ولم أكتسبْ علماً فما ذاك من عمري

قال حكيم: لا تؤخرن عملاً عن وقته فإن للوقت الذي تؤخره إليه عملاً آخر، ولست تطيق ازدحام الأعمال لأنها إذا ازدحمت دخلها الخلل.

وبالجملة: إن ضياع الوقت لا يوازيه شيء آخر سواه مهما كان نفسياً فإذا فرطت في متاع عزيز أو تحفة ثمينة أمكنك استردادها بضرب من ضروب الحيل أما إذا فرطت في ساعة من عمرك وأضعتها بدون أن تكتسب فيها خيراً أو محمدة لا يمكنك استرداد تلك

الساعة ولو بذلت في سبيلها ملء الأرض ذهباً. فالوقت إذاً أثمن من الذهب والجواهر الكريمة وأعز من كل غال نفيس.

حياتُك رأسُ المالِ والعلمُ ربحهُ ... وأخلاقُ أشراف بهنَّ تصدرُ
وموسمُك الأيّام فلتكُ حازماً ... وإلا فذو التّفريط لا شكَّ يخسرُ
ومن ضيَّع الأوقات ضاعتْ حياتهُ ... وعاش فقيراً جاهلاً ليس يشكرُ
ودعْ غائباً من فائتٍ ومؤمل ... فوقتكَ سيفٌ قاطعٌ ليس يعذرُ

٢٠٧ - أيهما أقوى نفوذاً سلطان الحاكم أم سلطان الدين؟

إن راحة المجتمع الإنساني وتقدم العمران معقودان بحافظين:

أحدهما: الوازع الباطن وهو (سلطان الدين).

وثانيهما: الوازع الظاهر وهو (سلطان الحكومة).

أما الوازع الباطن فهو سائد على كثير من عباد الله، وإليه يستند كل ما نجده من الخير في العبادات والمعاملات، إذ هو المظهر الحق للناس المبين لهم الطرق المؤدية لخيري الدنيا والآخرة، فيميزون بين الحسن والقبيح ويفرقون بين السقيم والصحيح، ويستحضرون خالقهم في السر والجهر، فيديمون لبعضهم الائتلاف والإخاء والإخلاص والولاء، ويسعون جميعاً فيما به طيب حياتهم وتشييد ملكهم لأن الجامعة الدينية أهم أسباب سعادة الأمم وتقدمها، ولكن يا للأسف قد اعتل في صدور من إذا عرضت لهم الشبهة ترددوا، وترحل عن صدور أدعياء العلم الذين لن يوجد أبعد منهم عن الصواب في هذه المسألة، وبالأسف أننا قد ابتلينا بضعف سطوة الوازع الديني وخذل قوته ووهن شوكته فنحن إذاً في زمن أحد الوازعين فيه عليل وهو سلطان الدين. والآخر صحيح وهو سلطان الحكومة.

وهذا الوازع الصحيح هو في أصل طبيعته لا يبصر ما يبصر ذاك، ولا يتوصل إلى ما يتوصل إلى معرفته من الحوادث السرية والوقائع الخفية، وشتان ما بين الغائب والشاهد، فكيف به وقد صار ملتزماً أن يسد مسد أخيه عند من لم يبق لهم والعياذ بالله وازع الباطن.

٢٠٨- الكرم يبعث على ارتياح في نفوس الكرام

إن الكرم اسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل، ولفظ جامع لمعاني السماحة والبذل، فالجود فعل محمود وعز موجود، ومن جاد فقد ساد. قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال عليه الصلاة والسلام: «السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخلته الجنة، ألا وإن السخاء من الإيمان والإيمان في الجنة».

بخلاف البخل فإنه أدنى خلة وأودى علة. قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم اللّه من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾ [آل عمران: ١٨٠]. وقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك من البخل». وقال الشاعر:

وآمرةٌ بالبخلِ قلتُ لها اقصري فليسَ إلى ما تامرينَ سبيلُ
أرى النَّاسَ خلان الجوادِ ولا أرى بخيلاً له في العالمين خليلُ

وقال بعض الحكماء: ثواب الجود ثلاثة خلف ومحبة ومكافأة وثواب البخل مثلها تلف ومذمة وحرمان، وقال آخر: لو كان شيء يشبه الربوبية لقلت الجود وقال عليه الصلاة والسلام: «البخل جامع لمساوي القلوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء». وعنه أيضاً أنه قال: «السخي قريب من اللّه وقريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، ولجاهل سخي أحب إلى اللّه من عابد بخيل».

وقيل: ذللوا أخلاقكم للمطالب وعودوها على المحامد وعلموها المكارم وتجلوا بالجود يلبسكم ثوب المحبة، فمن جاد ساد ومن ساد شاد، وخير المال ما أفاد حمداً ونفى ذماً وصان عرضاً وأدى فرضاً.

وقصارى القول، إن الجود وصف حميد لا يدرك شانه وكماله ولا يبلغ المديح غاية حسنه وجماله.

لنعمَ الجودُ ساتر كلّ عيبٍ وبئس البخلُ كشّاف العيوب

وكم مدحت به رجال وأحيا ذكرهم على مرّ الأيام والليالي فمن هو حاتم وكعب بن أمامة ومعن بن زائدة والفضل ويحيى وغيرهم ممن دمرهم الدهر، لولا أن الجود حفظ ذكرهم ونقش أثرهم على صفحات الأيام وضرب بهم الأمثال لنسخ ذكرهم من الألسنة.

والبخل كشاف المعائب فضاح المثالب يجعل صاحبه مضغة في أفواه المذام وسبة في ألسنة الخواص والعوام.

٢٠٩- رضاء جميع الناس غاية لا تدرك

ولقد طلبتُ رضى البريّة جاهداً فإذا رضاهمْ غايـةٌ لا تُـدرك

إن من الناس من يتقلد أسنى المراتب وأسمى المناصب ويحكم السياسة ويرأس الرياسة ويراعي فيهما إرضاء الخالق والمخلوق ولا يلهيه نعيم الصفاء وصفاء النعيم عن تعهد الضعيف وتفقد اليتيم وعن إسداء المبرات إلى ذوي الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى المهضوم، حيث يعلم أن أحب الناس إلى اللّه أنفعهم لعباده وأُكيس الكيسى من عمل لمعاده، وإن من ولي الأمور وجب عليه إسعاف الجمهور بدون تفرقة بين الخامل منهم والمشهور، فمثله مثل الربان الذي يدخر الزاد في سفينته ويحكم السكان ولا يبحر إلا على أمان ولا يرسو إلا وهو ذو اطمئنان.

أجل، إن أحوال الإنسان في معاشه تشبه السفر في البحار إذ هي محفوفة بالأخطار والأكدار، فبينما يكون فيها رخي البال مغبوط الحال ذا أعوان ومال إذ بالزمان قد أخنى عليه فالتفت به كوارثه وشملته حوادثه حتى تكاد تنضب عنه مزاياه وتشين سجاياه فيخيل للناس أن تلك الرئاسة التي نالها والمعالي التي طالها، إنما كانت عرضاً واتفاقاً وأنها كانت عارية عنده لا خلاقاً، وإن في وسع كل إنسان أن يدركها مثله إذا ساعده الزمان، إذاً فلا غرابة في أنه لا يتأتى لأحد ولي الرئاسة، وإن انتهت إليه الشهامة والكياسة أن يرضي جميع الناس ويستخلص مودتهم له من دون التباس، فإن أغراض الناس متفاوتة متباعدة ومقاصدهم متباينة متعاندة وأهواؤهم كهبوب الرياح لا تستقر على حال من الأحوال.

إذا رضيتْ عنّي كرامُ عشيرتي فلا زال غضباناً عليَّ لئامها

ومنهم من يتقلد المناصب عفواً وهو غير مترشح لها، فتجمح به إلى حيث تلتوي عليه الأمور وتتجاذبه جواذب المحذور من المقدور، فيخبط خبط عشواء وتطوحه الأهواء كيفما يهوي ويشاء.

٢١٠- أيهما أهنأ للمرء الصحة أم الثروة

الصحة أجل النعم التي أنعم اللّه تعالى بها على الإنسان وأرفعها مقاماً، إذ بها يطيب العيش ويهنأ البال. قال عليه الصلاة والسلام: «إذا أصبحت معافاً في جسمك آمناً في سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء». فالصحة لا يوازيها مال ولا يقوم مقامها عز ولا جاه، لأنها الأصل الذي تتفرع عنه الأعمال، والأساس الذي تبنى عليه الخيرات. قال عليه الصلاة والسلام لرجل كان يستمر في الصوم: «إن لبدنك عليك حقاً».

وقال بعض الحكماء: الزم الصحة يلزمك العمل، وماذا تجدي الثروة إذا أصبح الإنسان في آلام، وماذا يفيد المال إذا وهنت الأجسام.

لا أستلذُّ العيشَ لا أدأبُ لهُ سعياً وكذا في الهواجرِ والغلس
وأرى حراماً أن يؤاتيني الغنى حتى يحاول بالعناء ويلتمس

فالصحة هي عين الغنى التام وظلال الأمان والسلام. قال عليه الصلاة والسلام: «ما رأيت أهنأ من العافية».

وقد قال بعض الحكماء: إن من أهم شروط النجاح في دار الدنيا أن يكون الإنسان قوي البنية، ومن أهم شروط عزة الأمة أن تكون أفرادها أقوياء، لأن النجاح في الصنائع للقوي من الصناع.

وقد أجمع العقلاء على أن القوة العاقلة بدون الصحة معطلة لا يمكنها الوصول إلى

الغاية المقصودة منها إلا بها، ولذا كان الاعتناء بالتربية الجسدية ومراعاة جميع الوسائل الصحية أمراً لازماً حتى تتسنى تربية القوى المفكرة.

والجسمُ للرُّوح مثلِ الربع تسكنهُ   وما تقيمُ إذا ما خرّبَ الجسد

وبالجملة: فالصحة أثمن من الثروة، فإن الرجل يجود بثروته ليملك صحته، لأنه يستغني بالصحة عن الثروة بخلاف الثروة فإنها لا تغني عن الصحة شيئاً، فالحياة بدون صحة عبء ثقيل.

ومطالب الصحة انتظام العادات، والرياضة اليومية والنظافة والاعتدال في الأكل والشرب، فمن حافظ على هذه المطالب حفظ في الغالب صحته من الاعتلال وجسمه من الأسقام.

والصحة خير قنية ويتلوها الجمال ثم الغنى المكتسب بالطرق المحللة، ثم الشباب.

لذَّةُ العيشِ صحةٌ وهناء   فإذا وليا عن المرء ولّى

٢١١- أثر السكك الحديدية في المدنية والحضارة

إن الإنسان بواسطة هذه السكك صار يستغني في سفره عن عدة أشهر ببعض أيام، ومن عدة أيام بيوم أو بعض يوم فضلاً عما توفر عليه من ماله الذي كان يصرفه في سفره وما اكتسبه من الراحة، مما كان يكابده من المشاق والمصاعب والعوائق، فلا تروج صناعة ولا تتقدم تجارة ولا زراعة إلا بها، لأنها هي التي تنقل المصنوعات من بلد إلى بلد ومن مملكة إلى أُخرى، فيحسن حالها وتنقل حاصلات الزراعة من الثمار وغيرها فيزيد نفعها وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعتناؤهم بها.

ومما لا شك فيه أن هذه السكك قد سهلت من السفر كل خطر شديد وجعلت البلد البعيد أقرب من حبل الوريد، وسهلت المواصلات وقربت المسافات فعمت التجارة وعظمت الإمارة وتلألأ العمران في سائر البلدان، وتيسر للعلماء وأصحاب الصنائع السفر إلى البلاد البعيدة والاطلاع على أُمور كثيرة، وبذلك تتسع العلوم وتكثر الفنون وغير ذلك من منافعها التي لا تحصى ولا تكاد تستقصى والفضل في ذلك للمهندس الشهير (جورج ستيفنسن).

٢١٢- الشكر حجاب السعادة وجلاب الزيادة

الشكر ترجمة النية ولسان الطوية، وشاهد الإخلاص، وعنوان الاختصاص ومصدر السعادة وقيد النعمة ومفتاح الزيادة، وهو أمر محبوب ومرغوب فيه ومطلوب، فلو كان يجل عنه ماجد لعلو شأنه أو ملك لرفعة سلطانه، لما أمر الله عباده بشكره والتحدث بنعمته وبره.

فلو كان يستغني عن الشُكرِ ماجدٌ لعزَةِ نفسٍ أو علوٌ مكانِ
لما أمرَ اللّهُ العبادَ بشكرِهِ فقالَ اشكروني أيُها الثقلانِ

فشكر المنعم واجب، والثناء على المحسن أمر لازم، ونعمة الشاكر من النقص والنقص في أمان، ومن السمو والنمو في ضمان وهو تميمة لتمام النعمة، والسعيد من إذا أظلته النعمة لم يشتغل بسكرها عن شكرها، فإذا أونست النعمة بالشكر ربعت فتربعت وإذا أوحشت بالكفر نفرت وطعنت، قال اللّه تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم:٧]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الشكر نصف الإيمان».

وقال بعض الحكماء: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود وكفران النعم عنوان النقم.

قال سيدنا عمر رضي اللّه عنه: «النعمة داء ليس لها شفاء إلا الشكر».

الشكرُ أعظم ما حاولتَ ملتمساً بــه الزّيادة عــندَ اللّه والنَّاسِ

٢١٣- وصف حديقة الحيوانات

أول ما رأيته ملك الحيوانات واشباله في غابة من الغابات، وهو ملك مهاب حديد الظفر والناب (أسد) ضرغام وبطل مقدام، ثم رأيت رعيته على اليمين والشمال مرتبة على هذا المنوال (فالفيل) له خرطوم طويل يشبه الصولجان ويحكي في تلويه الأفعوان وأذنان كالترسين تحتهما نابان كالرمحين شديد الغيرة حقود يرتاح إلى الطرب (والزرافة) التي حازت أنواع اللطافة عالية الصدر منحطة الأواخر جميلة الأوصاف والمفاخر، (والنمر) شرس الأخلاق دم الفريسة بين يديه يراق وثباته لا تنكر وثباته أشهر من أن يذكر، (والفهد) خصره رقيق واضح الجبين يتبختر ذات الشمال وذات اليمين، (والدب) مشغوف باللهو واللعب كثير الشهوة والطرب يقبل التعليم والتأديب ويأتي من بحر فطنته بكل عجيب، (والذئب) الذي له الغدر شيمة والغنم لديه غنيمة، يألف الوحدة والانفراد ويسطو بانياب حداد، (والثعلب) رائغ وعن جادة الطريق زائغ وافر المكر والحيل يضرب بخديعته المثل، (والضبع) حضاجر كنيتها أُم عامر موصوفة بالعرج وتفترس كل من دب ودرج، (والنمس) صائل صائد ظهره عظم واحد وله يدان قصيران لا ينجو منهما طير ولا ثعبان، (والسنجاب) أبلق بطنه أبيض وظهره أزرق ياوي الأشجار العالية ويسكن الأماكن الخالية، (والظبي) كحيل الطرف ذكي العرف جميل الصفات حسن الالتفات، (والقرد النسناس) في خلقه ما يشبه الناس، معروف بالفهم والذكاء صبور على السراء والضراء، (والببغاء) جميل الصفات قوي على حكاية الأصوات فهمه صحيح ولسانه فصيح، (والهدهد) وافر الهداية نافر عن الضلالة والغواية، يميد في حلله الفاخرة ويميس كأنما ألبسه سليمان تاج بلقيس، فيا لها من روضة أنبتت السرور وحوت أصنافاً جمة من الثمار

والزهور وفي وسطها تلك الحيوانات التي لا أجمع بين أشخاصها وأسمائها ولا أتحقق من أحوالها وأنبائها. فتلوت إذ أدهشني جمعها وخلقها ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود:٦].

٢١٤- آثار التواضع عند الله والناس

لا ريب أن التواضع للناس من موجبات الألفة والائتناس.

وهو عبارة عن لين الجانب وخفض الجناح وهو خلق أهل العلم والصلاح. قال تعالى: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ [الحجر:٨٨]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل العبادة التواضع». وقال الشاعر:

تواضعْ إذا ما نلتَ في النَّاسِ رفعةً ... فإن رفيعَ القومِ من يتواضعُ

فالتواضع سلم الشرف وموجب الترقي إلى أعلى الغرف وهو أجل مزية وأفضل سجية وتاج الوقار وشعار الأطهار وشبكة الشرف وأشرف الشرف.

والكبر وصف في الأنام مذموم وصاحبه من الخيرات محروم، ممقوت من الله تعالى ومن العباد مسلوق طول حياته بألسنة حداد، بل صاحبه جدير بالخزي في حياته ومماته، بل هو قتيل شهواته ولذاته.

قال حكيم: «السنا إخوة هكذا يجب أن يكون الإنسان أخاً للإنسان غير أن خزفاً يختلف عن خزف في القيمة ولو كان من طينة واحدة».

وقال آخر: «الأحمق كالرمل المنهار كلما قومت منه جانباً انهار عليك جانب آخر». ومثله كالثوب الخلق إن رفأته من موضع تخرق من موضع آخر فالكبر عنوان الحماقة.

وليسَ الفقرُ من إقلالِ مالٍ ... ولكنّ أحمقَ القومِ الفقيرُ

ليت شعري، هل نسي المتكبر أصل وجوده ومنهل وروده واغتر بنفس عالية وحياة فانية وتكبر على معاشريه وترفع عن معاصريه، أما يعلم أنه من نطفة مذرة وسيكون جيفة قذرة وما بين ذلك حامل العذرة.

أرى أبنـاءَ آدم أبطرتهُـم ... معيشتهم من الدُّنيا الدنيّة
فلِـمَ بطـروا وأولهم منى ... أو افتخروا وآخـرُهم منيّة

فالمتكبر مشؤوم والمتعاظم مذموم، والتكبر من أخطر الخطوب وأكبر القبائح والذنوب. قال الله تعالى: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ [الزمر:٦٠]، ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ [لقمان:١٨]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر». وقال الشاعر:

وأحسنُ أخلاقِ الفتى وأجلُّها تواضعهُ للنَّاس وهـو رفيــعُ
وأقبحُ شيءٍ أن يرى المرءُ نفسه رفيعاً وعـند العَالمين وضيعُ

وبالجملة: فالكبر وصف محذور حامله ممقوت عند اللّه محقور، يضعه اللّه كلما ارتفع ويخفضه كلما طلع وهو أخبث سرائر القلوب وأعظم كبائر الذنوب، فلا يرى صاحبه أبداً إلا غليظاً فظاً، لا يرى لأحد سواه في الفضل حظاً، وقد قيل: «من ترك الكبر استوجب الشكر». فالتكبر على الملوك سخافة وعلى الأكفاء جهالة وعلى الأسقاط خساسة.

والتواضع سهولة الأخلاق مع الناس في مخاطباتهم ولين الجانب في معاملاتهم وتجنب العظمة والكبرياء والتباعد عن الإعجاب والخيلاء، وهو حلية يتحلى بها الإنسان إن كان عاطلاً ويرفع ذكره إن كان خاملاً، به يسمو في الدنيا قدره، ويعظم فيها المهجة فتحلت بما يروق لسان كل إنسان، وتجلت في رفرف خضر وعبقري حسان.

في روضة غناء غناها الصَّبا فترقصت طرباً غصون البان

ومن نظر إلى ما فيها بعين الحقيقة، وسرّح بصره في هذه الروضة الأنيقة، لشكر أيادي صانعها ولجأ إليه وأثنى على صانعها وإن كان لا يحصي ثناء عليه.

تأمّلْ في نباتِ الأرضِ وانظر إلى آثارِ مـا صنعَ المليكُ
عيون من لجين شاخصاتٌ بأبصار هي الذَّهبُ السبيكُ
على قضب الزبرجدِ شاهداتٌ بأنَّ اللّـهَ ليسَ لـهُ شـريكُ

٢١٥- مصر كنانة اللّه في أرضه من أرادها بسوء قصمه اللّه

لعمــركَ مــا مصـــر وإنَّمـا هي الجنَّةُ الدُّنيا لمن يتبصرُ
فأولادُها الولدانُ والحور عينُها وروضتُها المقياسُ والنيلُ كوثرُ

مصر مدينة ذات محاسن فيها أنهار من ماء غير آسن، روضة أريضة عيون أزهارها مربضة، وأنواع البركات من نهرها مفيضة ونوازع الهموم والغموم بها مربضة، كأنها بدر والنيل حولها هالة أو شمس في وسط سماء ليس عليها سحابة أو غلالة أو سرير ملك نصب في ميدان أو قلب جيش له مصر والجزيرة جناحان مقر العلماء الأعلام والقضاة والحكام، كم سكن بها من خلفاء اتخذ الطاعة شعاراً والامتثال دثاراً، يرى رؤساؤه تقديمه على غيره ويفضلونه على أمثاله من أبناء عصره، فينال منهم حسن الرضا وقت الغضب، ويفوز منهم بجميل النعم إذا طلب. قال اللّه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾ [النساء:٥٩]. فقد قرن وجوب طاعة الرؤساء وولاة الأمور بطاعة اللّه ورسوله لأنها عبارة عنها ونيابة منها، إذا سلك الرئيس الطريق الجادة ولم يتعد الحدود

المحدودة. وقال عليه الصلاة والسلام: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي». وقال الشاعر:

إن شئتَ أن تحظى بالسَّعادة والمنى فأطعْ ولاةَ الأمـــرِ في حسنِ امتثالِ

٢١٦- أهمية التربية لدى الأمم الراقية

التربية طريق النجاح وسبيل الهدى والفلاح، بها يرتفع الإنسان من حضيض الهمجية إلى ذروة المدنية، وبها تستنير الأفهام ويعلم الحلال من الحرام، بها يعرف الإنسان ما ينفع وما يضر ويحزن ويسر، بها يعلم المرء ما عليه وما له، وهي التي تصلح شأنه وتحسن حاله، بها يعلم الخير فيقتنصه ويحرزه والشر فيجتنبه ويتجاوزه وهي زينة الشباب وحلية المشيب، بها يزدان المرء في جميع أدوار عمره ويتحلى بها في صغره وبعد كبره. فكلما وجد في الأمة دعاة نصبوا أنفسهم لنشر الفضائل بين بنيها، وخصوصاً ثمين أوقاتهم لغرس بذور التربية في مروج أذهانهم، وعرجوا بهم عن مناهج أضداد الكمالات الإنسانية من حيث هي مبادئ إلهية، كلما ركزت فيهم الملكات الفاضلة وانطبعت فيهم الغرائز الكريمة، ومالوا عن الشرور إلى الخيرات، وكلما تقوى هذا المبدأ الشريف بين أفراد الشعب كلما أخذوا في الارتقاء إلى معارج الفلاح وتدرجوا إلى أعلا مراتب النجاح. قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فما أطيب ثمار التربية والتعليم وما أحسن غرس بذور العلم في نفوس الناشئين والناشئات، أما إذا انفصمت عرى هذا المبدأ وتداعت قوائمه وتناسى القائمون بالدعوة شأنها، وأهملوا أمرها فأغفلوا النداء لأمهات الأخلاق السامية وغضوا النواظر عن تقويم الأفكار، وتثقيف العقول وتهذيب النفوس بالتربية والآداب أسرع الفساد إلى أفراد الأمة، وتمكنت من نفوسهم الرذيلة وتغلبت عليهم الشهوات السافلة فتجنح ميولهم دائماً إلى الشر وتحل النقيصة منهم مكان الفضيلة، وتنحل جامعتهم فيكونون قلوباً شتى لا رابطة تربطهم ولا جامعة تجمعهم، وهنا تنحط الأمة إلى أسفل السافلين.

فسعادة الأمم والمجتمع الإنساني إنما يكون بالتربية الفاضلة وتهذيب النفوس ودعوتها إلى الخير ودربتها على الكمالات الإنسانية حتى تصير لها ملكات وغرائز، وأنه يستحيل أن تتوجه أُمة من الأمم إلى الوجهة المثلى وجهة الفلاح إلا بطريق التربية التي هي تثقيف عقل الأبناء بالمبادئ الفاضلة (من العلوم والمعارف) وتروض روحهم بالأخلاق الطاهرة، وتعود أنفسهم على العادات النافعة وتهذب أفكارهم بالآداب السامية وآداب الشريعة والدين ودستور البلاد، ذلك هو منهاج الفلاح ومعراج النجاح، هذا هو سر استواء هذه الأمم على عروش السعادات، هذا هو الينبوع الذي سوغ للغربي أن ينتحل لنفسه حق الرئاسة في الشرقي.

وبالجملة: فالتربية رأس مال لا يفنى وهي نوعان: نفسية وجسمية، فتربية النفس تكون بقلع الرذائل منها وغرس الفضائل فيها، وهي من الأسرار التي عليها مرقاة السعادة الدنيوية والأخروية، وإنما تفيد ببث روح العقائد الدينية في قلوب الناشئين وعدم إكراههم على تحمل الأذى حتى يشب المرء على حسن الخلق وصفات الكمال كالمروءة والشجاعة والصدق والكرم، ويكون بعيداً عن المنكر والشرور لا يكدر وجه الآداب كي يصبح مألوفاً محبوباً يهدي إلى الهدى ويصد عن الهوى.

وعوامل التربية كثيرة منها الأم والأب والمؤدب والمكاتب والمدارس وهي أهمها، ولذا تجد التربية تتفاوت إلا أنها أعظم من التعليم، إذ بصلاح التربية تصلح الأمم وبفسادها يفسد الكون، فويل لأمة لم تعتن بها، ووالله ما امتلأت السجون ويتّمت الأطفال واستحكمت حلقات الجهل وعمَّ الضلال إلا بترك التربية، وإن الشخص الذي يهمل ليكون من أشد الوحوش الضارية وأحط من البهائم، ومن تربى تربية صحيحة خليق به أن يقود الأمم ويرفعها إلى أوج السماكين، ويكون من الداعين إلى إعلاء كلمة الحق ورفع منار الإسلام ببيان أسراره وأوامره ونواهيه وزواجره التي هي أس كل عدل وناموس كل عصر ونظام كل ملة.

والتربية أنجع ما تكون في الصبا الذي بفواته يفوت المرء ما يؤمله من طلب السعادة، ولذا كانت فيه من أهم المطالب، فإن المرء في صغره كالغصن في أوانه يقبل التقويم والتعديل. ولذا قال محيي الدين بن العربي:

لا تسهُ عن أدب الصَّغـــير وإن شكا ألم التَّعبِ
وذرِ الكـبيرَ فإنَّـــهُ كبر الكبيرُ عن الأدبِ

لأنه مت أخذ في مبدئه بالتهذيب والتطبع بالأخلاق الفاضلة والمقاصد الشريفة انقاد إلى ما يوحي إلى فطرته الأولية، ونشأ على ما تعود وجبل وسهل عليه فيما بعد صنيعة الخير بقدر بُعده عن الشرور والرذائل، ومعلوم أن التربية النفسية أفضل من التربية الجسمية إذ أن الأولى راجعة إلى الروح، والثانية راجعة إلى الجسم.

يا خادمَ الجسم كمْ تشقَى لخدمته اتطلـبُ الـرِّبحَ مما فيـه خسرانُ
انهضْ إلى النَّفسِ واستكملْ فضائلَها فأنت بالـرُّوحِ لا بالجسـم إنســانُ

٢١٧- لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب

من دلائل الحكمة وأفضل الفضائل المهمة، الصمت وقلة الكلام احترازاً عن الوقوع في الآثام، لأن من كثر لغطه كثر سقطه، ومن تكرر مقاله سئم ومن كثر سؤاله حرم، فكلام الإنسان بيان فضله وترجمان عقله وكل يعرف بقوله ويوصف بفعله، ورب قول أنفذ من صول وطعن اللسان أنفذ من طعن السنان، وجرح الكلام أوجع من جرح الحسام.

فالأولى بالإنسان صون اللسان وهو صغير الجرم كبير الجرم.

جراحاتُ السِّنانِ لها التئامٌ ... ولا يلتامُ ما جرحَ اللسانُ

فالكلام دواء إن قلّ نفع، وإن زاد وكثر صدع.

إنَّ القليلَ من الكلامِ بأهلهِ ... حسنٌ وإن كثيره ممقوتُ
ما زل ذو صمتٍ وما من مكثرٍ ... إلا يزل وما يعاب صموتُ
إن كان ينطقُ ناطقٌ من فضلهِ ... فالصَّمتُ درٌّ زانه ياقوتُ

الخطأ بالصمت يختم والخطل بالكلام لا يكتم. قال عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

الصمتُ يكسبُ أهله ... صدقَ المودَّة والمحبَّة
والقولُ يستدعي لصاً ... حبه المذمَّة والمسَّبة

وقال بعض الحكماء: الزم الصمت تعد في نفسك فاضلاً وفي جهلك عاقلاً وفي قدرتك حليماً وفي عجزك حكيماً، وإياك وفضول الكلام فإنها تظهر عن عيوبك ما بطن، وتحرك من عدوك ما سكن.

وقال آخر: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو كلمة تفسرها أو حكمة تنشرها.

الصمتُ زينٌ والسكوتُ سلامةٌ ... فإذا نطقتَ فلا تكنْ مكثارا
فلئنْ ندمتَ على سكوتكَ مرةً ... فلتندمنَّ على الكلامِ مرارا

٢١٨- إذا أراد الإنسان السفر براً فما الذي يستخدمه من الحيوانات الجمل أم الحصان؟

إن المولى سبحانه وتعالى كرم بني آدم حيث جعل له السلطة العامة على جميع الحيوانات وسخرها كيفما أراد، فسخر الخيل للركوب ولحمل الأسلحة عليها في الحروب تسبق السيل في السير معقود بنواصيها الخير وراكب ظهورها فارس، وهي أجل حافظ وحارس وزينة وعز وكنز وحرز. قال تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ [النحل:٨]. وسخر أيضاً الجمال لحمل الأحمال الثقال وقطع المراحل الطوال، مع مكابدة الكلال والصبر على مر النكال ولا يعتريها من ذلك ملال، تسير في الفيافي والصحراوات، وتتكبد الآلام والمشقات، زهداً وفقراً وجلداً وصبراً على العطش والجوع حتى تحل في أعطانها.

وحينئذٍ فالجمال أفيد في المواصلات كما أشار المولى إلى ذلك في الآيات: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ [النحل:٧]. فهي مطية

الصحراء ومركب البيداء، يتمكن راكبها من النوم عليها وتنقاد لمن بين يديها، بخلاف الخيل فإنها وإن كانت تقتحم الطريق اقتحام السيل، وتحوز قصبات السبق في ميدان السباق إلا أنها ليس لها طاقة على المشاق والصبر على الجوع والعطش بضع ساعات كما تصبر الجمال جملة أيام معدودات.

٢١٩- الطب والأطباء في الهيئة الاجتماعية

الطب علم تحفظ به صحة الأبدان، وهو كنز ثمين لما فيه من الفوائد الجليلة والمنافع العديدة التي تعود على الهيئة الاجتماعية بالخيرات والبركات المفيدة، وواسطة لقطع دابر الأمراض الوبائية واستئصال جرثومة الأوبئة الردية التي تكاد أحياناً تفتك بالنفوس فتكاً سريعاً وتزهق بأرواح العباد زهقاً مريعاً، وحينئذٍ صناعة الطب تهم كل طبقات الناس، والطبيب هو مطمح أنظار كل إنسان، رفيعاً كان أو وضيعاً، والإنسان من حيث أنه يميل بالطبع إلى البقاء ويخشى الفناء، كان مدفوعاً بالطبع أيضاً إلى الحرص على الصحة التي هي دعامة الحياة وقوامها والحرص على الصحة يتوقف على الأطباء الذين هم ركن عظيم في انتظام حال البشر، كيف لا وبعلومهم ينال المرء الهناء في عيشه والتمتع بصحته، والصحة من أكبر النعم على الإنسان بعد الوجود والإيمان.

وقصارى القول: إن الطب مهنة سامية وحرفة شريفة عالية وإن الطبيب رجل الشعب تتوقف عليه أرواح العباد، ولا يستغني عنه فرد من الأفراد فله المقام الأسمى والدرجة الرفيعة في المجتمع الإنساني ما دام متصفاً بمكارم الأخلاق وأمهات الفضائل مبتعداً عن قبائح الصفات والرذائل.

بالطبِّ صحَّتْ جسوم النَّاسِ من سقم   وبالأطباءِ اضحى الكون معموراً

٢٢٠- المال والبنون زينة الحياة الدنيا

المال روح تحيا به أجسام الممالك وسراج يضيء به ظلام الخطوب الحالك وسلطان قوي الشوكة والبطش شديد العزيمة والباس عليه قوام الصنائع وإبراز مكنونات العلوم ونجاح الاختراعات والمشروعات وقضاء الحاجات في جميع المهمات، فأي شخص رزق مالاً لحظته السعادة وامتدت عليه غصون السيادة، فللمال الأفضلية والأولوية في المنفعة على البنين. وبديهي أن الحامل للمرء على جمع الأموال والسعي وراء اكتسابها، إنما هو الحصول على ما يقوم به أود حياته من ماكل ومشروب وملبس، وكل ذلك مقدم على أمر التناسل وحب الأبناء. وكيف يكون للبنين فضل على المال وإنهم بدونه لا يصلح لهم حال ولا يستقيم لهم شان ولا بال.

قال بعض الحكماء: العاقل يتخذ المال قبل العيال، والجاهل يتخذ العيال قبل المال، وقيل: إني أعجب ممن له عيال وليس له مال، وقيل: العيال سوس المال. وقال الشاعر:

شيئان لا تحسنُ الدُّنيا بغيرهما ... المالُ تصلحُ منه الحال والولد
زين الحياة هما لو كان غيرهُما ... كان الكتابُ به من ربِّنا يرد

يعني قوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقصارى القول: إن الطبيعة البشرية لا ترى أفضل من المال ولا أعز منه، لا يماثله شيء في الوجود، فمقام صاحب المال ليس كمقام صاحب الأبناء.

٢٢١- وصف اللسان

اللسان أداة يظهر بها البيان، ومخبر يخبر عن مكنون الجنان وحاكم يحكم بفصل الخطاب وناطق ينطق بالصواب، وهو أعظم واصف تعرف بوصفه الأشياء وأكبر واعظ يأمر بالعرف وينهى عن الفحشاء، وأصدق شاهد يستدل به على الغائب وأعز شافع تدرك به المطالب، وأحسن سمير يسر به المخاطر والطف مؤانس لمحاسن الأخبار ذاكر، أرق نديم يرتاح إليه الخليل وأجل مادح يشكر فعل الجميل، وهو زارع ينبت الوداد وحاصد يذهب الضغائن والأحقاد، به تنكشف الحقائق وتتبين الدقائق، به يعرف مقدار العقل، وتتضح نتيجة المرء في الفضل. فاللسان للمرء كمرشد أمين، وترجمان للكلام، إذ به يفصح عما في ضميره ويحفظ الروابط والعلائق مع غيره، ويكفيه شرفاً أن ليس من الأعضاء شيء ينطق بذكر اللّه غيره، فالإنسان بدونه كبهيمة سائمة أو صورة ممثلة.

قال بعضهم: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو ضالة مهملة أو بهيمة مرسلة. وقال الشاعر:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصف فؤاده ... فلم يبقَ إلا صورة اللَّحم والدَّم

ومضار اللسان لا تحتاج إلى برهان، فمن لم يسجنه أوقعه في الذل والهوان، فأعقل الناس من كف فكه وفك كفه، وشر الناس من كف كفه وفك فكه، وقد قيل: (مقتل الرجل بين فكيه).

وقال بعض البلغاء: اللسان أجرح جوارح الإنسان. وقال الشاعر:

يصابُ المرءُ من عثرة بلسانه ... وليس يصابُ المرءُ من عثرة الرِّجلِ
فعثرتُه في القول تذهب رأسه ... وعثرته بالرجل تبرأُ على مهلِ

٢٢٢- عزَّ من قنع وذلَّ من طَمع

القناعة من أوثق أركان العبادة وأقوى أُصول الديانة المؤدية إلى السعادة، وهي ذخيرة لا تبلى مدى الأيام وكنز لا يفنيه مرّ الدهور والأعوام، بل هي جنة عالية قطوفها دانية، فمن

طلب العز طلبه بالطاعة، ومن طلب الغنى طلبه بالقناعة. قال عليه الصلاة والسلام: «القناعة شرف المؤمن في الدنيا، ومنزلته في الآخرة».

وقال بعض الحكماء: من قنع بماله استراح وأراح. وقال الشاعر:

أفادتني القناعةُ كلّ عزٍّ ... وهل عزٌّ أعزٌّ من القناعة

والطمع رق مؤبد ووثاق ذل موطد، ومن يكن هذا شعاره يكن الجشع دثاره، قال عليه الصلاة والسلام: «خيار المؤمنين القانع وشرارهم الطامع». وقال الشاعر:

طمع الفتى ذلٌّ وعزةُ نفسهِ ... عزٌّ وكم شرَه يجرُّ إلى شركِ

وقصارى القول: إن القناعة رأس الصلاح وأس الفلاح ومصدر الفوز والنجاح، والطمع من أقبح الخلائق وأذم العلائق يدل على الأخلاق البهيمية والغرائز الرديئة الدنية، لا يزال صاحبه أبداً مذموماً وبأقبح الصفات موسوماً قد تملك الجشع طبعاً، فلا تعرض له القناعة، ولو كانت الدنيا بأسرها متاعة، بل شانه أكل الدنيا خضماً وقضماً، ولو استطاع ما استوجب فيها أحد سهماً.

اقنعْ بأيسرِ رزقٍ انت نائلُه ... واصبرْ ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحرُ إلاّ وهو منتقصٌ ... ولا تعكّـر إلا فـي الزيادات

٢٢٣- لا نجاح لأمة نبذت آثار أسلافها

إن أفضل ما استدل عليه الخلف على أعمال السلف، الآثار المصرية التي هي من أهم العاديات فائدة وأعمها نفعاً من جهة العلوم والفنون، فإنها ترشد إلى الوقوف على فن التاريخ وتهدي إلى قديم عهد الأمة المصرية، وما لها من الذخائر التي انتفع بها من بعدها وما وضعته من الأساس الذي ابنى عليه التقدم لمن تاخر عنها، فقد كان لها اليد الطولى على أهل القرون الأولى، يشهد بذلك ما بقي بعدها من الآثار وما نقل عنها في كتب الأخبار من الأبنية الجليلة والصنائع الجميلة، فإن ذلك يعرب عن مزيد قدرتها وشدة مهارتها وعلو أفكارها، هذه الأهرام من الآثار الجليلة التي جعلها المصريون محلاً لمعارفهم وأثراً يستدل به من أتى بعدهم من الأمم على ما كان لهم من الأبهة والفخار والعظمة والاعتبار، فهو أثر يدل بصورته وشكله على قدر ما وصلوا إليه من العلوم الهندسية وعلم جر الأثقال وفنون أنواع العمارة، ويدل بوضعه الذي هو عليه وتوجيه رؤياه على انه أثر فلكي تعين به الجهات وتعرف الفصول والانتقالات فالمصريون كانوا بالغين النهاية في الفنون الهندسية، وكل من دخل أرض مصر وتامل ما بقي فيها من الآثار التي هي من أغرب العجائب يقف متحيراً ويطرق متفكراً، فلذا اعتنت الحكومة المصرية بشان تلك الآثار والحرص عليها وحفظها من ان تتولاها يد التلف والضياع أو يعتريها التغيير والتبديل.

وقصارى القول: إن بقاء الإنسان بالآثار إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

ليسَ الفتَى بفتى لا يستضاءُ بهِ ولا يكون له في الأرض آثارُ

٢٢٤- مضار الغيبة وقبائحها

إن الغيبة أذم الأفعال مقصداً وأخبث الأقوال معتقداً وأسوأ الأخلاق مذهباً وأصعب الأحوال مركباً، بل هي الداء العضال الوبائي الفاشي. قال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ [الحجرات:١٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الغيبة أشد من الزنا ومن شرب الخمر».

وقال بعض الحكماء: «من عاب وضيعاً فقد رفعه ومن عاب رفيعاً فقد وضع نفسه». فالغيبة: «وهي ذكر إنسان آخر بما يكره». شيمة الأوغاد وهي مجلبة للخراب والفساد، وجهد العاجزين وسمار الفاسقين - وليت شعري - كيف يأكل الإنسان لحم أخيه بحية فيه، فإن كان من وصفه فيه ما ذكره فقد اغتابه ودحره، وأظهر قبيحاً كان مستوراً وهتك ستراً كان مسدولاً وفضح ستراً مكتماً وأحل أمراً محرماً وما رعى ذمة ولا حفظ حرمة، وإن كان بريئاً مما أبان فإفك وبهتان وكلاهما تمزيق أعراض وآثام وأمراض، وهذا إذا كان الموصوف تقياً لا فاسقاً جهنمياً وإلا حلت غيبته وأسقطت درجته وهيبته لتهتكه بالمنهيات والمعصيات.

ما أقبحَ الشِّيم المخلَّة بالفتَى وأشـد منها شيمة الكذَّاب
وأشدّ من هذا وهـذا أن يُرى لهج اللِّسانِ بغيبةِ الغيَّاب

٢٢٥- مضار الحسد وأسبابه

إن الحسد أصل كل عداوة وأساس كل بلية ورأس كل خطية وسبب كل ملامة وجالب كل ندامة، بل هو نداء دوي وعرض خبيث دني يدل على فساد الدين وقلة اليقين، وما زال صاحبه كدر النفس نكد العيش قليل الإنس قد فارق القناعة وخزل الطاعة فهو حليف هموم وغموم ظالم في زي ظالم. قال تعالى: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ [الفلق:٥] وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». وقال الشاعر:

كلُّ العداوةِ قد تُرجى إزالتها إلا عداوة من عاداكَ بالحسدِ

فالحسد (وهو تمني زوال نعمة المولى عن أحد خلقه) وصف مذموم وصاحبه من الخيرات محروم، وكيف لا وهو كبيرة من الكبائر وجرثومة الفساد ومجلبة السوء بين العباد يجمع خصالاً مذمومة، ويقتضي أحوالاً منكرة وأسباباً مشؤومة منها بغض الحسود لغير سبب والحقد عليه دون ذنب وجب، ومنها إنكار الحق وإن ظهر وإصهار الباطل وإن استتر،

ومنها الاعتراض للفضيحة والتجافي عن النصيحة والتصدي لكل قبيحة، ومنها الامتناع عن جميع ما عند المحسود من الخير، وإن كان مفضل إليه.

قال بعض الحكماء: حاسد النعمة لا يرضيه إلا زوالها ولا يشقيه إلا انتقالها وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً ولا ينال عند الشرع إلا شدة وهولاً ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة وهواناً ونكالاً.

وأظلمُ أهلِ الأرضِ من كانَ حاسداً ... لمن باتَ في نعمائهِ يتقلَّبُ

٢٢٦- العاقل يعول على أدبه، والجاهل يعتمد على نسبه

أيُّها الفاخرُ جهلاً بالحسبِ ... إنَّما النَّاس لأم وأب

إنَّما الفخرُ بعقلٍ راجحٍ ... وبأخلاقٍ حسانٍ وأدب

الأدب كلمة جامعة لمحاسن الأفعال وأحاسن الأقوال وهو أكرم الخصال ورافع الأحساب، به يحصل المرء على الرغائب الجليلة ويتوصل إلى نجاح المقاصد الجميلة، يرفع العبد المملوك ويجلسه في مجالس الملوك، وهو زيادة في الفضل ودليل على العقل، وصاحب في الغيبة وأنيس في الوحدة، وجمال المحافل وزينة الأفاضل من لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جمالاً، ومن قعد به نسبه نهض به أدبه والمرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد، وبآدابه لا بثيابه وبفضيلته لا بفصيلته وبعقله لا بعقائله وبآبائه لا بأبنائه وبكماله لا بجماله.

كن ابنَ من شئتَ واكتسبْ أدباً ... يغنيكَ محمودهُ عن النَّسبِ

إنَّ الفتى من يقول ها أنذا ... ليس الفتى من يقولُ كان أبي

قال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالنسب ألا ترى أن أخوين لأب وأم يكون أحدهما أشرف من الآخر. ولو كان ذلك من جهة النسب لما كان لأحد منهما فضل على الآخر، لأن نسبهما واحد. ولكن ذلك من قبل الأفعال، لأن الشرف إنما هو بالفضل لا بالنسب.

أبوكَ أبي والجدُّ لا شكَّ واحد ... ولكنَّنا عودانِ آسٍ وخروع

وقصارى القول: إن من الناس من يتكل على حسب آبائه فيفتخر به لدى جلسائه وأخلائه في صباحه ومسائه، ولا ينهض لمآثره ولا يصبو إلى مفخره، بل شأنه أن يقول في كل مجال، إن أبي كان ذا فضل وجاه، وجود وإحسان حتى سارت بحمده الركبان، وشدا بمديحه كل قاص ودان، وهكذا يبني أوهامه ويضيع لياليه وأيامه ومن الناس من يقر بخسة

أصل أجداده، ولكنه يفتخر بجده واجتهاده حتى يحاول أن يستر بفضله ما بدا من عيب أصله، فإذا ذكر لأحد حسب، قال: لا حسب إلا الأدب ولا فخر للمرء إلا بنفسه لا بأصله وجنسه، وهذا القول في نفس الأمر صواب وهو الذي يعتمد عليه كثير من ذوي الآداب، وهو رأس مال الذين لا حسب لهم وعليه يجعلون معولهم، إلا أنه لا ينكر أن للأصول تأثيراً في الفروع عظيماً، فلا تكاد ترى ذا أصل زكي إلا وتتوسم فيه خلقاً وسيماً وشأناً كريماً، فإذا اجتمع الأصل والفعل واقترنا، كان ذلك غاية المنى، وإلا فإن الثاني خير من الأول وأكرم منه وأفضل.

وبالجملة: ليس الفضل خاصاً بطائفة من الناس دون طائفة ولا بأهل حرفة دون حرفة، بل الفضل صفة تكون بالإنسان على قدر ما يحوز من العلم والأدب فكما تكون في المهندسين والحكماء وكما تكون في التجارة وأهل الصنائع، تكون في آحاد الخلق من الفلاحين والصناع، فليس الإنسان بأصله وحسبه، بل بكمال عقله وحسن أدبه، فكم من امرئٍ مقطوع النسب وصل بأدبه إلى أعلى المناصب والرتب، وكم من ذي نسب وأصل هوى به جهله إلى درك الهوان والذل، وكم من حقير أزال بكمال عقله دناسة أهله وأصله.

لكلِّ شيءٍ زينة في الورى وزينةُ المرءِ تمامُ الأدبِ
قد يشرف المرءُ بآدابهِ فينا وإن كانَ وضيعَ الحسبِ

فالأدب مصباح النجاح وراح الأرواح وظرف اللسان ولطف الجنان.

٢٢٧- أيهما أفضل في بلادنا المصرية الصيف أم الشتاء؟

الصيف خفيف المؤونة جليل المعونة كثير النفع قليل الضر راحة الفقراء والمساكين ناشر زهور الرياحين ونبات البساتين.

مصيفٌ له ظلٌّ ظليل على الورى ومن حلا طعماً وحلل أخلاطاً
يعالج أنواعَ الفواكه مبديـاً لصحَّتها حفظاً يعجز بقراطاً

فالصيف فصل الخيرات والبركات وموسم ضم المحصولات التي هي أرزاق المخلوقات وأوان تكاثر المعاملات.

والشتاء كأس الهناء فيه تبرد المياه التي هي مادة الحياة ويتميز الفقير وصاحب الجاه، وينقطع الذباب والبعوض والهوام ويؤمن على الطعام والشراب والأجسام طول لياليه فرصة الكتاب والأدباء وتباري الأصحاب والأحباء، وغالباً يتمالك الإنسان صحته في فصل الشتاء.

ليت الشتاءُ يعودُ لي بنعيمه إن الشتاءَ غنيمةُ الكتاب
قصر النَّهارِ وطول ليلٍ ممتعٍ فيه يلذُّ بقينة وشرابِ

وحيث أن بلادنا المصرية في أعظم نقطة متوسطة في القارة الإفريقية معتدلة الهواء في فصل الشتاء تقصدها السياح من جميع الأنحاء، ويحلو للكل فيها كأس الصفاء، لا يكاد أحد ينكر فوائد الشتاء في هذه البلاد، ولا يجهل فرد مضار الصيف الذي تكثر فيه الأمراض الوبائية لجميع العباد، وينتشر فيه البلاء المصور والهواء الأصفر الذي أورث الحكماء الحيرة المسمى عندهم بالكوليرة.

قال بعض الحكماء: لا مرحباً بالصيف من ضيف، فهو عون على الحيّات والعقارب وناشر للذباب والخنافس والمصائب.

يتمنّى المرءُ في الصيف الشتاءَ ... فإن جاءَ الشتاءُ أنكره
ليس يرضي المرء حال واحد ... قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره

٢٢٨- صغار الأمور يولد كبارها

ترقَّ إلى صغير الامر حتى ... يرقيك الصغيرُ إلى الكبيرِ

لا يخفى ان الجزئيات أساس المركبات، والامور الصغيرة مصدر الكبيرة، وبقدر الاعتناء بالشيء تكون الثمرة، فالمعتني بصغائر الامور يجني من كبارها الفرح والسرور، والمهمل صغائر الاعمال يلعق كأس الذل والوبال، لأن المبني على الصحيح صحيح، والمبني على الفاسد فاسد.

لا تحقرنَّ صغيراً في مخاصمة ... إن البعوضةَ تدمي مقلةَ الاسدَ
وفي الشَّرارة ضعفٌ وهي مؤلمةٌ ... وربما اضرمتْ ناراً على بلدَ

فيلزم العاقل الاعتناء بالاشياء الصغيرة قبل استفحال الامور الكبيرة الخطيرة ولا يسول له الشيطان أنها أُمور حقيرة، فكم آفات طامة كبرى ومصائب مدلهمة عظمى، نشأت من عدم الاكتراث بصغائر الامور فأمطرت عليهم الخطوب مدرار الشرور.

كلُّ الحوادثِ مبداها من النَّظر ... ومعظمُ النَّارِ من مستصغَرِ الشَّررِ
كم نظرة فعلتْ في قلبِ صاحبِها ... فعلَ السِّهامَ بلا قوسٍ ولا وتر

وأعظم شاهد برهان العيان الذي لا يختلف فيه اثنان. فكم شاهدنا حروباً خطيرة كانت لأسباب صغيرة، وكلمة بسيطة جرت دماراً وخربت دياراً، وشرارة ضعيفة أضرمت ناراً. ولا غرو إن الاستهانة تجلب الندامة ولا ينفع الندم حيث زلت القدم، وإن الاعتناء حصن منيع وحرز رفيع يتقي به العاقل صدمات الشرور ويحفظ نفسه من مخالب الدهور.

وبالجملة: إن الحياة مؤلفة من أُمور صغيرة شان كل عظيم في الدنيا، ولا نجاح في مطلب من المطالب إلا باعتبار دقائقه الصغيرة ولو لم يكن لها قيمة في نفسها، والذين يقصرون نظرهم على كبار الامور ويهملون صغارها لا يسلمون من الفشل. اي أمر أقل

اعتباراً في عين السياسي المحنك والفيلسوف النقريس من تنظيف البيت وما فيه، ولكن نظافته تجيد صحة ساكنيه وتحسن أخلاقهم، وأي نفع أعظم من هذا من كل ما ألفه البشر في السياسة والفلسفة، واهتمام الناس بصغار الأمور يدل على اهتمامهم بكبارها.

قال حكيم: محك الرجال صغائرهم الأعمال.

٢٢٩- النميمة مصدر الضلال والفساد

النميمة من أقبح الخلال الذميمة تدل على نفس سقيمة وطبيعة لئيمة، مشغوفة بهتك الأستار وإفشاء الأسرار، وربما أدت إلى سفك الدماء وانتهاك المحارم، وهي جامعة بين النم والغيبة. فكل نمام مغتاب، وليس كل مغتاب نماماً. قال تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاءٍ بنميم﴾ [القلم: ١٠-١١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «شر الناس عند اللّه يوم القيامة ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث».

وقال بعض الحكماء: لم يمشِ ماشٍ، شر من واشٍ. وقال الشاعر:

تنحَّ عن النَّميمةِ واجتنبها ... فإن النمَّ يحبطُ كلّ أجر
يثيرُ أخو النَّميمةِ كلّ شرٍ ... ويكشفُ للخلائقِ كلّ سر
ويقتل نفسه وسِواه ظلماً ... وليس النمُّ من أفعال حر

فمن أوجب الأشياء على العاقل الحازم أن يحترس من النمام جهده ويجتنب مخاطبته ويعاف مجالسته ويزهد في صحبته ويرغب عن ممازحته ولا يثق به في حال من أحواله ولا يأتمنه في شيء من أقواله وأفعاله، فإن صحبته ضلال ومخاطبته خطر.

وقصارى القول: إن النميمة (نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على وجه الإفساد بينهم) من أعظم الذنوب عند اللّه تعالى. كيف لا تكون النميمة من أعظم الذنوب وأقبح العيوب وهي المفرقة للقلوب والباعثة للخطوب والمنزلة للكروب.

٢٣٠- فوائد البريد (البوستة) والأسلاك البرقية (التلغراف)

المخترعات في الدنيا كثيرة، وقد صارت سهلة بعد أن كانت خطيرة وأحسن عظيم اخترع وأفيد شكل غريب ابتدع (البريد) فقد قرب البعيد، (وجمع شمل الأحباب وحفظ روابط الألفة بين الأصحاب، وبه وقف التجار على حقيقة تجارتهم، مما راج وكسد ومما هبط وصعد، لا سيما ما أنجمه السلك البرقي من سهولة تعاطي الأخبار وإيصال نتائج الأفكار إلى جميع القرى والأمصار على تنائي البلاد والديار وبعد المزار، فأصبحت به البلاد المتنائية وأقطار الأرض الشاسعة والأماكن القاصية متصلة ببعضها حتى تيسر للإنسان أن

يخاطب صاحبه في كل جهات الأرض ويخابره ويحادثه مواجهة مشافهة وقربت الصلات التجارية والسياسية، وسهل على التجار معرفة الأسعار في جميع الأقطار باقرب من لمح الأبصار).

حقاً إنه بواسطة البريد والإشارة الكهربائية في البر والبحر صارت جميع بقاع الأرض متصلة ببعضها، والأخبار واردة من جميع جهاتها، ففي الأربع والعشرين ساعة تعم الأخبار جميع جهات المعمورة، فما أعظم مخترعات هذا العصر وما أجمل فوائدها.

٢٣١- السباحة في الماء تبعث على الرياضة والشجاعة

إن مما يفيد الشبان صحة في الجسم ونشاطاً وقوة في الأعضاء والعضلات (السباحة) إذ هي كافلة بالاستحمام وتقوية الأعصاب والأجهزة البدنية، فإن حركة الذراعين توسع الصدر وتقوي الرئتين لذي الشهيق والزفير، وقد اعتنى بها الأمم القديمة والحديثة بتعليمها للابناء، فكان الرومانيون يجعلون السباحة من جملة العلوم التي تأخذ بها الأبناء، وبلغ شغفهم بها إلى أنهم كانوا يضربون المثل للجاهل الذي لا يعرف شيئاً بقولهم، هو لا يعرف القراءة ولا السباحة وكتب عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه إلى الامصار بتعليم الأبناء العوم والفروسية. وترى اغلب سكان أوروبا يأمرون الأبناء بتعلمها.

فسكان السواحل يقيمون على البحار حمامات مخصوصة للسباحة، وأما سكان المدن التي لم تكن على البحار فيقيمون ضمن حماماتهم محلاً متسعاً أشبه بميضأة عميقة ومستطيلة لتعليم السباحة أمام معلمين ومعلمات، وقد قال احد فلاسفة اليونان: الصلاة للأديان والنجوم للأزمان والسباحة للأبدان.

٢٣٢- آثار الرياضة البدنية في الأمم

قد ألف جل شانه بين الجسم والنفس فكل يشارك الآخر في أحواله من السرور والحزن والقوة والضعف، فلا تكاد ترى من ضعفاء الجسم قوة النفس وخفة الروح ومضاء العقل ودوام العمل ومن انصاع إلى الدعة والسكون، وأجاب داعي الكسل والخمول عاش ولا ريب كثير الأمراض لا يفرح بالوجود ولا يلذ بالحياة.

والحركة البدنية داعية إلى صحة الجسم وإلى نشاطه حيث تبعث فيه قوة على تحمل التأثيرات الجوية ليكون بعيداً عن الأمراض وتكسبه رشاقة القد وحسن القوام وجمال الاعضاء وتحفظ من إرادة الإنسان وتضبط من تخيله وتوليه نفوذاً وسلطاناً على الجسم وميلاً إلى العمل والدوام عليه وسروراً بقبول الآثار الظاهرية وارتياحاً إلى مصادمتها، وقد قررت الأطباء أن عمل العضلات يدعو إلى دوران الدم وسيره في سائر الأعضاء

فتتخلص الرئة والأجهزة الباطنية ومركز مجموع الأعصاب من كثرة الدم، وإن عدم الانتظام في سير الدم يوقع الجسم في الأمراض ويضعف أعضاء التحليل، وبذلك يجد الإنسان من نفسه ميلاً إلى الضعف والكسل وعدم إرادة الحركة، ويؤدي ذلك إلى عدم القدرة عليها فيما بعد، وتستولي عليه السوداء ويصير قليل الصبر قلق الخاطر كثير الهواجس ويلحظ الدنيا بعين ملؤها سخط وكراهية إلى غير ذلك من الأمراض الجسمية والعقلية التي تكدر صفو المعيشة وتجعل الحياة مرة.

وكانت الرياضة البدنية لدى الأمم القديمة، ولم تزل الآن في أُمم أوروبا أهم موضوع لتربية الأبناء فكانت هي والموسيقى الأساس الوحيد للتربية لدى اليونان، فالموسيقى لتهذيب نفوسهم وترويحها وتربية ذوقهم الأدبي، والرياضة البدنية لتقويم الجسم حتى تكون صورته مشخصة للنفس المهذبة في جسم صاحي الحواس نشيط الأعضاء.

وكانت العرب كثيري الرياضة والألعاب دعاهم إلى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والذود عن الشرف والميل إلى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وحب النشاط وسرعة إجابة المستغيث، ثم إن للرياضة البدنية أنواعاً كثيرة كالعدو (أي الجري السريع) وتسلق الجبال وحمل الأثقال والرمي إلى الهدف ولعب الكرة وركوب الخيل والسباحة والتجذيف وأعمال الفلاحة والصناعة وحركة الجمباز.

٢٣٣- تأثير السياحة مادياً وأدبياً وصحياً في نفوس السياح

سحْ في البلادِ إذا أردتَ تعلُّماً ... إن السياحةَ في البلاد تفيدُ

إن ميزان الأخلاق ومنهل الأرزاق ومحيي الأموات في جميع الأوقات، هو السفر إلى بعيد الأماكن ومفارقة المساكن.

بـلادُ اللّـه واسـعةُ الفضـاء ... ورزقُ اللّه في الدُّنيا فسيح

فقلْ للقاعدينَ علـى هـوانٍ ... إذا ضاقتْ بكم أرضٌ فسيحوا

إذ أول مزايا السفر معرفة المرء طوائف الرجال واكتساب حميد الخصال، فيقارن المرء أخلاقه بأخلاقهم وعاداته بعاداتهم فما باين أخلاقهم الفاضلة هجره، وما شذ عن عاداتهم الكاملة كفره فتنسج أخلاقه على منوال الفلاح وتوزن بميزان النجاح وتتحلى بزينة الفضل وتتخلى عن وصمة الرذائل.

سافرْ إذا حاولتَ قدرا ... سارَ الهلالُ فصار بدرا

وثاني مزاياه أن يعرف أساليب الأرزاق ميسورة الوفاق قريبة المنال كثيرة النوال، بعيدة المواقع جليلة المنافع، فالسفر أحد أسباب العيش التي بها قوامه وعليها نظامه،

فبالأسفار ترى العجائب وتجلب المكاسب، تزيدك علماً بقدرة اللّه وحكمته وتدعوك إلى شكر نعمته.

وإن نبتْ بك أوطانٌ نشأتَ بها فارحلْ فكلٌّ بلادِ اللّه أوطانُ

وثالث مزاياه: أن يرى الإقرار بفضائله وحسن شمائله، لأنه في بلده مهجور وفي غيرها مشهور كما هي سنة الإنسان في كل مكان وزمان، وفي محله لا تعزى إليه فضيلة ولا تنسب إليه جميلة، فإذا جاوز الإنسان بلاده نال ما أراده.

وما بعضُ الإقامة في ديار يهانُ بها الفتى إلا بلاءُ
وبعضُ خلائق الأقوام داء كداءِ البطن ليس له دواءُ
ولم أرَ كامرئٍ يدنو لخسف له في الأرض مكث وانثواءُ

فالماء العذب إن ركد خاب وإن جرى طاب.

الماء ينتنُ إن أقامَ وإن جرى خلصت جواهرهُ من الأقذارِ

٢٣٤- ورق النصيب ومضاره

أمر النصيب معروف عند العامة فضلاً عن الخاصة، وهو بالحق فكرة إبليسية يقصد بها ابتذاذ الأموال بإغراء وإغواء، فمن الناس الذين لا عقل ولا دين لهم يطلبون السعادة من يد البخت والنصيب لا من يد الكد والتعب، ولا يلتفتون لقول الشاعر العربي:

ليسَ الحياةُ بأنفاسٍ نردّدُها إن الحياةَ حياةُ الفكرِ والعملِ

ويعتقدون أن القدر أضمر لهم حظوظهم، فيفحصون عن هذه الحظوظ إن سعادة أو شقاء في أوراق النصيب وغيرها من أنواع القمار.

ومعلوم أن العيش لا ينال إلا بعرق الجبين، لأنه يستحيل أن يحصِّل كل إنسان رزقه من أرباح النصيب، وإلا فمن يقوم بالأشغال الأخرى التي عليها مدار البقاء وبها حركة المجتمع الإنساني.

وبالجملة: فتحريم (ورق النصيب) كتحريم (الميسر) واتخاذها وسيلة لجمع الصدقات عمل غير مأجور ولا مبرور ولا مقبول عند اللّه تعالى، والذنب فيه على المتصدق مضاعف، لأنه يتصدق بحرام ويطعم المتصدق عليهم حراماً وهم لا يعلمون «ليتها لم تزنِ ولم تتصدق».

٢٣٥- الاستقامة من أقوى أسباب النجاح

الاستقامة هي الاعتدال في جميع الأمور من الأقوال والأفعال والمحافظة على جميع الأحوال التي تكون بها النفس على أفضل حال وأكملها، فلا يظهر منها قبيح ولا يتوجه

إليها ذم ولا لوم، وذلك إنما يكون بالمحافظة على الشرع الشريف والتمسك بالدين والوقوف عند حدوده والتخلق بالأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة كاجتناب المحارم والتعفف عن المآثم ولين الجانب والصدق وإنجاز الوعد وبذل النصيحة والشفقة على مخلوقات اللّه وأداء الأمانة لمن ائتمنه منهم وكف اليد واللسان عن أذيتهم وبذل الشفاعة والعفة والورع وغير ذلك. قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ [فصلت:٣٠]. فهي من أفضل الخصال وأجمل الخلال فيها كمال المروءة وتمام الإيمان، وبها تكسب الفضائل وتسلب الرذائل وتحمد السيرة وتحسن السريرة. قال تعالى: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ [الجن:١٦]. فما احسن الاستقامة واجلبها للخير وأدرها للرزق. قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ [الأعراف:٩٦]. حيثما تستقم يقدر لك اللّه نجاحاً في غابر الأزمان.

فالاستقامة قاعدة نظام الأعمال، فإذا انتفت اختل ذلك النظام، وعلى مبدئها الصحيح تروج تجارات التجار، وتجري اعمال جميع العمال واصحاب الأعمال في سبلها، ومهما كان المرء شريراً وكان مستقيماً في معاملته دار دولاب عمله.

وبالجملة: إن آمن طريق يسير فيها من يرمي إلى العلا هي طريق الاستقامة والقيام بالواجبات، طريق الهدى والابتعاد عن اللهو واللعب، هي الطريق التي سار فيها الذين سادوا بحق، هي الطريق التي نزلت بها الشريعة الغراء

٢٣٦- الفحم من لوازم الحياة الضرورية

الفحم جسم صلب هش سهل السحق أسود اللون، ويكون إما بتقطير الخشب أو إحراقه في الهواء المطلق إحراقاً غير تام كما هي عادة تحضيره، وإما بتكليس أي إحراق العظم في إناء مغطى ويكون الفحم ثقيلاً متى كان متحصلاً من الخشب الصلب الكثيف وخفيفاً متى حصل من الخشب الأبيض الخفيف، ويختلف احتراق الفحم باختلاف خفته وكثافته، فكلما كان خفيفاً سهل احتراقه والتهابه، وبضد ذلك إذا كان كثيفاً، ولذا يستحسن استعمال الفحم الخفيف لعمل البارود.

وأما المضار التي تتسبب عن احتراق الفحم ويجب التحرز منها، فهي إذا احرق الفحم في حفر النار أو في المواقد تولد عن ذلك غاز يسمى أوكسيد الكربون، وذلك إن كان مقدار الفحم المتقد زائداً أو تولد عنه غاز حمض الكربونيك إن كان مقداره قليلاً أو تولدا معاً وكلاهما سم قتال، فإن بهما أو باحدهما تحدث آلام في الرأس وثقل ودوخان،

وابتداء إسفكسيا (أي اختناق) وذلك كله إن كان إيقاد الفحم في محل محبوس الهواء، وليس الهواء متجدداً فيه وإنا نرى كثيراً من ارباب البيوت يستعملون الفحم وقوداً في بيوتهم للتدفئة في زمن الشتاء خصوصاً في المحال المحبوسة الهواء كالخزائن الصغيرة والمناظر والحمامات. فالذي ينبغي لهم في هذه الحالة ان لا يدخلوا الفحم المتقد في موضع من المواضع المذكورة إلا بعد ان يلتهب جميعه في الهواء المطلق ويصفو بحيث ينقطع دخانه، وبذلك يكون الإنسان آمناً على نفسه من مضراته الهائلة وغازاته القاتلة.

واما منافع الفحم فعديدة، منها استعماله وقوداً في البيوت وفي الصنائع، ومنها دخوله في تركيب أنواع البارود، ومنها امتصاصه للمواد الملونة والغازات (خصوصاً الفحم النباتي) بواسطة مسامه اي: اخليته الكائنة بين جزئياته وهذه الخاصية صيرته نافعاً في الصنائع لإزالة المادة الملونة من بعض المحاليل كما في صناعة السكر وكما في الأعمال الكيماوية ولإزالة العفونة من السوائل والأطعمة، فإذا وجد الماء منتناً وأُريد زوال عفونته واستعماله للشرب او خلافه يرشح على طبقة من الفحم. وإذا انتن الطعام وجعل الفحم في خرقة نظيفة وأُغلي مع الطعام ازل عفونته وصيره صالحاً للاكل، وكذلك ينفع الفحم لحفظ الماء من التعفن، ولذا تجد البراميل المعدة لحمل الماء في السفر يطلى باطنها بالفحم خفيفاً لتحفظ الماء من التغير زمناً طويلاً ومن منافعه ايضاً حفظ المواد العضوية من التعفن، وله استعمالات طبية باطنية وظاهرية وغير ذلك والله اعلم.

٢٣٧- الهواء حق مكتسب لجميع العالم

بديهي ان الإنسان لا يمكنه ان يعيش بدون الحصول على مقدار معلوم من الهواء، فهو غذاء ضروري به تنعش القوى وتتنبه الحواس وضرورته كضرورة الطعام والشراب، بل اهم لأن الإنسان يمكنه المكث من غير أكل أياماً ولا يمكنه الاستغناء عن استنشاق الهواء لحظة.

قال بعض الحكماء: كيف يكن الهواء يكن الدم وكيفما يكن الدم تكن الصحة.

وقال بعضهم: إن زهرة الإنسان أحوج الأزهار إلى الهواء والشمس. الا ترى ان سكان الأرياف مع عدم جودة غذائهم اصح من سكان المدن ابداناً واقوى اعضاء، وما ذاك إلا لجودة الهواء الذي يعيشون فيه.

نعم إن الهواء من أجلّ النعم التي أنعم الله بها على جميع المخلوقات لشدة لزومه للحيوانات والنباتات، إذ مدار حياتهما عليه بحيث لو انقطع عنهما مدة وجيزة لمات الجنسان بلا توان.

ومعلوم ان الإنسان قد يعيش أكثر من شهر بلا تناول طعام وبضعة أيام بلا شرب ماء،

ولكنه لا يعيش أزيد من خمس دقائق تقريباً إذا انقطع عنه الهواء ولما كان الهواء من الضروريات الشديدة للزوم حياة كل ما أوجده الله تعالى من حيوان ونبات، جعله عاماً منتشراً في جميع المحال، فلا يخلو منه موضع، حتى ما نظنه فارغاً مثل الإناء الذي ليس فيه ماء ولا غيره فإنه في الحقيقة ليس فارغاً بل مملوءاً بالهواء. ومن كرمه سبحانه وتعالى أن جعل وجوده سهلاً لا ندفع له عوضاً ولا نبذل له ثمناً.

٢٣٨- تأثير التمثيل الجدّي في المدنية والحضارة

التمثيل مرآة ترينا أطوار الأقدمين في أشباح المتاخرين، وتاريخ يطلع فيه الخلف على عوائد السلف، بل حلم في يقظة نرى فيه أحوال الأجيال الغابرة في الآونة الحاضرة، وعظة بأغرب العبر لقياس ما يأتي على ما عبر، بل هو صورة تظهر فيها العواطف والأخلاق مرسومة بمداد الملامح والأحداق، ففي المشهد يتجسد ملاك الحب وتتآنس آلهة الجمال متسربلة بحلل الكمال، وفي المشهد تتجسم الفضيلة والرذيلة وتتناظران، ويشخص الوفاء والإخلاص والعفاف وكل سجايا الإنسان، فما التمثيل الجدّي إلا معرض تستعرض فيه العواطف والفضائل والرذائل والعوائد والأخلاق، فكما يبتهج النظر باستعراض المناظر الجميلة، هكذا تبتهج النفس باستعراض العواطف الواضحة في صور الملامح البدنية، ولا يخفى أن العواطف تتفاهم بلغة الملامح، فبقدر ما يجيد الممثلون في إظهار إحساساتهم وانفعالاتهم المقتضية أدوارهم يتأثر المشاهدون وتتحرك عواطفهم تبعاً لملامح الممثلين، فالتأثر من التمثيل غير متناه لأن الإجادة فيه غير متناهية أيضاً، ولهذا لا نعجب إذا رأينا الحاضرين في الملعب يذرفون الدمع مدراراً إشفاقاً على الممثل، إذ يمثل دوراً محزناً أو يطرقون فرحاً مع الممثل إذا كان فرحاً مسروراً لأن العواطف تحاكي نظراءها. ألا ترى أنك تبكي مع الباكين، وإن لم يكن الداعي إلى البكاء لا يعنيك، وترثي للتعساء وإن كنت سعيداً وتفرح مع الفارحين وإن كنت لست من ذوي الفرح.

وبالجملة: التمثيل الجدّي من أعظم البواعي على تأديب النفس وحسن تهذيبها وبذلك كبرت فوائده وعظمت مزاياه التي لا تحصى ولا تستقصى.

٢٣٩- الاستمرار والثبات في الأعمال سبيل النجاح

الثبات في الأعمال يكون بالمثابرة عليها، ومقابلة الأهوال والمشقات والصعوبات التي تعرض له في أثناء سعيه وراء النتيجة المقصودة له من تلك الأعمال بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى يحصل عليها وينال أُمنيته منها، فإذا عرض له ما يظن معه صعوبة الوصول إلى النتيجة المطلوبة له، فلا يكون ذلك حائلاً دون الاستمرار في العمل، فإنه لا صعب مع الاجتهاد وتوجه النفس والرغبة في ذلك الشيء المطلوب، كل ذلك مع تدقيق

التظر والفكر، والتؤدة في العمل وتخير الوقت المناسب في الحالة المناسبة، وعدم الميل إلى جانب الإفراط فإنه ممل ومتعب، ولا إلى جانب التفريط لعدم نجاح العمل معه، فمن لازم الثبات بهذه الكيفية وجعله أساساً في سائر أعماله كانت السعادة إحدى خطياته والنجاح أسير خطواته والفلاح قرينه والعز بيتاً هو قطينه ومن استفزته الأهواء وطوحت به الحوادث فاشتغل كل يوم بعمل وكد غير حكيم واجتهد غير عليم، فلا شك أنه لا يجني غير الشقاء والتعاسة والعناء بدون ثمرة تعود عليه أو فائدة ترجع إليه.

فالثبات هو الاستمرار في العمل بلا انقطاع عنه إلى البطالة، وفي الأقوال المأثورة: (الثبات عنوان النجاح). ولا شك في أن الذين نجحوا هم الذين ثبتوا في أعمالهم ولم يضيعوا أوقات العمل في اللهو والبطالة.

وبالجملة: فالدنيا ميدان تتسابق فيه الهمم وتتبارى عليه الأمم فمن سبق فاز بالحسنى، وكانت يده في هذا الوجود هي العليا، ومن قصر وونى، كانت يده هي الدنيا، وعاش عيشة الأزل الأدنى، وإنما ينال السبق بالثبات والصبر وعدم التقلب والضجر، وليس في الوجود عمل إلا ويحتاج إلى الثبات بنسبة ما فيه من المشاق، ولا يحول دونه من العوائق التي لا يزيلها إلا المثابرة عليه والثبات له. وفي الحقيقة والواقع، ما أفاض نور العقل على نفس الإنسان من هدى، وما حرك الآمال فدفع بالرجال إلى جلائل الأعمال، فتناولوا أسرار الطبيعة من كبد السماء، واستخرجوا كنوز الغنى والثروة من بطون الأرض، وما عمر الأرض وأحياها وشيد دعائم المدنية وبناها، وما مكن في النفوس رغائب الحياة، فتنافست بمحاسن الأعمال واستمسكت بعروة الجد فبلغت منتهى الكمال إلا بالثبات الذي هو قوة في النفس تحتاج إلى سبق الإرادة وصدق العزيمة مع التصميم الذي لا يشوبه التردد في الراي. وما قام لوجود البشر وجود، وقرب طريق السعادة للإنسان كالثبات. وفي المثل: من ثبت نبت ومن صبر ظفر.

والمتصفح صفحات التاريخ يجد أن الثبات من أهم دواعي سيادة الأمة الإسلامية على الأمم وترقيها في معارج المجد.

وهكذا الحال أيضاً في كل أُمة كان الثبات رائدها وقوة العزيمة سندها، وهل ظهر أفراد الرجال إلا بالثبات، وهل خدمت المدنية قوة كالاختراع والتفنن بالابتداع، وإنما هي قوة لا تصدر عن غير اهل الثبات لما يلاقونه في سبيل العمل من المصاعب والمتاعب التي لا خالطها شيء من الملل والتردد لما نجح أربابها ولخاب عمل أصحابها، ولكن بالثبات بلغوا أقصى الغايات.

ولقد بلغ الثبات عند الأمم الغربية مبلغاً عظيماً، به خدموا بلادهم وأخرجوها من ظلمات الجهالة إلى نور المدنية وتحملوا لأجله المكاره والمشاق وانواع العذاب وسوقهم إلى السجون وإذاقتهم كأس المنون.

٢٤٠- القمار معول الخراب والدمار

القمار مصيبة عظمى وطامة كبرى وهو داء عضال سرت سمومه في عروق كثير من الرجال فاضاعت نعمتهم وسلبت ثروتهم فاضمحل أمرهم وسقطوا عن مراتب الجاه إلى أسفل درجات الذل والهوان، وأصبحوا على قوارع الطرق يتسولون. قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

أخسرُ خلق اللّـه منّا صفقة   من يطلبُ اليُسر بلعبِ الميْسرِ
يجني حراماً إن جنى وقلّما   يبلـغُ إلا حسـرات المعسرِ
فغنمـه جـرمٌ وأمـا غـرمـهُ   ففقـدُ ميسـورٍ وفقرُ موسرِ

فالميسر مهلكة للأمم ومضيعة للدين، فكم خرب من قصور وكم التهم من أموال، كيف لا وإن المقامرة تقود إلى كثير من الرذائل لأن الرابح يستفزه الربح إلى امتطاء متون الشهوات فيخوض عباب اللهو والبطالة، ويندفع إلى حمأة الرذائل فيخسر صيته وصحته وصلاح أخلاقه وإسراف أمواله.

فالمقامر سواء ربح أم خسر لا بدّ له من الإنفاق من ماله الحرام، ومال الحرام أثقل من الزئبق إذا وضع في الجيوب فلا يلبث أن يفتقها وينتثر منها، وهكذا مال المقامرين تراه يجول بين جيوبهم.

ففي الصباح ترى أكياسهم ملأى بالأصفر الرنان حتى إذا تتبعتهم في بحر النهار وآناء الليل تراهم يحسبون دنانيرهم وإذا هي في الأكياس كالثمالة في الكاس فتأخذك الدهشة ويستوقفك العجب، ويجول في ضميرك سؤال: (أين ذهب الذهب) ومما لا شك فيه أن القمار معول الخراب الذي لا يحب ولا يستطاب، فهو رسول الفاقة الذي ينزع البركة ويعطل الحركة، بل هو الموت الأحمر والعار الأكبر ولاعبه في الهيئة الاجتماعية لا يذكر، لأنه عار من الآداب والفضائل ملبس بالجرائم والرذائل، ساقط المروءة والهمة عديم الشرف والذمة.

لكلِّ نقيصةٍ في النّاسِ عـارٌ   وشـرُّ معائبِ المرءِ القمارُ
هو الداءُ الذي لا برءَ منـهُ   وليسَ لذنبِ صاحبهِ اغتفارُ

وبالجملة: إن لكل داء دواء إلا المقامرة فإنها أعيت من يداويها، وذلك لأن الإنسان يميل بالطبع إلى اللهو على شغفه بتحصيل المال والثروة عفواً، فإذا لاح له بارق الأمل من خلال البخت والنصيب، وكان في يده ما يسعفه على إجابة سؤال النفس الأمارة بالسوء ارتطم في هذه الورطة، وسواء ربح أو خسر فهو لا يزال مواظباً على اللعب آملاً تعويض

الخسارة أو زيادة الربح حتى تصير المقامرة فيه ملكة راسخة متمكنة لا تقوى عليها نصائح الناصحين ونواهي الشرائع والدين، فهي كالداء العضال لا ينجع فيه دواء حتى يقضي اللّه أمراً كان مفعولاً.

وجنون المقامرين فنون وقصصهم عجائب وغرائب وهم منتشرون في كل مكان معروفون في كل زمان مقذوفون بكل لسان، محكوم عليهم في كل الشرائع والاديان، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا يزدجرون، فإن القمار كان من قبل منتشراً كثيراً بين الرومان.

فالمقامرة تخلب العقول فلا يبصر المقامر الهاوية تحت أقدامه، لأن بريق الذهب يبهر نظره فهو كالظمآن في الفلاة يرى السراب فيظنه ماء فيجد السير إليه ولا يزداد إلا ظمأ وكلما قرب منه ابتعد عنه حتى يعتريه الكلال فيهلك، وعلى هذا النحو يجد الذي يحضر اللعب من نفسه دافعاً يحمله على اقتفاء أثر غيره والتحدي باصحابه، وهو يرى من خلال الأمل بريق الثروة والسعادة فكم من رجال حضروا مجالس المقامرة لمجرد رؤيتها فعادوا من أكبر المقامرين، ومن لعب مرة اضطرمت فيه محبة اللعب حتى لا يعود يقوى على دفعها، ولذلك قيل: (المقامرة لجة يغرق الغائص فيها لا محالة لانها لا قرار ولا ساحل لها)، ومما نقش على باب أحد بيوت القمار: (لهذا الكهف بابان باب الأمل وباب الإثم والهلاك يدخل إليه من الأول ويخرج من الثاني). فالمقامرة لا سبيل إلى اجتناب ضررها إلا بالابتعاد عنها وأفضل طرق الوقاية منها مجانبة الكسل والبطالة والبعد عن بيوت المقامرة ومصاحبة المقامرين، وهذه ذكرى للغافلين وتبصرة للعاقلين.

٢٤١- فوائد الاجتهاد ومضار الكسل

الاجتهاد حياة البلاد وأس نجاح الأعمال الوسيلة إلى ارتقاء درج الكمال فكم وضيع باجتهاده صار رفيعاً وكم أمير بكسله أصبح وضيعاً، فمن اتخذ الاجتهاد شعاراً وواظب عليه وتعوده دثاراً توج بتاج السعادة ورزقه المولى الحسنى وزيادة.

وإذا هممتَ بايِّ أمرٍ فاجتهدْ فيهِ فإن لكلِّ مجتهدٍ نصيبُ

والكسل والترفه والتعود على كثرة القعود وترك العمل مضر بالجسم ووظائف أعضائه ومؤدٍ إلى ضعف العصب واسترخاء العضل لأنه موجب لضعف الحركة العضوية وانحطاط القوة الحيوية فيكون سبباً لبلادة الذهن وخمود وظائف البدن.

على كلِّ حالٍ فاجعلِ الجدَّ عدةً تقدمُها عند النوائبِ في الدَّهر
فإن نلتَ حظاً نلتَه بعزيمةٍ وإن قصرت عنكَ الحظوظُ فعل عذر

وإن الكسل سبب الفشل ومبطأة للعمل ومخيبة للأمل.

ليسَ البطالةُ والكسلُ بالجالبينَ لكَ العسل
فاعملْ فإن اللّهَ قد حثَّ المطيعَ على العمل

ومنشأ الكسل عدم تربية الأبناء بتحسين أحوالهم وتهذيب أخلاقهم، وتعويدهم من الصغر على الأشغال والتخلد على المشاق وتدريبهم على اكتساب فضائل الرجال وهمة الأبطال وتنوير عقولهم وإرشادهم لما فيه صحة أبدانهم وحفظ أُمور دينهم، خصوصاً بترك محبة شهوة البطن، ولا يتمتع صاحبها بالعيش الهنئ وتكون سبباً لضعف الهمة وقلة المروءة، إذ لا يخفى أن العدد الأكثر من الكسالى، إنما جاءهم الكسل من الإفراط في المأكل والمشرب، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «لا تميتوا القلوب بكثرة الأكل والشرب، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء».

فنحن كسالى في أعمالنا وفي أقوالنا وفي أفكارنا وفي رياضتنا، نحن كسالى في جميع أطوار الحياة ومظاهرها، نحن كسالى في الجد وكسالى في الهزل وكسالى أمام المصائب وأمام الأفراح وتلقاء النافع وإزاء الضار، نحن كسالى في الصباح وفي المساء، نقوم من النوم كسالى ونذهب إلى النوم كسالى، ونعيش بين هذين الوقتين كسالى، انظر إلى تاريخ حياة كل فرد منا تجده مملوءاً بالأكل والشرب والنوم والأقوال الفارغة، وقد لا تجد في صحيفة واحدة من صحف أحدنا عملاً يذكر.

وليس المقصود أن نعمل ما فوق الطاقة أو أن نأتي بالعجائب والغرائب، بل أننا نعمل الأعمال العادية التي بدونها لا يمكن الحفاظ على سلامة الجسم وصحة العقل، فعيبنا الكبير الذي يشاهد بوجه التقريب عاماً بيننا، ويكاد لا يخلو منه أحد، وإن كان يختلف قلة وكثرة هو الكسل.

وقصارى القول: إن الاجتهاد استفراغ الطاقة في تحصيل أمر مستلزم للكلفة والمشقة، والعمل والاجتهاد في كفتي ميزان. إذا خف الاجتهاد هبط العمل، ومتى أصيب المرء بداء الكسل ضعفت همته ووهنت عزيمته، وأصبح لا يستطيع العمل الحقير بعد أن كان يتقاعد عن العمل الخطير فقط، وأصبح آخر القوم في سبيل الحياة وعاش مرذولاً.

شمِّر وجدَّ لأمرٍ أنتَ طالبهُ إذ لا تنالُ المعالي قط بالكسلِ

٢٤٢- خزان أسوان وما جلبه من المنافع العامة للزراعة

إن أرض مصر من أهم الأراضي الزراعية، فلذا منحها المولى تبارك وتعالى ماء عذباً (ماء النيل السعيد) وحفظاً لهذه المياه من ذهابها سدى في البحر الأبيض المتوسط شيد خزان عظيم في أسوان ليعم الري جميع أراضي القطر المصري، وحينئذٍ سهل زرع الأراضي العالية مرتين بعد أن كانت تزرع مرة واحدة في كل سنة، ولتحفظ البلاد من الشرق

والغرب، وتكثر الفائدة وتنمو الخيرات وتنشر البركات وتزيد المحصولات وتقدم التجارات، ويرتقي الشعب ويمحق اسم السلب والنهب، ويعيش كل فرد سعيداً يودّع عيداً ويستقبل عيداً.

وفي الحقيقة والواقع لما كان النيل الذي هو قوام الحياة في هذه البلدان، عليه مدار الخصب والعمران، اعتنت به ولاة الأمور وسجنته بقناطر هائلة تنزله بقدر مقدور في أوقات مخصوصة بانتظام، كفلت الراحة للخاص والعام.

أخزَّانُ مصرَ انت ام هـرماً مصـرُ ... أجلُّ وأسمى فـي المكانةِ والقـدرِ
وهيهاتَ ما أهـرام مصرَ وإن سـمتَ ... بأرفعَ رأساً من حضيضكَ لو تـدري
وما أنت خزَّان الميـاه وطميهـا ... وأبليزها بـل خـازن الـدُّرِ والتّـبرِ
تدفقتَ بالخيرات من كلِّ جانـبٍ ... وجمعتَ أقطـار المنافع في قطـرِ

وحينئذ تسنى للحكومة بذلك ان توزع مياه النيل الذي هو روح حياة مصر وسبب سعادتها توزيعاً عادلاً، وان تحفظ ما زاد من حاجاتها في وقت الفيضان إلى أيام انخفاض مياهه وقصوره عن ري ما ارتفع من واديه، وبذلك أمكن المصريون ان يزرعوا أراضيهم عدة مرات في السنة الواحدة وأن ينتفعوا بثمرات جهات ما كانوا ينتفعون بها من قبل، فازدادت ثروتهم واتسعت تجارتهم وغنيت حكومتهم، ولعمر الحق أن واحداً من تلك الخزانات التي تتدفق مياهها بالخيرات عند أولي الألباب لخير من ألف هرم، فشتان ما بين آكام ضيع فيها نفيس الزمن، وقوى الرجال وقناطير الأموال، وبين كنوز الذهب وعيون النشب ومواحق الجدب وطلائع بشائر الخصب.

٢٤٣- تأثير المطابع في انتشار العلوم والمعارف

الإنسان يفتقر إلى ثلاثة أغذية: غذاء النفس وهو العمل الصالح وتقوى المولى تبارك وتعالى. وغذاء الجسد وهو ما طاب وحل من نبات وحيوان. وغذاء العقل وهو العلم والمعرفة. وهذا الغذاء الأخير مفضل على الغذائين السابقين إذ به يمهد السبيل إليهما ويقتدر المرء على إتقانهما فضلاً عما يستفيده من رفعة الشان وحسن الحال في المبدأ والمآل.

ولم يتيسر العلم للإنسان ولا عمت منافعه حتى تمكن من إثبات خواطره على القرطاس ونقل ما يكنه صدره إلى ما بين أيدي الناس، وكان لأول عهده في الكتابة يقاسي المشاق في حفظ ما يكتب وادخار ما يقتبس من شوارد المعارف وشتان العلوم، وكان القدماء إذا أرادوا أخذ علم من العلوم طووا البيد والقفار وتجشموا الأخطار تقرباً ممن أحرز العلم وامتاز به. ولم يكن من سبب يدفعهم إلى مقاساة عناء الأسفار إلا قلة الوسائط التي

تساعد على نشر العلم وبثه في جميع أنحاء المعمورة ليستفيد منه كل قاص ودان، واستمرت الحال على هذا المنوال، إلى أن حنت دواليب المطابع حنين الناقة على الفصيل، وأخذت تدر للإنسان البان العلوم والمعارف.

إنَّ المعارفَ للرُّقي وسائل ... لا تبصرُ الأشياء بلا أعيان
وإذا المعارفُ أشرفت في أُمة ... نالت أمانيّها بغير توانِ
إن المطابعَ للعلوم وسيلةٌ ... والشمسُ لم تحتج إلى برهانِ

وقصارى القول: إن للمطبعة أيادٍ تذكر فتشكر وللخط مساوي لا تغفر، إذ الخط يعتريه التجريف لغير جناس، والطبع ينتج الصحة بدون قياس، والناسخ أسير النقل، وذو الطبع ينسج على منوال الفضل، والمطبعة تعمل في بضع أيام، ما لا يعمله الكاتب في أعوام، ولعاب القلم يمحوه اللسان، وأثر الطبع لا يغيره الزمان، فذاك كالنقش على التراب، وهذا أثبت من الوحي في الصم الصلاب، وثمرة الخط تجني بيد المال الكثير، وزهرة الطبع يشمها الغني والفقير والخط لو كان أنفاً لكان أجدع، والطبع لو كان شكلاً لكان مربعاً، والخط لو كان جماداً لكان حجراً صلداً، والطبع لو كان جوهراً لكان جوهراً فرداً.

٢٤٤- الحديد أنفع أم الذهب؟

الحديد فيه منافع للناس على اختلاف الأجناس، منه تصنع السكك الحديدية والأسلحة والآلات الحربية والأدوات الزراعية والسفن البخارية، بل متوقفة عليه كافة المنافع العمومية، كيف لا وهو الحافظ للأرواح البشرية والقاهر للأعداء والحاكم بين الملوك والأمراء. قال تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ [الحديد:٢٥]. وحينئذٍ فهو أنفع من الذهب الذي يستعمل في الحلي للزينة ويستعمل نقوداً للمعاملة، ويمكن أن يستغني عن ذلك بعملة الورق المستعمل الآن وخلافه، بخلاف الحديد فلا يمكن لأحد ما الاستغناء عنه بحال من الأحوال، إذ منه الكباري والجسور وآلات الحرث والري والزرع والحصد والطحن وسقوف المنازل وهلم جراً من كل ما تتوقف عليه مصالح العباد في كل زمان ومكان.

٢٤٥- الحلم أشرف الأخلاق الطاهرة

الحلم من أكرم الخلال وأتم الخصال وأفضل شمائل الرجال وأعلى مراتب الكمال، وهو أصل من أُصول الدين، وحصن من حصون الإيمان حصين، وركن من أركان الشرع متين، من استند إليه وتمسك به واعتمد عليه، استنارت له الظلم، وأمن عثار القدم وعصم من مواقع الندم، وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس وبعد الهمم، والفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم، يسمو بصاحبه في الدارين إلى أرفع الرتب، ويطفئ من الإنسان جمرة الغضب.

قال تعالى: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ [هود: ٧٥]. وقال عليه الصلاة والسلام: «تعلموا الحلم قبل العلم فما جمع شيء لشيء أحسن من علم إلى حلم».

الا إنَّ حلمَ المرءِ أكرمُ نسبة   يسمو بها عند الفخارِ حليم
فيا ربِّ هبْ لي منكَ حلماً فإنني   أرى الحلمَ لم يندمْ عليه كريم

والسفه من الشيم المبغوضة والخلال الرديئة المرفوضة الدالة على خسة الطباع وشمائل الأوضاع، وصاحب السفاهة لا يثبت على حال ولا يقف على حقيقة من الأقوال والأفعال. قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقال بعض الأدباء: من غرس الغضب في أرض السفاهة شجراً وأرسل عليها العجلة مطراً، اجتنى منها الندامة ثمراً ولم يعدم في عواقبها ضرراً. وقال الشاعر:

إذا نطقَ السفيهُ فلا تجبهُ   فخيرٌ من إجابته السكوت
حلمتُ على السفيه فظنّ أني   عييتُ عن الجوابِ وما عييت

وبالجملة: فالحلم (وهو سكون النفس عند دواعي الغضب مع ترك الانتقام) من أشرف الأخلاق وأكرمها وأعلى مراتب الكمال وأعظمها، يبلغ صاحبها ذروة المجد ويكسبه جميل الحمد ويصون الإنسان عرضه ولا ينال منه السفيه غرضه ولا يكون الإنسان حليماً، إلا إذا كان عالماً عاقلاً صبوراً جامعاً بين عظم القدر وسعة الصدر مترفعاً عن الشباب، فإن ذلك يدل على شرف النفس وعلو الهمة ويدرك بالرفق ما لا يدرك بالعنف، واحتمال السفيه خير من مشابهته والإغضاء عن الجاهل خير من مناضلته، به تكثر الأنصار وتدفع الأشرار، فمن غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم.

قال الأحنف بن قيس: ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفت له فضله، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه.

٢٤٦- لا تكن ليناً فتعصر ولا يابساً فتكسر

لكل إنسان غرائز شتى مختلفة كالحلم والجود والبخل والسرور والحزن والغضب والرضا واللين والشدة وهلمّ جراً، والمتصرف في تلك القوى والحاكم بينها وبالقسط واضعاً كلاً موضعه هو (العقل) فيه تدرك مواضع (اللين والشدة).

فاللين سهولة الأخلاق في جميع المعاملات، والشدة قسوة القول والفعل في كافة الصفات، ومن بنى جميع أعماله على إحداهما ألقى بنفسه إلى الهلاك والضلال، وباء بالخسران والدمار والوبال، ومن قرأ التاريخ يرى العجب العجاب ويقف على أسباب التغير الناتج من إحداهما والانقلاب، هذا الحاكم بأمر الله الفاطمي اتخذ الشدة عادته في جميع أعماله وسائر أحواله، فوقع في ارتباك شديد.

وهذا المنتصر بن الظاهر الفاطمي اتخذ اللين ديدنه والسهولة شيمته، ولذا كان لا يبالي بما يقع في الدولة من الأخطار الجسيمة، فانتشر الفضل في الرعية ووقع النزاع بين جيشه وقامت الحروب في البلاد واشتد القحط وأكل الناس بعضهم بعضاً حتى ابتاعوا الكلاب والقطط بعشرات الدنانير وقلما كانت توجد.

وهذا إسكندر ذو القرنين وضع الشدة في موضعها واللين في موضعه، فبشدته غلبت فئة إسكندر القليلة فئة (دارا) الكثيرة وملك البلاد وقهر الأجناد، وبلينه ملك القلوب واستقام له الملك.

فما أحسن من وضع كلاً في موضعه وأنزل كلاً في درجته وموقعه.

أرى اللِّينَ ضعفاً والتشجُّعَ هيبةً ... ومن لا يهبْ يحمل على مركبٍ وعرِ
وما كل حين ينفعُ الحِلم أهلهُ ... ولا كل حين يدفعُ الجهل بالصبرِ

ومن قصرت بصيرته وزاغت عقيدته فلم يهتد للصواب ولا يعرف من أين يطرق الباب، ولم يميز بين من يقومه الحسام وبين من يصلحه الكلام، فالأولى به سلوك طريق اللين فقط، اتقاء من شدة الأخطار والوقوع في المصائب والمضار، ولذا نرى كثيرين اتبعوا خطة اللين لأنه أقوى تأثيراً في النفوس، ولأنه خير الأمرين وأقوم الطريقين وأعدل الحكمين.

قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]. وقيل الماء مع رقته، فتت الحجر مع شدته.

ولي فرسٌ للشَّرِّ بالشرِّ ملجمُ ... ولي فرسٌ للخير بالخير مسرجُ
فمن أمَّ تقويمي فإنّي مقومُ ... ومن رام تعويجي فإنـي معوجُ
وللحلمِ أوقاتٌ وللجهلِ مثلُها ... ولكنَّ أوقاتي إلى الحلم أحوجُ

٢٤٧- ما هو الغرض من قدوم السياح إلى بلادنا المصرية

بلادنا المصرية أحسن البقاع تربة وهواء وأصفاها سماء وماء وأوسعها مرتعاً وفناء، وأقدمها فخراً وآثاراً وأشهرها معارف وأفكاراً وأكبرها رجالاً وأفضلها أبطالاً، تركوا بعدهم الآثار التي تدهش الأبصار. لهذا نرى السياح يجوسون خلال ديارنا وينسلون إلى هذه الآثار من كل حدب أفواجاً في فصل الشتاء ترويحاً للنفس واستنشاقاً للهواء أجيد وفراراً من البرد القارس في بلادهم الذي يكاد يقضي على حياة كثير منهم واستكشافاً لآثار بديعة الصنع محكمة الوضع، بقيت على الدهر وقد بادت قرون وهلكت عصور.

ومن نظر إلى الأهرام التي مضت عليها القرون الطوال، وهي شباب يندهش لبه ويتحير عقله في كيفية بنائها وقطع أحجارها ورفعها إلى ذروتها، ويشهد لهؤلاء ببراعتهم في

الهندسة وقوة اختراع الآلات المتينة الصنعة كما أنهم شادوا المعابد العجيبة الوضع والأسبلة العميمة النفع.

وقد يستغرب المرء أن يكون من هذا الأثر الصامت كل هذه الفوائد والمزايا، ولكن من ينظر إلى معنى الآثار بعين الإمعان يطلع على خفايا ثمينة تتجلى للباحث المستقرئ الذي لا يعبأ بزخارف الأمور، ولا يقف عند حد النظر السطحي.

ولم تنشأ المتاحف الأجنبية ولم يبذل الأوروبيون النفسٍ والنفيس في جمع الآثار القديمة لمجرد وضعها في البيت أو المتحف زينة أو أثراً جليلاً، بل هم يتوخون من وراء ذلك فوائد جمة.

وكثيراً ما كشفت لهم الآثار المصرية غوامض العلوم وخفايا الصناعات، وكانت مورداً للعلماء ونموذجاً للصناع، أولئك يدونون منها تاريخ الحضارة القديمة، وهؤلاء يحاكونها في طريف المصنوعات، فعادت هذه الآثار على العلم والصناعة بأفضل فائدة وأجل عائدة.

والفوائد التي تعود على بلادنا من قدومهم رواج التجارات ونشر الصناعات، بل اتساع دائرة المعاملات وربح الفنادق، وغير ذلك.

وقد يتوهم كثير أن متاحف أوروبا غاصة بآثار أجدادهم المتقدمين أو ملوكهم السابقين، وما هي إلا مشحونة بآثار المصريين والشرقيين فهم يفاخرون بما يهون لدينا.

يقصد الأجنبي مصر من بلاده السحيقة لينظر آثارها النائية ويحمل من كنوزها ما يظفر به، فيعود إلى بلاده فرحاً مسروراً يحدث الناس بما لاقاه وما شاهده وما اشتراه، فيسخر مواطنوه من جهلنا وإهمالنا وعدم اكتراثنا بالصنائع والفنون.

ولقد جبلنا معشر الشرقيين على عدم الاهتمام بالمفيد، فلا نعبأ بالدر داخل الصدف لأن في فتح الصدفة لاستخراج الدرة مشقة وعناء.

والآثار: إما بناء كالمعابد والمساجد والمدارس والجوامع والأهرامات والرباطات والزوايا والبيوت والأبراج والقلاع والقناطر والأسبلة وما شاكل ذلك، أو نقوداً كالدنانير والدراهم ونحوها، أو نقوشاً كالتي في جدران المعابد وما أشبه ذلك، أو صناعات كتطعيم أواني النحاس من الذهب والفضة، وكتطعيم الخشب بالعاج والآبنوس والصدف وخلافه، أو صباغة كدهان السقوف والجدران وغيرها، أو كتباً ككتب الطب والصناعة والتاريخ والمصاحف الشريفة، إلى غير ذلك من العلوم والفنون.

٢٤٨- فوائد تعلم اللغات الأجنبية

بقدرِ لغاتِ المرءِ يكثُرُ نفعهُ وتلكَ له عند الشدائدِ أعوانُ
فبادرْ إلى حفظِ اللغاتِ مسارعاً فكلُّ لسانٍ في الحقيقةِ إنسانُ

تعلُّم اللغات حفظ للذات من جميع الآفات، فمن تعلم لغة قوم أمن من مكرهم ووقف على خيرهم وشرهم وعرف أخلاق ذويها وسيرتهم، وما هم عليه من الآداب والمحاسن الإنسانية، فيأخذ منها ما يكون صالحاً لامره نافعاً لقومه مفيداً لوطنه، ويصير بمنزلة كثيرين من الافراد وإن كان واحداً في نفسه، كيف لا وإنه يكون جامعاً أوجه الانتفاع مادياً وأدبياً لبني جنسه.

حفظُ اللغات علينا فرضُ كفرض الصَّلاة
فليسَ يحفظُ دينٌ إلاَّ بحفظ اللغاتِ

وبالجملة: إن الإلمام باللغات الأجنبية يعرف الإنسان ما لهم من طول الباع في المخترعات وإتقان الصناعات، ومن أين تجلب التجارات وكيفية الطواف حول الأرض في السياحات، ويدرك بماذا تقدمت هذه الأمة وتمشت الحضارة والمدنية في نفوس أفرادها، وبم تأخرت تلك الأمة وأضاعت بلادها وخسرت رجالها وفقدت شريعتها واتحادها وفخرها ومجدها، وبذلك يتمكن حب الوطنية في قلبه ويذب عن حوضها بسلاح شرفه.

وما الوطنُ المحبوبُ إلاَّ يتيمةٍ وباقي المعالي كالدراري التوائم

٢٤٩- هل الرزق بالسعي أو بالحظ؟

السعي حركة الإنسان في ظروفه الزمانية والمكانية لإصابة الرزق والراحة والجاه، فإذاً لا مرية في أن بقاء الإنسان وارتقاءه يتوقفان على سعيه أولاً وعلى عمله ثانياً، لان العمل خاتمة السعي الذي هو ناموس للبقاء والارتقاء. وما من احد إلا وهو فازع إلى سعادة يطلبها بجهد، ومن طلب شيئاً وجدّ وجد، ومن قرع الباب ولجَّ ولج.

قال تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩]. ومن سعى رعى، ومن جال نال، قال تعالى: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ [الملك: ١٥].

وجاء في الحديث النبوي عن الاعرابي الذي أراد دخول مسجد النبي ﷺ وناقته بيده فقال: يا رسول الله اأرسل ناقتي توكلاً على الله عز وجل أم أعلقها؟ فقال النبي ﷺ: «اعقلها وتوكل».

ألم ترَ أن اللَّـهَ قـال لمريـمَ وهزِّي إليكِ الجزعَ يساقط الرُّطبُ
ولو شاءَ أدنى الجزعَ من غير هزِّها جنته ولكنَ كلَّ شيءٍ له سببُ

وقال تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ [الجمعة: ١٠]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما أكل رجل طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يداه وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

بقدرِ الكدِّ تكتسبُ المعالي ومن طلبَ العُلا سهرَ الليالـي

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض».

وفي التوراة: «ابن آدم خلقت من الحركة وأنا معك، ابن آدم امدد يدك إلى باب من العمل أفتح لك باباً من الرزق».

وفي بعض الحكم: هل يجوز في وهم أو يتمثل في عقل أو يصح في قياس، أن يحصد زرع بغير بذر أو تجنى ثمرة بغير غرس أو يروى زند بغير قدح أو يثمر مال بغير طلب، وقد جعل الله طلب الرزق مقصوراً على الخلق كلهم من الإنس والجن والطير والهوام منهم بتعليم ومنهم بإلهام، فأهل التحصيل والنظر يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال، ثم إذا نظر المتأمل إلى الحالة الأولى من الهمجية وما صارت إليه الحالة الحاضرة من التقدم والعمران بواسطة الجد والاجتهاد، وما وصلت إليه أميركا من الاكتشافات والاختراعات، بل وجميع الغربيين ما ارتفعوا إلا بالجد والكد.

وما طلبُ المعيشةِ بالتمنّي ... ولكن ألق دلوكَ في الدّلاءِ
ولا تقعدْ على كسلِ التمنّي ... تحيلُ على المقادرِ والقضاءِ
فإن مقادرَ الرّحمنِ تجري ... بأرزاق الرّجالِ من السّماءِ
مقدرة بقبض أو ببسط ... وعجز المرء أسباب البلاءِ

ومن الجهال الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم يعتقدون أن الأعمال والمساعي كلها عبث والرزق في الدنيا بالقسمة الأزلية، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ [الزخرف:٣٢]، ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات:٩٦]. وبقوله عليه الصلاة والسلام: «الرزق عين ساهرة لعين نائمة». وبقول الشاعر:

ليسَ ما يحوي الفتى من عزمه ... لا ولا ما فات يوماً بالكسل

ويتعللون بألفاظ لا يفهمون تخريجها ولا تأويلها، فإذاً ما يسمونه بختاً وحظاً وسعداً ونحساً ليس إلا أضغاث أحلام.

كلٌّ يحاول حيلةً يرجو بها ... دفعَ المضرّةِ وابتغاء في الأملِ
والمرءُ يغلط في تصرف حالهِ ... فلربما اختار القعود على العملِ

٢٥٠- مقارنة بين سكني المدن والقرى

لا شك في أن المدن مركز العلوم والمعارف ومعدن الظرائف واللطائف، ومنبع التمدن والآداب وحصن الأمن والاستتباب، فيها أسباب الراحة والرفاهية التامة والحرية

لجميع الأفراد عامة، فيها ما تشتهيه النفس وتقر به العين وتنشرح به الصدور ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من أنواع الطرب والسرور، بخلاف القرى فإنها بعكس ذلك على خط مستقيم، إذاً الفرق بينهما ظاهر جلي، لأنه من البديهي أن القرى مأوى اللصوص ومجمع العصابات، والدليل على ذلك القضايا الجنائية، فإن أغلبها بل كلها مقام على أهل القرى، والسبب في ذلك تسلط الجهل عليهم وسوء تربيتهم وعدم تدينهم وغلظ طباعهم وفظاظة أخلاقهم.

فلذا يروى عن الإمام الشافعي رضي اللّه عنه أنه قال لبعض أصحابه: «تسكن القرى يضع علمك».

ورب قائل يقول: إن القرى هي المورد الوحيد الذي تستمد منه المدن جميع لوازمها الضرورية وأنها جنة اللّه في أرضه، إذ فيها الماء والخضرة والهواء ولذة العيش والصحة وبساطة الضمير. وكما يقول الشاعر:

تلكَ القصورُ وإن راقتكَ زينتُها ... دونَ التمتُّعِ في بحبوحةِ القصبِ
فارباً بنفسكَ أن تبقى مخلدةً ... بين السُّتور وبين السجفِ والحجبِ
واقصد خلاءً تسرُّ العين فيه لما ... يروقُها من نضيرِ الجوِّ والعشبِ
واتركْ غمارَ ذوي الحاجات في بلدٍ ... يموجُ بالنَّاس والساري على القضبِ

حقاً إننا لا ننكر ذلك، ولكننا نقول: إن ذلك حاصل في المدن أيضاً زيادة على ما فيها من المزايا الكثيرة، وإن جودة الهواء ليست مختصة بكل القرى، كما أنها ليست ممتنعة عن كل المدن، فكم قرية أردأ هواء من مدينة وبالعكس.

٢٥١- مقارنة بين القلم والسيف

القلم منبع العلم والحلم والحكمة، وهو الرسول بين الملوك والأمراء والصادق الأمين بين الأحبة والأصدقاء وقرة أعين الأدباء والظرفاء، وجليس العلماء والحكماء فهو اليد والساعد والعضد المساعد، يترجم عما في الجنان بأفصح بيان، ويفهم الحاضر والغائب وتأثيره أشد من تأثير الجيوش والكتائب.

قومٌ إذا خافوا عداوة امرئٍ ... سفكُوا الدما بأسنّة الأقلامِ
ولضربة من كاتبٍ ببنانه ... أمضى وأنفذُ من رقيق حسامِ

وحق من علم بالقلم، أن فضله أشهر من نار على علم وكفاه فخراً أن اللّه أقسم به في محكم كتابه، فقال: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [القلم: ١].

إذا افتخرَ الأبطالُ يوماً بسيفهمْ ... وعدوهُ مما يكسبُ المجدَ والكرم

كفى قلمُ الكتَّابِ فخراً ورفعةً مدى الدَّهر أن اللّه أقسمَ بالقلمْ

بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وبه أدركنا أحوال من سبقنا من الأمم، وبه كتبت كتب اللّه المقدسة، وبه خرج الإنسان من دائرة الهمجية إلى عالم الترقي والحضارة والمدنية، به سطرت جميع العلوم والفنون، وهو للملوك عين العيون، ومنار الدين والدنيا ونظام الشرف والعليا.

قلمٌ يفلُّ الجيشَ وهو عرمرمُ والبيض ما سلَّت من الأغمادِ
وهبت له الآجامُ حين نشابها كـرم السُّيول وصولةُ الآسـادِ

قال بعض الأدباء: «القلم هو أحد اللسانين، وهو المخاطب للغيوب بسرائر القلوب، على لغات مختلفة من معان معقولة بحروف معلومة، متباينات الصور مختلفات الجهات، لقاحها التفكر نتاجها التدبير».

ولي قلمٌ في أنملي إن هززتهُ فما ضرَّني الا أهـزَّ المهـنَّدا
إذا صلا فوق الطرسِ وقع صريرهُ فإن صليلَ المشرفيِّ له صـدَا

والسيف آلة قاطعة مفرقة للأجزاء، به تفتح البلدان وتنشو الأديان، وسلاح القوة الحاكمة، ومنعتها وشرفها، لولاه ما انتظم العمران ولا نشرت راية الراحة والأمان ولا استتب الامن والاطمئنان في جميع الأمصار والبلدان

السيفُ أصـدقُ أنبـاءً من الكتبِ في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائح لا سودَ الصحائفِ في متهونهـنَّ جـلاءُ الشـكِّ والريبِ

ولكن لا يخفى على المتامل أن حرب الأقلام أشد تأثيراً في النفوس من حرب الحسام، والتاريخ أعدل شاهد، كما حصل في واقعة الملك (دارا) ملك الفرس مع مملكة (التتار) حيث تغلبت هذه الأخيرة على مملكة الفرس وهزمت جيشها بالحيلة بدون أن تشهر عليها سلاحاً، وهذه دولة إنكلترا في الشرق، وكثيراً من الممالك والشرائع قد فتحت وتأسست بغير السيف الذي لا يحمل إلا على الشمال، بخلاف القلم الذي يحمل على الرأس ويجلس على اليمين، فلا مرية في أنه جليل القدر وهو أحق بان يقول: انا سيد السيف ولا فخر.

٢٥٢- الخمر وتأثيره في العقول والأجسام

واهجرِ الخمرةَ إن كنتَ فتى كيف يسعى في جنونٍ من عقلْ

الإنسان أكمل من سائر المخلوقات وأحسن صورة من جميع الحيوانات، إلا أنه ليس أسعد من غيره من الموجودات، لأنه عرضة للتأثر بالمؤثرات الجوية وتقلبات الزمان، فهو مشترك معها في إعدامه الحياة، وليست سلطنته ولا تدبيره لها في الحقيقة ونفس الأمر إلا لما خصه اللّه به من الصفات المعنوية التي هي أسرار الناطقية، وأفضل ما في الإنسان عقله

ولسانه وحسن قوامه، فهو كما أنه باعتبار خاصيته الحيوانية مجبور طبعاً بتغذية جسمه، كذلك باعتبار خاصيته الإنسانية يجب عليه تغذية عقله بالمعارف وتحليه بالآداب، ولكن لسوء الحظ لم يقتصر على هذه الأسباب النافعة، بل تجاوزها واتخذ أسباباً تعاكسها ليست من ضروريات طبيعة الإنسان، بل هي من مضعفات الجسد والعقل، ومن أقوى هذه الأسباب تعاطي المسكرات التي هي متلفة للبدن مفسدة للعقل مذهبة للأموال جامعة لجميع العيوب والذنوب، مفتاح كل شر طريق كل ضر، منبع كل خصلة شنيعة ورذيلة فظيعة تورث الجنون لبعض الناس وتحدث مرض السل الرئوي واحتقان الكبد.

قال بعض الحكماء: من السموم الخفية المشروبات الروحية. وقال آخر: السكر رأس المعاصي.

وبالجملة: فالسكر آفة الاستقامة وعدم الشرف والأمانة ومجلبة الذل والإهانة يدعو صاحبه إلى ارتكاب الموبقات والإقدام على جميع المحرمات.

من تقرعُ الكأسُ اللئيمةُ سنَّهُ فلا بدَّ يوماً أن يسيءَ ويجهلا
ولم أرَ مطلوباً أخس غنيمةً وأوضع للأشرافِ منها وأخملا

٢٥٣- فوائد ومضار الورق المستعمل بدل النقود

إن للأمم اصطلاحات غريبة كثيرة في المواد المستعملة نقوداً. فالصينيون كانوا يستعملون الأصداف البحرية وغيرهم المواشي وغيرهم ملح الطعام. أما الأمم المتمدينة لهذا العهد، فيستعملون الذهب والفضة لسهولة حمله وقسمته وحفظه بدون نقص في قيمته. وكثيراً ما تستعمل في العملة قطع من اورق عليها وعد بالدفع بدل النقود، ويستحسن ذلك في حالة ما إذا كان المبلغ جسيماً، لأن الورق سهل الحفظ خفيف الحمل، فورقة البنك المرقوم عليها خمسة جنيهات تعهد البنك الذي وضعها بدفع هذا المبلغ لمن يحملها، ولذا يقال أن الورق قابل للتحويل فيما لو أمكن مالكها استبدالها بالنقود في أي وقت يريده، ففي هذه الحالة تكون بمثابة النقود، بل أفضل، وغاية ما يخشى منه أن البنك الذي وضعها لربما يعجز عن إبدالها بالنقود في بعض الأحيان، وكثيراً ما يحدث ذلك للبنوكات فتتوقف عن الدفع ولا تفي بما تعهدت به.

ومع ذلك فقد تقوم الأوراق مقام النقود ولو تعسر وجود عملة أخرى، وحينئذٍ يقال لهذه الأوراق أنها غير قابلة للتحويل، أو أنها عملة فيقبلها كل إنسان لعلمه أن غيره لا يقدر على رفضها لو عرضت عليه.

٢٥٤- حالة الأمة إذا فقدت لغتها

لسانُ الفتَى نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدَّمِ

إن فقد اللغة فقد للشعور وتضييع للدين وانحلال لعرى الفخر والمجد المتين، وموت للإحساس والشرف والحرية، واستئصال لما يجول في عروق الشعب من الحضارة والمدنية.

قال ابن خلدون: «اللغة ملكة صناعية متقررة في العضو الفاعل لها».

وقال عبد الله النديم: «إضاعة اللغة تسليم للذات». وقال غيره: «استقلال الأمة موقوف على حفظ لغتها». وقال آخر: «اللغة هي عنوان الأمة» فحياة الأمة بلغتها طبعاً.

واللغة آلة مادية تقوم بها مبادلة الأفكار بالمعاني بين أفراد الإنسان عموماً وخصوصاً، فإذا أهملت اللغة سادت الفوضى والإخلال بالنظام، وعم الفساد بين كافة الأنام، والويل ثم الويل لأمة أضاعت لغتها، والثبور ثم الثبور لأمة أضاعت منعتها وعزتها والشقاء ثم الشقاء من اضمحلالها وتقهقرها وانحطاطها وتأخرها وتصير في عذاب أليم وتستمر طول الأبد في شقاء جسيم، هذه أمة اليهود مشتتة في كل وادٍ، وعرضة للاسترقاق والاستعباد وهدفاً لسهام التعصب والاضطهاد، وما ذلك إلا لفقدها لغتها العبرانية ففقدت الشعور والإحساسات وأصبحت أمة فوضى لا تألفهم أمة من الأمم. وهكذا إذا أنعم الإنسان نظره في كثير من الأمم الذين نبذوا لغتهم ظهرياً يجدهم في اضمحلال.

٢٥٥- من عفا عمن يستحق العقوبة كان كمن حرم من يستحق المثوبة

فقسَا ليزدجرُوا ومن يكُ حازماً ... فليقسُ يوماً بالذي لا يرحمُ

من تأمل في تاريخ العالم رأى أن أعمال بني آدم أقرب إلى الشر من الخير، وإن كان الخالق سبحانه وتعالى أودع فيهم بصيرة ترشدهم إلى الخير وتنهاهم عن الشر إلا أن الشهوات والأغراض تستدعي مخالفة أمر البصيرة، وجهلهم بالحقائق هو منشأ آخر للمصائب والخطايا والذنوب، وهذه الذنوب على أنواع شتى وضروب مختلفة، فمنها ما يحسن الصفح عنها والعفو عن عقاب من وقع فيها.

مـن ذا الـذي ما ساءَ قـطّ ... ومن لـه الحُسـنى فقـط

وذلك لكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة.

واغفرْ عوراءَ الكريم ادّخـاره ... واعرض عن شتم اللئيم تكرّما

ومنها ما لا يحسن إهمال الضرب على أيدي مرتكبيها، بل ينبغي زجر مقترفيها، ومنها ما يجب عقاب آتيها، وإلا انتشر الفساد في جميع البلاد وإزهاق أرواح العباد.

لعمركَ ما تلك الحياةُ رخيصـة ... فصنْها فما بعد الحياة حياةُ

وقال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ [البقرة:١٧٩]. إذ المراد أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل امتنع عن القتل، ويلزم من ذلك حياته وحياة غيره.

قتلنا لأجلِ النَّفس نفساً بفعلِها ... وقد قادَنا للقتلِ إذ ذاكَ قرآنُ

عدمنا إذاً نفسين حفظاً لأنفس　　　وهذا لعمر الحق عدل وإحسان

وبالجملة: فلا بدَّ من عقاب من يستحق العقوبة حفظاً لكرامة الهيئة الاجتماعية، كما انه لا بدَّ من إثابة من احسن صنعاً مكافأة له وتنشيطاً على عمل ما هو أنفع منه، فيرغب غيره لمباراته ومنافسته فتعم المنافع، بخلاف التهاون في المكافأة، فينشأ عنه فتور اهمم والتقاعس عن الأعمال المفيدة فيجلب الكسل والفساد لا يقل عنه الفساد الناشئ عن إهمال من انغمست يده في الجرائم حتى طغى وبغى وانتهك المحارم.

وما قتلُ الأحـرار كالعفـو عنهـمْ　　　ومن لك بالحرّ الذي يحفظُ اليدَا
وضعُ النّدى في موضع السَّيف بالعُلا　　　مضر كوضعِ السيفِ في موضع النّدى
إذا أنـتَ أكرمتَ الكـريمَ ملكتهُ　　　وإن انـتَ أكرمتَ اللئيـمَ تمـرَّدا

فحقيق وجدير بالحكام، الضرب على أيدي هؤلاء الأشرار اللئام.

لا تلطفـنّ بذي لؤمٍ فتطغيه　　　واغلظْ له يأت مطواعاً ومعوانا
إن الحـديدَ تلين النَّارُ قسوتهُ　　　ولـو صببت عَليه البحرَ ما لانا

٢٥٦- فوائد التصوير الشمسي

إن هذه الصناعة من ألزم الأمور لتقدم العلوم والفنون ولإتقان فن الحرب ولتشخيص بعض الأمراض ومعرفة شكل النجوم وحجم الميكروبات ولأمور أُخرى كثيرة ملازمة للتمدن مرافقة لأشكال العمران. من ذلك أن تصدير الأفلاك والنجوم والشمس والقمر (بالفوتوغراف) صار اليوم أكبر آيات التقدم في معرفة الأجرام السماوية وشكلها، واستنتاج النتائج عما فيها من الجبال والأنهار، وغير ذلك مما يمكن معرفته بتكبير الصور، ومن فوائده أيضاً تصوير المجرمين نشر صورهم بين الناس، وبين رجال الضبط حتى يتعسر عليهم الهرب والفرار، وتصوير الخدمة وغيرهم، والفضل في ذلك لرجل فرنسي من مدينة شالون يدعى (ببيبس) اكتشف بعد امتحانات عديدة بعض خواص الحجرة المظلمة، وهي كناية عن خزانة أو صندوق صغير مغلق إغلاقاً محكماً لا ينفذ إليه النور إلا من نافذة صغيرة تدخل منها الأشعة الشمسية فتنعكس صور المرئيات الخارجة على لوح موضوع لهذه الغاية عند أسفل الخزانة، ثم أخذت في التقدم شيئاً فشيئاً إلى ان وصلت إلى ما هي عليه في عصرنا الحاضر.

٢٥٧- أيهما أنفع للإنسان العزلة أم الاجتماع؟

إن الناس مدنيون بالطبع، اي: لا بدَّ لهم من الاجتماع والمخالطة، لأن الفرد الواحد لا يمكنه ان يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة إلى الاجتماع والمبادلة، فلا مرية أن بقاء الإنسان لم يكن إلا بالاجتماع الإنساني، وإلا فما الفرق بينه وبين الوحوش الضارية.

والناسُ للناسِ من بدو وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

فطرة اللّه التي فطر الإنسان عليها ألِيفاً أنيساً ميالاً للمحادثة والمحاضرة، مضطراً للانضمام إلى إخوانه لتبادل المساعدة والمنفعة.

وقد قيل: المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فلا بدّ للناس من الاجتماع الأدبي الذي عليه مدار الحياة والصفاء والسعد والهناء فيعود عليهم وعلى بلادهم بالتقدم والارتقاء، بخلاف العزلة فإنها وايمن الحق مكسبة للهم والهوان، ولو كان فيها نفع للإنسانية لترك المولى آدم وحيداً في الجنة.

وقد قيل: الشيطان مع الواحد وهو عن الاثنين ابعد، ويد اللّه مع الجماعة. ويقال: إياكم والعزلة فإن في لقاء الناس معتبراً نافعاً ومتعظاً واسعاً، ومجالسة أفضل الرجال تجلو البصر وتطرد الفكر.

إذا لـزمَ النـاسُ البيـوتَ رايتهـمْ عماةً عنّي الأخبار خرق المكاسب

فحينئذٍ الاجتماع الأدبي افضل من الوحدة والعزلة، وأما إذا كان الاجتماع لأكل لحم الناس وسب عرض الأحرار وانتهاك المحرمات ولثم الراحات بالراحات وارتكاب المنهيات والمعصيات فلا ريب في أن العزلة افيد والانفراد اولى واسلم.

وحـدةُ الإنسانِ خـيرٌ من جليسِ السُّوءِ عندهْ
وجليسُ الخـيرِ خيرٌ من جلوسِ المرءِ وحدَهْ

فالعزلة والانفراد خير من مجالسة السوء، لأن المعاشرة الرديئة تفسد الأخلاق الحميدة.

لقاءُ النّاسِ ليس يفيدُ شيئاً سوى الهذيان من قيل وقال
فاقللْ من لقاءِ الناسِ إلا لأخذ العلمِ أو إصلاح حال

وبالجملة: الانقباض عن الناس مكسبة العداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط. فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال.

٢٥٨- الأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة

لـو انني خيّرت كـل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق

إن ينبوع السعادة ومصدر السؤدد والسيادة وانفس الأعراق حسن الأخلاق فبه يشرف الإنسان ويتميز عن سائر افراد الحيوان في كل زمان ومكان، وما زال صاحبه يستميل بحسن شيمته النفوس ويجذب بمكارم اخلاقه الأفئدة والقلوب وينال من عدوه قبل صاحبه كل مرغوب ومطلوب.

احب مكارمَ الأخلاقِ جهدي واكـرهُ ان اعـيبَ وان اعابـا
واصفحُ عن سباب الناسِ حلماً وشر الناسِ من يهوى السبابا

ومن هاب الرجالَ تهيبوهُ ومن حقّر الرِّجالَ فلن يهابا

فالأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة.

قال عليه الصلاة والسلام: «أحبكم إليّ احسنكم اخلاقاً».

لا تقعدنَّ عن اكتساب فضيلةٍ أبداً وإن أدت إلى الإعدامِ

وفي الإنجيل (سعة الأخلاق كنوز الأرزاق).

وقال بعضهم: الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في أمن وسلامة والسيِّئ الخلق من نفسه في تعب، والناس منه في عناء وجهد وبلاء.

إذا لم تتسعْ اخلاقُ قومٍ تضيقُ بهمْ فسحاتِ البلادِ

قال سقراط: حسن الخلق يمنع من ارتكاب القبائح فإنه لا يشاكلها، ومن كلامه أيضاً: حسن الأخلاق يورث المحبة ويؤكد المودة ويقود إلى الفعل الحسن.

وقال أرسطاطاليس: حسن الخلق حلية النفوس كما أن حسن الخلقة حلية الجسد.

وهل ينفعُ الفتيانَ حسنُ وجوههمْ إذا كانتِ الأخلاقُ غيرُ حسانِ

فلا تجعلِ الحسنَ الدَّليلَ على الفتى فما كلُ مصقولِ الحديدِ يماني

وبالجملة: حسن الخلق أعظم حلية يتحلى بها الإنسان ويعيش عيشاً رغداً بين مواطنيه لأن (من أساء خلقه ضاق رزقه). وفي الحقيقة والواقع أن أخس صفة في الشخص الخلق الدنيء واللسان البذيء، ولا يخفى أن من واجبات الدين حسن الخلق والسخاء، فالحسن الخلق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة وتراه قد كثرت مصافوه وقلت معادوه، وتسهل عليه الأمور الصعاب وتلين له القلوب الغضاب، وأما السيِّئ الخلق فتراه يا للعجب ويا لضيعة الأدب، قد جهل قدر نفسه ولم يفرق بين يومه وأمسه، وهو من نفسه في عناء ويعيش العمر في شقاء وترى الناس منه في بلاء.

ومن أراد أن يجعل ذكره مدوناً في صحيفة حسن الأخلاق فعليه أن يكون سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة لا يستفزه تقلب الأحوال وجريان الأقدار ولا يغره غناه فيسوقه إلى ارتكاب الإثم، وإذا كان متولياً أمراً فلا يجزع ولا يستبدل حسن الخلق والصبر بالهلع والبذاء لأي سبب عرض أو لأي أمر طرأ.

٢٥٩- وصف حريق هائل

بينما كانت السماء مشرقة بالأنوار، إذ بدخان قد ملأ الجو والفضاء وحجب كواكب القبة الزرقاء، فتغيرت الأفراح بالأتراح، وتبدل كأس الهناء بالشقاء وذهب الصفاء ضحية العناء، ورأيت الناس فوق الديار يقولون النار، النار، فأسرعت إلى الخروج من المنزل لأستكشف هذه الأخبار فوجدت لكل إنسان شأناً يغنيه، يوم يفر المرء من أبيه وأُمه وأخيه

وزوجته وبنيه وأصحابه وأهله والناس في هرج ومرج، ولا دخول ولا خروج، وفي شدة وضجة ورعدة ورجة سكارى وما هم بسكارى، بل من شدة النيران حيارى، ولما وصلت محل الحريق رأيته منظراً يفتت الأكباد ويقطع شامخ الأطواد، رأيت القصور الشاهقة، قد أمست قبوراً والمنازل العامرة قد باتت قفوراً، ومع ذلك كله فالنار زادت وتأججت كان الجحيم قد سعرت، وامتدت ألسنتها وطالت وتطاول لبيها وصالت، فاشتد بين جميع الناس الخطب، واستغاثوا بجنود المطافئ فحضروا وضربوا عليها الحصار وصاروا يخلصون المنكوبين من مخالب النار، ثم أتوا بالمضخات وشنوا الإغارة عليها بالطلمبات ورموها بالخراطيم والميازيب وقذفوا عليها المياه من فوهات الأنابيب وما تزداد إلا عتواً وفساداً وتلتهم الإنسان والحيوان قسوة وعناداً فاستمرت الحرب بينهما مدة من الزمان وهي تكافحهم بأقوى جنان واحدّ سنان، حتى فرقت أيدي سباكل من حضر، وبددت الأموال والأمتعة شذر مذر، فعززت فرقة المطافئ رجالها بعدد عظيم من الجنود كأنهم أُسود، فشنوا عليها الغارة بكل شجاعة وجسارة، وقاوموها مقاومة الأبطال وأخمدوا لهيبها في الحال.

٢٦٠- وصف يوم شم النسيم

شم النسيم عيد قديم، تخرج فيه الناس وحداناً وزرافات، وقد سالت بهم الطرقات واكتظت أحشاء الفلوات ونزحوا إلى الحدائق والمنتزهات، وغادروا المعاقل إلى حيث الربى والخمائل كأنهم مطر درّته الغمائم أو جراد زفته الرياح السمائم، أو مجتمعو أسواق لا يروج فيها إلا الفسوق تجتمع فيه الغواني والرفاق والساق على الساق والفم قريب من الفم يتلاقون إلى جانب اليم، يتبادلون التحيات بالحواجب ويشفقون على القلوب فيضعون الأيدي فوق الترائب يختلسون النظرات وتحتها سهام صائبات والغواني بين تلك الشعاب يتهادين تهادي الحباب ويتراسلن بالعيون ويتحادثن والحديث شجون وتفنن القوم في اللباس تفننهم في الأرجاس، فمن عمامة بيضاء فوق هامة سوداء.

ما كلُّ من لبسِ العمامةَ سيدٌ   ما كـلُّ مـنِ لبس القباءَ أميرُ
ما كلُّ ذي لبٌ يدير مصالحاً   حتى يهـذِّب بيته ويديـرُ
ما كلُّ ذي حسبٍ شريفٌ إنَّما   شرفُ الرِّجال يسوقهُ التدبيرُ
ما كـلُّ أفـراد البـرايا واحـدٌ   ولكل فـرد فـي الحياة نظيرُ

ومن طربوش أحمر على شعر أصفر ومن حلة خضراء على قامة سمراء واشرأبت البرانيط على قوم شماميط ثم دارت رحا الأفراح بين العقول والراح وتحكمت الكؤوس في الرؤوس ودبت الصهباء في الأعضاء ويلثمون الراح بالراح ويأكلون ويشربون ويضحكون ويلعبون بين نغمة الحديث الرخيم ونشوة المدام النديم ونغمات الأوتار تدعو إلى اغتنام الأوطار تهدي الارتياح إلى الأرواح وتبدل الأفراح من الأتراح.

٢٦١- لا ينجح الأمل إلا بالعمل

إن الطبيعة البشرية قد أودعت في نفس كل امرئ أملاً فطرته عليه، فهو مجبول على حب الرفعة والعلاء، يحدث نفسه دوماً بالارتقاء إلى أسمى المناصب وأعلى المراتب، ومدفوع لاقتحام الأهوال والأخذ بناصية الأعمال حباً في الوصول إلى المرغوب والحصول على المطلوب، وهذه الرغائب تختلف باختلاف الهيئات والمنازع التي يتطبع الإنسان عليها ويترعرع في مهد الميل إليها، فقد تكون (مالاً) يفرغ كنانة الجهد في تحصيله أو (علماً) يحث مطايا الجدّ في إحرازه أو (سؤدداً) يشحذ غرار الكد في نيله. وقد تكون تلك الرغائب بعيدة عنه حين شروعه في معاطاة أسباب تحصيلها، فما الذي يقصر مسافاتها المترامية ويسهل صوب مسالكها المتنائية، ويطوي بينها وبينه مشقة البين ويجعلها منه معقد الإزار، وأقرب من الحاجب للعين بل أدنى من قاب قوسين، ويصير حصولها متحققاً كمضي أمس أو كطلوع الشمس هو (الأمل) تلك العاطفة التي أنار بها الحق جل جلاله نفس الإنسان وجعلها له في وادي الأتعاب خير عزاء وأعظم سلوان. فالأمل مدعاة الإقدام ومجلب الجراة والباس ومزيل القنوط ومبدد اليأس والحافظ بناء الأعمال من السقوط ومساعي الرجال من الحبوط والماحي من الأفكار ظلمات القنوط، فبه تنتعش القلوب وتحيا النفوس ويشد العزائم ويقوّي الهمم.

أعلِّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبُها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأمل

ولكن هل ينال الغنى بالمنى أو يجنى الثمر من غير زرع الشجر وهل تأتي الأرض بالأثمار بدون حرث أو بذار أو تنسج الثياب بدون يد أو دولاب حاشا فلا ينجح الأمل إلا بالعمل.

وإلا كيف يتأتى للمؤمل من الدهر الارتقاء إلى المناصب العليا أن ينال آماله بفتوره وإهماله، تالله لو ظل طول الدهر على هذا الحال لما أدرك شيئاً من الآمال.

فعلى الإنسان أن يقرن الأمل بالعمل، بحيث لا يألو جهداً في ذلك واصلاً ليله بنهاره غير مكترث بالمشقات والأتعاب، ولا مبال بما يقتحمه من الصعوبات والأهوال، فإن من كان ديدنه العمل وشيمته الصبر لا بدّ أن يدرك مناه ويحظى بما يتمناه.

لأستسهلنّ الصعبَ أو أدركَ المُنى فما انقادتِ الآمالُ إلا لصابرِ

٢٦٢- حياة الأمم برجالها العاملين

لا ريب في أن كل أُمة حياتها موقوفة على الأعمال النافعة التي تؤدي بها الحقوق الوطنية ولا يكون ذلك إلا إذا صدرت الأعمال من رجالها الحقيقيين الذين تبعثهم الطبيعة إلى القيام بها.

فالأمة لا نجاح لها في الحال إلا إذا كان الماضي قد أعد لها رجالاً يديرون أعمالها،

فإن لم تكن كذلك اضطرت إلى استعمال رجال من غير بنيها، وهم وإن قاموا رسمياً بالواجب عليهم نحو وظائفهم فلا يقومون إخلاصاً بالواجب عليهم نحو الوطن والأمة.

وعلى هذا يكون الغرض من الاعمال فاقداً صفة الكمال ومسؤولية هذا النقص عائدة على الماضي ورجاله يعاتبهم عليه التاريخ، وليس في الإمكان تدارك هذا النقص حالاً بخلافه استقبالاً فإنه يمكن أن يتدارك بتهيئة الرجال الاكفاء من الآن، والمسؤولية في ذلك عائدة على الحاضر وبنيه، فلا يكتفي في مؤاخذتهم بالتاريخ لأن المسؤول حي قائم تطالبه الأمة والوطن والتاريخ، فلا يخلصون من هذه التبعة إلا بالاهتمام بالاعمال الحالية، وتنظيم إدارتها في الدوائر على اختلاف فروعها مع إقامة قسطاس العدل، وهو آفة الجور ومراعاة الأعمال وتطهيرها بالتربية لينزع من القلوب الحقد والتحاسد والتباغض، فيموت من الأمة الانشقاق والاختلاف، وتعقد الضمائر على الولاء والمحبة ليطرد من بينها العدو الباطن الذي هو أشد فتكاً بالجامعة من العدو الظاهر، لأن ذاك العدو يتخذ المماراة والمداراة والنفاق حبائل لغاياته، فيخدع بظواهره البسطاء بخلاف الثاني فهو مجاهر ظاهر يسيل الاحتراس منه، فإن تم لها ذلك وجد الاتحاد الذي هو روح حياة الأعضاء وداعية التعاضد والتكاتف الواجبين لغاية الإصلاح، وهذه كلها معدات تهيئة الرجال القادرين على استلام زمام الأعمال في المستقبل، والساعي في ذلك إنما يعمل لحياة الأمة، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً وانظر ما قدر هذا العمل المبرور، وما جزاؤه عند الله وعند الناس والتاريخ.

كفاني فخراً أن أموتَ مجاهداً وحبٌّ بلادي قائدي منذُ نشأتي

وعلى الضد من ذلك من يسعون في تبديد هذه المعدات وإضاعة تهيئة الرجال المستقبل، فإنهم بذلك يحاربون الله ورسوله والأمة والوطن ويجنون أعظم الجرائم وشر الجنايات، فما جزاء هؤلاء إلا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

ولقد أخطأ من يظن أن مجد الأمة وسلامة المملكة بالمال والحرية لأن المال لا ينهال من السماء، والحرية لا تنبعث من الينابيع والجداول، وكلاهما لا يأتي إلا من طريق العزم والحزم، ولا يغرس في الأمة إلا بأيدي كبار رجالها الذين يحبون أن يروا شعبهم متحلياً بجلباب السعادة والرفاهية في أعين الشعوب.

وهذا مما يوجب على أفراد الأمة التمسك برجالها أصحاب المبادئ الصحيحة الذين يحبون البلاد وسعادة أهلها ويسعون في جلب الخير إليهم وفتح أبواب الأعمال لهم، لأن إخلاص الأمة لكبار رجالها موجب لتقوية الرابطة الوطنية لما فيه من فضيلة الشكر على محاسن الأعمال.

ولقد قالت الحكماء: إن أعظم شيء تسود به الأمة محبة كبار رجالها والإخلاص لهم إذا عملوا ما يجب عليهم.

وسبب ذلك أن من يعمل الخير ليحمد يجب أن يحمد ليوفي حقه، وأما من يعمل الخير لأنه خير فيجب أن يضاعف له الحمد، والأمة التي تعرف قدر الأفراد وتعرف لهم ما يعملون تختط بذلك طريقاً إلى تكثير رجالها وتقوية روح الارتباط فيهم وتستجلب بذلك مرضاة أعاظمهم، وبذلك تتحد إرادة جميع الأفراد، فيعمل الواحد صورة يتمم بها عمل الآخر، وهذا هو الغاية التي تتمناها لنفسها مع رعاياها الحكومات المنتظمة.

ولا يخفى أن توحد الإدارة من أهم الأمور لإنجاز الأعمال العظيمة الشريفة التي يصعب على أكبر الأمم القيام بها، وهذا لا يحتاج إلى بيان، فإن العاقل يعرف أن عشرين رجلاً تختلف إرادتهم في نقل حجر صغير لا يتسنى لهم نقله مهما أضاعوا من الزمان، بخلاف ما لو اتحدت إرادة سبعة منهم مثلاً على نقله إلى محل معين فإنهم ينقلونه.

ولو استعمل كل واحد منهم واسطة لأن الغاية واحدة والإرادة متحدة، وهذا من أعظم المبادئ التي يجب على الأمة الالتفات إليها وتعويد نفوس النشء عليها، فإذا اتحدت إرادتهم مع إرادة كبار رجالهم اتجهت بهم تلك القوة العظيمة إلى الأعمال النافعة وسعدوا بأنفسهم وفازوا فوزاً عظيماً.

وحيثُ كنّا معاً نرمي إلى غرضٍ فحبَّذا فاضلٌ منّا ومفضولُ

ولأجل أن يتعلم الإنسان هذا المبدأ يجب عليه أن يحرص على جميع أعمال كبار الأمة الذين أخذوا على أنفسهم القيام بعظائم الأعمال وسعوا جهدهم إلى نفع بلادهم وبنيها فيجعله درسه حتى يتبين منها اتجاه قوي إرادتهم الصالحة، وحينئذٍ لا يألو جهده عن السير على مقتضى تلك الخطة التي تشيد لوطنه الفخر والمجد وتمنحه السعادة والخير مهما اعتوره من المخاطر والأهوال متمثلاً بقول من قال:

ولستُ أُبالي حينَ اقتلُ مؤمناً على أيِّ جنبٍ كان في الله مضجعي

٢٦٣- هل الأنفع لمن عنده مال أن يصرفه في تعليم أولاده أو يبقيه ميراثاً لهم بعد مماته

المال مادة الحياة وقوام ضروريات الإنسان وحاجياته وكمالياته من المطاعم والملابس والزينة، فلولاه ما بقي للحياة عين ولا أثر، وكما أن عليه مبنى وجود الجسم، كذلك به يحصل حياة الروح وكمالات النفس ولذة العقل، وهو الواسطة لتحصيل لوازم تعليم الفنون والعلوم النافعة، ومتى تعارض على المال خطة صرفه في سبيل التعليم في الحال أو إبقائه في المآل وجب صرفه في الوجهة الأولى، إذ العلم غذاء العقل وهو أشرف من الجسم ولنعم العوض، على أن ما فات من ادّخار المال يناله أضعافاً مضاعفة بواسطة العلم، وناهيك بمنافع دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ولذة عالية وآثار باقية ورفعة قدر ونباهة

شأن وشرف منزلة، وهل يقاس ما يتناهى وهو المال بما لا يتناهى وهو العلم، وما شرف الماديات في جانب المعقولات، وهل يذكر الدينار في جانب الأفكار، أو يقاس الصامت بالناطق والميت بالحي، بل مثل ما ينفق في سبيل التعليم كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

على أن العلم يجري من المال مجرى الروح من البدن، والحاكم من الحكومة والحارس من المحروس، بل والفارس من المفروس، وهل خلد التاريخ في صفحاته إلا أهل العلم وأرباب الجدّ في الأدب وأنصار البحث في الحقائق، فمنهم السياسيون والملوك العادلون، وبهم استقامت البلاد وانتظمت الدول واستتب العدل، ومنهم العلماء والحكماء والمخترعون والمكتشفون هدى للناس ونوراً، وهل رأيت لأحد منهم فيه ذكراً أو سمعت له قط فيه شكراً.

ففزْ بعلمٍ تعشْ حيّاً به أبداً النَّاسُ موتى وأهلُ العلم أحياءُ

وبالجملة: فنحن بالطبيعة نشعر بالسرور التام، حينما يرى الواحد منا أن له ولداً يؤمل فيه النجاح ويرى عليه دليل الفلاح، فينفق ما استطاع أن ينفق، وذلك لأن النفوس من طبعها تميل إلى العلا، ولو كان كما يقول بعض الناس أن ميول الإنسان إلى الشر أكثر منها إلى الخير ما كنا نشعر بهذا الشعور، وما كان لدينا هذا الإحساس، ولكانت الأزمنة الهمجية باقية إلى الآن.

علم الله أن المال الكثير الوافر ليس بشيء بجانب نجاح الأولاد وتهذيبهم، بدليل أنه يهون على الرجل أن يكون صفر اليدين بجانب نيل هذا المبتغى، كما نجد أن صاحب المال الذي لا أولاد له منكود الحظ منغص العيش.

وأكثر من هذا حزناً على الشخص الذي له أولاد لا بركة فيهم ولا نجاح لهم فيحسب لانحطاطه ألف حساب ويتمنى لو مات هؤلاء الأولاد حتى يستريح فؤاده ويحفظ شرفه، والحقيقة أن لا عار أعظم من فساد الأولاد.

إذاً الرجل الذي ينبغي أن يعيش سعيداً في أولاه وآخراه، يجب أن يبذل كل نفيس وغال في تهذيب أولاده حتى يموت آمناً على بيته من الخراب، وعلى عرضه من أن يثلم وسيرته من أن تقبح هذا من جهة، ومن جهة أُخرى يضمن بقاء العز لأولاده وجميل الذكر لنفسه إذ الناس يثنون عليه ويطلبون له الرحمات كلما نالهم خير من أولاده، كما أن المال الذي أنفقه عليهم يأتي بأضعاف أضعافه. وكلما طالت حياتهم زادت ثروتهم، ولو كان كل رجل يعتني بتربية أولاده لكانت الأمة راقية حية إذ كل واحد يعرف حقوقه ويمكنه أن يدافع عن نفسه وعن أُمته، فإن الأمة ما هي إلا الأفراد فإن كانوا أحياء كانت الأمة حية وإن كانوا أمواتاً كانت كذلك.

نِعمُ الإلهِ على العبادِ كثيرةٌ وأجلهـنَّ نجابــةُ الأولادِ

٢٦٤- الكفاف مع العمل أهنأ أم الثروة مع البطالة؟

خلقنا لنعمل لطلب الخير ونتحرك للوصول على الرزق، لأن الله أوجدنا لحكمة، وهي أن نعمل فنعبده وعظمه، شكراً له على نعمة الوجود، وعلى بقية النعم الجليلة التي تفضل بها علينا حتى يكون هذا العمل سبب سعادتنا في الدنيا والآخرة، وأمرنا أن نسعى في طلب الرزق بقوله عز شانه: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ [الملك:١٥]. بأن نشتغل فندرس العلوم ونفلح الأرض وندير التجارة ونحسن الصناعة، لتكون هذه الأعمال سبب سعادتنا وراحتنا في هذه الدنيا ونكون قد أدينا الثمرة المطلوبة منا والغاية المفروضة علينا، وهي العمل والشغل، تأمل تجد أن الله خلق الأشياء وجعل فيها ثمرة تؤديها فثمرة النباتات حبوبها وأزهارها وثمرة الأشجار فواكهها وثمارها وظلالها وأخشابها، وثمرة الحيوانات ألبانها وأصوافها وأشعارها وأوبارها ولحومها ونتاجها وركوبها وجر الأثقال، وثمرة الطيور بيضها وريشها ولحومها، وليس لإنسان ثمرة من تلك الأثمار، وإنما ثمرته شغله وعمله، فإذا لم يعمل ويشتغل كان أحقر الحيوانات وأصغر النباتات، وأخس الطيور خيراً منه، انظر إلى النحلة التي هي من أصغر الحيوانات تعلم أن الله أمرها أن تشتغل وتتخذ لها البيوت من الجبال والأشجار وتأكل من كل الثمار لتؤدي المنفعة المطلوبة منها وهي العسل، فهل يليق بالإنسان سلطان المخلوقات أن يكون أقل شأناً منها أو من غيرها، كلا.

وصفوة القول أن الله خلق الإنسان ليعمل ويسعى، وناط بعمله قوام الوجود وأساس النظام وجعل أكثر الأمم غلبة في الأرض أحسنهم عملاً وأدومهم سعياً في مرافق الحياة، فالعمل روح الحياة ومصدر الغنى ومنشأ العمران، فالذي يعمل ويجد طالباً عظائم الأمور وأسمى المراتب، واضعاً نصب عينيه «السماك أو الهلاك، العلاء أو الفناء النصر أو القبر». فلا بدّ أن ينال ما يطلبه ويبلغ ما يؤمله، ويجد الراحة مع الهناء، ويعيش محترماً محاطاً بكل أنواع العز والصفاء.

وغنى البلادِ نوابغ يهدُونها نعم الحياةِ ويدرؤونَ شقاءَها

وما المثري الذي لا يعمل شيئاً إلا عضو فاسد في المجتمع الإنساني يجب بتره وقطعه قبل تفاقم الداء فيعسر الدواء.

وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ من سقط المتاعِ

٢٦٥- الإحساس والشعور دليل رقي الأمة

الإحساس: إما ظاهري وهو شعور النفس بالآثار الظاهرية عند وصولها من الجسم إليها، وإما باطني وهو شعور النفس بآثارها الباطنية. والشعور الباطني: هو أثر ينشأ عن هبوط أو صعود التصورات الحاصلة والمشعور بها في النفس.

وبعبارة أخرى: الإحساس أثر تبادل وتوارد التصورات صعوداً وهبوطاً، فالأثر الحاصل على الصعود يسمى إحساساً ارتياحياً. عن الهبوط يسمى إحساساً غير ارتياحي، مثال ذلك لو أعملنا الفكر في تذكر اسم شخص، فإما أن تصعد فنتذكرها، وحينئذ نجد من أنفسنا أثراً يرتاح إليه، وإما أن تهبط فلا نتذكرها، وحينئذ تشعر النفس بأثر لا تطمئن إليه.

وبحكمة ارتباط الإحساسات النفسية بالتصورات يلزم من أراد أن يحدث إحساسات ارتياحية أو غيرها أو يولد لها تصورات.

والإحساسات صورية ومادية: فالإحساسات الصورية تنشأ عن الارتباط بين تصورين أو أكثر من جهة الصورة، وذلك كالانتظار والرجاء والكد والفزع والدهشة والشك والملل والأنس.

والإحساسات المادية هي الشعور بكيفية التصورات ومادتها وتتنوع إلى إحساس بالحقيقة وإحساس بالحسن وإحساس بالآداب وإحساس بالدين.

فالإحساس بالحقيقة: هو البحث عن نتائج الأعمال من جهة مادتها، والإحساس بها ارتياحي إذا حصل عليها، وغير ارتياحي إذا حصل على الخطأ في إصابتها أو كانت غير واضحة.

والإحساس بالحسن أو القبح: هو الإحساس بالاستحسان المطلق أو الاستقباح المطلق اللذين هما بمعزل عن الغرض الذاتي وموضوعهما الأشياء الطبيعية والصناعية من حيث مادتها وصورتها وما نستحسنه مطلقاً نسميه حسناً، وما نستقبحه مطلقاً نسميه قبيحاً.

والأشياء المحسوسة خاصيتها لا مادتها أو صورتها، فإن كان الإحساس بها ارتياحاً سميت مقبولة أو لطيفة، وإن كان غير ارتياحي سميت غير مقبولة أو غير لطيفة.

والإحساس بالآداب: هو الشعور بالخير أو الشر، فجل أماني الإنسان أن الحسن والخير يلزم أن يحصلا، وأن القبيح والشر ينبغي ألا يكونا ويحصل ذلك بواسطة التربية والتعليم والمعاشرة وترقب الإنسان لأعمال نفسه وغيره، والغرض بالإحساس بالآداب أن تجتمع أفراد الإنسان على إرادة واحدة.

والإحساس بالدين: هو شعور الإنسان بذات موجودة أزلية أبدية قائمة بنفسها - كيف لا - والدين هو الناموس الباطني المرشد الهادي إلى خطة الفلاح في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فحاجة البشر إلى الدين كحاجة الجسم إلى الغذاء، فكما أن الغذاء حياة الجسم وقوامه، فكذلك الدين حياة لنفس لا تطيب إلا به وقد أثبت التاريخ ودلت الآثار على أن الدين مربي الإنسان ومرشد الأمم إلى طرق المدنية منذ تكونت جمعيت البشر حتى أننا لا نرى الآن أُمة على وجه الأرض إلا ولها دين معروف وشريعة خاصة بها. فلا نجاح لأمة نبذت دينها ظهرياً، ولا فلاح لقوم استعبدوا لشهواتهم.

إذا سلم الدِّينُ القويمُ من الأذى   فكلُّ أذى فيما سواه سلامُ

وعلى هذا، فلا بدَّ لكل أُمة من دين، ولو كان من وضع البشر كما هو حاصل عند

بعض الشعوب الذي أهمل أمر دينه وفقد أُصول الشرائع الإلهية، ثم رأى أن لا حياة إلا بالدين ولا اجتماع إلا على كلمته، فاضطر إلى الوضع بأي وجه كان. فسبحان الله ما أعظم منته وأعدل عمله، افترقت الشعوب فجمعها وتغالبت الأنفس فهذبها وتباينت المقاصد فوحدها وافترقت القلوب فألف بينها، فانضمت الأقوام إلى ما شرع من شرائع ارتبطت بها مصالح الأمم، واتحدت كلمة الشعوب فذللوا المصاعب ومدوا ظلال العمران وشيدوا الممالك فوضحت لهم طرق السعادة فسلكوها وتوصلوا إلى نعيم الحياة فتمتعوا به.

ولذا قال بعض الفلاسفة في تعريف الإنسان: إنه حيوان ديني ولم يكتف بالنطق لأن التدين يستلزم النطق الصحيح ومن لا دين له قريب من البهائم ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ [الفرقان:٤٤]. وصفوة القول أن النفوس لا بدّ لها من مقوم والعقول لا تكفي في أن تسير أصحابها على النمط الذي يرضي الخالق جل وعلا لأن من صفاتها الشر الغالب على الخير إن لم يكن هناك عون له عليه ولا عون أقوى مما كان من عند الله.

فبهذه الجامعة العظمى والرابطة المثلى، تألفت قلوب الأمم المتنافرة، وتضافرت قوى الشعوب المتفرقة، فاندفع الإسلام في أطراف البسيط الأرضي يدوخ أهله الممالك، وينشرون الدين واللغة والمدنية ويبسطون نور العلم والتربية والتهذيب، كل ذلك فعلوه في أقل من قرن بواسطة (جامعة الدين) ورابطة الحق اليقين.

٢٦٦- يد الله مع الجماعة

قد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون للإنسان السلطان والتصرف في الأرض لا لأن يكون ظالماً جباراً بل عادلاً يستعمل الكائنات فيما خلقت لأجله بالقدر الذي يقتضيه العدل وناموس الحكمة، وحيث أن الإنسان نوع ذو أفراد تحتاج بالفطر إلى نمو المادة، وأنه ليس في طاقة الواحد الحصول على ما تنمو به مادته من الحاجيات اندفع بالطبع إلى طلب المساعدة والائتلاف بأبناء جنسه.

والنَّاسُ للناسِ من بدوٍ وحاضرةٍ ... بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه وإجماع الأمة آية رضاء الله.

ومـا المـرءُ إلا بإخـوانـه ... كما يقبضُ الكـفُ بالمعصمِ
ولا خيرَ فـي الكـفِّ مقطوعـةً ... ولا خيرَ في الساعدِ الأجذمِ

فالأمة التي يتحد أفرادها ويكون شعارهم (الواحد للجماعة والجماعة للفرد، والفرد يفدي الأمة، والأمة تحمي الفرد) تسلك سبيل السعادة والهناء.

كونوا جميعاً يا بنيَّ إذا اعترى ... خطـبٌ ولا تتفرقـوا آحـادا
تأبى القـداحُ إذا اجتمعنَ تكسُّـراً ... وإذا افترقنَ تكسرتْ أفـرادا

فإذا كان اجتماع أفراد العائلة قلباً وقالباً داعية القوة والمنعة وعزة الجاه والجانب

والظهور على المغالب والظفر بالعدو والمحارب، فهو لا شك في الأمم روح جثمانها ودعامة حياتها وسلم ارتقائها وسيف احتفاظها بنفسها وغرار فتوحها، بل تاج عظمتها وصولجان سلطانها، وما الوطن إلا عائلة كبيرة أعضاؤها عائلاتنا الصغيرة إذا حل بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعاً، وإذا نزل بهم بلاء اقتسموه، فالوطن له حقوق على أبنائه، له حق في إخلاص كلي في أمانة تامة فإذا هدد له أن يطالبنا ببذل دمائنا وأموالنا فنترك عائلتنا ظهرياً ونخرج لحمايته ودفع ما يحوطه من المكاره.

ولست أُبالي حين اقتلُ مؤمناً   على أيِّ جنب كان في اللّه مضجعي

فسحقاً لمن دخل العدو بلاده عنوة واقتداراً ولم يدفعه عنها إلى آخر نسمة من حياته مجاهداً في استخلاصها من قبضة يده.

كفاني فخراً أن أموت مجاهداً   وحبٌّ بلادي قائدي منذُ نشأتي

والأمة النشيطة ذات النفوس الكريمة تصبر على القلة والجوع أكثر من صبرها على الهوان والخضوع، إن مثل من باع بلاده وخان وطنه مثل الذي يسرق من مال أبيه وأخيه ويطعم اللصوص فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافئه.

وصفوة القول أن الاتحاد دعامة السعادة وينبوع العزة والسيادة وهو اليد العليا في الحياة الدنيا وبدونه تحل بالأمة الطامة الكبرى.

إذا رغبتَ في شرفٍ مرومٍ   فلا تقنعْ بما دون النُّجومِ
فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ   كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

٢٦٧- عدو عاقل خير من صديق جاهل

العاقل إذا والى بذل في المودة نصحه ونصره، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله، إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر، وإن أساء إليه مسيء سبب إليه أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو، وأما الأحمق فضال مضل إن أونس تكبر، وإن أوحش تكدر، مجالسته محتقرة ومعاتبته مبتذلة.

ولان يُعادي عاقلاً خيرٌ لـه   من أن يكونَ له صديقٌ أحمقُ

وورد في أمثال الأوائل، عدو عاقل خير من صديق جاهل لأن همة العاقل لا تتعلق إلا بطلب الكمال، فهو يقدر الأمور حق قدرها ويوقفها عند حدها اللائق بها، فإنه ينظر بقلبه وخاطره لا بمجرد عينيه وناظره، فله من عقله رادع عن التسرع إذا أُثيرت عواطفه بما يكدره من عدو تظاهر عليه بالعدوان معلقاً خاطره بأقوال النبهاء والأفاضل الأذكياء، وغير ذلك من النظم والقوانين التي يجعلها دائماً نصب عينيه دواء لغضبه، أما الأحمق فليس عنده نظر في العواقب وهو جهول بالشرائع، فالاقتراب منه ندامة والبعد عنه سلامة.

يقولُ لك العقلُ الذي يزنُ الفتى   إذا لم تكن تقدر عدواً فداره

ولاقه بالترحيبِ والبِشْرِ والقِرى وبارِكْ له ما دمتَ تحتَ اقتداره
وقبلْ يدَ الجاني التي لستَ قَادراً على قطعها وراقبْ سقوط جداره
ذو العقل في معركِ الأقدار مقتدرٌ لكن ذا الجهلِ مغلوبٌ ومغلولُ
وعقل ذي الحزم مرآة الأمورِ بها يرى الحقائقَ والمجهولُ مجهولُ

٢٦٨- فوائد رجال الشرطة «البوليس»

لا بدّ لكل أُمة من حكومة، ولكل حكومة من نظم وقوانين تسير عليها وتعمل بها، وإلا اختل نظامها وانفرط عقدها.

والأمة هي مجموع الأفراد القاطنين في قطعة معلومة من الأرض والخاضيعن لحكومة واحدة.

والحكومة هي جسم اجتماعي يعتبر كأنه شخص واحد، له ماله من الإرادة والفكر والعمل، وكل جمعية إنسانية خاضعة لقوانين ونظام عام تكون جسماً اجتماعياً يسمى بالأمة.

وكما أن الجسم الإنساني يحتاج لفكر يفتكر به، ونفس يريد بها وأعضاء يعمل بها، كذلك يجب أن يكون في هذا الجسم الاجتماعي إرادة وفكر وأعضاء مادية، ويتعين على كل حكومة النظر في أعضاء الجسم الاجتماعي، وهم عبارة عن أفراد تلك الأمة، ولهذا يجب أيضاً على كل حكومة أن تحافظ على أن تكون العلائق بين أفرادها مؤسسة على العدل الذي يجده كل إنسان في نفسه، ولا يجوز لها أن تترك القوي يظلم الضعيف وغير ذلك.

وكل فرد في المجتمع الإنساني لا بدّ وأن يشتغل بعمل ما، ولهذا احتاج إلى القوة والمهارة والعلم، وعليه واجبات يؤديها لنفسه وللمولى سبحانه وتعالى ولعائلته ولوطنه، ولا يتسنى له القيام بذلك إلا بقوتين: قوة قضائية، وقوة تنفيذية، فالأولى ما تقوم بها رجال الشرطة والقصد من إيجاد الثانية توطيد الأمن والنظام والحرية العمومية. ويدخل في اختصاص الشرطة أُمور كثيرة.

منها: مراقبة مجاري المياه التي ليست من الأملاك الخصوصية فلكل إنسان الحق فيها على حد سواء، وليس لأحد أن يستعملها استعمالاً مضراً بالصالح العام.

ومنها: مراقبة القنص والصيد بحيث تكون تحت قواعد مخصوصة حتى لا ينشأ عنه ما يكدر راحة سكان الأرياف أو يكون سبباً في إتلاف الزرع والغيطان، وكذا صيد البحر يجب أن يكون على نظام واحد حتى لا يتأتى منه إهلاك الحيوانات المائية.

ومنها: مراقبة الصناع في المعامل والمناجم والمصانع، فلا يجوز أصلاً أن تنهك قوى العمال خصوصاً النساء والأطفال. ولذلك وجب أن تكون مدة الشغل فيها محدودة.

ومنها: مراقبة المكاييل والموازين والمقاييس حتى لا يتأتى للبائع غبن المشتري.

ومنها: مراقبة الأشياء الذهبية والفضية لأن المشتري لا يكون معه في العادة ما يتمكن به من تحقيق ما إذا كانت الأشياء التي تباع إليه نقية أو خلطاً من معادن حقيرة تقلل قيمتها.

ومنها: مراقبة المواد الغذائية التي تباع في الأسواق بحيث تكون من نوع جيد خالية من الغش حفظاً لكل إنسان.

ومنها مراقبة منع انتشار الأمراض المعدية بالتقويمات الصحية.

ومنها مراقبة بيع الحيوانات وصحتها ودواب النقل للرفق بها.

وصفوة القول: أنه يجب على رجال الأمن العام أن يبذلوا النفس والنفيس في جلب الراحة والأمان والاطمئنان والسعادة في ربوع عموم المدن والقرى والبلدان فبهم يبلغ الوطن من حسن نظام المعيشة الغاية ومن الحضارة والمدنية النهاية.

٢٦٩- فوائد الشجاعة ومضار الجبن

الشجاعة من الفضائل الجوهرية، لأنها من الوسائط العظيمة الضرورية لحفظ الذات ونوال الغبطة والسعادة، فالرجل القوي النفس الشجاع الباسل يأبى الضيم، ويذب عن حياته وشرفه ودينه ووطنه بكل ما أُوتي من قوة، ويأنف أن يأتي الظلم.

ليس المروءةُ أن تبيتَ منعماً ... وتظلَّ معتكفاً على الأقداحِ
ما للرجالِ وللتنعم إنما ... خلقوا ليوم كريهةٍ وكفاحِ

نعم إنه بشهامته وعلو نفسه في عمله يحصل على رزقه من وجوهه الشريفة المشروعة، ويعيش بسلام مطمئن الخاطر قرير العين غير هياب ولا وجل، وإنه لقوة إيمانه وشجاعة نفسه إذا نابته النوائب التي لا يقدر على دفعها قابلها بالصبر الجميل واحتال للخلاص منها بتؤدة وحكمة حكيم.

فالشجاعة من هذا القبيل من أعظم الفضائل، ولهذا جعلها القدماء من أُمهاتها، وهي غريزة يضعها الله فيمن شاء من عباده «إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية».

قال بعض الحكماء: الرجال ثلاثة فارس وشجاع وبطل، فالفارس الذي يشد إذا شدوا، والشجاع الداعي إلى البراز والمجيب داعيه، والبطل الحامي لظهور القوم إذا ولوا.

ولو أن الحياةَ تبقى لحيٍّ ... لوددنا مكانَها الشجعانا
وإذا لم يكنْ من الموتِ بدٌّ ... فمن العجزِ أن تكونَ جبانا

أما الضعف والجبن فهما رذيلتان من شر الرذائل، لأنهما قد تصاحبهما في نفس صاحبهما آلاف الأوهام والخزعبلات.

يرى الجبناءُ أن الجبنَ عقلٌ وتلك خديعةُ الطَّبعِ اللئيمِ

فالجبن الضن بالحياة والحرص على النجاة.

يفرُّ الجبانُ من أبيه وأُمه ويحمي شجاعُ القوم من لا يناسبُهْ

فالرجل الضعيف الجبان يعيش في الأوهام والمخاوف الدائمة فيضني صحته بالفزع والوجل من لا شيء، وهذا الخوف أو الوهم والوسواس إنما هو آفة له قد يكون بها أسير أوهامه ورفيق كل من يريد هضم أعماله، وهو استعباد قواه وإذلالها فينتقص شانه ويفسد عليه عيشه، حتى إنه ليجعل حياته طوع إرادة وهوى من يخافه ويتملقه.

وإذا ما خَلا الجبانُ بأرضٍ طلبَ الطعنَ وحدَه والنزالا

الجبنُ عارٌ وفي الإقدام مكرمةٌ والمرءُ بالجبنِ لا ينجو من القدرِ

على أن أكثر هذه الصفات قد تكون وراثية أي أنتجتها أحوال سابقة للأمم والأفراد، غير أن التربية قد تصلح من تلك الصفات على تمادي الأجيال متى ما قصدت الأمم إليها، وعرفت ما ينقصها منها، لأن كثيراً ما يتعلق إرادة البشر إصلاح أحوالهم وإنما تعوزهم العزيمة والثبات، لأننا بمعرفتنا ما ينقصنا من الأخلاق وشعورنا بالنقص فيها يمكننا أن نسعى إلى إحيائها في نفوسنا بحيث نهيئ ذرارينا لها بإصلاح أحوالنا على قدر الطاقة.

وصفوة القول: إن الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم منارها وقطع روابط الأمم فحل نظامها وأوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم، هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية على أنظار السائرين، يسهل على النفوس احتمال المذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل، ويوطن النفس على تلقي الإهانة بالصبر والاحتمال والتجلد. الجب يلبس النار عاراً دون احتماله موت أحمر عند كل ذي روحٍ ذكي وهمة عليه، يرى الجبان وعر المذلات سهلاً، وشظف العيش في المسكنات رهفاً ونعيماً، لا. بل يتجرع مرارة الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال، وإن لم يبقَ له إلا عين تبصر الأعداء ولا ترى الأحياء ونفس لا يصعد إلا باصعداء وإحساس لا يلم به إلا الأذلاء، هذه حياته أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء، وهو يظن أنه أدرك الغاية وحصل على النهاية، كيف لا والجبن انخذال في النفس عن مصادمة كل عارض لا يلائم حاله، وهو مرض من الأمراض الروحية، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية.

إن الشبابَ والفراغَ والجدة مفسدةٌ للمرءِ أيُّ مفسدة

الشباب مطية الجهل ومركب الذنوب وشعبة من الجنون، ولذا قيل: سكر الشباب أشد من سكر الشراب. قال النابغة الذبياني:

وإن يكُ عامرٌ قد قال جهلاً فإن مطيةَ الجهلِ الشبابُ

والمال فتنة، قال الله تعالى: ﴿ أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [الأنفال: ٢٨].

فالمال ميال للهوى، بل سبب حتف الإنسان كما إن الطاووس قد يذبح لحسن ريشه.

ألم ترَ أن المالَ يهلكُ ربــهُ ... إذا جمّ آتيه وسدّ طريقه

فمتى وجد الشاب مالاً كثيراً وثروة عظيمة بلا تعب ولا كدر، وكان وقته خلواً من الأعمال، لم يلبث أن يتطرق إليه الفساد من حيث لا يدري ولا يشعر ويلحقه الدمار والوبال من حيث لا يفهم ولا يعقل تأمره نفسه الدنيئة بالسوء والرذائل، فيخضع للشهوات واللذات ويسبح في بحار الضلال ويتيه في وديان الغواية الظلام، ويصرف نفيس وقته في التفنن بضروب المفاسد طوعاً لأوامر الشباب وخضوعاً لسلطان الغرام، ويضيع تلك الأموال الطائلة ويبدد تلك الثروة الهائلة في غير مصارفها المباحة، فتفسد أخلاقه ويرتكب أخس الدنايا ويحمل ذميم السجايا ويتجاهر بالفسق والفجور ويتباى بالزنا وشرب الخمور، ويجتمع حوله كثير من إخوان السوء وأعوان الشيطان الذين لا حظ لهم في مجالسته ومصاحبته سوى اختلاس أمواله وإضاعة ثروته، فلا يلبث أن تنفد تلك الثروة وتذهب أدراج الرياح، ثم يلتفت يميناً وشمالاً لينظر أصحابه فلا يبصر أنيساً ولا جليساً ويصبح خالي الوفاض، بل يكون الحزن حليفه والكدر أليفه والفقر قرينه والذل دثاره والهوان شعاره.

هذا الذي إن عاشَ لا يعتنى به ... وإن ماتَ لم تندبْ عليه أقاربُهْ

ويصبح من أموات الأحياء عالة على المجتمع الإنساني كئيب الحال كاسف البال.

ليس من ماتَ فاستراحَ بميت ... إنما الميتُ ميتُ الأحياءِ

إنما الميتُ من يعيشُ كئيباً ... كاسفاً بالــهُ قليل الرَّجـاءِ

فالشخص الذي لا يعمل عملاً ينفع به نفسه ووطنه ما هو إلا عضو فاسد في المجتمع الإنساني يجب بتره قبل تفاقم الداء فيعسر الدواء ويتسع الخرق على الراقع.

عدوي البليد إلى الجليدِ سريعة ... والنارُ توضعُ في الرمادِ فتخمدُ

كيف لا، وإن الإنسان لم يخلق ليلعب ويمرح ويلهو ويترك ما خلقَ لأجله وهو العمل.

صدقَت إن الرزق يطلب أهلهُ ... ولكنْ بسيرةِ متعبٍ مكدودِ

وصفوة القول أن الشباب والمال والفراغ دعائم الفساد ورأس الضياع وطرق الوقوع في الحفر البعيدة الغور، فإن الشاب الغني الذي كثر ماله وعظمت ثروته ولم يتقيد بعمل من الأعمال لا يتطلع إلى شيء من معالي الأمور، فإن الفراغ منشؤه عدم تقويم نفسه في صغره وعدم تعليمه وبث روح العمل فيه، فينشأ كارهاً له غير مدرك قيمته ومن نشأ على شيء صار عادة له، والعادة طبع ثان والطبيعة تصعب محاربتها.

وقائد الانحطاط لذلك الشاب الذي لا عمل له وجود المال عنده، فلا يحجم عن أي عمل تسوّله له نفسه الأمارة بالسوء، ولا يزال يتحرك طوع شياطينه حتى تلتجئ نفسه إلى ما لم تكن تعهده من الذل والهوان.

وإن رأيتُ الشُّغل يوماً مجهدة فإنَّما الفراغُ قطعاً مفسدة
لا تصلحُ النَّاسِ فوضى لا سراةَ لهم ولا صلاحَ إذا جهالهُم سادوا
تهدي الأمورَ بأهل الرأي ما صلحتْ فإن تولت فبالأشرار تنقادُ

ولاة الأمور من أعظم واجبات الحياة، فهم قوام الدين والدنيا وعليهم في حركة الأعمال مدار البركة العليا وبدونهم يختل نظام العالم، فلولا ولي الأمر لما قدر العالم على نشر علمه ولا الحاكم على تنفيذ حكمه ولا العابد على عبادته ولا الصانع على صناعته ولا التاجر على تجارته، ولولاهم لانقطعت السبل وتعطلت الثغور وكثرت الفتن والشرور، ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس وطمع بعضهم في بعض واستولى الأقوياء على الضعفاء وتمكن الأشرار من الأخيار فيضطروا إلى التشرد والتفرد، وفي ذلك خراب البلاد وفناء العباد فالملك كالروح والرعية كالجسد، ولا قوام للجسد إلا بروحه.

ونظام العمران محتاج إلى قوانين، إحداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد، وثانيهما القوة المحكومة وهي القوة الإلهية التي لا تسود ولا تنمو إلا بالقوة الحاكمة التي تكون من العلماء العاملين الذين تدربوا وتمرنوا وتعودوا الإصابة في الرأي والإجادة في الحكم والنظر في العواقب والرفق بمخلوقات اللّه تعالى، وحينئذٍ فلا ينبغي أن يكونوا جهلاء، فإن الجهل هو العقبة الكؤود في تقدم الأفراد بل في تقدم الأمم، ولم يوقع الناس في الأزمان الغابرة في العداء والشقاء والتفرق والظلم والاستبداد إلا هو، ولم يلههم عن البحث فيما يقدمهم وعن الخيرات التي لم تخلق إلا ليتمتعوا بها سواه، وقد قيل: (الناس على دين ملوكهم) فإذا كان الملك جاهلاً خائر العزيمة كانت أُمته كذلك، وإن لم يكن الملك عارفاً واجباته دارساً سياسة ملكه، فلا يلبث أن يضيع من يده فيقعد ملوماً محسوراً، وقد قيل: (جهل الرئيس يضل المرؤوس).

واحتياج الملك للعلم ليس بأقل من احتياجه للعدل فإنه أساس الملك وإن لم يكن متوجاً به تألبت عليه الرعية وأسقطته من فوق عرشه وكذا التدبير والحزم، وإلا تداخل أعداؤه في شؤونه وأفسدوا عليه أُموره.

نعم، يجب أن يكون الملك نموذجاً للرعية ومثالاً للكمال والاستقامة من كل وجه حتى ترغب فيه أُمته وترجو له عمراً طويلاً وملكاً كبيراً وتحرسه وتفديه بأرواحها وأموالها.

٢٧٠- وصف نهر النيل وفوائده في مصر

نهر النيل من أعظم أنهار الدنيا طولاً وأعذبها ماءً وأعمها نفعاً وأرواها، يأتي الديار المصرية كل سنة من بلاد السودان والحبشة، فيفيض عليها بدائع الخيرات وأجمل البركات بما يأتي معه من الزبد وطين الطمي وهو مكون من أمطار غزيرة، ولولاه لما عاش في مصر

إنسان ولا حيوان، يزيد عند الحاجة وينقص كالرجل المدبر فيأتي إلى الأرض في اشتداد الحر ويبس الهواء وجفافها فيسقيها ويرطب الهواء.

كأنَّ النيلَ ذو عقلٍ ولبٍّ لما يبدو لخير النَّاسِ منه
فيأتي حين حاجتهم إليـهِ ويمضي حينَ يستغنون عنه

فهو سلطان الأنهار وحياة هذه الديار وروح جثمانها وإنسان عين إحسانها إذ لولا وجوده لما كان لها وجود، ولولا وجوده لما اخضر لها عود.

فـرحَ الأنـامُ بنيلهم إذ صار أحمر كالشقيق
وتبـركـوا بشـروقه فكأنـهُ وادي العقيق

وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا ينقص عنه ولا يطغى على البلاد بالفساد ويأتي من جهة الجنوب إلى الشمال، فيكون فعل الشمس فيه دائماً وتاثيرها على إصلاحه متواصلاً فاكسب أرض مصر الخصب والنماء وأهلها الراحة والهناء حتى صارت منبع الخيرات وأم الثمرات.

٢٧١- وصف يوم ذهبت أنواره وكثرت أمطاره

بينما كان الجو صافياً والغزالة مشرقة بأنوارها مضيئة نهارها إذ اكفهر وجه الأفق واشتدت العواصف في الشوارع والطرق وتوارت الشمس بالحجاب وتلفعت السماء بأذيال السحاب والرعد يزجره ويسوقه بين يديه، فإذا قصر صاح به وزمجر عليه والبرق يلمح ويلمع ويمنح ثم يمنع وقوس الغمام للجو نطاق، لا بل تاج على مفارق الآفاق يزهو بلجينه وعسجده ويفخر بياقوته وزبرجده فلبس ذلك اليوم حلة السواد وتسربل بثوب الحداد عبوس قمطرير كشر عن ناب الزمهرير أرضه مفروشة بالقوارير اللامعة وهواؤه كالزنابير اللاسعة تراكمت فيه السحائب والغيوم وأسبلت الستور على النجوم ووضع عليها أعظم غطاء من الصباح لغاية المساء، وما نشعر إلا وقد اغرورقت مقلة السماء فأرسلت الأمطار أمواجاً والأمواج أفواجاً فسالت به الأودية والصحاصح كما سالت بأعناق المطي الأباطح فبتنا بليل ماطر وأصبحنا بين ماء غامر فلازمنا المنازل ثلاثة أيام بلياليها حتى عادت المياه إلى مجاريها.

٢٧٢- فوائد النار ومضارها

إن أعمال الإنسان متوقفة كل التوقف على النيران التي لولاها لما نضجت أطبخة ولا تركبت أشربة ولا صيغ ذهب ولا فضة ولا نحاس ولا رصاص ولا قصدير، ولا غير ذلك مما يتوقف عليه منافع العباد كالحلي والأواني وآلات الحروب والطبع والغزل والحرث والحصاد والري والتجارة والسفن البخارية والسكك الحديدة، ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة والمعدن نقوداً ولا زينة ولا منفعة.

قال اللّه تعالى: ﴿أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم﴾ [الواقعة: ٦٨-٧١].

كيف لا، والحياة للإنسان بدونها غير ممكنة في الأقطار الباردة كبلاد سيبرية ومعظم بلاد الروسية وأميركا الشمالية فيدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة، ويستضاء بها في غسق الليل ويهتدى بنورها، ولما علم المولى سبحانه وتعالى أن كثرتها ولبثها في العالم مفسدة جعلها اللّه بحكمته محصورة حتى إذا احتيج إليها وجدت واستعملت، وينبغي الاحتراز دائماً منها لأنه يحصل بسببها مصائب عظيمة وأخطار جسيمة (ومعظم النار من مستصغر الشرر).

٢٧٣- رب قول أنفذ من صول

لما كان اللسان آلة للتفاهم بين الناس، كان مصدر كل تأثير سواء كان في الخير أو الشر، ولهذا حذر الحكماء من فضول القائل ونددوا بحصائد الألسنة واستعاذوا من السلاطة والهذر كما استعاذوا من العي والحصر، لأن الصمت والسكوت خير من القول بالجهل والتكلم بالشر، والقول مع العلم والتكلم بالخير هو غاية المنافع القصوى ودرجة المآثر العليا، وعليه حث العلماء والمحققون.

قال الإمام علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه: لا خير في الصمت مع الحكم كما أنه لا خير في القول بالجهل.

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: ترك الحركة غفلة وطول الصمت يفسد اللسان، وقيل: إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره وتبدلت نفسه وفسد حسه وذوقه، وما إخالهم أرادوا بذلك إلا لأن النطق من لوازم العقل بما جعل اللسان مترجماً عن الضمير وضابطاً للفكر ومقيداً للخواطر، وإن شأن المعاني التي تختلج في النفس وتتصل بالفكر أن يتحيزها النطق فيبرزها إلى عالم التفاهم ليؤتي على الغاية المقصودة من اجتماع بني الإنسان، وتحصل الفائدة المودعة في جوهرة هذا اللسان.

كذلك لو قصر الإنسان على التكلم في موضوع من المواضيع دون غيره، أو حظر عليه الكلام إلا في معنى خاص بحيث يحال بينه وبين ما حرم عليه بحجاب كثيف، فتوصد في وجه أبوابه وتتصرم معه أسبابه وتنقطع عنه مواصل الاطلاع من جهة ذلك المعنى، فحكمه بالعلم به حكم من عاش وحده لا يفقه ولا يعي إلا بقدر ما يتاح له من استطلاعه غفلة واستشرافه خلسة مما يسفل عن رتبة العلم وينحط عن درجة المعرفة، بخلاف ذلك تراه في الموضوع الذي منحت له حرية التكلم فيه، وقد اختبر أمره وأكنه سره وقلب بطنه وظهره ووقف على سره ومكنونه ودرى أصوله وفروعه وأحاط بأطرافه بما يتفرغ

له من المفاوضة بشانه واستعمال أداة التفاهم التي تقفه على رأي غيره وتريه منزلة رأيه عندهم بحيث تكون له مرآة عقلية يرى فيها ما لنفسه وما لغيره.

ولا يخفى أن الإنسان إذا أتقن العلم بشيء من الأشياء فحيث كان لهذا الشيء اتصال بعالم التصرف، وكان العلم هاتفاً بالعمل رأيت المرء أحذق في شانه وأعلم بإتيانه، ولو نظرنا في حال الرجال المشاهير بحسن سيرتهم وسداد أعمالهم ونبل أفعالهم لرأينا في كلامهم الخاص من البلاغة والإحاطة والدليل على شدة إمعانهم في أسرار الأمور وتعمقهم في بواطن الأشياء ما يقصر عنه وصف الواصفين وتشهد به أذواق العارفين.

وبديهي أن إتقان العلم باعث على إتقان العمل ما وجدت الهمة وتوفرت العزيمة.

وإذا كان هكذا حكم الفرد من الأشخاص فهو حكم الأمة التي هي بمجموعها على حد الفرد بلا فرق سوى الزيادة في النتيجة، انظر إلى حال الأمم التي أطلقت فيها حرية الخطابة واتسع عندها مجال القول، كيف عم فيها العلم وشاع الفهم وتنورت العقول واستضاءت الألباب بما اتصل بها من المعاني الرفيعة والمواضيع العالية والمقاصد السامية، وما تيسر بذلك من وسائل الإرشاد وطرق التبليغ وأسباب الدعوة، وما انفتح به أبواب الإشارة والاستشارة والمشاركة في ثمرات العقول ونتائج الأفكار، ولا سيما في الأمور العامة والخطوب الطامة حتى شقة الخطبة من الخطب لانها ما يقال عند الأمور العظيمة، وإذا كانت الأمة على هذه الدرجة من سهولة الاطلاع والكشف كانت على غاية من الانتباه والحذر والتيقظ لمصالحها والتبصر بحوائجها والتحفز على درء مضارها بحيث تكون أسبق الامم قدماً إلى منازل العز والمحها بصراً إلى معالي الامور وأسدها تدبيراً فيما تباشره من الاعمال ومن ثم تحرز الغبطة والبسطة والجاه والثروة وتحوز الغلبة على من سواها.

وحسبنا شاهداً في كل زمان الأمم التي اشتهرت بالرئاسة والسيادة والسداد والقوة والجاه والحكمة، منها أمة اليونان في الأمان القديمة بلغت ما بلغت من الشهرة في العلوم والحكم وحسن السياسة وتثقف العقول وأدب الطباع، بما كان فيها من حرية التكلم وتعميم العلم بالخطابة، ولقد كان مشاهيرها أساطين الحكمة وسلاطين الكلام وملوك المقال والمتمكنين من أزمة البيان، ومنها أمة العرب إلى عهد السلام وما بعده بقليل بلغت حد الإعجاز من البلاغة، وتجاوزت طور الامم في البيان، وفي لسانها من التعابير والتراكيب والأمثال الدالة على شدة تسلطها على المعاني وقبضها على المواضيع واحرازها لظواهر الأشياء ما يقضي بالعجب العجاب.

ومن أنعم النظر في خطب عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب مثلاً أو غيرهما من أمراء الجيوش وعمال الاقاليم الذين عاشوا في صدر الإسلام وعلم أن مثل تلك البلاغة الشاهقة والحكمة السامية مما كاد مالوفاً عند أفهام العوام في تلك الأيام، وهي مما يعجز

عنه اليوم مدارك الخواص، تمثلت له حالة البيان في ذلك الزمان ولم يعجب لباهر تدبير هؤلاء الرجال وشدة نفاذهم على الأمور، فإنهم سطوا على الأغراض فاحرزوها وتمكنوا من الحقائق فأبرزوها وذلت لأفهامهم المشاكل وخضعت لأفكارهم المقاصد وانقادت لخواطرهم الشوارد، ومن كان هذا شأنه من الفهم والتفهيم بين أحوال العالم وأُموره، فقد بلغ به العقل الساعدة التامة والحكمة العامة والمنزلة الخاصة دون البشر.

ومن هذا القبيل الشعوب الأوروبية، لهذا العهد أدركوا الغاية القصوى من النجاح وتسنموا المعرفة العليا من الفلاح، وصاروا الأشد طولاً والأوفر حولاً والأغزر مادة والأكثر بضاعة من كل صنف من أصناف المعالي والمراتب والمنافع والمكاسب، وذلك بعد أن اطلقت عندهم الحرية وأجيز القول بكل نوع من أنواع النصحية والتلبية لكل فرد من أفراد الأمة، فعم عندهم مشرب الحب الوطني، وصارت كل أمة منهم بمثابة الشخص الواحد تتطرب بكليتها للمصلحة وتتجه بأجمعها إلى المقصد، ويتم هذا الاتحاد في الراي والعمل حتى تكون الأمة كلها على نبأ من خطبها فتتهيأ لتلقيه بالتي هي أحسن، ولا يكون ذلك إلا باتخاذ المجالس والنوادي والمحافل السياسية ومنابر الخطابة والجرائد والصحف والأجزاء المنشورة، وسائر وسائل اللسان والقلم فترى الأمة إذا أصابها خطب أو دهمتها نازلة من النوازل قامت قائمتها من كل جهة لاسترجاع الحق ودفع الأذى فصعدت الخطباء إلى المنابر وصعدت الكتاب بالجرائد وانبسطت المسألة الواقعة للجميع بما يستعرض الأفكار ويستدرج الآراء ويستوري زناد الروية ويستمطر سحاب القريحة للعمل بالأولى واتخاذ الخطة المثلى، فتندفع المملكة كلها في مداركة الخطب وملاقاة اليأس، ولا يزال العويل قائماً والنفير متلاحقاً وأصداء المحافل متجاوبة بالمناقشة والمحادثة وأوراق المطابع متزاحمة بالمجادلة والمباحثة حتى تتمحص جميع الوسائل والأدوية، وينتهي الأمر باختيار الأنفع وارتضاء الأنجع وأما الرأي العام المعروف فلا سبيل إلى انعقاده إلا هذا الطريق، وهذه الحالة هي الآخذة بطرفي المنفعة المادية والأدبية الماسكة بناصيتي المصلحة العمومية والخصوصية، وذلك فضلاً عن تحري السداد والفوز بالنجاح في انتهاج هذه الطريقة في أُمور المملكة، يصبح كل واحد من الأمة عالماً بالشأن الذي ينبغي له ضليعاً في الأمر الذي عين عليه، وإنه ليقوم الخطيب في القوم مرتجلاً إرتجالاً، فتأتيه المعاني إرسالاً فيأتي على موضوعه كله، لا يدع وجهاً إلا قلبه ولا رأياً إلا كاشف به، ويجيء الكاتب لإنشاء فصل من الفصول، فلا يتناول القلم إلا وقد تداعت عليه المعاني من كل جانب، وكل عندهم يخمد ويضرم وينقص ويبرم إذا اشرأبت إلى رأيه الأعناق وارتاحت إلى رشده النفوس، ولهذا صاروا أبصر الجميع في لوازمهم وأنجحهم في مطالبهم وأنشطهم إلى مصالحهم، فشمروا عن ساق الجدّ وانصلتوا في السير إلى المجد، ونالوا الحظوظ الوافرة وأصبحوا على ما نراهم في حالة تبهر العيون وتملأ الصدور.

وكثير من الشعوب بفساد امرائهم واستبداد رؤسائهم وتحكم ملوكهم وتخونهم لحقوق عامتهم، مما نشأ عنه سوء تربية الأشخاص وتعطل أخلاقهم وانقلاب فطرهم وانعكاس خلقهم قد حرموا منفعة الخطبة والتكلم في الأمور العامة مما ينوّر عقولهم من جهة ويسدد اعما دولهم من جهة أخرى، فهم لا ينشطون لمقال ولا ينشطون من عقال، وذلك انه جرت العادة عند الملوك القدماء المستبدين أنهم متى فسدت طباعهم وأرخوا العنان لأهوائهم، فجروا في الاغتصاب والانتهاب كل مجرى، وذهبوا في الحيف والجور كل مذهب لم يطيقوا سماع مندد بأهوائهم معدد لأسوائهم ذاكراً لقبح صنيعهم تعجرفاً وكبراً منهم عن ان ينظروا قبائحهم بأعينهم أو ضعفاً عن إصلاح سيرتهم، فضربوا بين رعيتهم وبين الحرية ستاراً، حتى إذا حولوا الأبصار عن النظر في أعمالهم وصرفوا الخواطر عن التأمل في حركاتهم انطلق بهم جماح الشهوة إلى حيث شاؤوا بلا معارض ولا منازع، واعتنوا بتضيين الواسع على رعاياهم ليتمادوا في الغباوة ويرتكسوا في الضلالة ويسقطوا في الظلمات فيستضيمون حقوقهم ويتحكمون في أعناقهم وأرزاقهم وهم صاغرون، ولهذا أخلوا دولهم من المجالس الشورية الدستورية، وانحصرت الأمور العمومية التي عودتها على ألوف الألوف بل الملايين من البشر في رأس شخص واحد أو اثنين ليس لغيرهما حق في أن العلم ما هو مصيره وأمته، ولا أن يبحث في شأن من الشؤون العامة أصلاً فترى الأهالي وقد كبحتهم حكمة القهر عن التكلم في مصالح المملكة وغمست منهم الأخبار السياسية، وطويت المسائل المهمة في أدراج السكوت في أسوأ حالة من الجهل بأمورهم والغفلة عن مصالحهم وقلة الاستعداد درء الملمات وإزاحة الكروب، والقصور عن الجد في منفعة وطنية بما غلّ أيديهم من سلاسل الاستعباد وارتفع على أعناقهم من نير الاستبداد، ولما صار إلى هذه الدرجة جهلهم بأنفسهم بما حجب عنهم من العلم، واطيل من ذلك الحجاب سكنت هممهم وماتت نفوسهم.

٢٧٤- هب أنك وليت الملك فبماذا تعامل أمتك لتكون محبوباً عندهم

إي والله اكون الملك العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف، واكون كالراعي الشفيق على إبله الرفيق الذي يرتاد لها اطيب المرعى ويذودها عن مراتع المهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من اذى الحر والبرد وكالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها تفرح بعافيته وتغتم بشكايته وكالأب الحاني يسعى لأولاده صغاراً ويعلمهم كباراً يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته.

وما المرءُ إلا ذكرهُ وفعاله　　　وكلٌّ مقامٍ غيرهنَّ حقيرُ

أيرضى الوالد الرحيم ان يأكل ويشرب أطيب المأكول والمشروب ويلبس الكسي الفاخرة وأولاده يقتنعون من دهرهم بالخسيس من المطعم والملبس. أيرضى أن ينام على فرش وثير وأبناؤه يتوسدون الثرى.

ولـذةُ سـاعةٍ ذهبتْ وولَّـتْ وأبقتْ بعـدَها حسـراتِ دهـرِ

وأكون موجهاً نظري في عمارة الأرض قبل توجيه نظري إلى استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل (فالعدل أساس الملك) ومن طلب الخراج بغير عمارة أخر البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً.

فما ابنُ آدم إلا ذكـر صالحـةٍ أو ذكر سيئةٍ يسري بهـا القلمُ

فالملك الذي يسلب أموال رعيته ويثقل كهالها بالضرائب، مثله كمثل من يأخذ الطين من أُصول حيطان بيته فيطين به سطوحه فيوشك أن يقع عليه البيت.

وليسَ يعينُ الظالمينَ بظلمهمْ سـوى أدنياء تستلذُّ المثالبا
فهم مثل كلب الصَّيدِ يتبع ربَّهُ ليلتذَّ لا نفعاً جنى بـل متاعبا
ومن آثر الدنيا على حسن سمعة وذكر له يبقى ويبقي المناقبا
فذاك كمنْ عافَ النَّعيمَ مخلداً بلذَّات دنـيا برقُها كـان خالبا

وإني أخاف الله تعالى فلا أسلك بأمتي سبيل الظالمين ولا أسلط المستكبرين على المستضعفين ولا أنظر إلى قدرتي الدنيوية، ولكن أنظر إلى قدرتي الأخروية وأنا مأسور في حبائل الموت وموقوف بين يدي ملك الملوك الأعلى سبحانه وتعالى.

غداً توفى النُّفوسُ ما كسبتْ ويحصدُ الزارعونَ ما زرَعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهـم وإن أساؤوا فبئسَ ما صنعوا

وأكون موجهاً نظري إلى نشر العلوم والمعارف في أنحاء المملكة، فقد قال فيكتور هوجو: (علموا الجهال ما استطعتم، فإن أعظم جرائر الحاكمين انهم لا يجعلون التعليم مجاناً، والجهل ظلمة وإن تبعة الذنوب التي تجري في هذه الظلمة عائدة عليهم، وليس المجرم من يقترف الذنب، بل المجرم من ينشر الظلمة على الأرض).

ولا أسلب أُمتي الاستقلال والحرية فإنه لا سعادة إلا بالحرية ولا معنى لحياة العبودية، فالحرية فطرة طبيعية مغروزة في قلب كل حي.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «أتريدون أن تستعبدوا الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً؟».

فعليَّ عهد الله وميثاقه أن أواصل الليل بالنهار في إصلاح شؤون أُمتي ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس الكتاب